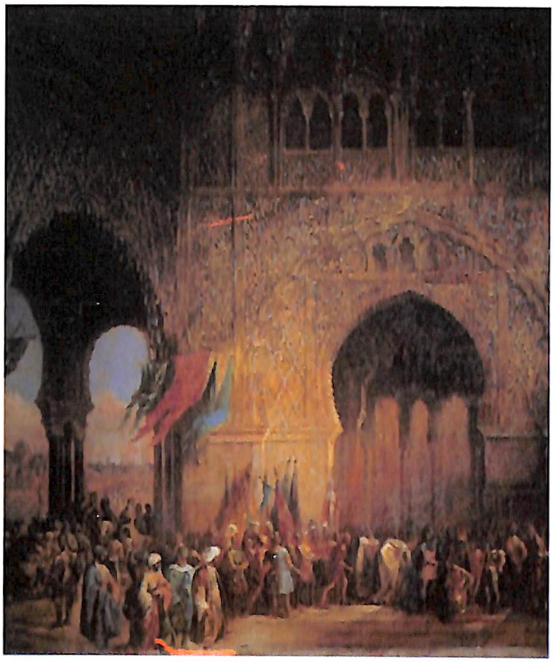
الطبعة الرابعة

د. محمد رزوق

الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب

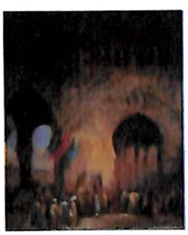


خلال القرنين 16 - 17

أفريقيا الشرق

الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب

ظل اهتمام الباحثين العرب لفترة طويلة موجها بشكل مكثف إلى دراسة تاريخ الأندلسيين خلال قيام دولة الإسلام بالأندلس نتيجة توفرهم على عدد من المصادر الأندلسية المتعلقة بتلك الفترة، في حين اتجه عدد كبير من الباحثين الأوربيين إلى دراسة تاريخ الموركسيين باسبانيا بعد سقوط غرناطة، فدرسوا تاريخهم من خلال وثائق محاكم التفتيش، ومن خلال ارشيفات المناطق التي استقروا فيها باسبانيا. وكذا من خلال المصادر المعاصرة، واعتبروا موضوع الموركسيين موضوعا أوربيا مسيحيا قبل أن يكون موضوعا إسلاميا، وكان من نتيجة ذلك أن تنوعت الدراسات الموركسية (الأوربية) إلى درجة أصبحنا نجد معها تخصصات جزئية داخل التخصص العام. وفي الجانب المقابل نجد أن الباحث العربي - في أغلب الحالات - لا تسمو المواضيع التي يتطرق إليها عن الإثارة العاطفية على اعتبار أنها «مأساة» لحقت بالتاريخ العربي الإسلامي دون دراسة أبعاد هذه المأساة حضاريا وسياسيا، سواء على صعيد المجتمع الاسباني نفسه، أو على صعيد المناطق التي استقر بها الموركسيون، خاصة منطقة المغرب العربي. وهذه الدراسة التي تقوم بها اليوم مساهمة متواضعة لإبراز الحياة التعسة التي عاشها الأندلسيون في بلادهم بعد نهاية دولة الاسلام بها، وجعلتهم يهاجرون أفواجا أفواجا إلى هذه العدوة المغربية، ولإثارة الانتباه إلى نقط معينة تساعد، متى تمت دراستها، على أخذ صورة متكاملة للوجود الأندلسي بالمغرب الأقصى أولا، وبباقي أقطار المغرب العربي ثانيا.



Peinture de
J. Pérez Villaamil,
(1807 - 1854).

ISBN 9981-25-952-2

الأندلسيون وهجراتهم
إلى المغرب
خلال القرنين 16 - 17

المؤلف : د. محمد رزوق
عنوان الكتاب :

الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب

خلال القرنين 16 - 17

رقم الإيداع القانوني : 2013 MO 3280
ردمك : 978-9981-25-952-2
أفريقيا الشرق - المغرب
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
• المطبعة : الهاتف : 04 95 25 0522 / 0522259813
الفاكس : 20 29 25 0522
• النشر والتصفيف : 39، زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء.
الهاتف : 53 67 29 0522 / 54 67 29 0522
الفاكس : 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني : E.mail : africorient@yahoo.fr

د. محمد رزوق

الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب

خلال القرنين 16 - 17

أفريقيا الشرق

نوقش هذا البحث يوم 14 يوليوز 1987 بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

ونال صاحبه دكتوراة الدولة في التاريخ بميزة حسن جدا.

شكر وتقدير

أتقدم بكامل الشكر إلى أستاذي الدكتور محمد حجي الذي أشرف على هذا العمل، وكذا إلى الأستاذ محمد المنوني على توجيهاته. كما لا يفوتني هنا أن أثير الانتباه إلي المساعدة القيمة التي تبقيتها من عدد من الأساتذة العرب والأوربيين. فبالنسبة للاساتذة العرب أخص بالذكر منهم: الدكتور عبد الجليل التميمي (الجامعة التونسية)، والدكتور موسى لقبال والدكتور ناصر الدين السعيدوني (الجامعة الجزائرية)، والدكتور محمد عبده حتامله (الجامعة الاردنية).

أما بالنسبة للأساتذة الأوربيين فإني أذكر منهم على الخصوص أساتذة المدرسة المورسكية الاسبانية: ميكيل دي ايبالزا M. de Epalza (جامعة الكانت)، وميرسيدس كارسيا ارينال M. G. Arenal (معهد ميكيل اسين بمدريد)، وخوليو فيرناندريز نييفا J.F. Nieva (جامعة بادخوس)، وكيرمو كوزالبيس بوسطو. G.G. Busto.

كما أتوجه بالشكر كذلك إلى أساتذة المدرسة المورسكية الفرنسية لو كارداياك L. Cardiallac (جامعة مونبليي)، وجان بيير دوديو J. P. Dedieu، وبرنار فانسان B. Vincent. وكذا إلى الباحثة الايطالية سارليني سيركا C.S . Cerqua على مساعدتها القيّمة.

رمــوز

1 - المكتبات :

خ. ع : الخزانة العامة بالرباط.
خ. ح : الخزانة الحسنية بالرباط.

Archivo Historico Nacional (MADRID) : A. H. N.

2 - Ecyclopedie:

Encyclopédie de l'Islam : E. I

Sources Inédites de l'Histoire du MAROC : S. I. H. M

3 - Revues:

Annales, Economie; Sociétés. Civilisation. PARIS : Annales E. S. C.

Caudernos de la bibliotca Espanole de TETUAN : C. B. E. T.

Hespéris : H.

Hespéris- Tamuda : H. T.

Miscelanea de Estudios Arabes y Hebraicos, Granada : M. E. A.H.

Revue d'Histoire Maghrébine, TUNIS : R. H. M.

Mélanges de la casa de velazquez : M. C. V

1
مقدمة

ظل اهتمام الباحثين العرب لفترة طويلة موجها بشكل مكثف إلى دراسة تاريخ الأندلسيين خلال قيام دولة الإسلام بالأندلس نتيجة توفرهم على عدد من المصادر الأندلسية المتعلقة بتلك الفترة[1]، في حين اتجه عدد كبير من الباحثين الأوربيين إلى دراسة تاريخ الموركسيين باسبانيا بعد سقوط غرناطة، فدرسوا تاريخهم من خلال وثائق محاكم التفتيش، ومن خلال ارشيفات المناطق التي استقروا فيها باسبانيا. وكذا من خلال المصادر المعاصرة[2]، واعتبروا موضوع الموركسيين موضوعا أوربيا مسيحيا قبل أن يكون موضوعا إسلاميا، وكان من نتيجة ذلك أن تنوعت الدراسات الموركسية (الأوربية) إلى درجة أصبحنا نجد معها تخصصات جزئية داخل التخصص العام[3].

وفي الجانب المقابل نجد أن الباحث العربي - في أغلب الحالات - لا تسمو المواضيع التي يتطرق إليها عن الإثارة العاطفية على اعتبار أنها «مأساة» لحقت بالتاريخ العربي الإسلامي دون دراسة أبعاد هذه المأساة حضاريا وسياسيا، سواء على صعيد المجتمع الاسباني نفسه، أو على صعيد المناطق التي استقر بها الموركسيون، خاصة منطقة

---

1 - نستثني هنا بعض الدراسات التي بدأت تظهر في السنوات الأخيرة ولكنها قليلة جدا إذا ما قورنت بالدراسات الأخرى التي كتبت لفترة ما قبل سقوط غرناطة.
انظر فهرس المصادر والمراجع في آخر هذه الدراسة.

2 - أحصت الباحثة مارتيني ريفيار M. Ravillard أكثر من 2000 عنوانا (مصادر ودراسات)، انظر أطروحتها:
Bibliographie commentée des Morisques, Université d'ALGER, 1979.

3 - يمكن أن نتعرف على هذا بوضوح من خلال أعمال المؤتمر العالمي الأول للدراسات الموركسية المنعقدة بمونوبولي (يوليوز 1981).
Les morisques et leurs temps, PARIS 1983.
وكذا من خلال أعمال المؤتمر الثاني المنعقد بتونس (شتنبر 1983).
Religion, identité et sources documentaires sur les Morisques Andalous, TUNIS 1984, 2 tomes.

المغرب العربي[4]. وهذه الدراسة التي تقوم بها اليوم مساهمة متواضعة لإبراز الحياة التعسة التي عاشها الأندلسيون في بلادهم بعد نهاية دولة الاسلام بها، وجعلتهم يهاجرون أفواجا أفواجا إلى هذه العدوة المغربية، ولإثارة الانتباه إلى نقط معينة تساعد، متى تمت دراستها، على أخذ صورة متكاملة للوجود الأندلسي بالمغرب الأقصى أولا، وبباقي أقطار المغرب العربي ثانيا.

---

4 – نسجل هنا فروقا يتعلق بالدراسات المجزءة ببلدان المغرب العربي، ففي تونس – مثلا – نلاحظ أن الدراسات بدأت تعرف في السنوات الأخيرة نشاطا ملحوظا فيما يتعلق بالاهتمام بالمورسكيين بتونس انظر مثلا :

M. de Epalaza et R. Petit, Eudes sur les moriscos Andalous en TUNISIE.
M. de Epalaza et autres, bibliographie tunisienne concernant l'Histoire de l'Espagne.
S. Zbiss et autres, Etudes sur les Morisques Andalous.

أما بالنسبة للجزائر فما تزال الأبحاث في بدايتها.

أنظر مثلا : M. de Epalaza bibliographie Algérienne concernant l'Histoire de l'Espagne.
M. de Epalaza et autres, bibliographie tunisienne concernant l'Histoire de l'Espagne.
M. Boughami et autres Recherches sur les Moriscos andalous au Maghreb (Bilan et perspectives) in R.H.M., janvier, 1979, n° 13 - 14, pp. 21- 26.

2

المصادر

اعتمدت هذه الدراسة على مصادر متنوعة، منها العربية (أندلسية ومغربية)، ومنها الأجنبية (اسبانيا وفرنسية وانجليزية).

أ - مصادر أندلسية

— نبذة العصر، في أخبار: ملوك بني نصر[5]

ركز المؤلف المجهول في كتابه هذا على الأحداث التي أدت إلى سقوط غرناطة، وقد كان معاصرا لها. ويتميز بوصف مراحل نزوح الأندلسيين إلى المغرب والأوضاع التي وجدوه عليها، مما اضطر العديد منهم إلى الرجوع إلى الأندلس، والشروط التي أصبح الاسبان يفرضونها على الأندلسيين العائدين. كما يتميز كذلك بتعرضه للأماكن التي انتقل إليها الأندلسيون، فأهل مالقة - مثلا - خرجوا إلى جزيرة بادس، وأهل الجزيرة الخضراء إلى طنجة وأهل رندة وبسطه إلى تطوان وهكذا...

- الأنوار النبوية في آباء خير البرية[6]

ألف محمد بن عبد الرفيع هذا الكتاب عام 1044هـ / 1635، مشتملا على ثمانية فصول، وذيلة بخاتمه (ص 319 / 363) تعرض فيها للظروف التي كان يعيشها المورسكيون باسبانيا، انطلاقا من تجربته الخاصة، كما تعرض إلى الظروف التي أصبح

---

5 - طبع بالعرائش سنة 1940 بتحقيق الفريد البستاني، ومنه مخطوطة خ.ع. بالرباط عدد 1177ك، ضمن مجموع.

6 - مخطوطة خ. ع. بالرباط عدد 1238ك.

وقد نشر عبد المجيد التركي مقدمة هذا الكتاب وخاتمته بمجلة جوليات الجامعة التونسية، العدد الرابع، سنة 1967، ضمن مقاله: وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس ص 25- ص 63.

يعيشها هؤلاءبفرنسا بعد ابعادهم، وكذا دور العثمانيين في انقاذهم، وتعرض في الأخير إلى وضعيتهم بتونس بصفة خاصة.

- العز والمنافع، للمجاهدين بالمدافع[7]

ألف ابراهيم غانم هذا الكتاب أصلا باللغة الاسبانية بتونس سنة 1632 وهو في فن المدفعية، وقام بتعريبه أحمد بن قاسم الحجري سنة 1638. ويتكون الكتاب من مقدمة، وخمسين بابا، وخاتمة.

يعطي المؤلف في المقدمةمعلومات عن حياته باسبانيا وأسفاره البحرية بين اسبانيا وأمريكا، ومخالطته أثناء هذه الأسفار للمدفعيين الاسبان، ثم يذكر بعد ذلك خروجه من اسبانيا واستقراره بتونس، وممارسته للجهاد البحري هناك، وينتقل بعد ذلك إلى استعراض ما يتعلق بفن المدفعية في خمسين بابا.

وقد وضع المعرّب خاتمه (ص245 - ص255) تعرض فيها إلى الظروف التي كان يعيش فيهاالمورسكيون باسبانيا انطلاقا من تجربته الخاصة، وتمكنه من الهجرة إلى المغرب، وكذا إلى استقراره بمراكش، واشتغاله بالترجمة لدى السلطان زيدان وابنيه بعد ذلك، وإلى سفارته إلى كل من فرنسا وهولندا.

— ناصر الدين، على القوم الكافرين[8]

كتب أحمد بن قاسم الحجري مؤلفه هذا بالقاهرة عام 1047 هـ / 1637 بطلب من شيخ المالكية بمصر على الأجهوري وهو مختصر لكتابه: رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب[9].

---

7 - نسخة متعددة بالمغرب والجزائر وفيينا ودار الكتب المصرية بالقاهرة. انظر جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، 339 : 3، وأهم نسخة هي نسخة خ.ع بالرباط عدد 87 ج، فهي فيما يظهر، مكتوبة تحت إشراف المعرب نفسه الذي يوجد خطه في هوامشها بالالحاق والتصحيح، وهي تنفرد أيضا بالخاتمة المكتوبة بقلم المغرب نفسه وسوف نعتمد هذه النسخة.

ونشير إلى أن عبد المجيد التركي سبق له أن نشر في مقاله السالف الذكر مقدمة المخطوط اعتماد على نسخة المكتبة القومية بتونس عدد 1407، (ص 67 - 64) وهي خالية من الخاتمة كما ذكرنا ذلك سابقا.

8 - مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة عدد 1634ت، وهو بخط المؤلف، كتبه بتونس عام 1051هـ/ 1641. وقد قمنا بتحقيقه (1987).

9 - تعتبر هذه الرحلة اليوم مفقودة.

انظر وصفا لها في مقدمة كتاب ناصر الدين.

ويقع هذا المختصر في ثلاثة عشر بابا، تعرض خلالها إلى ظروف المورسكيين باسبانيا، وما كانو يعانونه من خلال تجربته الشخصية، وإلى قرار الطرد وأسبابه، وكذا إلى تمكنه من الوصول إلى مدينة مراكش زمن المنصور، واشتغاله بالترجمة لدى ابنه زيدان، وإلى سفارته إلى كل من فرنسا وهولندا ومصر، بل وبالمغرب نفسه.

ب - مصادر مغربية

- أسني المتاجر، في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر[10]:

كتب أحمد الونشريسي هذه الفتوى عام 890 / 1484، أي قبل سقوط غرناطة بوقت قليل، وهي في شأن أندلسيين هاجروا إلى المغرب، لكن أوضاعه لم ترقهم، فعبروا عن رغبتهم في الرجوع إلى وطنهم الأصلي

وقد حرر الونشريسي فتوى ثانية سنة 901 هـ / 1495 [11]، أي بعد سقوط غرناطة بوقت قصير، في شأن أندلسي أراد البقاء هناك، ليتكلم باسم الأندلسيين المسلمين لدى السلطات الاسبانية.

ويمكن أن نقارن فتوى الونشريسي مع فتوى أخرى لأحمد بن بوجمعة المغراوي في نفس الشأن سنة 910 هـ / 1495[12]

- مناهل الصفا

تعرض عبد العزيز الفشتالي إلى ما قام به أحمد المنصور الذهبي في حق قواد الأندلس بعد انتهاء معركة وادي المخازن، وكانت مناسبة استعرض فيها حياة هؤلاء بالأندلس، وانتقالهم إلى المغرب واتصالهم بسلاطينه انطلاقا من عبد الله الغالب[13].

كما نلاحظ بالمناهل اصرار المنصور على تقوية أسطوله، لتقديم كافة المساعدات للأندلسيين لمواجهة الاسبان.

---

10 - نشر حسين مونس هذه الفتوى عن مخطوط الاسكوريال رقم 1758 (ورقة 95 - 83)، بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الخامس،1957، العدد 21، ص 191 - 129 وهي توجد بالمعيار،133 - 119: 2.

12 - نسخها متعددة، انظرها عند

Laila Sabbagh, la religion des morisques, in *les Morisques et leur temps*, p.49.

وسوف نعتمد النص الذي نشره محمد عبد الله عنان في كتابه نهاية الأندلس ص، 344 - 342.

13 - مناهل، ص 22 - 19.

- **رسائل سعدية**[14]

نجد في هذه الرسائل عزم المنصور على تقوية أسطوله لتقديم المساعدات للأندلسيين داخل المغرب، وبالأندلس نفسها. كما يفهم من هذه الرسائل وجود عدة اقتراحات انجليزية بشأن استخدام الأندلسيين الموجودين بالمغرب إلى جانب الانجليز في حربهم ضد الاسبان، ورفض المنصور لهذا الاقتراح مخافة أن ينتهزها الاسبان فرصة للانقباض عليهم لأنهم قلة لا يكفون لمثل هذا العمل، وبالمقابل وعد بالاستعداد الكامل لإعلان الجهاد لغزو الاسبان في عقر دارهم (ص 195 وما بعدها).

- **تاريخ الدولة السعدية**

تعرض المؤلف المجهول إلى علاقة عبد الله الغالب بالأندلسيين إبان ثورتهم بغرناطة سنة 1568، وعلاقته مع الاسبان في هذا الشأن، وكذا تفاهمه معهم حول تهجيرهم إلى المغرب (ص 37 - 39). كما تحدث عن اشتراك عدد من الأندلسيين إلى جانب زيدان في صراعه مع أخيه محمد الشيخ المامون (ص 93)، وإلى علاقة هذا الأخير بالأندلسيين باسبانيا، واقتراحهم القيام بثورة بمساعدته (ص 96).

- **الجواهر المختارة، فيما وقفت عليه من النوازل بجبال اغمارة**

جمع عبد العزيز الزياتي عدة فتاوي تتعلق بموضوع الأندلسيين في باب نوازل الجهاد (ص 229 - 274)، منها فتوى لمحمد العربي الفاسي في شأن النزاع الحاصل بين الأندلسيين في القصبة والرباط (ص 236 وما بعدها)، وفتوى أخرى لأبي مهدي عيسى بن عبد الرحمن السكتاني، قاضي الجماعة بمراكش، حول النزاع بين الأندلسيين بالرباط والمجاهد العياشي (ص 241 - 242).

- **نزهة الحادي، باخبار ملوك القرن الحادي**

أورد محمد الأفراني عدة إشارات تخص نوعية العلاقة التي كانت قائمة بين الأندلسيين والعياشي، إذ تعرض أولا إلى الأسباب التي أدت إلى توتر هذه

---

14 - نشر عبد الله كنون هذه الرسائل بتطوان سنة 1954، غير أن هناك مخطوطات متعددة لهذه الرسائل فيها كثر من الزيادات عن المنشورة.
وقد اعتمدنا على أحدها وهي نسخة خ. ع. بالرباط عدد 278 ك.

العلاقة بين الطرفين، وإلى تمكن العياشي من الحصول على فتوى للامام عبد الواحد بن عاشر في شأن مقاتلتهم، وكذا إلى استنجاد الأندلسيين بالدلائيين (ص 264، 267، 270).

وتورد كتب التراجم عددا من الشخصيات الأندلسية التي لعبت أدوارا مختلفة في الميادين العلمية والاجتماعية.

نذكر من بين هذه الكتب : دوحة الناشر، ودرة الحجال، ومرآة المحاسن، وممتع الأسماع، وصفوة من انتشر، ونشر المثاني... غير أن هناك مصدرين يتميزان من بينهما جميعا :

- نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب (510 - 553 : 4)

ألف أحمد المقري هذا الكتاب سنة 1038 هـ / 1629 للتعريف بأديب الأندلس الكبير لسان الدين بن الخطيب، فكانت بذلك مناسبة ليعرض لبعض فصول التاريخ الأندلسي فقد تعرض إلى سقوط غرناطة، وإلى انتقال الأمير أبي عبد الله إلى المغرب مع أهله واستيطانه مدينة فاس، وإلى وضعيتهم هناك بالمدينة الادريسية. كما أورد رسالة الأمير الغرناطي إلى الشيخ الوطاسي المسماة : «الروض العاطر الأنفاس، في التوسل إلى المولى الامام سلطان فاس». وتعرض في الأخير إلى الثورات المتلاحقة التي عرفتها غرناطة بعد سقوطها إلى أن صدر قرار الطرد سنة 1017هـ، وخروج الأندلسيين إلى فاس وتطوان وسلا، وإلى استخدامهم من طرف السلطان زيدان في الجيش، وكذا إلى جهادهم البحري، ونشاطهم العمراني.

- رياض الورد، إلى من انتمى إليه هذا الجوهر الفرد[15]

- ألف محمد الطالب بن الحاج (ت 1273 / 1857) هذا الكتاب للتعريف بأبيه وأسرته، ورتبه على خمسة أبواب، وقد خص الباب الرابع منها بالحديث عن انتقال أسلافه من الأندلس إلى المغرب، وكانت مناسبة استعرض فيها ما عاناه الأندلسيون قبل سقوط غرناطة وبعده، وإلى الأدوار التي لعبها أفراد هذه الأسرة بالمغرب.

---

15 - مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 2313ك.

كما ترد بكتب الرحلات العديد من الاشارات التي تهم موضوع الأندلسيين بالمغرب مثل :

– **وصف افريقيا (الجزء الأول)**

ألف الحسن بن محمد الوزان كتابه هذا سنة 933 هـ / 1526، وقد أورد فيه عدة أشارات إلى الجالية الأندلسية بالمغرب، إذ وصف – مثلا – ما يقوم به مجاهدو تطوان، خاصة أنه زار المنطقة في عهد حفيد أبي الحسن المنظري، كما أشار من جهة أخرى عدد من الأندلسيين الذين كانو يشتغلون بالتجارة ومختلف الحرف، بل أن بعضهم كان يساهم في ميدان سنع الأسلحة، خاصة المدافع .

– **رحلة الوزير، في افتكاك الأسير**[16] .

قام محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي بهذه الرحلة إلى اسبانيا بأمر من السلطان المولى اسماعيل موفدا إلى الملك كرلوص الثاني عام 1102 هـ / 1690. وقد سجل فيها ارتساماته حول بقايا الأندلسيين هناك وتعرض إلى المناصب التي كانو يحتلونها، وإلى ترحيلهم بالمسلمين ورغبتهم فيالتعرف على الاسلام، كما لم يفته أن يسجل الخراب الذي أصاب بعض المناطق التي كان يستقر بها الأندلسيون قبل طردهم. وأشار في الأخير إلى الأسباب التي أدت بفليب الثالث إلى طرد الأندلسيين من اسبانيا، وإلى الدور الذي ما تزال محاكم التفتيش تقوم به خاصة ضد اليهود.

وقد خصص بعض المغاربة تواريخ لمدنهم للتعريف بها، ويهمنا هنا بالخصوص المدن التي استقرت بها جاليات أندلسية مهمة، إذ يستعرضون تاريخ الجالية الأندلسية بالمدينة، والآثار الحضارية التي تركتها بها وكذا المناصب التي كانت تتقلدها[17] .

---

16 – طبعت هذه الرحلة بالعرائش سنة 1940، بتحقيق الفريد البستاني غير أن هناك فقرات طويلة سقطت من النص المطبوع . وقد رجعنا إلى نسخة خ . ح . بالرباط عدد 11329 لأنها أكمل.

17 – نذكر هنا على الخصوص بالنسبة لمدينة الرباط : تاريخ الضعيف، ومقدمة الفتح، والاغتباط لمحمد بوجندار، ومجالس الانسباط لمحمد دينه، وسوق المهر لمحمد السائح، وتاريخ رباط الفتح لعبد الله السويسي.

ويذكر بالنسيج لفاس: جذوة الاقتباس لأحمد بن القاضي، وبيوتات فاس الصغرى لعبد الرحمان الفاسي، وزهرة الآس لعبد الكبير هاشم الكتاني، وسلوة الأنفاس لمحمد الكتاني، وإزالة الالتباس لعبد السلام بن سودة. وبالنسبة لتطوان نذكر عمدة الراوين لأحمد الرهوني، وتاريخ تطوان لمحمد داود.

وترد بالحوالات الحبسية أحيانا أسماء عدد من العائلات الأندلسية التي لا نجد لها ذكرا في كتب التراجم المعروفة، كما ترد بها عدد من المؤسسات الدينية والاجتماعية التي تحمل أسماء أندلسية [18].

ج - مصادر اسبانية

لم تول المصادر الاسبانية عنايتها بالمورسكيين خارج اسبانيا، فبقدر ما توسعت في استعراض ظروفهم داخل اسبانيا إلى حين خروجهم منها، بقدر ما نجدها تهمل الحديث عنهم تماما وهم خارج اسبانيا أو تشير إليهم إشارات عابرة. ونستثني من هذا بطبيعة الحال - المصادر التي ألفت للتعريف أساسا بمنطقة من مناطق شمال افريقيا مثل هايدوHaedo[19] بالنسبة للجزائر، إذ أشار إلى دور الأندلسيين الجهادي بالمنطقة. ومارمول كربخال بالنسبة للمغرب، إذ أشار في كتابه افريقيا (الجزء الثاني) إلى الأندلسيين في الجيش السعدي في عهد عبد الله الغالب. كما تعرض لذكرهم في عدد من المدن، فبالنسبة لفاس ذكر أن عددا من هؤلاء كانوا يمارسون تجارة الأثواب، وقارن بين لباس المرأة في مدينة فاس ولباس المرأة بغرناطة، كما أشار إلى دور هؤلاء في إضفاء الطابع المعماري الأندلسي على المدينة، وكذا إلى مساهمتهم وفي تقنيات الري.

وبالنسبة لتطوان: أشار إلى قدوم الأندلسيين إلى المدينة، وما كانوا يقومون به من عمليات جهادية على السواحل الاسبانية وإلى عدد الأسرى الضخم الذي كان لدى هؤلاء.

وبالنسبة لمراكش: أشار إلى استقرار عدد من أفراد الجالية الأندلسية بها في عهد عبد الله الغالب بعد توزيع الأراضي عليهم.

- مراسلات مدينا سدونيا Medina Sidonia مع فليب الرابع بشأن أندلسي قصبة الرباط[20].

---

18 - بالنسبة للرباط نذكر الحوالات الحبسية الآتية : مخطوخ . ع . بالرباط عدد 41 وميكرو فيلم نفس الخزانة عدد 153.
وبالنسبة لسلا : مخطوط خ . ح بالرباط عدد 593، وميكرو فيلم خ . ع . بالرباط عدد 152.
وبالنسبة لفاس : مخطوطات خ . ع . بالرباط . (على الميكروفيلم) إعداد 135، 114، 113.

19 - Topografia et historia general de Argel

20 - توجد هذه المراسلات ب : Archivos del Palacio ducal en Sanlùcar de Barrameda (Cadiz).
ويوجد الباقي : بارشيف سيمنكاس.
وقد نشرها كيرمو كوزاليس بوسطو G. G. Busto كملاحق لكتابه :
La repuplica andaluza de Rabat... pp. 355 . 463

تضم هذه المراسلات 36 وثيقة تهم بالخصوص الفترة المتراوحة بين 1631 و1641، وهي حاسمة بالنسبة لأندلسي القصبة، إذ دخلوا في علاقات خاصة سواء مع القوى السياسية الداخلية أو مع الدول الأوربية، فعلى المستوى الداخلي تلقى مزيدا من الضوء على علاقة الأندلسيين بالعياشي والسعديين، وعلى المستوى الخارجي تعرض بوضوح لعلاقة هؤلاء بالاسبان، والدور الذي كان الأندلسيون ينتظرونه منهم.

د - مصادر فرنسية

وثائق حول انتقال الموركسيين من فرنسا إلى شمال افريقيا[21].

تتعلق هذه الوثائق بالخصوص بظروف استقرار الموركسيين بفرنسا، والقرارات الصادرة في حقهم من طرف حكام المناطق الفرنسية التي كان يستقرون بها، وظروف انتقال هؤلاء إلى شمال افريقيا، وكذا تتبع المحاكم الفرنسية لما وقع للموركسيين - أثناء هذا الانتقال - من سلب ونهب، واصدارهاأحكامها في ذلك.

Histoire de la barbarie et ses Corsaires

خصص الأب دان Dan قسما من كتابه هذا للحديث عن الجهاد البحري بالرباط والقصبة (ص208 ـ 226)، فتحدث أولا عن ميناء المدينة، وسفنه، وعن قادة القصبة، وتنظيمهم وانتقل بعد ذلك للحديث عن جهادهم والاتفاقيات التي عقدوها مع الدول الأوربية، وكذا عن أسرهم كما خصص قسما اخر للحديث عن مجاهدي تطوان (ص 269 - 272).

هـ- المصادر الغير المنشورة لتاريخ المغرب[22]

توجد بها وثائق متعددة تتعلق بالخصوص بقضيتين أساسيتين : الجهاد البحري، والأسري. كما توجد بها عدة تقارير كان يبعث بها بعض الأوربيين المقيمين بالمغرب عن وضعية الأندلسيين، وامكانية استغلالهم لصالح هذا الطرف أو ذاك.

---

21 - توجد هذه الوثائق بالارشيفات البلدية للمدن التالية : بيزيBesiers ولونيل،lunel، وتولوز، وأكد، Agde.ومونبوليي Montpellier، وكذا بارشيفات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس، وقد نشرها لوي كردياك كملاحق لرسالته، انظر :

Le passage des Morisques en languedoc, thèse inédite, Montpellier, 1970, pp. 89. 187:

22 - السلسلة الأولى : انجلترا، الأراضي المنخفضة فرنسا.

3
الدراسات

- دراسات مغربية

هناك عدة دراسات مغربية وأوربية تناولت موضوع الأندلسيين بالمغرب. فبالنسبة للدراسات المغربية نشير أولا إلى وجود دراسات اهتمت بهم في إطار الحديث عن القضايا التي تناولتها. فقد تحدث محمد حجي - مثلا + عنهم في اطار علاقتهم بالدلائيين[23].

كما تناول عبد اللطيف الشاذلي موضوعهم من خلال علاقتهم مع العياشي[24].

وهناك نوع آخر من الدراسات في شكل مقالات تناولت جانبا من الجوانب التي تهم قضية الأندلسيين بالمغرب، مثل :

- البحرية المغربية والقرصنة[25]

خصص عبد العزيز بن عبد الله قسما من مقاله هذا للحديث عن مجاهدي سلا وعلاقة هؤلاء بالقبائل المجاورة، وبأوربا. لكن جل المقال استغرقه في الحديث عن القرصنة الأوربية بالبحر الأبيض المتوسط خلال القرون الوسطى.

- التطور الحضاري في مصب أبي رقراق[26]

للكاتب السابق، وقد خصص أيضا قسما من مقاله هذاللحديث عن الأندلسيين بمصب أبي رقراق، فتحدث عن وصول الأندلسيين إلى المنطقة، وتأسيسهم (للديوان)، وكذا ممارستهم للجهاد البحري، وعلاقتهم بالعياشي.

---

23 - الزاوية الدلائية، ص 175 - 167.

24 - الحركة العياشية، ص158 - 146 .

25 - مقال بمجلة تطوان، العددان الثالث والرابع : 1959 - 1958 ص 71 - 59

26 - مقال بمجلة المناهل، العدد العاشر، نونبر1977، السنة الرابعة،133 - 85 .

- ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي[27]

تعرض محمد المنوني في هذا المقال إلى مساهمة الجالية الأندلسية بالمغرب في عملية الترجمة، فتعرض إلى ثلاث شخصيات أندلسية: أبي قاسم الغساني، أحمد بن قاسم الحجري، المعلم يوسف الأندلسي.

- تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب[28]

لنفس الكاتب، وقد أشار في بداية المقال إلى أنواع الموسيقى الأندلسية بالمغرب وكذا إلى استخدامها المديح النبوي.

- المقاومة البحرية في القرن عشر الهجري[29]

تعرض ابراهيم حركات في هذه الدراسة إلى الجهاد البحري الذي كان يمارسه الأندلسيون بتطوان وسلا، وإلى علاقة هؤلاء بالدول الأوربية، ومع المجاهد العياشي، لكنه تجاوز الحديث عن الجهاد البحري إلى الحديث عن مساهمة هؤلاء في مختلف النشاطات العلمية والاجتماعية والاقتصادية.

وهناك دراسات أوربية، مثل :

-La ville de Rabat jusqu'au Protectorat:

تعتبر دراسة جاك كابي J. Caillé أهم دراسة عن أندلسيي الرباط والقصبة، رغم أنهم لا يشكلون بالنسبة لدراسة تلك إلا حلقة من حلقات تاريخ المدينة.

وهكذا نجد أن القسم الذي خصصه للأندلسيين بالقصبة (ص 209 - 1:281) يحتوي على العناصر الآتية :

- وصول الهورناتشيين والأندلسيين إلى المدينة، وثورتهم على السلطان زيدان، وكذا تأسيسيهم لجمهورية أبي رقراق.

- النزاعات الداخلية: ودرس فيها النزاع بين الأندلسيين والهورناتشيين وتدخلات العياشي في ذلك، وكذا وقوع المدينة تحت نفوذ الدلائيين.

27- مقال بمجلة دعوة الحق، العدد الثالث، السنة العاشرة، يناير 1967، ص 91 - 74.

28 - مقال بمجلة البحث العلمي، عدد مثنى 14 و 15، السنة السادسة، يناير دجنبر 1969، ص177 - 147 .

29 - مقال بمجلة دعوة الحق العدد الثامن، السنة15، مارس 1973، ص 118 - 113.

- الجهاد البحري بالمنطقة.
- علاقة هؤلاء بأوربا.
وختم عمله بدراسة الآثار الأندلسية بالمدينة.

- دراسات أوربية

- La Repuplica Andaluza de Rabat en el Siglo XVII:

قَسَّمَ كييرمو كوزالبيس بوسوطو G. G. Busto دراسته هاته إلى ثمانية فصول، تعرض فيها لأوضاع الموركسيين بإسبانيا إلى غاية طردهم منها، وإلى أوضاع المغرب في هذه الفترة، وكذا إلى استقرار الهورناتشيين بالقصبة، وإلى علاقة جمهورية أبي رقراق بالمغاربة وبالدول الأوربية، وختم دراسته بأربعة ملاحق تتعلق بمواضع مختلفة تهم الهورناتشيين وأندلسيي منطقة أبي رقراق بصفةعامة.

- Les Corsaires de Salé:

قسّم روجي كواندروR. Coindreau كتابه إلى تسعة فصول، وقد خص الفصل الثاني منها بالحديث عن الأندلسيين بمصب أبي رقراق، فتحدث عن طرد الموركسيين من اسبانيا، وعن استقرارهم بالمنطقة، وعن تأسيسهم لجمهورية أبي رقراق، وكذا على علاقتهم بباقي الأطراف. وتحدث في باقي الفصول عن الأسطول السلاوي وقادته، وأوراش بنائه، وكذا عن تنظيم العمليات الجهادية ومياددينها.

- Musulmans Andalous et judéo-Espagnols:

قسّم I. D. Abbou كتابه إلى ثلاثة أبواب. تحدث في الباب الأول عن المسلمين باسبانيا، وتحدث في الباب الثاني عن اليهود باسبانيا، وختم ذلك بالحديث عن اليهود في الباب الثالث. وتبعا للهدف الذي خطه المؤلف لكتابه فإن دراسته انصبت أساس عن اليهود الأندلسيين المستقرين بالمغرب، ولم يخصص إلا صفحات قليلة للأندلسيين المسلمين المستقرين بالمغرب (ص 75 إلى 98 من أصل 432 ص). وقد أشار فيها إلى الفروق الاجتماعية بين الأندلسيين والمغاربة، وتأثير الأوائل في مختلف أوجه الحياة الاجتماعية والعلمية والاقتصادية بالمغرب.

- Los Moriscos Espagnoles Emigrados al Nortes de Africa[30]:

---

30 - رسالة جامعية غير منشورة، جامعة برشلونة، (باسبانيا) 1971.
وقد نشرت نفس الجامعة ملخصا وجيزا عنها سنة 1975.
كما ترجمت بعض فقراتها إلى الفرنسية، ونشرتضمن كتاب:
- Etudes sur les Moriscos Andalous en Tunisie: pp 77.88 et pp 258 - 263.

درس خوان بنيلا روما Juan Penella Roma في هذه الأطروحة انتقال الموريسكيين إلى شمال افريقيا، إذ درس أوضاعهم باسبانيا أولا، ثم ظروف انتقالهم إلى العدوة. وشفع دراسته تلك بإعطاء نظرة عن العلاقات التاريخية بين العدوتين، وكيف كان الأندلسيون ينتقلون باستمرار إلى المغرب، وإلى توزيع هؤلاء به، كما حاول أن يوضح الفروق الموجودة بين أندلسيي المغرب وأندلسيي تونس.

- Le Maroc d'autrefois, les Corsaires de Salé[31].

أعطى دوكاستر H. de Castries أولا نظرة عن ميناء سلا، ودوره في تسهيل عمليات المجاهدين، مقارنا إياه بموانئ الجزائر وتونس وطرابلس، وانتقل بعد ذلك إلى الحديث عن تطور استقرار المجاهدين الأندلسيين بمصب أبي رقراق، وعن التنظيم الذي سار عليه الأندلسيون بالمنطقة، كما تحدث عن مداخيل جمهورية أبي رقراق من خلال ما تحصل عليه من الغنائم، وحقوق الجمارك، وعن تعايش الجهاد البحري والتجارة رغم تناقضهما.

- Projet de traité entre les morisques de la Casba de Rabat et le roi d'Espagne en 1631[32]

قام جورج كولان G. Colan في هذا المقال بنشر وترجمة (إلى الفرنسية) مشروع معاهدة بين أندلسيي القصبة وملك اسبانيا فليب الرابع، ويقترح فيه الأوائل على الثاني تسليم القصبة مقابل السماح لهم بالعودة إلى هورناتشوس موطنهم الأصلي باسبانيا.

- Los Andalusiés en el Ejército Saadi[33]

تعرضت ميرسيديس كارسيا ارنال M. G. Arenal في هذا المقال لدور الأندلسيين في الجيش السعدي، خاصة دور القادة الأندلسيين الذين تآمروا على المنصور مباشرة بعد معركة وادي المخازن، فاستعرضت تاريخ كل قائد على حدة منذ انتقالهم من اسبانيا إلى غاية تصفيتهم من طرف الخليفة السعدي، معتمدة في ذلك على مصادر عربية وأوربية.

---

31 - In *Revue des deux mondes*, 15 Février, 1903

32 - IN Hesp. tome XIII, 1955, pp. 17- 25

33 -In *la revista al- quantara*, vol, V, fat 1 y 2, Madrid, 1984, pp. 169 - 202

- Morocco and Moroccan Pirates during the seventeenth century[34]:

حاول الباحث الأمريكي جيروم واينر في هذه المقال أن يعرض لظاهرة الجهاد البحري بالمغرب، وذلك بالتركيز على أسبابها ومراحل انتشارها، وكذا نتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي. وهكذافقد تعرض أولا لأوضاع المغرب في النصف الأول من القرن السابع عشر، وإلى الشروط المحلية بمنطقة أبي رقراق، وإلى طرد المورسكيين باسبانيا، لينتقل بعد ذلك إلى استعراض العوامل التي غدت عمليات الجهاد البحري، ولم يفته في الأخير أن يتعرض إلى النزاع المسلح بين الرباط وسلا.

- Presencia de los Moriscos en Tetuan y Xauen[35]:

تعرض كييرمو كوزاليس بوسطو – السالف الذكر – في بحثه هذا لاستقرار الأندلسيين بكل من تطوان والشاون ومساهمتهم في توسيع المدينتين، وكذا إلى الآثار الأندلسية بهما، وتأثيرهم في الحياة الاجتماعية بالمنطقة، إذ استعرض بالمناسبة عددا من العائلات الأندلسية بمدينة تطوان، لكنه لم يفتا يلح على نقص الوثائق المتعلقة بهذا الموضوع.

- Documentacion Sobre Moriscos en relacion con Marruecos[36]:

حاول رودولفو خيل كريمو R. Gil Grimau أن يعرض في دراسته البيبليوغرافية هاته لمجموعة من المصادر والمراجع التي تهم من قريب أو بعيد موضوع الأندلسيين بالمغرب، وقد بلغ عددها 69 مصدرا ومرجعا مصنفة على الشكل الآتي:

35 مصدرا ومرجعا اسبانيا

23 مصدرا ومرجعا فرنسيا.

---

34 - اعتمدنا على الترجمة التي أنجزها طارق العسكري وعبد الهادي التازي، ونشرت بمجلة البحث العلمي، العددان 30 - 29، السنة 16، 1979، ص 36 - 13 ملاحظة:
لنفس الكتاب أطروحة دكتوراة بعنوان:
Fitna, Corsairs, and diplomacy : Morocco and the Maritime states of Western Europe, 1603 - 1672, Columbia University, 1976, 518 p.

35 - In Actes du II symposium International du C. I. E. M sur : religion, Identité et Sources documentaires sur les Morisques Andalous, 1: 361 - 374

36 -In Actes du II symposium international du C. I. E. M sur : Religion, Identité et Sources documentaires sur les Morisques Andalous, pp. 1 : 349 . 359

5 مصادر عربية.
3 دراسات انجليزية.
3 دراسات إيطالية.

ومن حيث نوعية هذه المصادر والمراجع نبدي الملاحظتين الآتيتين :

أولا : اغفال الكاتب للعديد من المصادر الأساسية، خاصة الجانب العربي منها.

ثانيا : أشار المؤلف لمصادر ومراجع لا ترقى إلى مستوى اعتمادها لموضوع الأندلسيين بالمغرب فهي لا تشير له إلا اشارات عابرة.

- Necesidad de Unos Estudios Dobre los Moriscos en Marruccos(37):

لنفس الكاتب، وقد أكد فيه على ضرورة القيام بدراسات حول الأندلسيين بالمغرب، حتى يتسنى فهم التاريخ الحضاري للمغرب واسبانيا في القرون الخمسة الأخيرة، خاصة أن الآثار الأندلسية مازالت ماثلة التمائلة إلى يومنا هذا.

- Una Repuplica Andaluza en el Norte de Africa(38).

أوضح اونطونيو دومنكز اورتث A. D. Ortiz أن استقرار الأندلسيين بالمغرب يكتسي صبغة خاصة تمثلت في انتصاب جمهورية مستقلة بمصب أبي رقراق، واستعرض الأدوار التي قامت بها في مختلف الميادين، كما تعرض إلى علاقاتها بالمغاربة وبالقوات الأوربية، وإلى مشروع الهورناتشيين الذي عرض على فليب الرابع بشأن الرجوع إلى قريتهم هورناتشوش باسبانيا، وقارن بعد ذلك بين أندلسيي المغرب وأندلسيي كل من الجزائر وتونس.

- Los Moriscos de Hornachos Corsarios de Salé(39) :

حاول الباحث الاسباني سانشيس بيريز Andrés Sanchez Pérez في هذه الدراسة أن يتتبع الهورناتشيين انطلاقا من قريتهم هورناتشوس إلى غاية استقرارهم بمنطقة أبي رقراق، لكننا لا نجد في الأخير إلا صفحات قليلة مخصصة للهورناتشيين

---

37 - In Etudes sur les Morisques Andalous, fasc, 3, Tunis, 1983 pp. 251 - 256.

38 - In Historia 16, Madrid, 1ère Année, N° 4, Août 1976, pp 57- 62.

وقد اعيد نشره ضمن كتاب:

Etudes sur les Morisques Andalous, fasc, 3, Tunis, 1983 pp. 257 - 262.

39 - In Rev.de Estudios extremenós, XX, Badajoz, 1964, pp. 93 - 152

بمقرهم الجديد، في حين أن جل الدراسة استغرقتها أوضاع الموريسكيين بموطنهم الأول.

- An urban View of Moroccan History, Salé 1000 - 1800 [40]:

خصص كنيت بروان Kenneth Brown قسما من مقالة هذا للحديث عن أندلسيي مصب أبي رقراق (ص 46 - 59)، إذ أنه وجد نفسه مضطرا للحديث عن الأندلسيين في إطار حديثه العام عن تاريخ سلا خلال فترة طويلة (800 سنة). وهكذا فقد تعرض لعلاقة هؤلاء بالعياشي، وبمختلف القوات الأوربية، وكذا إلى عمليات الجهاد البحري التي كانوا يقومون بها.

---

40 - In Hesp, tam. vol. XII. fasc. unique, 1976, pp. 5- 106

4

تصميم البحث

بعد هذا التقديم عن المصادر والدراسات المتعلقة بالموضوع ننتقل الآن إلى استعراض أهم عناصره.

صدّر هذا البحث بمدخل تاريخي يضم نقطتين أساسيتين : مميزات عامة، والعلاقات بين العدوتين قبل القرن السادس عشر، وذلك ليتأتى لنا أخذ فكرة متكاملة عن موضوع الأندلسيين وهجراتهم إلى المغرب خلال فترة القرنين 16 و17.

وقد قسمناه إلى ثلاثة أبواب رئيسية :

يتناول الباب الأول منه دراسة الأندلسيين تجاه المد المسيحي، وذلك عبر ثالثة فصول تخص الفترات التي تهم هاته الدراسة. فقد تناولنا في الفصل الأول وضعية الأندلسيين في عهد الملكين الكاثولكيين، وتناولنا في الفصل الثاني وضعيتهم في عهدي شارل الخامس وفليب الثاني، وختمنا هذا الباب بفصل ثالث تناولنا فيه وضعيتهم إبان عهد فيلب الثالث. وخلال استعراضنا لهذه الفصول لم نكتف بدراسة العلاقات الثنائية بين الطرفين، بل حاولنا دراسة موقف العالم الإسلامي (ومن ضمنه المغرب) من مأساة الأندلسيين من خلال نصوص ووثائق معينة.

أما فيما يتعلق بالباب الثاني، ركزنا فيه الحديث عن الهجرات الأندلسية إلى المغرب عبر ثلاثة فصول كذلك :

تناولنا في الفصل الأول الهجرة الأندلسية في العهد الوطاسي، وتناولنا في الفصل الثاني هذه الهجرة في العهد السعدي الأول، منهين هذا الباب بفصل ثالث يبحث في موضوع استقرار الأندلسيين بمصب أبي رقراق وتطوان في العهد السعدي الثاني. وقد حاولنا في كل فصل من هذه الفصول أن نبرز دور المغرب، مستعرضين من خلال ذلك موقف كل طرف من الاخر، خاتمين الباب باستنتاجات معينة.

ويتعلق الباب الثالث، والأخير بالحضارة الأندلسية المغربية، وقد قسمناه إلى فصلين:

تناولنا في الفصل الأول منه الميادين التي برز فيها التأثير الأندلسي، وكذا دور المغاربة في تطوير هذا التراث الأندلسي وإخضاعه للبيئة المغربية، كما تناولنا في الفصل الثاني مراكز استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب، ومشاهير الأندلسيين به خلال فترة القرنين 16 و 17.

وختمنا الدراسة بخلاصة حاولنا أن نبين من خلالها النتائج التي وصلنا إليها.

مدخل تاريخي

مميزات عامة

تتميز إسبانيا بعدة خصائص طبيعية تجعلها قريبة، على مستويات عدة، من شمال إفريقيا. فقديما أطلق عليها الجغرافيون عبارات تدل بالفعل على تنوعها الجهوي، فيذكرون. - مثلا - أنها «شبه قارة» للإشارة إلى اختلاف أطرافها البليغ، وهي، لهذا السبب، تساعد جدا على الانعزال الجهوي ومن هنا أيضا، يذكر بعض المؤرخين بأن جغرافية إسبانيا وتاريخها هما أقرب إلى جغرافية وتاريخ شمال إفريقيا منها إلى أوربا. وإذ ما حاولنا أن ندقق هذه النقطة فإنه يمكننا أن نخرج بالملاحظات الآتية :

- تلعب التضاريس في إسبانيا - مثل - المغرب دورا أساسيا، فمعدل ارتفاع الأراضي الإسبانية يبلغ 660 م (وهو معدل بلاد جبلية)، والجبال من وظائفها الطبيعية أن تعزل بعض السكان، وأن تحد من التداخل والتبادل لذلك وجدت بإسبانيا - مثل المغرب - عناصر تمسكت باستقلالها وبعزلتها إلى اليوم، من ذلك : كطالونيا، وإقليم الباسك، وإقليم الأندلس.

- هناك عامل طبيعي آخر يذكرنا بشمال إفريقيا، وهو المناخ فهو هناك من النوع القاري الذي يتسم بتفاوت سنوي ضخم، ويتميز بصفة عامة بقلة الأمطار (أقل من 600 سلم سنويا).

مشكل الماء : وهو مرتبط بالعامل السابق، وهو من المشاكل التي تتلقى فيها إسبانيا مع المغرب، وقد حاول الاسبان معالجة هذا المشكل بوسيلتين :

الوسيلة الأولى : الري الاصطناعي وهو موجود منذ عهد الرومان، لكن تقنيات الري لم يتم نشرها على الوجه الأكمل إلا على يد العرب خاصة منطقة الأندلس.

الوسيلة الثانية : تعويض خصوبة الأرض باتساع المساحات المزروعة، وتهم بالخصوص أراضي البور Secano التي ليست فيها أنهار. ومن مضاعفات هذه الوسيلة هو أن الإنتاج يتفاوت من موسم إلى آخر، وهذه الوسيلة معروفة بالمغرب.

وقد نتج عن ضعف الفلاحة بإسبانيا وقوع عدة مجاعات، وأمراض وغلاء في الأسعار، وذلك لفترات عديدة. وهذه الوضعية تذكرنا بما كان يعرفه المغرب من حين لآخر لنفس السبب.

لقد دلت الحضارات القديمة على الأهمية الجيوستراتيجية للعدوتين، لذلك نلاحظ أنها بمجرد ما تضع أمة فاتحة أقدامها في إحدى العدوتين تتجه بأنظارها للعدوة الأخرى.

نشير في هذا الصدد أولا إلى أن الفينيقيين بمجرد مارست أقدامهم بسواحل شمال إفريقيا بدأوا يتطلعون إلى سواحل إسبانيا، حيث أسسوا بها عددا من المراكز مثل قادس، وقرطاجنة وعند ظهور الرومان سوف يستخدم القرطاجيون شبه الجزيرة الايبرية كواجهة أمامية ضد الرومان، وهكذا فقد اتخذها هنيبال - مثلا - مركزا مهما لمحاربة رومة.

وأدرك الرومان بالفعل ما أدركه سابقوهم في الاستيلاء على العدوتين، فوضعوا مخططاتهم على أساس هذا الهدف إلى أن تمكنوا من ذلك.

ولما سقطت الامبراطورية الرومانية الغربية تحت ضربات البرابرة الجرمان من قبائل الوندال، اتجهت موجة من هؤلاء في القرن الخامس الميلادي إلى إسبانيا واستولت عليها، وعندما تعرضت هذه الأخيرة أوائل القرن السادس الميلادي (507م) إلى غارات القوط الغربيين أجلوا عنها الوندال الذين نزحوا إلى شمال إفريقيا، واتخذوها مراكزا لحكمهم، وقضوا على الرومان هناك.

وهكذا حل القوط الغربيون بعد ذلك محل الوندال في حكم شبه الجزيرة الايبرية، ودام حكمهم لها زهاء قرنين. وقد ساءت الأحوال في شبه الجزيرة الايبرية في عهدهم مما هيأ الظروف الملائمة للفتح الإسلامي لاسبانيا انطلاقا من المغرب وبسيوف بربرية.

وبعد هذا لنا أن نتساءل ماذا كانت نتيجة هذه التحركات المتبادلة قديما بين العدوتين عبر حضارات متعددة ؟

إن النتيجة الأساسية التي يمكن للباحث أن يخرج بها من خلال هذه التحركات المتبادلة قديما هو تسهيل تسرب التيارات المتبادلة بين الطرفين على مختلف المستويات، خاصة المستويات الحضارية، وهي مستويات بعضها موجود واختفى بعضها الآخر بعد الفتح الاسلامي لاسبانيا، إذ من المعلوم أن هذا الأخير أفرز مجتمعا «أندلسيا» جديدا يختلف عن المجتمعات القديمة التي عرفتها شبه الجزيرة الايبرية.

ويتكون المجتمع الأندلسي من ثلاث طوائف رئيسية :

1 - المسلمون : ويتكونون من فئات متعددة

العرب : كانوا يمثلون في مجموعهم صفوة المجتمع الأندلسي وطبقته الحاكمة، وكان منهم قيسيون ويمنيون (بلديون)، وشاميون. وقد استقر هؤلاء بالمناطق الخصبة.

البربر : لعب البربر دورا هاما في فتح الأندلس، فقد كان الجيش الذي قاده طارق بن زياد يتكون معظمه من البربر، وتواصلت هجرة البربر بعد ذلك إلى بلاد الأندلس، وينتمون بالخصوص إلى قبائل زناتة ومصمودة. وقد استقروا في المناطق الجبلية.

الاسبان المسلمون : ويسميهم مؤرخو العرب المسالمة، وهم كالعرب والبربر يتكونون من فئات متعددة (قوط، وندال، إلى غير ذلك...).

وعندما أخذت دولة الاسلام تضعف بالأندلس ظهر عنصر المدجنين Mudéjares، وإبان فرض التعميد الاجباري على المسلمين (يسميهم الاسبان Moriscos (تصغير لكلمة Moros أي المسلمين الأصاغر)[1] وهو في عرفهم مسلم داخل إلى المسيحية حديثا (المسيحيون الجدد). لكن المسلمين خارج إسبانيا لم يستعملوا قط هذه الكلمة، فهم بالنسبة لهم في جميع الحالات (أندلسي)، غير أنه يستعملون في بعض الوثائق لفظ «الغرباء»[2].

1- يتفق المؤرخون على أن لفظة Moriscos استعملت بعد سقوط غرناطة سنة 1492، لكن محمد بن عبود يتساءل عن إمكانية وجود (الظاهرة الموركسية) قبل سنة 1492، وبصفة ادق منذ سنة 478 هـ / 1085 أي (وجود المورسكيين قبل وجود العبارة نفسها) ؟

وأورد نصوصا من مصادر معاصرة لتأييد وجهة نظره في الموضوع. انظر : «المورسكيون في نهاية عهد دول الطوائف من خلال النصوص التاريخية الأندلسية»

مقال بمجلة البحث العلمي، العدد 35، سنة 1985، ص 48 - 31.

2- ليس لدينا تعليل حازم لهذ التسمية، فالغرباء في اللغة تعني الأباعد، وتعني «المنفيين، وتعني الذين يشعرون بالغربة وسط محيط مغاير لهم» وكل هذه المعاني تنطبق على المسلمين المتنصرين «في الأندلس بعد سقوط غرناطة، فهم غرباء دينيا وحضاريا عن المجتمع المسيحي الغالب، وهم بحكم المنفيين لأنهم غدوا محكومين بأهل دار الحرب، كما يمكن أن يكون لفظ «الغرباء» مستمدا من الحديث الشريف، عندما سئل رسول الله (ص) عن الغرباء فقال : «إن الإسلام بدا غريبا وسيعود غريبا كما بدا فطوبى للغرباء».

2 - المستعربون Mozarabes

وهم الاسبان الذين كانو يعيشون بين المسلمين ويتكلمون العربية، ولكنهم كانوا يحتفظون بدينهم. وقد عومل هؤلاء معاملة حسنة، فتمتعوا بحرية كبيرة في إقامة شعائر دينهم، وكانوا يعيشون في أحياء خاصة بهم، وكان لهم رئيسهم وقاضيهم الذي يفصل في منازعاتهم وقد برز من بين هؤلاء من لعب دورا هاما في تاريخ الأندلس.

3 - اليهود

عانى اليهود كثيرا من اضطهاد الرومان والقوط، لكنهم تمتعوا بتسامح كبير من لدن العرب، وكانت غرناطة تزخر بأكبر جالية يهودية. وقد لعبوا دورا هاما في العلوم العربية بالأندلس، فترجموا الكتب العربية إلى العبرية واللاتينية، ونبغ منهم كثيرون في الطب والفلسفة والفلك والكيمياء. لكن سرعان ما فقدوا هذه الحرية في عهد الملكين الكاثوليكين عندما فرض عليها التعميد الاجباري وأصبحت محاكم التفتيش تلاحقهم باستمرار وقد سموا بـ Conversos ، ولم يستخدم المسلمون أيضا هذا المصطلح بل اكتفوا بنسبتهم إلى الأندلس.

وإذا ما حاولنا أن نقارن بين هذا المجتمع الأندلسي بكل مكوناته وبين المجتمع المغربي، نجد أن هذا الأخير يختلف عن الأول في كون البربر والعرب يحتلون فيه مركز الصدارة، مما يؤدي حتما إلى بروز عدة نقط اختلاف بين البيئتين الأندلسية والمغربية يمكن تلخيصها فيما يأتي :

- صادف الاسلام بإسبانيا انتشار النصرانية بين سكانها، فلم يسعه إلا التسليم بهذا الأمر الواقع تمشيا مع تعاليمه في احترام أهل الكتاب في ديانتهم فكان من الضروري في نطاق المنافسة بين الملتين أن يأخذ الإسلام وجها أكثر بروزا ولمعانا في الديار الأندلسية، وأن تتباهى الطائفة الإسلامية بكثرة علمائها وأدبائها، وتعدد معاهدها، وعظمة مساجدها.

أما بالنسبة للمغرب فقد كان المشروع الإسلامي فيه مغايرا لما رأيناه في الأندلس، إذ وجد أمامه ميدانا بكرا لاتطغى عليه أية ديانة سماوية تعتز بكتاب مقدس، فكان ذلك مما سهل دخول عدد كبير من البربر في الإسلام منذ الحملات الأولى للفتح، ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب دار إسلام بكل معنى الكلمة وبدون منازع، وكان على العلماء أن يتصلوا بالناس ويبلغونهم الدعوة بفرائضها وسننها، دون تعقيد ولا إثارة

لمسائل الخلاف والنقاش. ولقد شعر الإسلام منذ أول وهلة بأنه بأرضه في المغرب، فلم يكن له منافس ولا مناوئ خطير، ولم يكن ثمة ما يدعوه إلى سلوك سياسة المظاهر بل إنه احتفظ بنوع من البساطة متناسبة مع نوعية السكان، ونمط عيشهم[3].

- كانت إسبانيا أكثر تحضرا من المغرب لأنها اتصلت أكثر بالحضارات المتوسطة، وبالأخص الرومانية منها، بحيث انتشرت فيها اللغة اللاتينية انتشارا كبيرا، ويدخل في هذا الإرث أيضا تعدد المدن والقرى التي عملت على رفع المستوى الفكري العام، مثل طليطلة، وقرطبة واشبيلية... أما الإرث الحضاري القديم للمغرب فلم يكن من الكثافة والانتشار بحيث يجعل كفته في الميزان أرجح من كفة البداوة وهو ما لاحظه بن خلدون منذ قرون، حينما قارن بين الأندلس والمغرب في ميادين حضارية معددة. وفي بداية العهد الإسلامي نلاحظ أن المغرب كان أضعف من الأندلس، فلم تستطع الدولة الإدريسية أن تواجه الدولة الأموية، مما جعل هاته الأخيرة تمارس نوعا من الهيمنة على جزء من شمال المغرب منذ عهد عبد الرحمان الناصر إلى قيام ملوك الطوائف. ثم إن مدن المغرب في تلك الآونة لا يمكن مقارنتها بمدن الأندلس سواء من حيث العمران أو عدد السكان، فما أبعد فاسا الادريسية - مثلا - عن مدينة كقرطبة أو اشبيلية !

- انتقلت إلى الأندلس عبر قرون عناصر بشرية متعددة ناقلة معها بعض ما تعتز به من تراث، والفينيقيين والقرطاجيين، واليهود، والوندال، والعرب، والبربر. ثم لاتنسى أن العرب القادمين من المشرق اعتبروا المغرب في الغالب معبرا نحو الأندلس، فانتقلت معهم بسرعة اللغة العربية والشعر والأدب ورواية الفقه.

وحينما تأسست إمارة الأمويين القوية بقرطبة طمحت إلى منافسة الخلافة العباسية ببغداد فكان من جملة اهتماماتها رعاية العلم والعمل على تنمية وازدهاره في سائر فروعه، فكان احتياج هذه البيئة الأندلسية إلى التبحر في العلم ظاهرة مبكرة وكانت رحلات العلماء الأندلسيين إلى المشرق، وقدوم علماء منه وبدعوة من أمرائها في بعض الأحيان.

أما بالنسبة للمغرب فإن الامتزاج البشري الذي حدث به كان أقل مما جرى في الأندلس، ثم إن الجاليات العربية التي استقرت به كانت قلية، مما جعل الاحتكاك

3- انظر م. زنيبر، «سبتة مدينة رائدة في تاريخ الثقافة المغربية»، مقال بمجلة المناهل، العدد 22، يناير 1982، ص 208.

الفعلي بين العنصرين البربري والعربي ذا مفعول بطيء وجعل المغاربة برغم دخولهم في الإسلام يظلون في حالة انطواء بالقياس إلى جيرانهم من أهل الأندلس. وهكذا فالاختلاف بين البيئتين يكمن بالأساس في كون طابع البداوة كان هو الغالب بالمغرب في حين كان نصيب الأندلس من الحضارات أقوى.

غير أننا لا ننسى مع ذلك الامتزاج الحضاري والسياسي بين البيئتين قد تم بالفعل في ميادين متعددة على مر العصور. فمن الناحية الحضارية لا ننسى أن الجالية البربرية المستقرة في الأندلس كان لها دورها في الحياة الاجتماعية، كما أن الأندلسيين المستقرين بالمغرب ساهموا في الحضارة المغربية حتى تكون ما أصبحنا نسميه بالحضارة المغربية الأندلسية.

ونجد سياسيا أن الانصهار بين المجتمعين وقع بالفعل، فحضور المغرب بالأندلس كان واضحا لفترات عديدة وجاهد المغرب جنبا إلى جنب مع أخيه الأندلسي، وبذلك ساهم المغرب في مد عمر الأندلس لفترة طويلة إلى حين سقوط غرناطة، وفتح أبوابه للأندلسيين، وتفاعل مع قضيتهم للانتقام ممن أخرجوهم من ديارهم.

العلاقات بين العدوتين قبل القرن 16

تبتدئ العلاقات بين العدوتين في العصر الإسلامي مع الفتح على يد طارق وجنده من المغاربة، وتستمر إلى غاية سقوط غرناطة ورجوع الأندلسيين إلى العدوة المغربية، ولن نوغل في تتبع هذه العلاقات وتطورها في مختلف الميادين، وإنما سنقتصر على إشارات تهم الصلات السياسية والحضارية خلال فترة ما قبل القرن السادس عشر.

إن استعراض هذه العلاقات يساعدنا على أخذ رؤية متكاملة للوجود الأندلسي بالمغرب خلال فترة القرنين 16 و 17، ذلك أن الأبعاد السياسية والحضارية التي تولدت عن الهجرة الأندلسية في القرن السابع عشر لم تكن طارئة وإنما كانت تشكل في تقديرنا استمرارا لمرحلة تاريخية سابقة وإن اختلفت عنها في بعض مظاهرها، لقد دأب الباحثون على اعتبار الصراع السياسي الحضاري بين الأندلسيين والمغاربة في القرن السابع عشر صراعا ناشئا عن مواجهة بين عقليتين مختلفتين: عقلية تحمل بين طياتها بوادر نهضة أوربية، وعقلية تقليدية منغلقة، وكأن الأمر طارئ ومنته بانتهاء

المرحلة التاريخية التي يمثلها. إن الصراع كان قائما بالفعل بين أهل العدوة والأندلس قبل القرن السادس عشر، وذلك لأسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية[1]، فهذا بن الخطيب يستعمل عبارة «النفرة الطبيعية بين الأندلسيين والمغاربة»[2] والحجاري يقول أيضا: «وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس»[3]، وهذا المقري ينتقل عن بعض المؤرخين الأندلسيين ما يلي: «ولما كان البربر بالقرب منهم وليس بينهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم منهم طوائف منخرفة الطباع خارجه عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفورا، وأكثر تحذرهم من نسب أو مجاورة حتى تبث ذلك في طبائعهم، وصار بعضه مركبا في غرائزهم فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس، وبغضهم لهم أبغضوهم، حسدوهم فلم نجد أندلسيا إلا مبغضا بربريا وبالعكس»[4].

هذه، إذن ملاحظة من جملة ملاحظات يمكن إثارة الانتباه إليها عند دراسة المشكل الأندلس بالمغرب، وسوف نعززها بملاحظات أخرى عند استعراضنا لمراحل الاستقرار خلال هذه الفترة التي ندرسها، وكلما تميل إلى التأكيد على أهمية المنهج الذي يدعو إلى المدرسة المتكاملة للموضوع.

---

1 - م. بنشريفة، أمثال العوام، 1: 210 - 205، و«من منافرات العدوتين: «مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد الأول، يناير 1977، ص 49 - 7.

2 - ابن الخطيب، أعمال الإعلام، 227.

3 - أ. المقري، نفح، 6: 12

4 - المصدر السابق، 1 :228.

ونلاحظ في هذا النص دور الجوار في التنافس بين العدوتين.

1

الهجرة

إن أول هجرة مهمة تتحدث عنها المصادر التاريخية هي هجرة الربضيين من قرطبة إلى مدينة فاس، حيث استقروا بالعدوة التي تحمل اسمهم (عدوة الأندلسيين). وذلك في عهد إدريس الثاني، وترجع إلى ظروف داخلية تتعلق بالأندلس ذاتها[1]، ويذكر بن أبي زرع أن عدد الذين استقر منهم بفاس بلغ 8 آلاف بيت[2]، ويضيف قائلا: «... فنزلوا عدوة الأندلس وشرعوا في البناء يمينا وشمالا إلى ناحية الكدان، ومصمودة، وفوارة، وحارة البادية، والكنيف إلى الرميلة، فسميت عدوة الأندلس...»[3].

وسيكون لهذا الاستقرار أبعاد سياسية كبيرة:

– على الصعيد السياسي: ظهرت غير مرة نزعة هذا الثائر الأندلسي أو ذاك للسيطرة، أو على الأقل لترجيح كفة هذا أو ذاك، خاصة أن الأدراسة سيدخلون في صراع مع الأندلس.

ونستطيع – مثلا – أن نخرج بعدة ملاحظات عن ثورة الأندلسي عبد الرزاق الخارجي على الأمير الإدريسي علي بن عمر بن إدريس:

– كان طموح الثائر الأندلسي بعيدا، فقد ذهب إلى حد تسمية قلعة بناها بالمغرب باسم بلده الأصلي بالأندلس (وشقة)[4].

---

1 – انظر ابن القرطبة، تاريخ افتتاح الأندلس، ص 50، ابن عذاري، البيان المغرب، 108 : 2، أ – المقري، نفح 322 : 1، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 233.

2 – روض القرطاس، ص 47.

ملاحظة:

يذكر الناصري في الاستقصا، 1 : 166، إن عدد العائلات كان 4 آلاف، لكن لا يذكر مصدره في ذلك، وفي الرقم يوجد عند عبد الملك الوراق (عبد العزيز بنعبد الله، فاس حاضرة الفكر في القارة الافريقية، مقال بمجلة المناهل، عدد 13، دجنبر 1979، ص 167)، في حين أنزل هنري تيراس العدد إلى 800 فقط ليوازن بينه وبين عدد الأسر القادمة من القيراوان وهو 300 أسرة. انظر كتابه

Histoire du Maroc, 1 : 188

3 – روض القرطاس، ص 47.

4 – المصدر السابق، ص 78.

- حين انتصار الثائر الأندلسي على الأمير الادريسي ملك عدوة الأندلس بفاس وخطب له بها بدون أية صعوبة، في حين امتنعت عدوة القرويين[5]، مما يدل على أن الكيان الأندلسي كان مميزا بالفعل.

- عند استرجاع الأمير الادريسي لقواه وهزيمة الثائر الأندلسي ولى الأمير على عدوة الأندلس بفاس ربضيا من شذونة بالأندلس وظلت الولاية في أبنائه الربضيين[6]، وهذا يدل على أن الجالية الربضية بعدوة الأندلس بفاس كان حريصة على خلق نوع من التوازن في علاقاتها مع الأدارسة، إلى أن تتاح لها فرصة التحرك، كما يدل على أن الأدارسة كانوا يعلمون بالفعل قوة وتماسك الجالية الأندلسية بالمنطقة فكانوا يخاطبونهم من خلال مواطنيهم.

كما نعتقد - أيضا - أن حكام الأندلس كانوا يجدون سهولة أكبر للتعرف على أحوال المغرب، بفعل وجود هذه الجالية، بل واستخدامها لتحقيق طموحهم بالمغرب، فقد ساعدت هذه الجالية - مثلا - عبد الرحمان الناصر بالتأثير على موسى بن أبي العافية للدخول في طاعة الأمير الأندلسي[7]. وفعلا فقد تمكن الناصر من وضع قدمه بالمغرب، وهذا ما يشير إليه بن حيان قائلا: «... فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله فيما جازه من مدينة سبتة والقطعة استضمها إليها من أرض العدوة، واجتذب من أجله كثيرا من فرسان البربر وحماة رجاله إلى حضرته، استعان بهم في حروبه، وتمكن بذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادي البربر واستنتاجهم الفاضل لبراذين الأندلس...»[8].

على الصعيد الحضاري

احتضنت عدوة الأندلس بفاس في هذه الفترة عددا من المزارعين المهرة، إذ يذكر بن أبي زرع في هذا الصدد: «... وتختص عدوة الأندلس أيضا بحسن الفواكه الصيفية كالتفاح الطرابلسي الحلو الأصفر الذي ليس مثله في جميع المغرب لحسنه وحلاوته... والتفاح الليوبي والطلحي والكلخي، وأصناف الكمتري والمشمش والبرقوق والتوث...»[9]. ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعل

---

5 - روض القرطاس، 78 - 79.
6 - نفس المصدر والصفحة.
7 - نفس المصدر ص 83- 84.
8 - المقتبس، 5 : 275.
9 - روض القرطاس، ص 46.

إدريس الثاني يفضل عدوة الأندلس لتربية ماشيته ودوابه: «... وأنزل جميع أجناده وقواده بعدوة الأندلس، وجعل كسبه من الخيل والإبل والبقر والغنم بأيدي ثقاته، ولم ينزل معه بعدوة القرويين غير مواليه وحشمه وسائر رعيته من التجار والصناع والسوقه....»[10].

كما نذكر في هذا الصدد أن المغرب استقبل في هذه الفترة عددا من الصناع والحرفيين الأندلسيين، إذ يذكر ابن حيان أن موسى بن أبي العافية طلب من الناصر لدين الله أن يوفد له عددا من الصناع والأدوات لبناء قلعة فلبي طلبه: «... فأخرج إليه محمد بن وليد فشتيق، رئيس المهندسين لديه، مع ثلاثين بناء، وعشرة من النجارين، وخمسة عشر من الحفارين، وستة من الجيارين المحسنين لعمل الخير، وستة من الأشارين لأشر الخشب، ورجلين من الحدادين، ورجلين من الحصادين، تخيروا من حذاق طبقاتهم...»[11].

في الميدان العلمي : نذكر جامع الأندلس، إذ ساهم الأندلسيون في بنائه ليصبح منارة علم بالمدينة بجانب جامع القرويين[12].

10- المصدر السابق، ص 46.

11- المقتبس، 5 : 388.

12- انظر علي الجزنائي، زهرة الآس، 92، روض القرطاس، ص 76 - 77.

2

أصبح المغرب بعد أفول نجم الأدارسة متأرجحا بين النفوذ العبيدي والأندلسي، إذ وجد حكام الأندلس أمامهم إمارتين بربريتين (مغراوة وبني يفرن)، فاستغلوا هذه الثنائية في الجهاز السياسي المغربي لضربهما معا. وهكذا أتيحت الفرصة لأول مرة في هذه المرحلة لنفوذ الأندلس أن يبرز بوضوح سنة 369 هـ، عندما زحف بلكين بن زيري صاحب إفريقية على المغرب وتراجع أمامه المغراويون واليفرانيون، فاستنجد هؤلاء بالمنصور بن أبي عامر الذي لبي طلبهم على الفور[1]، مما يدل على أن هذا الأخير كان عازما على الحفاظ على الوجود الأندلسي بالمغرب، والمثال الثاني الذي نورده بهذا الصدد، هو ما كان من علاقة بين زيري به عطية المغراوي والمنصور بن أبي عامر، وكيف كان يستخدمه هذا الأخير لبث نفوذه بالمغرب، وللتصدي لأي ثائر يعلن خلع طاعة قرطبة، كما فعل مع أبي البهار الذي عاد إلى بيعة العبيديين بإفريقية[2]. لكن السؤال الأساسي هنا هو : إذا كان هذا سلوك زيري بن عطية الذي يمثل عمليا مغراوة، فماذا كان موقف بني يفرن من هذا التصرف ؟ وهل كان الكل راضيا عن هذا الوجود الأندلسي المكتف بالمغرب ؟ لا نعتقد ذلك، يكفي أن نذكر أنه مجرد ما خرج زيري بن عطية إلى الأندلس - لتكريمه من طرف المنصور - ثار بدر بن يعلا اليفرني أمير يفرن : «فزحف إلى مدينة فاس، فدخل منها عدوة الأندلس بالسيف، وملكها»[3].

ويزيد من اعتقادنا ما ذهبنا إليه أن زيري بن عطية نفسه سيعلن الثورة سنة 386 هـ، وسيطرد عمال المنصور من المغرب، مما أدى بهذا الأخير إلى إرسال ابن عبد الملك المظفر الذي تمكن من دخول فاس[4]. لقد كانت قرطبة تخشى دائما

---

1 - انظر تفاصيل ذلك عند ابن خلدون، العبر7 : 19 - 20

2 - روض القرطاس، !102، ابن خلدون، العبر، 7 : 20.

3 - روض القرطاس، ص 104.

4 - المصدر السابق، 107.

أن يظهر المغرب موحدا مخافة مواجهتها، فعمدت إلى بث الفتنة والبلبلة في صفوف قبائله، وقوت في نفس الوقت بحريتها، بل وذهبت إلى حد احتلال نقط معينة في شماله لكي تتخذ منها نقط عبور إليه[5].

كما استخدم حاكم قرطبة كذلك المغاربة لتوطيد سلطانه مما أدى وجود مغربي مهم بالأندلس.

- الهجرة المعاكسة

يرجع استقرار الجالية البربرية بالأندلس إلى فترة المنصور بن أبي عامر فهو الذي جلبهم إلى الأندلس، واعتمد عليهم في توطيد سلطانه، ويقول بن خلدون في هذا الصدد: «... فاستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبرابرة فرتب منهم جندا وعرف منهم عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم... وقدم رجال برابرة زناتة وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر...»[6].

واتبع عبد الملك خطة أبيه في استخدام البربر، على أن أمور الدولة ساءت في عهد أخيه عبد الرحمان بن المنصور، إذ أساء التصرف بمحاولته تجاوز الحدود التي رسمها أبوه كحاجب فقط، فالتمس ولاية العهد من الخليفة هشام المؤيد[7]، مما أدى إلى إثارة أهل الأندلس عليه وهيأ الفرصة الأمويين من جديد في شخص المهدي محمد بن هشام الذي اعتمد في قوته على العامة معارضا بها جند الدولة. وهاجمت طائفة منها دور بني ماكسن بن زيري، ودورا لبني زاوي ين زيري وغيرها من دور زعماء البربر وانتهبتها[8]، واشتعلت بذلك نيران الفتنة بقرطبة بين البربر والعامة، وقد أقر الأوائل سليمان بن الحكم بن سليمان الناصر، فقدوا له على الخلافة سنة 399 هـ، وعقدوا العزم على فتح قرطبة وإسقاط المهدي[9]، وتمكن سليمان بالفعل

---

5 - J. Brignon et autres, *Histoire du Maroc*, p. 75

6 - العبر، 4 : 147 - 148.

7 - السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق، ص344 ، و عبد الله عنان دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص 569 وما بعدها،

8 - السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق، 348.

9 - المصدر السابق، 359.

من فتح قرطبة، لكنه واجه صورة واضح الفتى المتحالف مع المسيحين، ومرة أخرى أبدى البرابرة استعداد كبيرا للقتال[10].

وقد انتهز عامة قرطبة فرصة خروج البربر عن مدينة الزهراء فدخلوا ونهوا ما وجدوا بها[11]، ولم تكن هذه الهزيمة نهائية، فقد تمكن البرابرة بعد صراع مرير من دخول قرطبة، وقسم سليمان بعض كور الأندلسيين بين رؤساء القبائل البربرية[12].

وقد حاول كثير من الباحثين إبراز سلبية هذه الهجرة على اعتبار أن العنصر المغربي البربر هو السبب الأساسي في قيام الفتنة بالأندلس بعد سقوط الدولة العامرية، وبالتالي ينكرون أن يكون لهذه الهجرة المعاكسة أي جانب إيجابي، ويغضون الطرف عن الملابسات التي أدت إلى الثورة مكتفين باستعراض، النتائج، وسنحاول أن نجيب هؤلاء من خلال إبداء عدة ملاحظات :

- إن الجالية المغربية البربرية عندما لاحظت سوء تصرف عبد الرحمان بن المنصور خدلته كما خذله الأندلسيون أنفسهم رغم ما نعلم من علاقة وطيدة بين العامريين والبرابر، وهذا ينفي أن يكون البرابرة مجرد آلة عسكرية في يد الجهاز العامري.

إن ثورة الأندلسيين على عبد الرحمان بن المنصور كانت ثورة عارمة، ولم تكن نسج البرابرة حتى يقال أنهم مصدر الفتنة.

- إن الفتنة نشبت حينما استفز العامة - عماد حكم المهدي - البرابرة وهاجموهم، فأي رد فعل منن هذا القبيل، إذن، هو بمثابة الدفاع عن النفس.

- إن البرابرة الذين كانوا تحت قيادة سليمان قاتلوا امرأ متحالفين مع ممالك مسيحية، فعملهم، إذن، في هذا الاتجاه هو دفاع عن الوجود العربي الإسلامي بالأندلس.

- انتهز عامة قرطبة خروج البرابرة عن مدينة الزهراء ونهبوها بعنف، وهذا يتعارض مع ما يحاول بعض المؤرخين - خاصة الأندلسيين منهم - أن ينسبه إلى البرابرة من تخريب ودمار. فقد كان للأندلسيين دور كبير فيما لحق ببلادهم من تخريب أثناء الفتنة.

---

10 - المصدر السابق 353.

11 - ابن عذارى، المصدر السابق، ع 3: 95.

- إن التخريب والدمار الذي تتحدث عنه المصادر التاريخية الأندلسية جاء في الواقع نتيجة عناد الأندلسيين أنفسهم ومواجهتهم لثروات البرابرة بكثير من العنف، الأمر الذي أدى إلى خلق نوع من العلاقات بين الطائفتين يطبعها الحذر وعدم الثقة.

وفي الأخير كمقارنة بين وضعية الجاليتين بكل من المغرب الأندلس نلاحظ :

- أن المغاربة البرابرة لم يكن لهم أي طموح في هذه الفترة للاستيلاء على الأندلس وضمها إلى المغرب، في حين كانت رغبة حكام قرطبة دائما بث النفوذ الأندلسي بأرض العدوة.

- إن الجالية الأندلسية في هذه الفترة لم تتعرض إلى ما تعرضت له الجالية المغربية البربرية عن تقتيل وسلب ونهب.

لم يكن للمغاربة أي عداء واضح في هذه الفترة للأندلسيين، في حين نجد أن هؤلاء الآخرين يعاملونهم كأعداء، وأحيانا سينتصرون عليهم بالممالك المسيحية.

لكن على الرغم من هذه المواجهة السياسية فإن التداخل الحضاري أصبح لفعل هذا الاحتكاك حقيقة ملموسة.

نشير أولا إلى أن قرطبة كانت تقبل على منتجات المغرب خاصة ذهب الصحراء عن طريق فاس وسبتة وسجلماسة، حتى أن الدنانير الذهبية الأندلسية كانت تضرب باسم الأمويين في مدن مغربية مثل نكور وفاس وسجلماسة[13].

كما لا ننسى في هذا المجال أيضا التأثير الحضاري الذي أحدثته في هذه الفترة هجرة أفواج كبيرة من المغاربة البرابرة إلى الأندلس، خاصة أن بعضهم توصل إلى تكوين إمارات مستقلة بعد سقوط قرطبة. أما المغرب الزناتي فقد استفاد من جهته بتبعيه للأندلس من حيث تبنيه للمذهب المالكي، اقتداء بقرطبة، وترسخت جذوره منذ ذلك الوقت إلى الحد الذي جعل الراعي الأندلسي يصرح : «... ليس في بلاد المغرب كلها - سودها وبيضها - شافعي ولا حنفي ولا حنبلي، بل كلهم على مذهب مالك، لا يشارك في ذلك ولم يظهر أحد من أهل البدع ولا من الخوارج في المغرب...»[14].

---

12 - السيد عبد العزيز سالم، المصدر السابق، 356.

13 - انظر دانييل اوستاس، تاريخ النفوذ العربية، مقال بمجلة البحث العلمي، عدد مثنى 14 - 15 ؛ يناير / دجنبر 1969، ص 138.

13 - انتصار الفقير السالك، لترجيح مذهب الامام مالك، مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 1849 د، ص 118.

3

سيقوم المغرب بدور حاسم في الميدان السياسي بعد انهيار الحكم المركزي بالأندلس وقيام ملوك الطوائف، وقد نتج عن ذلك امتزاج حضاري سينمو ويستمر طوال عهد المرابطين والموحدين.

استغاث ملوك الطوائف، كما هو معلوم، بيوسف بن تاشفين عقب استيلاء ألفونسو السادس ملك قشتالة على طليطلة، ومملكة بني ذي النون سنة 478 هـ، وكان جواب الأمير المرابطي في مستوى المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها الأندلس، فقد نقل عبد الواحد المراكشي عنه قوله: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة (الأندلس) أن نستنفدها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وأعمالهم للغزو، وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة، وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة تسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي تملكها الروم في طول هذه الفتنة للمسلمين، ولأملأنها عليهم - يعني الروم - خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما أحدهم فرسا يروضه ويستقره، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبي دعوته...»[1].

ونتيجة لذلك فقد فرض الأمير المرابطي الإقامة الجبرية بأغمات على عدد من أمراء الأندلس، نذكر من بينهم، تميم بين بلقين صاحب مالقة، وأخاه عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية.

---

1 - المعجب، 241- 242.

ملاحظة:

كان موضوع الوجود المرابطي بالأندلس موضوع جدال بين المؤرخين.

انظر - مثلا - : محمد بن عبود، التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد الطوائف، ص 250 - 270.

وقد تواصل توافد الأندلسيين بعد ذلك على المغرب لخدمة المرابطين، على أن أهم ما يثير الانتباه في هذه الفترة هو ترحيل عدد من الأندلسيين المسيحيين إلى سلا ومكناس أيام علي بن يوسف بفتوى بن رشد الجد[2].

وقد حاول الموحدون جهد الامكان أن يحافظوا على الوجود العربي بالأندلس، إلا أنهم لم يحرزوا على ما أحرزه المرابطون من نجاح، فقد عبرت جنودهم موارا إلى الأندلس، لكن لم يحالفهم التوفيق ضد غارات الممالك المسيحية، فقد تحطمت حملة الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن ضد القشتاليين تحت أسوار وبذة (567هـ / 1172 م) ومنيت الجيوش الموحدية بهزيمة فادحة، وهلك الخليفة نفسه في الموقعة[3]. ولم تبرز الجيوش الموحدية في جهادها ضد المسيحيين إلا في معركة الأرك التي أحرز فيها الخليفة المنصور انتصاره الباهر على القشتاليين في شهر رجب سنة 591هـ / يوليوز 1195م ، رغم أن هذا النصر لم يلبث أن محت آثاره هزيمة العقاب (609هـ / 1212 م)، والتي كانت ضربة قاضية لقوى الموحدين بالأندلس والمغرب على السواء، إذ لم تمض على وقوعها سوى أعوام قلائل حتى انهار سلطان الموحدين بالمغرب نفسه، وفي ذلك يقول بعض الباحثين: «... إن جولات المرابطين والموحدين في الأندلس، كانت تعني تجنيد القبائل المغربية كلها أو معظمها والسير

---

2 - الونشريسي، المعيار، 8 : 56.
أورد شارل إيمانويل إيفور Ch.E. Dufourcq أن الملشيات المسيحية كانت موجودة بالمغرب منذ العهد المرابطي، وأورد اسم رئيسها وهو : Vicomte de Barcelone وقد اعتنق ابن هذا الأخير الإسلام وانضم إلى الموحدين، وساعد على إدخال عدد من الاسبان إلى الجيش الموحدي من كطلونيا وأرجوان لكن أغلبها كان يتكون من قشتابة. وأغلب الظن أن عددا من الضباط الموحدين ضمن إطار الملشيات المسيحية بالمغرب كانوا في خدمة التاج الأرجواني، إذ كان هؤلاء محط أنظار الكنيسة، فقد عين فرانسيسكوا لوبي فرنانديز دي اين F.L. F de Ain (الأرجواني الأصل) أسقفا بالمغرب، كما طلب البابا Innocent IV من الملك جاك، ومن رئيس أساقفة تراغونة ومن أساقفة برشلونة وميورقة وبلنسة مساعدة هذا الاسقف في عمله الديني بالمغرب، وهذا يعني أن هذه الجالية كتن يتتبع أعمالها بالمغرب ملك أراجون.
انظر : L'Espagne Catalane et le Maghreb, p. 160
ومما يؤكد هذه الحقيقة منها أورده الناصري في الاستقصا (2: 237) وهو بصدد الحديث عن استنجاد الأمير الموحدي ادريس المامون بالاسبيان ضد ابن اخيه يحي : «.... ثم كتب من حينه إلى ملك قشتالة يستنصره على الموحدين، ويسأله أن يبعث له جيشا مع الفرنج (الاسبان) يجوز بهم إلى العدوة لقتال يحي ومن معه من الموحدين، فشرط عليه صاحب قشتالة أن يعطيه عشرة حصون مما يلي بلاده يختارها هو، وإن يبني بمراكش إذا دخلها الجيش الناصري الذين معه كنيسة يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم لصلواتهم، وان من اسلم لا يقبل منه إسلامه ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بإحكامهم إلى غير ذلك، فاسعفه المامون في جميع ما طلبه...»
3 - روض القرطاس، 215، الحلل الموشية، 158.

بها إلى الجهاد. ومهما تكن نتيجة الحرب، فإن آثارها في المغرب كانت دوما زعزعة الكيان الاجتماعي والسياسي في البلاد، ذلك أن القبائل المشاركة في الجهاد كانت تعود إما أقوى مما كانت بفضل الغنائم في حالة النصر أو ضعف في حالة الهزيمة وفي كلتا الحالتين فالنتيجة واحدة، وهي تغيير ميزان القوى في الداخل. على أن وطأة الهزيمة كانت أشد وأقوى، لأن الانكسار في الحرب كان معناه هزيمة القبيلة الحاكمة، وبالتالي زعزعة كيانها، وضعف سلطتها، ومن ثمة تفكك التحالف القبلي وقيام الثوار والمطالبين في كل جهة...»[4]. وعلى كل فقد تواصل في هذه الفترة أيضا توافد الأندلسيين على المغرب، إلا أن ما يسترعي الانتباه هو أنه اتخذ أحيانا شكلا رسميا، بصدور ظهير للخليفة الموحدي الرشيد في 21 شعبان سنة 63 هـ يقضي بإسكان جالية بلنسية وجزيرة شقر، وشاطبة وغيرهم من بلاد شرق الأندلس بمدينة رباط الفتح إذ «أذن لهم.. في النقلة إلى رباط الفتح... بقضيضهم وقضهم، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه يدلا من مساكنهم وأرضهم... وأن يتوسعوا في الحرث ففي أرضه هناك متسع، ويتبسطوا في كل مالهم منه مكافئ وبه منتفع ويغرسوا الكروم وأنواع.. على عادتهم ببلادهم، ويتاثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم...». كما هيأ جميع الظروف لحمايتهم: «والولاة والعمال... مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يلم بجانب من جوانبهم، ويعوق عن مآرب صغير كبير من مآربهم، وأن يكرموا غاية الاكرام بنبهائهم وأعيانهم، ويولوهم من حسن الجوار ما ينسيهم أوطانهم... [5]».

أما عن ظروف استقرار هذه الجالية فسنحاول أو نعرضها من خلال تجربة ابن عميرة، أحد أفراد هذه الجالية وقاضي العدوتين. فهو يعبر أولا عن اغتباطه وسروره بالرباط في رسالة كتبها إلى صديقه أبي الحسين عبد الملك بن مفوز في شاطبة، إذ يقول: «ولعمري ما زاد الثواء إلا غبطة في المثوى، ورغبة في أشياء أتت على ما أهوى[6]. «ويكتب إلى إخوانه وأصدقائه بالأندلس يرغبهم في القدوم عليه ويصف

---

4 - م. عابد الجابري: العصبية والدولة، ص 33 -34 .

5 - هذا الظهير من إنشاء كاتبه أبي المطرف بن عميرة المخزومي، من أفراد الجالية الأندلسية بالمغرب.
ويوجد يزواهر الفكر، مخطوط الأسكوريال رقم 520 (الغريزي)، ص116 - 115.
وقد أورده م. عبد الله عنان في كتابه عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس العصر الثالث، القسم الثاني ص 737 - 738.
كما أورده عبد الله السويسي، في كتابه : تاريخ رباط الفتح، ص 120- 121. وتحدث عنه م. بنشريفة في كتابه أبو المطرف بن عميرة المخزومي، ص

6 - مخطوط الإسكوريال رقم 520، ورقة 101.

لهم «الأحوال وحقائقها والبلدة ومرافقها» ويذكر «ما فيها من تجارة وفلاحة[7]». وهو إذ يشجعهم على الهجرة يضمن لهم «كل عيش هني، وبال رخي»[8]، لكنه من جهة ثانية لايفتأ في معظم رسائله الاخوانية التي يكتبها من الرباط يعبر عن حنين شديد إلى الأندلس وتطلعا إلى أنبائها وتفجعا على مصيرها[9].

هذه تجربة في الاستقرار أيام الخليفة الرشيد، وسيدخل تجربة جديدة بعد موت الخليفة الموحدي وتولي أخيه المعتضد الحكم، وسوف نراها على مستويين :

- مستوى تعامله مع سكان المنطقة، إذ يشير في رسائله إلى بعض المتاعب التي يعانيها من أهل سلا، وموقفهم من الجالية الأندلسية، وهو يصف سلا وأهلها بعبارات صريحة في الهجاء. وينعتهم بالتعصب وعدم الرضوح إلى أحكام القضاء[10]، ثم يذكر كيف كان أهل سلا ينظرون إلى الأندلسيين على أنهم دخلاء، وكيف كانوا يعاملونهم[11].

- مستوى تعامله مع الخليفة الجديد : يشكوا بن عميرة من وشاية خصومه من أفراد هذه الجالية أنفسهم، ويبدو أن هذه الوشايات وجدت آذانا صاغية من المعتضد، إذ لم يلبث أن نقله من قضاء الرباط وسلا إلى قضاء مكناسة، وقد أقدم وهو بمكناسة على عمل خطير، وذلك بإسهامه في محاولة فصل هذه المدينة عن دولة الموحدين وجعلها تابعة للحفصيين[12]. ونجده يكتب إلى صديقه ابن خلاص (وهو أيضا أندلسي) ليسهل له أسباب السفر إلى سبتة[13]، وعندما يصل هناك يطلق لسانه في شتم الخليفة المعتضد.

تلك هي تجربة ابن عميرة، وهي تجربة كثير من الأندلسيين بالمغرب في هذه الفترة. يبدأ الاستقرار عاديا، يتلوه في مرحلة ثانية احتكاك مع سكان المنطقة ليتلوه

---

7 - المصدر السابق، ورقة 100.

8 - المصدر السابق، رقم 101.

9 - انظر رسائله، مخطوط خ .ع . بالرباط عدد 233 ك. ص 107.

10 - م. بنشريفة، أبو المطرف بن عميرة ص 131.

ملاحظة :

ردد ابن الخطيب بتوسع هذه النعوت التي ألصقها ابن عميرة سلا وأهلها في مفاخراته المعرفة بين مالقة وسلا، ولا يستعد أن يكون ابن الخطيب قد اطلع على رسالة بن عميرة في هذا الشأن. انظرها في كتاب مشاهدات لسان الدين بن الخطيب للدكتور المختاري العبادي.

11 - م. بنشريفة، المصدر السابق ص 131 - 132.

12 - ابن عذاري، المصدر السابق، 4 : 451، ابن خلدون، المصدر السابق 6 : 257.

13 - رسائل ابن عميرة مخطوط خ .ع . بالرباط عدد 233ك، ص 44.

بعد ذلك احتكاك مباشر مع السلطة (بفعل وشاية معينة)، فكيف يمكن تفسير هذا السلوك؟.

يبدأ استقرار الأندلسي عاديا لأنه يكون في فترة «دراسة» للبيئة التي يعيش فيها، وبالتالي الطرق التي تمكنه من البروز على الساحة الاجتماعية، وعندما ينتهي من هذه (الدراسة يبدأ في العمل انطلاقا من محيطه الذي يعيش فيه، ولكنه يجد مواجهة عنيفة يضطر معها إلى البحث عن طريقة توصله إلى القصر، ويصل بالفعل (بفعل ملكته العلمية والأدبية)، لكنه سرعان ما يجد الرغبة تعتريه من جديد للاستحواذ على كل شيء مما يثير غضب مواطنيه أولا، وأهل البلد ثانيا، من هنا تبدأ الوشايات وتبدأ معها النكبات.

- المد الحضاري

توافد عدد كبير من الحرفيين والصناع الأندلسيين إلى المغرب في هذه الفترة، وخاصة في ميدان دباغة الجلود وتصفية قصب السكر، وصناعة الخزف في كل من مراكش وفاس.

وفي ميدان البناء والمعمار نشير إلى أن يوسف بن تاشفين استقدم عددا من الصناع من قرطبة إلى مدينة فاس للزيادة في مساجدها وسقاياتها، وحماماتها وخاناتها[14]، كما استقدم علي بن يوسف المهندسين لبناء قنطرة تانسيفت[15]، كما قاموا ببناء القنوات التي تنقل الماء من الجبل إلى مراكش، وهذا النوع هو الخطارات التي ما تزال تستعمل إلى الآن[16].

وقد تواصل المد الحضاري الأندلسي في العهد الموحدي خاصة في عهد يوسف[17]، إذ زين مراكش واشبيلية معا بأروع البنايات والمؤسسات العمومية[18]، وواصل ابنه يعقوب المنصور ذلك، فأضاف إلى مدينة مراكش وفاس مدينة الرباط

---

14 - علي الجزنائي، جنى زهرة الآس، 42.

15 - عبد العزيز بنعبد الله، معطيات الحضارة المغربية، 1 : 113.

16 - المصدر السابق، 1: 115.

17 - يرجع اهتمامه الكبير بالحضارة الأندلسية إلى كونه عاش في اشبيلية وتشبع بالثقافة الأندلسية، وجمع خزانة تضاهي مكتبة الحكم الثاني، و تعددت منشآته باشبيلية إلى الدرجة التي زعم فيها بعض الباحثين أن اشبيلية كانت أقرب إلى قلبه من مراكش.

انظر . ع . العزيز بنعبد الله، المصدر السابق، 1: 113.

18 - نفس المصدر والصفحة.

التي أصبح التأثير الأندلسي فيها واضحا لعلاقاتها الوطيدة بالأندلس[19]. ولم يقتصر الأمر على الميدان الصناعي والحرفي، بل تعداه إلى الميدان العلمي، إذ استقر عدد من العلماء الأندلسيين بالمغرب، ناشرين معارفهم وطرق تعليمهم.

- ففي ميدان العلوم البحتة نذكر على الخصوص : علي بن محمد فرحون القرطبي في الرياضيات[20]، وأحمد بن حسان القطاعي في الهندسة[21]، وأبا الوليد بن رشد في الطب والصيدلة[22].

- في ميدان العلوم العقلية : نذكر وصول عدد من فلاسفة الأندلس إلى المغرب، إذ نجد عبد المومن - مثلا - يدعو ابن رشد سنة 548 / 1153 إلى مراكش «ليستعين به على ترتيب المدارس التي أنشأها بمراكش»[23]، كما نذكر تعلق الخليفة الموحدي يوسف بابن طفيل[24].

- في ميدان العلوم الشرعية: ساهم أندلسيو المغرب في تطوير العلوم الشرعية من تفسير، وقراءات، ورسم، وحديث، وأصول. ومن هؤلاء نذكر يحي بن محمد بن خلف، وابن يوسف الغافقي[25].

- في ميدان الأدب والفن: أدخل الأندلسيون إلى المغرب في هذه الفترة في التوشيح، إذ توافد عليه عديد من الوشاحين، ومن هؤلاء أبو بكر بن الحفيد[26]، كما ادخلوا إليه الزجل الأندلسي حتى أصبحت مقروءة بالمغرب، ومن الزجالين الأندلسيين به نذكر سهل بن مالك الغرناطي[27].

وهناك صنف ثالث من الشعر الغير المعرب كان الجالية الأندلس بالمغرب دور في نشره به، يقول ابن خلدون في هذا الصدد: «... ثم استحدث أهل الأمصار بالمغرب فن آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كالموشح نظموا فيه بلغتهم الحضرية

---

19 - لكونها كانت قاعدة انطلاق الجيوش الموحدية نحو الأندلس.

20 - أبن القاضي جدوة 2 ك 483 رقم 545.

21 - عبد الواحد المراكشي، المعجب، 350.

22 - انظر مزيدا من هؤلاء عند ابن أبي اصبيعة، طبقات الأطباء، 2 : 66 وما بعدها.
وكذلك م. المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص 123 - 134.

23 - م. زنبير، ابن رشد والرشدية في اطارهما التاريخي، ضمن أعمال ندوة ابن رشد، ص 28.

24 - عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق. 349.

25 - م. المنوني، المصدر السابق، 44. 58.

26 - المصدر السابق، 148.

27 - نفس المصدر والصفحة.

أيضا وسموه عروض البلد، وكان أول من استخدمهم فيه رجل من أهل الأندلس نزل بفاس يعرف بابن عمير، فنظم قطعة على طريقة المرشح ولم يخرج فيها من مذاهب الأعراب إلا قليلا فاستحسنه أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته...»[28].

ونشير في الأخير إلى أن الموسيقى الأندلسية تسربت في هذا العص إلى المغرب أيضا انطلاقا من العصر المرابطي، إذ انتقلت إليه شخصيات مرموقة في هذا الميدان، عملت على نشرها في مدن مغربية عديدة[29]. ومن هؤلاء ابن باجة رائد هذه الموسيقى، إذ استقر بالمغرب عشرون سنة كوزير لمخدومه يحي بن يوسف بن تاشفين[30]، ومن الموسيقيين الوافدين من الأندلس كذلك في هذه الفترة أبو الحسن علي الغرناطي تلميذ ابن باجة، ممن برع في ألحانها لطلبته[31] غير أن انتشار الموسيقى الأندلسية بالمغرب صادف ظهور بعض العقبات في العهد الموحد[32]، خاصة أيام يعقوب المنصور الموحدي، إذ جاء عنه: انه أمر بقطع الملهين، والقبض على من شهر من المغنين، فثقف من وجد منهم بكل مكان، فغيروا هيئاتهم، وتفرقوا على الأوطان وبارت سوق القيان، وزهد كل الزهد في هذا الشأن...»[33]. لكن بعد أيام المنصور اختلفت هذه الاجراءات ضد الموسيقى، وعادت تجارة القيان للظهور بالمغرب، حيث تعرض جوار بارعات في الألحان الأندلسية بعد ما يتعلمنها في اشبيلية[34].

28 - المقدمة. 1160.

29 - م. المنوني، تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب، مقال بمجلة البحث العلمي، العددان 14 -15، يناير / دجنبر 1969؛ ص 50.

30 - أ. المقري، نفح، 4 : 618.

31 - المصدر السابق، 4: 140.

31 - قامت هذه الدولة كما هو معروف على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقامت بمضايقة الموسيقين، إذ أمر المهدي بن تومرت أصحابه بتكسير آلات اللهو.

33 - ابن عذاري، المصدر السابق، 3 : 145.

34 - م. المنوني، المصدر السابق، 151.

4

تميزت العلاقات المغربية الأندلسية في العهد المريني بالتدخل المستمر للقوات المغربية بالأندلس للمحافظة على ما بقي من الثغور، لكن دون جدوى، إذ لم تبق في الأخير إلا غرناطة. وسيؤدي هذا التدخل المستمر إلى انهاك القوات المغربية وعجزها عن الاستمرار فيه، لكن استمر المد الحضاري الأندلسي بفعل هجرة عدد كبير من الأندلسيين إلى المغرب.

وظلت القواعد الأندلسية تتساقط باستمرار نتيجة التعاظم المستمر للقوات المسيحية، وتراجع القوات الأندلسية أمامها. ويرجع ابن عاصم[1] ذلك إلى عاملين:

– أساليب الاسبان لاستمالة المسلمين: «... ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين، وأعمال الحيلة على المؤمنين، واضمار المكيدة للموحدين واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، وانه منطو لأهله عن القصد الأسنى، وأنه مهتم بمراعات أمورهم... فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب البحث بوجه أو بحال... فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال ذرة، أو يطمع منههم في جلب المنفعة أو دفع المضرة. اللهم احفظ علينا العقل والدين، واسلك بنا سبيل المهتدين...»[2].

---

1 – هو أبو يحي بن أبي بكر بن عاصم القيس، تولى اثنتي عشرة خطة، منها القضاء والكتابة والوزارة والامامة والخطابة، في فترات عصيبة بالنسبة للأندلس، وشاهد أمام عينيه مدن الأندلس تسقط الواحدة تلو الأخرى، ولم يبق بيد المسلمين إلا غرناطة، التي بدا العدو يستعد للوثوب عليها. وقد لاحظ عدم جدية ملوك بني نصر وتهاونهم واشتغالهم بفتنهم الداخلية وأفضت به تأملاته إلى تأليف كتابه جنة الرضى، في التسليم لما قدر الله وقضى سنة 854 هـ في عهد الغالب بالله محمد بن نصر أمير غرناطة (مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 2648ص) وقد وضعه في شكل «صور» محاولا البحث عن أسباب المأساة. وفي نفس الوقت للتحذير من الخطر الداهم.

انظر ترجمته عند:

أ – المقري، أزهار، 1 : 50 – 55.

2 – جنة الرضى، ص 280.

- الخلاف في السلطة: «... فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان واجب قياسا وسماعا، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز اجماعا، واتم إليها الملأ المشتمل على الشرفاء الذين بتقديمهم ستنجز من البركة موعدها والعلماء الذين هم حفظة الشريعة الحنيفية أن تتعدى حدودها والأشياخ الذين بجهادهم استقر واجبها، واستقام جانبها، واستقل عمودها، والقواد الذين بحمايتهم تقام أحكامها، وتحاط أعلامها، وتوفر عهودها، والفرسان الذين هم حماتها وانجادها وأنصارها، وجنودها، والخاصة الذين بهم يرجح عملها وينجح أملها ويتم مقصودها، وتعلمون حقا أن هذا الوطن الأندلسي قد تحين للهلاك بسبب هذا الخلاف...»[3].

هذه، إذن هي أوضاع الأندلس، كما صورها مؤرخ معاصر، فماذا كان موقف المرينيين من الأحداث؟

نذكر منذ البداية أن رد فعل المغاربة كان في مستوى المرحلة التاريخية التي تجتازها الأندلس، والنص التالي يبين إلى أي مدى وصل تجاوب المغاربة مع الأندلسيين، إذ قال صاحب الذخيرة السنية (ص 98)، وهو بصدد الحديث عن أحداث سنة 662: «فيها جاوز المجاهدون من بني مرين والمتطوعة من أهل المغرب إلى الأندلس برسم الجهاد وقائدهم الأنجد محمد بن ادريس بن عبد الحق، وأخوه الفارس المجاهد عامر بن ادريس، والحاج المجاهد التاهرتي، فجاوزوا في جيش عظيم من بني مرين وقبائل المغرب خيلا ورجلا يزيدون على ثلاثة آلاف بين فارس وراجل، فعقد لهم أمير المسلمين يعقوب رايته المنصورة، وجهزهم بالخيل والعدد ابتغاء ثواب الله عز وجل... والسبب في جوازهم أن النصارى - دمرهم الله - كانوا في بلاد المسلمين بالغارات والسبي فأبادوا أكثرها، وأهلكوا قواعدها، فتفجع أهل العدوة لحالهم...».

ويكفي أن نذكر أن يعقوب بن عبد الحق المريني اجتاز أربع مرات إلى الأندلس[4]. كما أن ملوك بني نصر درجوا على أن يكلوا باسم «شيخ الغزاة»، ومن أبرز هؤلاء أسرة تنتمي إلى بني مرين تعرف «ببني العلا» على رأسها شيخها عثمان بن أبي العلاء ادريس بن عبد الله، وتعني هذه الخطة من بني نصر التقرب من بلاط

---

3 - المصدر السابق، ص 282.

4 - خصص ابن أبي زرع لغزاوته الأمير المريني بالأندلس أكثر من 36 صفحة من كتابه روض القرطاس (ص 313 وما بعدها)، وهو يصف بدقة مراحل الجهاد، والظروف الطبيعية والبشرية التي صاحبت هذه الهجمات، وامكانيات الطرفين، مما يدل على أن احداثها كانت آنذاك معروفة ومشهورة.

فاس، وتوثيق الروابط العسكرية - على الخصوص- بين الأندلس والمغرب، ومن ناحية أخرى لما عرف عن القادة المغاربة من شدة المراس لفنون الحرب، وطول التجربة في ميادين القتال[5].

لكن هل حقق التدخل المغربي أهدافه ؟

نشير أولا أن التدخل المغربي بالأندلس كان من قبيل «إنقاذ ما يمكن انقاذه»، فجل الثغور كانت قد سقطت بالفعل، والاسبان ركزوا أقدامهم هناك، ولم تبق إلا غرناطة جسما ينخره الخلاف على السلطة من جهة، والتهجم الاسباني المستمر من جهة أخرى. وبعبارة أخرى فإن كل شيء بالأندلس كان يسير نحو مصير محتوم، سواء تدخل المغرب أم لم يتدخل.

ونشير ثانيا إلى أن تدخل المغرب المستمر بالأندلس سوف يؤدي إلى انهاك قواته، وبالتالي عجزه على الاستمرار فيه[6]، بل ستعجز هذه القوات عن المحافظة على الأمن والاستقرار داخل المغرب نفسه.

وهكذا سوف يتراجع عن الأندلس في الوقت الذي كان يسير فيه نحو التفكك والوقوع تحت نفوذ القوات البرتغالية الناشئة.

- استمرار المد الحضاري الأندلسي

تواصل المد الحضاري بالمغرب بفضل استمرار هجرة عدد كبير من الأندلسيين من مختلف الفئات: علماء وأدباء وأطباء، وحرفيين، وسوف نعطي نماذج للميادين التي برز فيها هؤلاء:

- الميدان السياسي

استعان عدد من سلاطين بني مرين بعدد من سياسيي الأندلس وقضاتها وكتابها، مثل ابن رضوان المالقي الذي «كان يكتب عن السلطان ألي سالم»[7]، إلى أن أصبح

---

5 - ابن خلدون، العبر 7: 209، أ. المقري، نفح،2 . 239، م عبد الله عنان نهاية الأندلس، ص 107، م كمال شبانة، يوسف الأول ابن الأحمر، ص 45.

6 - امام عجز ملوك بني مرين عن الجواز إلى الأندلس اتجه امرؤها إلى بعض أفراد الجالية الأندلسية بالمغرب لحثهم على انقاذ بلادهم، وهكذا، فقد فوض أمر الدعوة إلى الانقاذ إلى أبي عثمان و سعيد الرندي نزيل فاس.

انظر تفاصيل ذلك عند أ. العلوي، الأنوار السنية، في ثنايا بعض الرسائل الواردة في محاذية أبي الحسن الشريف ورفيقه، ص 41 - 50.

7 - ابن خلدون ، التعريف 23.

«من مفاخر المغرب، في براعة خطه، وكثرة علمه، وحسن سمته، واجادته في فقه الوثائق، والبلاغة في الترسيل عن السلطان، وحوك الشعر، والخطابة عن المنابر، لأنه كان كثيرا ما يصلي بالسلطان...»[8]. وقد اقترح عليه مخدومه أن يكتب له رسالة في «السياية الملوكية والسير السلطانية»، فاستجاب له بوضع كتابه المشهور: الشهب اللامعة في سماء السياسة الجامعة[9].

هكذا نجد أن أبا سالم عندما شعر أن الدولة المرينية قد دخلت فعلا في دور الانحلال وأحس بالحاجة إلى اعادة النظر في الأنظمة المرينية التجأ إلى ابن رضوان الأندلسي مما يدل على المكانة التي كان يحتلها هؤلاء الأندلسيون في البلاط المريني[10].

وهناك أندلسي آخر من أندلسيي البلاط المريني اهتم بهده التنظيمات الحكومية، ذلك أن عليا ابن محمد ابن مسعود الخزاعي الأندلسي نزيل فاس (ت 789هـ / 1387) قدم لمخدومه موسى ابن أبي عنان سنة 786هـ / 1384) كتابه المشهور: تخريج الدلالات السمعية، على ما كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية[11].

ويتحدث ابن خلدون عن أندلسيي خدم البلاط المريني قائلا : «... ومنهم صاحبنا الكاتب القاضي أبو القاسم محمد ابن يحي البرجي، من برجة الأندلس، كان كاتب السلطان أبي عنان وصاحب الأنشاء والسر في دولته وكان مختصا به، واثيرا لديه. وأصله من برجة الأندلس نشأ بها، واجتهد في العلم والتحصيل، وقرأ وسمع، وتفقه على مشيخة الأندلس، واستبحر في الأدب، وبرز في النظم والنثر، وكان لا يجاري في كرم الطباع، وحسن المعاشرة، ولين الجاني، وبدل البشر والمعروف...»[12]

لكن هناك أكثر من باحث يسجل جانبا سلبيا لوجود هذه الفئة داخل البلاط المريني، إذ يذكر بعضهم في هذا الصدد: «... ومن غير شك فإن هؤلاء الارستقراطيين النازحين من الأندلس، ومن بينهم سياسيون محترفون، قد لعبوا دورا له أهميته في توجيه الأحداث، سواء داخل القصور أو خارجها. لقد حمل هؤلاء معهم، ليس

8 - نفس المصدر والصفحة.

9 - نشر بالدار البيضاء سنة 1984 بتحقيق على سامي النشار.

10 - لم تتم هذه المحاولة الاصلاحية التي رسم خطوطها ابن رضوان، ومن أسباب ذلك قصر مدة أبي سالم وما فاجاه من انقلاب أودى بحياته في النهاية ثم اهمال من قاموا بعده لهذا «المشروع الأندلسي».

11 - طبع بتونس بتحقيق الشيخ معاوية التميمي.

12 - ابن خلدون المصدر السابق، 66.

ذكاء الحضري وذهاءه وحسب، بل الخبرة والاحتراف السياسي أيضا، الشيء الذي مكنهم من دور الموجه، ولو من وراء الستار. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن دخول هؤلاء الارستقراطيين من علماء وسياسيين في بلاط الأمراء السلاطين بالمغرب، جعل منهم حاشية ارستقراطية جرفت معها إلى أسلوب حياتها المعتمد على البدخ والترف والاستماع بالملذات، أولائك الحكام أنفسهم، مما فصلهم عن ذويهم وعشائرهم. وهذا الانفصال بين الحاكم وقبيلته كان يعني في الواقع انفصال السلطان عن جنده وتنكره للرجال الذين شكلوا أول الأمر دعائم ملكه. والنتيجة الحتمية لذلك هي ضعف سلطته، وفتح الباب عن مصراعيه للمغامرات والمؤامرات...»[13]

- في الميدان العسكري

غزا الأندلسيون أيضا الميدان العسكري إذ نلاحظ حضورهم بقوة في الجيش المغربي، وقد اعتلى عدد منهم مناصب القيادة بل صار البعض منهم حكما فصلا بين أفراد هذا الجيش.

ففيما يتعلق بالجيش البري نلاحظ أن الأندلسيين كانوا يشكلون فرقة خاصة يرمون «بقوس الرجل»[14]، وكان عددهم أزيد من ألفي فارس[15]، علاوة على فرقة الأندلسيين المشاة[16]. ويعود وجود هذا العنصر الأندلسي في الجيش المغربي إلى أيام المرابطين، حيث صار يؤلف قسما خاصا من الجيش[17]. ومن مظاهر تنظيمات هذا الجيش أنه كان له قاض خاص يسمى قاضي العساكر حسب ابن خلدون[18]، أو قاضي المحلة حسب أحمد بابا السوداني[19]، ومن بين الأندلسيين الذين شغلوا هذا المنصب - في عهد أبي سالم - محمد ابن يحي البرجي[20].

---

13 - م. عابد الجابري، العصبية والدولة 33 - 34، وانظر أيضا ما يقوله عبد الله العروي في كتابه: Histoire du Maghreb pp. 196-197

14 - انظر وصف «قوس الرجل» عند ابن هذيل حلية الفرسان، ص211 - 212.

15 - م. المنوني، وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن، ورقات، 291.

16 - المصدر السابق، 70.

17 - الحلل الموشية، 25.

18 - العبر، 7، 392، 401، 403.

19 - نيل الابتهاج، 76 - 80.

20 - ابن خلدون المصدر السابق، 7: 403.

وكان سلاح قواد الأندلس (القسي الفرنجية)[21]، أما سلاح باقي قواد جيش بني مرين فهو القسي العربية المجلوبة من البلاد المشرقية والمحكمة عملها في المغرب[22]، واختصت خيول الأندلسيين بحسن الترتيب والبراقع البديعة الجمال، والجلاجل المذهبة التي يملأ الجواسواط أجراسها[23]. وحسب وصف شاهد عيان فإن المشاة الأندلسيين: «كانت عليهم الأقبية االمختلفة الألوان، وفوق رؤوسهم الرتافيل[24] قد اعتقوا بالعصى الطوال وثنوا بالأمراس[25]، وتقلد بالنبابيل[26] وما منهم إلا من حملت عصاه راية تداعب هبات النسيم»[27].

وقد استعان سلاطين بني مرين كذلك بالأندلسيين في الأسطول أما كمهندسين أو قادة وهكذا فقد بنيت «دار الصناعة» بسلا على يد مهندس أندلسي: محمد بن علي بن عبد الله بن الحاج الأشبيلي (ت 714 هـ/ 1314) قبلى مدينة سلا من جهة وادي أبي رقراق، وجعل لها بابان كان الوادي يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر بصناعة هندسية حيث جلب من الوادي إلى الباب المسامت لجامع حسان في ترعة عميقة، فإذا صنعت سفينة جديدة بهذه الدار وأريد ارسابها في الوادي فتحت الترعة فيدخل الماء وتقوم فيه السفينة، ولذلك ارتفع قوس الباب القبلي جدا، ليخرج المركب منشور القلاع[28].

ومن بين قادة هذا الأسطول الأندلسيين محمد بن يوسف ابن الأحمر وقد عينه أبو عنان قائدا أعلى[29]. وشارك هذا القائد في مناورات بحرية كان يشرف عليها أبو عنان نفسه. منها هذه المناورة عند شاطئ بجاية، إذ يقول شاهد عيان في ذلك: «امتثالا لتعليمات أبي عنان اصطفت أساطيل البلاد البحرية المتوكلية، بتقدمهم

---

21 – تسمى أيضا القوس الرومية. وقد ورد ذكرها في نفاضة الجراب (27:2) كسلاح مستعمل بالمغرب وهي غير القوس العقارة واللولبية كما يؤخذ من هذا المصدر. وانظر عن أنواع الاقواس. دوزي، ملحث المعاجم العربية، 2: 418.

22 – م. المنوني، المصدر السابق، 74.

23 – نفس المصدر والصفحة.

24 – الرتافيل: اسم اسباني يراد به نوع من القلانس المقبية

25 – الأمراس: الحبال.

26 – النبابيل: رجح م. المنوني أن يكون المقصود بها السهام، ورقات، ص 87، هامش ط 137.

27 – ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص 83 – 86.

28– م. ابن علي، الاتحاف الوجيز ص 27.

29 – ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص 19.

القائد الأعلى بن الأحمر في طريدته...»[30]، ونشير إلى أن هذا الأسطول لم يقتصر أمره على الجهاد البحري بل لعب دورا هاما كذلك في التجارة بين المغرب والممالك الاسبانية.

- الجهاد البحري والتجارة بين المغرب والممالك الاسبانية

انتشر الجهاد البحري في الثغور المغربية منذ هزيمة العقاب كرد فعل مباشر وسريع ضد هذه الهزيمة، وقد تمركز بالخصوص في سلا وسبتة وتطوان[31]، ومما ساعد المغرب على القيام بهذه العمليات امتلاكه لثروة خشبية هامة (خاصة في الريف والمغمورة)، لتغذية بناء الأسطول، ويتجلى هذا بالخصوص في امتلاك مجاهدي سلا وسبتة لأدوات عملهم بشكل كاف[32] غير أن الجهاد البحري لم يعق قط حركة التجارة بين العدوتين، إذ كان مجرد مغامرة، أو حادث من جملة الأحداث التي يعرفها البحر»[33]، فقد عرفت بعض الموانئ المغربية نشاطا دائبا، إذ كانت تستقبل التجار الايطاليين والاسبان[34]، وغدت مدينة سبتة سنة 1227 بفعل ذلك أهم مدينة في المغرب العربي لها علاقات وطيدة مع برشلونة[35]. وهناك موانئ أخرى كانت تقوم بنفس الدور (الجهاد والتجار) مثل بادس والمزمة وغساسة. ففيما يتعلق ببادس نلاحظ أن ذكرها يتكرر باستمرار في الحوليات الكطلانية[36] أو العربية[37]، فيذكر - مثلا - الحسن الوزان ما يلي: «... ينقسم السكان إلى قسمين: صيادون ومجاهدون يذهبون في زوارقهم لنهب السواحل الاسبانية والجبال حول بادس شاهقة وعرة فيها خشب صالح لبناء الزوارق والسفن الشراعية الحربية... وفي خارج القصبة أيضا بجوار البحر دار صغيرة تصنع فيها الزوارق والسفن الشراعية وبعض المراكب. وقد اعتاد الأمير والأهالي أن يسلحوا الزوارق ويرسلونها إلى بلاد النصارى فيلحقون بها الكثير من الأضرار»[38].

---

30 - المصدر السابق ص 127- 130.

31 - CH.E.Dufourcq, l'Espagne Catalane et le Maghreb, p. 157

32 - Lombard, une carte du bois, pp. 238 et 241

33 - Hardy, Le Maroc, p 23.

34 - CH. E. Dufourcq op. cit. p 158

35 - CH. E Dufourcq. op cit. p. 158 note 2

36 - CH. E. Dufourcq, op. cit p. 158 note 6.

37 - انظر - مثلا - روض القرطاس، مواضع متفرقة ، وابن خلدون، العبر، مواضيع متفرقة.

38 - وصف افريقيا، I: 253 - 254.

وقد كانت عمليات الجهاد البحري هاته يتلوها اسر عدد من الاسبان، فحوالي سنة 1313 افتدى مبعوثان من برشلونة (كيم خيرالت Guillem Giralt وكلوديو دي سان رامانClaudio de San-Raman 236 أسيرا مسيحيا من مراكش، ودخل بعض هؤلاء الأسرى في علاقات مع المغاربة فقد تعلق فارس اسباني بأمير مرينية وكاد يعتنق الاسلام[39].

ونشير في الأخير إلى الأندلسيين المستقرين بالموانىء حملوا معهم كذلك عاداتهم وتقاليددهم التي نشروها بين السكان، وقد تصدى عدد من فقهاء المنطقة ومصلحيها - فيما بعد- بهذه العادات والتقاليد الداخلية، خاصة أن أمرها لم يقتصر على الموانىء، بل تعداه إلى داخل الريف[40].

- الجالية العسكرية الاسبانية بالمغرب

بلغ عدد أفرادها أيام أبي الحسن المريني أربعة آلاف أو أزيد[41]، وقد كانت طائفة منهم تقوم بالحراسة الليلية في ظاهر القصر المريني بفاس الجديد. وكان لهذه الجالية ربض خاص تحدث عنه العمري في مسالك الابصار - وهو بصدد الحديث عن فاس - في الفقرة التالية: «... وربض النصارى المتخذ لسكنى الطائفة الفرنجية[42] المختصة بخدمة السلطان[43].

ويبدوا أن وجود هذه الملشيات المسيحية آثار بعض المشاكل خاصة في عهد يعقوب المريني التي وقعت في عهده حادقة استيلاء الاسبان على سلا[44]، إذ من

---

39 - CH. E Dufourcq op. cit. p 476

40 - م. حجي، الحركة1: 218 - 220، وع القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون ص147، ومابعدها.

41 - م. المنوني، ورقات، 291، اعتمادا على مسالك الابصار للعمري.

ملاحظة:

يورد م. ابن مرزوق في المسند (ص 116 أن عدد النصارى الملازمين لخدمة السلطان أبي الحسن المريني يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف. ويفيد هذا المصدر أن روايتهم كانت ما بين خمسة دينارا كل شهر).

42 - المقصود هنا الاسبان، وقد استخدمها بنفس المعنى ابن خلدون في المقدة، ص 486، والناصري في الاستقصا 2: 237.

كما سجل شارل امانويل دي فور نفس الملاحظة في المصدر السالف الذكر، ص 160 هامش 7.

43 - م. المنوني، المصدر السابق 273.

44 - م. ابن مرزوق المسند، 116 ونصه: «وخص النصارى الخدام بمسلك يميزون به عمن عداهم، وهو الذي استنقذ سلا من أيدي النصارى بعد استيلائهم عليها وتملكهم لها».

وتتضح هنا العلاقة بين عزل الجالية الاسبانية عن فاس والاستيلاء على سلا.

المحتمل أن يكون السلطان المريني قد أشار بأصبع الاتهام لهذه المليشيات المسيحية فيما يتعلق باحتلال سلا، وكان شارل امانويل دي فور قد أوضح أن رئيس المليشيات المسيحية في العهد المرابطي (Reveter) كان يعطي معلومات عن المغرب للماللك الاسبانية[45]، فليس من المستعبد، إذن، أن يقوم ضباط هذه المليشيات بنفس الدور الذي قام به سابقوهم، خاصة أن العمل كان مباركا من طرف الكنيسة إذ أن عمليات التنصير أصبحت تجري على قدم وساق بالأندلس وبمرأى ومسمع من الجميع فقد تنصر السويد أبو زيد أخو أبي دبوس باشبيلية، فحلق الفونشو بحيته بيده حلة ووقفه على رأسسه. فلما كساه الحلة صعد عى كرسي عال يشرف منه على الناس ثم قال : أشهدكم يا من حضر من المسلمين والنصارى واليهود أني قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة وكنت أكتمه وأنا الآن قد أبحته وأظهرته، وان دين المسيح ابن مريم هو الدين القديم الأزلي[46].

وقد قرر يعقوب المريني أن يتخذ موقفا حازما تجاه هذه التطورات العسكرية والسياسية، إذ يذكر ابن أبي زرع أنه «أخرج أجناد الروم الذين يسكنون مدينة فاس عنها، وبنى لهم خطوة بخارج المدينة وأسكنهم فيها، ورفع أذاهم عن الناس....»[47].

ويذكر نفس المؤرخ في مكان آخر وهو بصدد الحديث عن حوادث سنة 659 هـ : «وفيها أمر أمير المسلمين يعقوب بإخراج النصارى من فاس وبنى لهم المرس القديم بخارج باب الشريعة على يد عامله أبي العلاء ابن أبي طلحة» [48].

وواضح من خلال النصين، إذن، أن عمل هذه الجالية الاسبانية بالمغرب أصبح بسبب متاعب للسلطة سواء على المستوى الديني أو الاجتماعي أو العسكري، لكن السؤال المطروح: إذا كان الأمر كذلك، لماذا احتفظ المرينيون بمثل هذه الجالية إذا كان أذاهم قد عم الناس ؟

يبرر ابن خلدون وجود هذه الفرقة في الجيش المريني بأن قتال الفرق الأخرى للجيش كان بالكر والفر، والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف، فلذلك احتاج الملوك المرينيون أن يتخذوا جيشا من هؤلاء المتعودين للقتال بالمصاف، حيث

---

45 - L'Espagne Catalane et le Maghreb, p. 160

46 - ابن أبي زرع، الدخيرة السنية، ص 96.
47 - المصدر السابق ص 91.
48 - المصدر السابق ص 96.

كانوا يستعملونهم في حروبهم مع غير المسيحيين، أما في الجهاد فلا يستعينون بهم البتة[49].

وواضح من النص أن المرينيين اتخذوا هذه الفرقة لمواجهة خصومهم الداخليين، لأن هذه الفرقة أضمن من مناصرة القبائل لهم.

ونختم القول بالتأكيد على أن هذه الجالية الاسبانية كان لها وجود واضح ومحدد، وأن وجودها، ولا شك، لم يترك بصامته على الجيش فقط، ولكن على بعض مرافق الحياة العامة أيضا بفعل نشاطها داخل المغرب، خاصة أنه من المحتمل جدا أن يكون بعضهم قد دخل الاسلام حتى يتجنب الابعاد والتمييز.

– الميدان العلمي

يذكر ابن خلدون في هذا الصدد: «... وأما أهل الأندلس، فافترقوا في الأقطار، عند تلاشي ملك المغرب بها ومن خلفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم نصرانية، فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية، من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال االدولة...»[50].

وفعلا فقد توافد على المغرب في هذه الفترة أيضا كساابقتها عدد من علماء الأندلس وأدبائها وشعرائها واستطاعوا أن يتبؤوا مكان الصدارة على الساحة العلمية.

ونسجل الفرق بين المناهج التعليمية لدى هؤلاء ولدى المغاربة في الملاحظتين الآتيتين:

– اعتماد علماء الأندلس على المناظرة والمحاورة في المسائل العلمية مما أدى إلى «حصول الملكة والحذق في العلوم»[51]، في حين اعتمد المغاربة على «الحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم»[52].

---

49 – المقدمة، ص 485 – 486.

50 – المصدر السابق، ص 750– 751.

51 – المصدر السابق، ص 771.

52 – المصدر السابق، ص 772.

ملاحظة:

من الأندلسيين الذين عملوا على نشر هذه الطريقة أيام العصر السعدي نذكر م. القصار، الذي قال في حقه م. العربي الفاسي في مرآة المحاسن، ص 163:... وكانت محابسه تقوم مقام دروس كثيرة، فإنها كان يحصل بها من الفوائد ما لا يكاد يحصل في دروس كثيرة. وكان أمام عصره تفننا في العلوم وتبحرا فيها، وجودة نظر ودقة فهم وسهولة ماخذ، واختصاصا بايضاح المشكل وتسهيل العويض على وجازة فطر عليها في كلامه وربما لم يتناد معها المقصود لكثير ممن قصر فهمه، فتحاكما لذلك الاستفادة منهم كثر منهم، أما أهل التحصيل والفهم الأصيل، فأكبوا على الأخذ والاستفادة منه، فحصلوا على علم وملكة تامة...»

- هناك فرق آخر يتعلق بتعليم الأطفال المغاربة والأندلسيين، «فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، لايخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب... وأما أهل الأندلس... فلا يقتصرون لذلك عليه (القرآن) فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل، وأخذهم بقوانين العربية \ وحفظها، وتجويد الخط والكتاب....»[53].

تلك كانت تجربة المغاربة من الأندلسيين داخل المغرب وفي الأندلس نفسها طوال ثمانية قرون عرفت مدا وجزرت في مختلف الميادين السياسية والحضارية. وسوف يعرف المغاربة تجربة أخرى مع الأندلسيين في الفترات الموالية. ذلك ما سنتعرف عليه عند استعراضنا لوضعية الأندلسيين في الأندلس نفسها، ومن خلال استعراضنا لهجراتهم إلى المغرب.

53 - ابن خلدون، المقدمة ص1038 - 1039.

الباب الأول

الأندلسيون تجاه المد المسيحي

جابه الأندلسيون مصيرهم بإسبانيا، خلال القرنين 16 و 17، في مراحل متعددة يمكن تلخيصها، على الأقل، في ثلاث مراحل أساسية :

1 - مرحلة الملكين الكاثوليكيين: حاول الأندلسيون، في هذه المرحلة مواجهة الموقف، لكن كان كل شيء، يسير نحو النهاية، إذ أن تصميم الاسبان على اقتحام آخر معقل إسلامي بإسبانيا فاق أية محاولة قام بها الأندلسيون بالمنطقة للدفاع عن معقلهم الأخير. وتتميز هذه المرحلة كذلك بفرض التعميد الاجباري على المسلمين أي في الأخير نهاية الاسلام العلني لتبتدئ مرحلة «الإسلام السري» ومحاولة ذمج المسلمين في المجتمع الاسباني.

2 - مرحلة شارل الخامس وفيلب الثاني : تتميز بالاستمرار في إصدار مجموعة من القرارات الرامية إلى إذماج المورسكيين في المجتمع الاسباني، لكنها تتميز على الأخص بالجهاد البحري الذي كان يساهم فيه المورسكيون لانقاذ إخوانهم ممن بقي بإسبانيا، وذلك بتشجيع من الأتراك.

3 - مرحلة فيلب الثالث : تتميز هذه المرحلة باقتناع الملك الاسباني بفشل محاولة الاذماج، وبالتالي فقد ارتأى أن الحل النهائي لن يكون إلا بإخراجهم، ومما يمكن تسجيله في هذه المرحلة أيضا ظروف استقبالهم بمواطنهم الجديدة.

الفصل الأول

الأندلسيون في عهد الملكين الكاثوليكيين
(879 هـ 922هـ / 1474م - 1516م)

ارتبط المشكل الأندلسي بإسبانيا - خلال عهد الملكين الكاثوليكيين - بمعطيات سياسية واقتصادية واجتماعية هي التي حددت مسار السياسة الاسبانية تجاه الجالية الاسلامية بها. فإسباينا كانت تبحث بقوة عن وحدتها السياسية متخطية بذلك كل الحواجز التي كانت تعوق هذه الوحدة:

- حواجز مغرافية بفعل التفاوت الجهوي العميق الذي تولد عنه انعزال العديد من المناطق التي تمسكت بذاتيتها واستقلالها إلى يومينا هذا (كطالونيا - الباسك - الأندلس).

- حواجز اقتصادية: التفاوت الطبقي بفعل وجود قوات فيودالية ذات امتيازات كبيرة، وهي قوات تؤدي إلى التفكك أكثر ما تؤدي إلى الوحدة والمركزية[1]. ففي قشتالة - مثلا - كانت الأسرة المالكة دائما ضعيفة الامكانيات بسبب وجود عدد من الاقطاعيين النبلاء الذين كانوا يشوشون على السلطة ويضيفون الخناق على كل مشاريعها في تعزيز الوحدة بالاضافة إلى مدن حقوقها القديمة Los Fueros، وإكليروس كان له دور حاسم بسبب تبنية لحرب الاسترداد Reconquista .

---

1 - يذكر بروديل F. Braudel هذا الصدد : «إن الدولة الحديثة كانت عدوة النبلاء والاقطاعيين» انظر كتابه:
La Méditerranée..... 2 : 20

لكن العرش القشتالي تمكن في النهاية من التغلب على بعض هذه الصعاب بفضل تحمسه للمسيحية وإخراجه للعرب والاستيلاء على الأراضي التي كانت بحوزتهم، فكان، إذن، هذا العمل هو المحور الذي دارت حوله الوحدة القشتالية أولا والاسبانية ثانيا، إذ جعل من قشتالة مركز استقطاب لعدد من المتطوعين المتحمسين للمسيحية ظاهريا فقط، فالأطماع الاقتصادية هي التي كانت تحركهم، وذلك بالاستيلاء على الأراضي المنتزعة من يد المسلمين. فجلب العرش القشتالي بذلك الجنود والضباط، أي أنه أصبحت لديه الادارة الفعالة التي تسير به نحو الوحدة.

وقد تجسدت هذه الوضعية في عهد الملكة ايزابيلا الكاثوليكية، إذ جعلت من بين أهدافها إخراج العرب والاستيلاء على أراضيهم وضربهم في آخر معقل من معاقلهم[2]. متجهة إلى الوحدة مع أرجوان[3] ممثلة في شخص ملكها فرناندو الكاثوليكي الذي كانت تحركه نفس الأهداف[4].

وقد كانت لهذه الوحدة نتائج خطيرة على الصعيدين الداخلي والخارجي:

- على الصعيد الداخلي : تمكن الملكان الكاثوليكيان من تنظيم السلطة وإعادة النظام، فالنبلاء أزيل لهم الاعتبار الخاص منذ الحرب الأهلية القشتالية، ودخلوا في صف الملكين الكاثوليكيين، والأوامر العسكرية أصبحت مرتبطة بالعرش، ولم يعد هناك إلا شرطة واحدة هي شرطة الملكين : La santa Hermandad، كما خلقت

---

2 - للمزيد من الايضاح عن حياة ايزابيلا انظر :

- Andrés Bernaldez, Memorias del reinado de los reyes catolicos.
- Lucio Marineo siculo, vida y hechos de los reyes catolicos.
- T. de Azcona : Isabel la catolica.
- Ferrara, Histoire d'Espagne : l'Avénement d'Isabelle la catholique.

3 - تختلف أرجوان عند قشتالة من حيث بنيتها الاقتصادية، فقد كانت الأولى تعتمد على ازدهارها التجاري ونشاطها الملاحي في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط، في حين كانت الثانية تعتمد على الفلاحة وتحتقر الصناعة التي كانت بيد المسلمين والتجارة التي كانت بيد اليهود.

4 - للمزيد من الايضاح عن حياة فيرناندو الكاثوليكي، انظر بالإضافة إلى المصادر الواردة في الهامش 2، ما يأتي:

- A. Gimenez Soler : Fernando el catolico
- R. Del Arco : Fernando el catolico, artifice de la unidad Espagnole.
- J. M. Doussinagne : Politica internacional et Ferna, do el catolico

مليشيات قوية ومسلحة وكل إليها محاربة السلب والنهب وأعمال اللصوصية السائدة آنذاك[5].

- على الصعيد الخارجي: اتجهت إسبانيا نحو مغامرات خارجية، وبالفعل فقد برزت الوحدة الاسبانية خارج إسبانيا أكثر من إسبانيا نفسها.

*** *

تلك جهود الطرف الأول (الطرف الاسباني) لتحقيق وحدته، ولمواجهة العرب، لكن كيف كانت جهود الطرف الثاني: ماذا فعل العرب لمواجهة هذه الوضعية، وما هي مجهوداتهم ساء على الصعيدين الداخلي أو الخارجي وكيف حصلت الهزيمة بسقوط آخر معقل عربي إسلامي بالأندلس ؟ ذلك ما سنعرض له في النقط التالية :

1 - سقوط مملكة غرناطة

يعتبر سقوط غرناطة حدا فاصلا بين حضارتين في إسبانيا : حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما تعتبره دخيلا وتقذف به خارج شبه الجزيرة الايبرية، وسقوط غرناطة يحتل مكانة خاصة لدى الاسبان والعرب على السواء، فالاسبان اعتبروه آخر حاجز في سبيل توطيد سلطتهم وتوحيد بلادهم، إذ مباشرة بعد هذا السقوط سيقوم الملكان الكاثوليكيان بعدة إنجازات(وحدوية)، وإلى وقت قريب منا جدا كان الاسبان يحتفلون بيوم استرجاع غرناطة، واعتبره العرب مؤشرا واضحا لأفول سلطتهم لا بالنسبة للأندلس فقط ولكن حتى بالنسبة لمعاقلهم الأولى أيضا[6]. وقدد ظلت لغرناطة مكانة خاصة في نفوس العرب حتى إن كلمة «غرناطي» كانت تعني في أحيان كثيرة «أندلسي» وهذا وضع لم تحتله أية مدينة أندلسية أخرى، فكيف جرت النكسة ؟ وكيف واجهها الغرناطيون ؟ وما هي محاولتهم لانقاذ بلادهم ؟

5 - Jean Descola, Histoire d'Espagne, p. 308

6 - أي ان الأتراك سوف يعوضون العرب في حماية الإسلام والدفاع عن الأراضي العربية نفسها.

ظلت مملكة غرناطة لسنوات تصارع الموت، صامدة ضد هجمات المسيحيين. ونستطيع أن نستخلص عوامل هذا الصمود من خلال نص أوده مارمول وهو بصدد الحديث عن غزو غرناطة قائلا: «... كان الأمير أبو الحسن ملك غرناطة هو الأمير التاسع عشر من بيت بني الأحمر، وقد صار أقوى من تولوا هذه الامارة منذ انقراض خلفاء عبد الرحمان. وقد تأتى له ذلك بسبب ما وقع بين الأمراء النصارى من النزاعات. فقد كانت إمارته غنية وكثيرة السكان بعد أن لجأ إليها المسلمون من جهات إسبانيا ليكونوا رعية لأمير من أمتهم، وكانت لديه مدافع كثيرة وذخيرة بالاضافة إلى جيشه من الفرسان والراجلة المجهزين بالبنادق، وقد سارعت إليه العساكر من كل بلاد البربر ولا سيما من المناطق القريبة مثل جبال غمارة، وكان عطاء هؤلاء المحاربين يزيد على عطاء غيرهم لأنهم كانوا أعداء الداء للنصارى...»[7].

هنا، إذن على الأقل ثلاثة عوامل ساعدت على هذا الصمود:

- تماسك الجبهة الداخلية في مملكة غرناطة، وتصميم رجالها على الدفاع عن حوزة بلادهم بتأييد من الفقهاء والعلماء.

- تنازع الممالك المسيحية في الشمال، إذ حال ذلك دون اتخاذ تدابير حاسمة ضد المملكة الاسبانية.

- مساعدة بني مرين والمجاهدين المغاربة عموما، إذ كانت هذه المساعدة تضفي الحيوية على العمليات العسكرية التي تقوم بها مملكة غرناطة.

لكن بمجرد اختفاء هذه العوامل بدأت مؤشرات السقوط تظهر في الأفق، فالبيت المالك أصبح منقسما على نفسه ومملكة فشتالة وأرجوان توحدتا وعقدتا العزم على اقتحام آخر معقل إسلامي بالمنطقة، والمغرب لم يعد قادرا على تقديم ما كان يقدمه من مساعدات بسبب أزماته السياسية والاقتصادية التي كان يمر بها آنذاك، وبدأت بذلك مرحلة جديدة تختلف جذريا عن المرحلة السابقة.

مراحل الصراع

ابتدأت فصول هذا الصراع بمحاولات أبي الحسن (986 هـ - 880هـ / 1464 - 1485 م) إنقاذ حصون المملكة أمام هجومات فيرناندو، إذ انقض هذا الأخير على

---

7 - إفريقيا، 1 : 431- 432.

حصن لوشة Loja سنة 1483، لكنه انسحب أمام المقاومة العنيفة التي أبداها الأمير الغرناطي، غير أن هذا الأخير عندما رجع إلى غرناطة وجد العامة هناك قدد انحازوا إلى اينه أبي عبد الله (الصغير) فارتأى ألا يضيع جهوده في قتال ابنه فسار إلى مالقة حيث كان أخوه أبو عبد الله الزغل(الشجاع)، وفعلا فقد استطاع رد الأخطار على مالقة.

ورغم هذه الانتصارات فإن عامة غرناطة وقفوا وظلوا في ولائهم لابنه أبي عبد الله. ويرجع سبب طلك إلى ساسته الداخلية التي أثارت حوله كثيرا من السخط، يقول المؤرخ المجهول وهو بصدد الحديث عن الفيضان الذي وقع بغرناطة سنة 883 هـ :(ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ الأمير أبو الحسن في التقهقهر والانتكاس والانتقاض، ذلك أنه اشتغل باللذات، والانهماك في الشهوات، واللهو بالنساء المطربات، وركن إلى الراحة والحفلات، وضيع الجند وأسقط كثيرا من نجدة الفرسان، وثقل المغارم وكثر الضرائب في البلدان، ومكس الأسواق، ونهب الأموال، وشح بالعطاء، إلى غير ذلك من الأمور التي لايثبت معها الملك، وكان للأمير أبي الحسن وزير يوافقه على ذلك ويظهر للناس الصلاح والعفاف وهو بعكس ذلك، فبقيت الحال كذلك مدة والأميرة مستغل باللذات، منهمك في الشهوات، ووزيره يضبط المغارم ويثقلها ويجمع الأموال ويأتي بها ويعطيها لمن لا يستحقها، ويجعل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والاحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلة حربهم وأكلوا أثمانها، وقتل كثيرا من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشكعان من أهل مدن الأندلس وحصونها[8].

رقد اعتزم أبو عبد الله الصغير أن يحذوا حذوا عمل الزعل - حين رده لغارات المسيحيين على مالقة - فانتهز فرصة اضطراب المسيحيين عقب الهزيمة فخرة في قواته في أبريل 1483 متجها إلى حصن اللسانة Lucena لكن الدائرة دارت عليه فهزم وأسر، ولم يطلق سراحه إلا بعد مفاوضات قاسية انتهت بعقد معاهدة مهدت الطريق لاستيلاء الملكين الكاثولكيين - في الأمد البعيد - على غرناطة[9] وسوف تعزز المعاهدة بمعاهدة أخرى سنة 1486 أكثر استسلاما من سابقتها[10]، وقد توالى

---

8 - نبذة العصر، ص 5 - 6 .

9 - اسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 86.

10- اسعد حومد، المصدر السابق، ص88.

سقوط مدن المملكة، فسقطت مالقة (أواخر غشت 1987) وبسطة (دجنبر 1489)، ولم تبق إلا غرناطة التي أرسل في شأنها الملكان الكاثولكيان رسالة إلى أبي عبد الله الصغير (المشؤوم) يطالبانه فيها بتنفيذ مضمون الاتفاق الاستسلامي السري الموقع في لوشة. ورد في بادئ الأمر بأنه على استعداد للتنفيذ لكنه وتحت ضغط العامة والفقهاء قرر أن يدخل الجهاد وفتحت بذلك صفحات جديدة من صفحات الاستماتة والدفاع عن البلد سجلها المؤرخون الاسبان أنفسهم، إذ يقول مارمول في هذا الصدد: (... شاع خبر هذه الانتصارات في مختلف الجهات، وخلق أثرا طيبا في نفوس المسلمين، فكان انطلاقه لتذكية حب الجهاد في أوساطهم فثار عرب المناطق الجبلية ووادي البشارى على حكامهم النصارى، وقاد ملك غرناطة بنفسه عمليات حربية ضد مدن مرشان وبيلودوي أولمبرية، وقادش، فدخلها مظفرا إذ لم تستطع حاميتها أن تصمد أمام جيشه...)[11].

هكذا انتهت فصول هذا النزاع المرير الذي خاضه العرب بالأندلس، وهو صراع كان يدرك وزنه جيدا الاسبان، إذ اعتبروه نقطة تحول هامة في تاريخهم، وهو في نفس الوقت يدل على أهمية المقاومة العربية، ولننظر إلى الوصف الذي تركه المؤرخ الاسباني السابق الذكر وهو يتحدث عن دخول الاسبان قصر الحمراء (... دخل النصارى إلى قصر الحمراء في جو أثقله الهدوء، ولما استخلصوا لأنفسهم مجموع مرافقه، صعد الكاردنال إلى أحد الأبراج بالقصر ونصب فوقه صليبا كبيرا من فضة، ولواء الملكية المسحية... وما أبصرت الملكة الصليب منصوبا فوق قصر الحمراء، حتى انحنت نحو الأرض، واقفة على ركبتها وهي تصلي وتوجه الشكر إلى ربها، أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الأناشيد الدينية. عند ذلك بدأ فيرناندو وبعض علية القوم وأعيانهم يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوا، تقدم نحوه أبو عبد الله ممتطيا جواده، ولما دنا من فرناندو، تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية إلى الملك النصراني لكن هذا الأخير أو ما إليه ألا يفعل، شفقة عليه، فقبل أبو عبد الله مع ذلك ذراع فيرديناد اليمني وقدم إليه مفاتيح القصر، فتناولها الملك النصراني وسلمها إلى الكونت تنديلا الذي أصبح أول حاكم نصراني على غرناطة...)[12].

---

11 – مارمول كريخال المصدر السابق، 443.

12– مارمول كريخال المصدر السابق، 447.

نعم أبرمت معاهدة التسليم[13] وفيها مجموعة من «الحقوق والامتيازات» متعلقة بالأمير أبي عبد الله وبالمسلمين عامة، تضمن حرية التجارة والتنقل إلى المغرب بمساعدة الاسبان، وحرية ممارسة الشعائر الدينية لكن سوف يتبين فيما بعد أن هدف المعاهدة هو تهدئة الأوضاع ريثما يتم تدبير قرارات جديدة لتصفية الوجود الإسلامي بغرناطة نهائيا، إذ أن «الحقوق والامتيازات» التي أعطيت لهؤلاء هي في الحقيقة نوع من الرشوة لشراء الضمائر أمام عنف المقاومة العربية خوفا من تجددها على يد عناصر مازالت لم تستسغ بعد معاهدة الاستسلام. وما إبرام المعاهدة السرية في نفس اليوم الذي أبرمت فيه معاهدة التسليم إلا دليل ساطع على ما أشرنا إليه[14].

وفعلا لم يمر وقت قصير على المعاهدتين حتى بدأ الاسبان، ينفذون مخططهم القاضي بتنصير المسلمين وبطرد من حاول البقاء على دينه ومن ضمنهم الأمير نفسه الذي اتجه إلى العدوة، يقول المؤرخ المجهول في هذا الصدد:

«ثم إن الطاغية - دمره الله - ظهر له أن يصرف الأمير محمد بن علي إلى العدوة فأمره بالجواز وبعث للمراكب أن تأتي إلى مرسى عذرة (Andra بلدة من أعمال المرية) واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز، فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصارى، وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة من عدوة المغرب، ثم ارتحل إلى مدينة فاس - حرسها الله -»[15]. ثم

---

13 - توجد الوثائق المتعلقة بمعاهدة التسليم في كل من الارشيف العالم بسمنكاس Archivo general de Simancas وسجلات بلدية غرناطة.
ففيما يتعلق بالارشيف العام بسمنكاس توجد هذه الوثائق ضمن مجموعة.
Capitulationes cpn Moros y caballeros de Castilla
وينظر منها بالأخص الوثائق الآتية:
P.R. legll Fol - 207, P.R. legII FOL 206, P.R. leg II FOL 203
أما سجلات بلدية غرناطة فهي تحتوي على وثائق مخطوطة عن المعاهدات الأصلية التي ابرمت في تلك الفترة، وكانت ملكيتها تعود إلى سكرتير الملكين الكوثولكيين فرناندو دي زافرا، وقد نشرها.
Miguel Garrido Atienza
ضمن وثائق تسليم غرناطة بالعنوان الآتي: Los capitulacionnes para la entrega de Granada
بالاضافة إلى وثائق أخرى تعود أيضا ملكيتها إلى سكرتير الملكين الكاثولكيين السالف الذكر عثر عليها Gaspar Remiro ونشرها بالعنوان الآتي: Documentos Arabes de la corte Nazari de Granada
«Primeros pactos y correspondencia intima entre los reyes catalicos Boabdil».
Revista de Archivos, Bibllíotecas y Museos, Madrid 1910 tomo XXIII, pags 260- 269 y 421 - 431 y XIII, pags 137 - 148 y 411 - 423.

14 - انظر نص المعاهدة السرية عند محمد عبده حتامله، التنصير القسري لمسلمي الأندلس، ص 46- 54.

15 - نبذة العصر، ص 43.

تعدى الأمر بعد ذلك إلى عامة الناس ممن حاول البقاء بغرناطة: (.... وكان من قضاء الله تعالى وقدره أنه لما جاز الأمير محمد بن علي وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون، واشتد الأمر بفاس حتى فرس كثير من الناس من شدة الأمر، ورجع بعض الناس من الذين جازوا إلى الأندلس فأخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز. عند ذلك عزموا على الاقامة والدجن ولم يجوز النصارى أحدا بعد ذلك إلا بالكراء والمغرم الثقيل وعشر المال، فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الدجن والاستيطان والمقام في الأوطان أخذ في نقض الشروط التي اشترطوها عليه أول مرة ولم يزل ينقضها شرطا شرطا ويحللها فصلا فصلا إلى أن نقض جميعها، وزالت حرمة الاسلام عن المسلمين وأدركهم الهوان والذلة واستطالس النصارى عليهم وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم، وقطع لهم الآذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى فخرجوا آذللة صاغرين...»[16].

ويصور لنا نفس المؤلف مأساة المسلمين وهم يطعنون في عقيدتهم: (...ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصر وأكرههم عليه وذلك سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينه كرها وصارت الأندلس ككلها نصرانية ولم يبق من يقول فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله جهرا، إلا من يقولها في قلبه أو خفية من الناس، وجعلت في صوامعها بعد الآذان وفي مساجدها الصور والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وكم فيها من قلب حزين وكم فيها من الضعفاء والمعدومين ولم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتغل ودموعهم تسيل سيلا غريزا مدرارا، وينظرون أولاددهم وبنتاهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوتان، ويأكلون الخنيزيي ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم ومن فعل ذلك عوقب أشد العقال ! فيا لها من فجعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمنها وأضرها وطامة ما أكبرها[17].

وقد كان وقع السقوط في النفوس كبيرا، ومن أشهر المراثي التي نظمت في رثاء الأندلس، رثاء أحمل الدقون لها بقصيدة هذا مطلعها :

---

16 - المصدر السابق، ص 44.

17 - المصدر السابق، ص 44 - 45.

أمنت من عكس آمـــال وأحوال — وعشت ما بين أعمـــام وأخــوال
ولا ابتليت بما في القلب من نكد — فالجسم مشتغل من غير اشغـــال
وكيف لا وبقاع الديـــن خاليــة — من أرض أندلس من أجل أهوالي
عمت فغمت قلوب المسلمين فيا — للمسلمين من أعداء وأنكـــال[18]

هذه هي فصول المأساة، وهذه خطوطها العامة، لنا أن نتساءل بعد هذا : هل تمكن الملكان الكاثوليكيان بالفعل - بعد سقوط غرناطة - من إخماد ثورة المسلمين بها؟ هل استسلم العرب ورضخوا لقدرهم ؟ كيف كانت علاقة الملكين الكاثوليكيين بما تبقى من المسلمين ؟ ذلك ما سنحاول أن نوضحه في الفقرة التالية :

2 - سياسة الملكين الكاثولكيين إزاء ما تبقى من المسلمين بغرناطة ؟

لخص مارمول سياسة الملكين الكاثولكيين في كتابه عن حرب غرناطة كما يأتي : (...، منذ أن استولى فرديناندو على غرناطة والأحبار يطلبون إليه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد من اسبانيا، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء، إما التنصر، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب، وإنه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم، بل فيه إنقاذ لأرواحهم وحفظ لسلام المملكة، لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى، أو يحافظون على ولائهم للملوك ما بقوا على الإسلام..)[19].

وقد كانت أداة تنفيذ هذه السياسة الكاردينال سيسنروس Cisneros مطران طليطلة ورأس الكنيسة الاسبانية[20] والأب ايرنادو دي تالافيرا Hernando talavera مطران غرناطة[21]، بالإضافة إلى حاكم غرناطة الذي كان يقدم لهما كل المساعدة

---

18 - انظر القصيدة عند أ، المقري، ازهار، 1 : 104 - 115.

19 - Rebelion y Castigo de los Moriscos de Granada, pp 147.

20 - للمزيد من التوسع انظر :

- Fernandez de Retana (P) Cisneros y su siglo, Madrid 1929.
- Starkie (W), la espana de cisneros, Barcelona. 1943.

21 - للمزيد من التوسع انظر :

- Marmol Carvajal, op. cit. p. 105.
- Caro Baroja (julio) : Razas, pueblos y linajes,Reviste occidente, Madrid 1957.

لتنفيذ خطتهما. غير أن الأول (سيسنروس) اشتهر من بين هؤلاء جميعا بما ارتكبه في حق المسلمين بغرناطة، فبالإضافة إلى عمله الشنيع في حق المسلمين ارتكب أفضع جريمة حضارية عرفها التاريخ فقد أمر بجمع الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها، ونظمت أكداسا هائلة في ميدان باب الرملة، أعظم ساحات المدينة، ومنها الكثير من المصاحف البديعة الزخرف والآلاف من كتب الآداب والعلوم، وأضرمت فيها النيران جميعا ولم يسلم منها سوى ثلاثمائة كتاب في الطب والعلوم، حملت إلى الجامعة التي أنشأها في مدينة[22] Alcala de Henares، وذهبت ضحية هذا الاجراء الهمجي عشرات ألوف من الكتب العربية[23]. وقد كان سينسنروس يهدف بذلك إلى إلغاء أي رابط يربط المسلمين بعقيدتهم بفصلهم عن ثراتهم وبالتالي يصبح من السهولة تنصيرهم. وبالفعل فقد كانت الفكرة السائدة في السنوات الأولى لاستيلاء الاسبان على غرناطة أن المسلمين سيدخلون في الديانة المسيحية أفواجا وبدون صعوبات تذكر، فنظمت فرق تبشيرية لهذا الغرض تتكون من رهبان وراهبات لكن عمل هاته الفرق باء بالفشل فتدخل سيسنيروس وفرض التنصير القسري، مستعملا كل وسائل التعذيب لديه[24]، مما أدى بالمسلمين للثورة معلنين الجهاد ضد الكاردينال وجماعته المتعصبة.

ومما لاشك فيه بأن الملكين الكاثولكيين كانا على اتفاق مع سيسنروس للقيام بهذا الاجراء على الرغم من الادعاءات بأنهما قد فوجئا بعملية التنصير القسري[25].

فقد كان فرناندوا يؤمن هو الآخر بأن وحدة العقيدة هي الأساس الأول الذي يمكنه من توحيد إسبانيا المجزأة، كما أنه كان يخشى بأس المسلمين، ويرى مع الكنيسة

22- تسمى في الرواية العربية بقلعة عبد السلام أو قلعة النهر لوقوعها على نهر هنارس، أحد روافد نهر التاجة، وهي تقع جنوبا غربي وادي الحجارة في منتصف المسافة بينها وبين مدريد.

23 - يختلف المؤرخون الاسبان في تقدير عدد الكتب العربية الذي ذهبت ضحية هذا الاجراء، فيقدرها E. de Robles الذي كتب بعد ذلك بقرن كتابا عن حياة سيسنروس
Compenido de la vida y hazanas del Cardinal Ximenez
بمليون وخمسة آلاف كتابا، ويقدرها B. de pedraza الذي كتب بعده بقليل، بمائة وخمسة وعشرين ألفا في كتابه Historia eclesiastica de Granada
ويقدرها البعض الآخر بخمسة الاف فقط، ويقدها كوندي بثمانين الفا، وربما كا تقديره أقرب إلى المعقول. انظر:
W. Prescott : history of Ferdinand and Isabella the catholic, p. 45 - 53 et notes.

24 - Dominguez Oritz (Antonio) y Bernard Vincent, historia de los Moriscos Vida y tragedia de una Minoria pp. 18 - 19.

25 - F. Braudel, la Méditerranée..... 2 pp. 19 - 20.

أن احتفاظهم بدينهم بقوي أواصر الصلة بينهم وبين إخوانهم في شمال إفريقيا وفي العالم الإسلامي بصفة عامة، ومن تم فإن تنصير المسلمين أو إخراجهم من البلاد هو الضمان الوحيد لسلامة إسبانيا ووحدتها. فيهما قيل إذن حول الخلاف بين الكنيسة وفرناندو فإن عمل سيسنروس يبقى من عمل الملكين الكاثولكيين ومسؤولية من مسؤوليتهما[26].

وقد كان رد فعل المسلمين بغرناطة في مستوى المرحلة التاريخية التي كانت تعيشها منطقتهم فأعلنوا الثورة ضد هاته القرارات الجائزة.

- انتفاضة البيازين عام 1499

فرض التاج الاسباني على المدجنين ضرائب جديدة باهضة، وقد سيطر القلق والرعب على المسلمين من أهل غرناطة عند صدور تلك الأحكام الجائرة التي كان نتيجتها التمهيد لقيام الثورات المتابعة[27]، فمنذ اللحظة الأولى لدخول الاسبان غرناطة تم توزيع مساحات شاسعة من الأراضي والأملا؛ على النبلاء الاسبان وكانت هذه الأملاك للمسلمين الذين أصبحوا فيما بعد أتباع النبلاء[28].

وقد فرضت عليهم الضرائب وعوملوا معاملة سيئة نتيجة لثوراتهم المتتابعة وفي عام 1498 أجريت عبسة عزل العناصر الإسلامية عن المجتمع الاسباني، ووضعوا في أماكن معينة، تحت حدود واضحة المعالم بين السكان الاسبان والمسلمين ليسهل السيطة والقضاء عليها في حالة نفورهم[29]، مما زاد الحماس في نفوس المسلمين للثورة. وقد حاول الملك الكاثوليكي تهدئة الأحوال خشية العواقب فبعث سيسنروس ليبرم مع الثوار المسلمين ومع المسلمين من أصل إسباني[30] اتفاقا بعيد المياه إلى مجاريها ولو إلى حين. وكان مقتضى هذا الاتفاق أن يحيز للمسلمين التمسك بعاداتهم ودينهم وضمان احترامهم، غير أن هذا الاتفاق لم يلق أي اهتمام لدى الثوار لكثرة ما مر بهم من اتفاقيات لا تنفذ وزاد الأمر سوءا

26- ليلى الصباغ، ثورة مسلمي غرناطة، مقال بمجلة الاصالة الجزائرية، العدد 27، شتنبر 1975ص 119.

27 -Dominguez Ortiz (Antonio) y Bernard vince, op. cit p. 18

28 - محمد عبده حتامله، التنصير القسري لمسلم الأندلس، 63؛ 64.

29 -Caro Baroja julio, los Moriscos del reino de Granada, pp. 42 - 47, 55 - 56

30- «Elches» كلمة اسبانية اطلقت على الاسبان الذين اسلموا ثم أخذتهم الكنيسة ليربو فيها ويجبروا على العودة إلى النصرانية ليعادوا إلى ذويتهم عيونا، كما يفعل بإبناء المورسكيين.
انظر محمد عبده حتامله، المصدر السابق، 78.

اعتداء خدمة سيسنروس على ابنة مسلم من أصل إسباني في ساحة باب البنود في حي البيازين، فهب المسلمون في ثورة عارمة استجابة لصراخ الفتاة ووصلوا إلى المفوض وصاحبه، فدي الهلع والرعب في قلوبهما وفر الخادم، ووقع مفوض الشرطة في يد المسلمين، وسارت حشود الثائرين نحو بيت الكاردنال في القصبة قرب قصر الحمراء للقضاء عليه، وكلهم ثقة أن هذه الحادثة لم تكن إلا بتخطيطه[31].

وقد اختار هؤلاء أربعين من بينهم ليمثلوا حكومة أندلسية مستقلة منفصلة عن الاسبان مقتنعين بأن تعايش هذين الشعبين غدا محالا، فاحتمى الكاردنال في بيت حاكم مدينة غرناطة الكونت دي تنديا، وأقنعه بإرسال حملة كبيرة تبيد الثوار المسلمين في البيازين عن آخرهم واتجهت الحملة فعلا إلى الثوار فدهلت لدى رؤيتها كل الطرق المؤدية إلى الثوار مغلقة. وقد واجهها المسلمون بشجاعة نادرة، وكاد الأمر أن يتطور أبعد من ذلك لولا وساطة مطران غرناطة الأب تالافيرا التي أدت إلى عقد اتفاقية تحترم بمقتضاها الوعود السابقة[32]، فوعد تنديا ألا يعاقب أيا من هؤلاء الثوار، لكن عليهم أن يكونوا رعايا للملكين الكاثوليين، ويؤدوا ما عليهم من إتاوة من منتجاتهم الزراعية ، ومن قبل منهم بالديانة المسيحية طوعا فله أن يحتفظ بعاداته وتقاليده ولغته، ومن أبى تلك الديانة فعليه أن يهاجر من غرناطة.

ولما سمع الأربعون «أفراد الحكومة الأندلسية المنتخبة» بما ذكر فروا إلى البشرات خشية التنكيل بهم.

وبعد هذه الانتفاضة أصدر التاج الاسباني أمرا يقضي بمنع أي أندلسي من الدخول إلى مملكة غرناطة، حتى لا يختلط ببني قومه فيرفع من روحه المعنوية الثورية[33]، فلم يبق إذن أمام هؤلاء سوى البحث عن ملاجيء تأويلهم في الجبال، ويتخذون منها معاقل لهم، يشنون منها على الاسبان الغارات معتبرينها جهادا في سبيل الله، وظلوا يمارسون جهادهم بصبر وعزيمة.

– ثورة البشرات Alpujarras

كان من نتائج انتفاضة المسلمين في البيازين أن ثار إخوانهم في منطقة البشرات الواقعة جنوب غرناطة[34]، وقد أرسل الاسبان حملة لإخضاع هذه الثورة، وكانت

---

31 - Marmol Carvajal, op. cit. pp. 116 - 120

32 - Macalino Menendez y pelayo, historia de Espana, p. 145

33 – محمد عبده حتاملة، المصدر السابق 78.

34 - Miguel la fuente Alcantara, historia de Granada, pp. 164 - 166

الحملة تتقوم بعمليات تدمير كبير لكل ما تمر به طريقها، فقد قامت بقتل جميع أفراد قرية «غويخار - سيرا»، انتقاما ممن ذهبوا إلى البشرات[35] ووجدت الحملة مقاومة عنيفة من الثوار أينما حلت مما أدى إلى إبرام معاهدة تعهد فيها الملكان الكاثوليكان بالوفاء ببعض شروط معاهدة استسلام غرناطة[36]. وبعد هذه الاتفاقية نلاحظ أن الثورات اشتعلت من جديد[37] ولم تخمد إلا في سنة 1502 م وقام الاسبان بأعمال أقل ما يقال عنها غير إنسانية ووحشية، ومن أمثلة ذللك ما يذكره الباحث الانجليزي Willam Prescott عند إشارته إلى العقاب الذي أنزل بمسلمين البشرات :(إن الكونت ليرين نسف مسجدا مليئا بالنساء والأطفال وكان الاسبان يقترفون أبشع الجرائم، وكانت تراق أنهار من الدماء، وفي أثناء هذه الحروب الأهلية كان النصارى يبتعدون كل البعد عن شعورهم الديني، لأن الأندلسيين - في نظرهم - مجرد عبيد وأتباع ورقيق، ولم يتعرض الأندلسيون لهذا العقاب فحسب، بل للإبادة التامة)، ويضيف الباحث - مشيرا إلى الملك الكاثوليكي فرديناندو - قائلا :(لم يشترك الملك في قتل الأندلسيين ليس رحمة بهم وإنما تكبرا وتغطرسا، لكي لا يلطخ بدماء هذه الوحوش الضارية في البشرات ولذا تنازل فمنحهم بعض الاعتبار[38].

ونتج عن هذه الأحداث، تحويل مسجد غرناطة إلى كنيسة كبرى، وتحويل مسجد البيازين إلى كنيسة ومدرسة إسمها كنيسة المخلص، وفي مدينة غرناطة وضواحيها نصر أكثر من خمسين ألف شخص، وحولت المساجد إلى كنائس[39] ويلخص أحد الباحثين الاسبان الهدف البعيد من طرد المسلمين في هذه الفترة :(كان المسلمون الذي أخرجوا من ديارهم في الأندلس، يشكلون خطرا كبيرا على أمن الشواطئ الاسبانية، وبصورة عامة على الملاحة في غرب البحر الأبيض المتوسط. وقد كثرت - في تلك الفترة - هجمات مسلمي الأندلس، وازدادت حجما، وزرعت الرعب في قلوب الاسبان، وكانوا يأسرون من سكان الشواطئ مقابل الفدية بإخوانهم الأسرى لدى الإسبان[40].

35 - محمد عبده حتاملة، المصدر السابق 81.

36 -Fransisco de Paula Ville - Real y valdivia , lecciones elementales de hitoria critica de espana, p. 380

37 - Alons de santa cruz; cronica de los reyes catolicos pp. 242 - 244

38 - Historia de reinado de los reyes catolicos, p. 193

39 - Marmol Carvajal, op. cit p. 112
Alons de santa cruz, cronica de los catolicos, p. 193

40 - Jose ma Doussinague, la politica internacional de Fernando el catolico , pp. 53 - 54

وهكذا بعد عام 1502، كان من تبقى من المسلمين الذين غلبوا على أمرهم، ودخلوا الديانة المسيحية مكرهين يتظاهرون بقبولهم الدين الجديد[41]، فكانوا يترددون على الكنائس والأديرة، لكي يشاهدهم الاسبان. لكنهم في حقيقة الأمر لم يقبلوا بالمسيحية عن الاسلام بديلا، إلا في ظاهر الأمر، وقد استمروا في ممارستهم لشعائر دينهم الأصلي سرا أيام الجمعة، وكانوا يؤدون فرائض الصلاة داخل بيوتهم بحذر شديد، وكانوا يغلقون على أنفسهم بيوتهم أيام الآحاد، موهمين الطرف الآخر بأنهم ذهبوا إلى الكنيسة.

هذا بالإضافة إلى أنهم عندما كان يتم تعميد أطفالهم في الكنائس، كانوا يبادرون إلى غسلهم لإزالة آثار الصليب عنهم، وكانوا يعقدون حفلات الزواج على الطريقة الإسلامية سرا بعدما يعقدونها في الكنائس أمام مشهد عام، يحضره الكهنة والرهبان[42].

ونظرا للصفة السرية التي تمارس بها الشعائر الإسلامية في هذه الظروف الحرجة، فقد أصبحت تعاليم الإسلام وممارسة تقاليد موروثة، بتوارثها الأبناء عن الآباء جيلا بعد جيل في حلقات مغلقة، لها صفة المجالس السرية.

وقد أشارت الباحثة الاسبانية ميرسدس كارسيا أرينال M. G. Arenal إلى الدور الذي لعبته المرأة المسلمة في نقل تعاليم الإسلام إلى أبنائها[43].

ونتيجة لذلك فقد أصبح الموسكيون عرضة لمتابعات محاكم التفتيش.

- محاكم التفتيش[44]

يصعب إعطاء تاريخ محدد لنشوء محاكم التفتيش، لكن فكرة التحقيق في العقائد الكنيسة الرومانية ظهرت في وقت مبكر. فخلال المجلس الكنائسي الثالث في لتران Latran (1179 م) أصدر البابا ألكسندر الثالث أمرا بمتابعة المارقين وحجز ممتلكاتهم، بل واسترقاقهم[45].

---

41 - Pascual Boronat y Barrachina, los Moriscos espanoles y expulsion, p. 116

42 - Marmol Carvajal, op. cit pp. 128 - 129

43 - Los Moriscos y la inquiscion Procesos del Tribunal de Cuenca, p. 25

44 - إن بيبليوغرافيا محاكم التفتيش كبيرة جدا: فقد أحصى Emil Van det Vekene في بيبليوغرافيته الصادرة سنة 1963 حوالي 1950عنوانا، في حين كان عددها لايتجاوز 620 خلال القرن التاسع عشر و 739 خلال سنوات 1900- 1961. لكن أصبحت هذه البيبليوغرافيات الآن متجاوزة، إذ صدرت منذ ذلك الوقت دراسات عديدة سواء في شكل كتب أو مقالات.

أنظر : B. Bennassar, l'inquisition espagnol, p. 8

45 - Guy Testas et Jean Testas l'inquisition, p. 7

وقد بدئ بتطبيق الفكرة منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، فكان البابا يعهد إلى الأساقفة بتعقيب المارقين والكفرة، وطبق هذا النظام منذ البداية في ايطاليا وألمانيا وفرنسا، فكان مندوبو البابا يحلون في مختلف الأنحاء لتقضي أخبارهم، وتعقد لذلك مجالس كنيسة مؤقتة كانت هي النواة الأولى لمحاكم التفتيش.

واتسع اختصاص محاكم التفتيش بمضي الزمن، فلم يبق مقتصرا على مطاردة المارقين والكفرة، بل تعداه إلى السحرة، وجاء بعد ذلك دور اليهود، فاتهموا بسبب الديانة المسيحية كما أخذ عليهم التعامل بالربا.

ويرجع تأسيس محاكم التفتيش باسبانيا إلى عهد الملكين الكاثولكيين، فقد أرسلا سفيرهما إلى البابا سنة 883 هـ / 1478م للحصول على براءة في هذا الشأن، واتخذت الخطوة الحاسمة بالفعل لتنفيذ المشروع في سنة 1480. وأنشئت محكمة التفتيش الأولى في اشبيلية، وبدأت نشاطها المروع في فشتالة ضد اليهود المنتصرين Conversos فطاردت ألوفا منهم. واستصدر الملكان الكاثولكيان براءة أخرى من البابا في فبراير سنة 1482 على إثرها أنشأت محاكم جديدة في قرطبة، وجيان وشقوبية، وطليطلة، وبلد الوليد، وصدرت براءة أخرى في سنة 1483 بإنشاء مجلس أعلى المحاكم التفتيش Suprema له اختصاص مطلق في شؤون الدين.

وبعد صدور قرار التعميد الاجباري ضد الأندلسيين سنة 1502 أصبحت محاكم تتابع المورسكيين بصرامة، ففي الوصية التي تركها فرناندوا الكاثوليكي لشارل الخامس نجده يأمره «بضرورة اختيار محققين أكفاء ومخلصين للإيمان الكاثوليكي لتضييق الخناق على طائفة محمد»[46]، لذلك فقد ظل المورسكيون دائما يحملون الملكي الكاثولكيين مسؤولية إنشاء محاكم التفتيش، فكثيرا ما يتردد في محاضرها قولهم : «إن إيزابيلا قد دخلت جهنم، لأنهم أنشأت محاكم التفتيش...»[47].

لقد ناضل الأندلسيون بغرناطة نضالا مستميتا بإمكانيات ضعيف لكن بروح معنوية عالية جعلت الاسبان يرضخون لمطالبهم في كثير من المرات، لكن لنا أن نتساءل : هل اكتفى الأندلسيون بإمكانياتهم فقط أم أنهم اتجهوا إلى الخارج، إلى العالم الاسلامي، وإذا اتجهوا إليه بالفعل ما مدى فعالية المساعدات المقدمة، إن كانت هناك مساعدات ؟

---

46 - H. Ch lea, A History of the inquisition of Spain, 1 : 215

47 - A.H.N inq leg 197 n° 5 in Morisques et chrétiens, p 100

3 - الاستغاثة

اتجه الأندلسيون أولا إلى المغرب، لأن هذا الأخير كان دائما وراء العمليات الجهادية التي كان يقوم بها هؤلاء. يقول المؤرخ الأندلسي المجهول في هذا الصدد: «إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا وإغاثتنا وعدونا قد بنى علينا وسكن، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا مدد لنا...»[48].

ويرجع عدم تمكن المغرب من تقديم المساعدة إلى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كان يعيشها آنذاك، وهي ظروف عاينها الأندلسيون بأنفسهم بعد مجيئهم إلى المغرب: «... وكان من قضاء الله تعالى وقدره أنه لما جاز الأمير محمد بن علي وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع وطاعون، واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر...»[49]، كما عاين هذه الظروف أيضا المؤرخ المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي إذ يقول: «... ووقع بفاس وأعمالها خطوب وحروب وفتن وأهوال وفساد عظيم وخراب بلاد وهلاك عباد وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة من مدن منابر العدوة، منها طنجة وأصيلا وغير ذلك... ولا زالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا...»[50]. وقد أكد الجنابي[51] ما أورده عبد الباسط الحنفي، وكذلك الشأن بالنسبة المارمول إذ نص أن السكان في بعض المناطق اضطروا لبيع أطفالهم ونساءهم للحصول على قوتهم اليومي[52]. فلم يبق، إذن، بعد هذه الوضعية إلا الاتجاه إلى الشرق الإسلامي (مصر والأتراك) خاصة أن الاسبان كانوا يربطون دائما بين سقوط القسطنطينية وسقوط غرناطة، إذ عوضت هذه الأخيرة الأولى والخطوات التي كان يخطوها الأتراك في أوروبا كانت تقابلها مثيلاتها في اسبانيا[53].

وهكذا فقد استعانت الأندلس بمصر غير ما مرة. نذكر على سبيل المثال قصة السفارة الأندلسية التي بعث بها السلطان أبو عبد الله إلى سلطان مصر الظاهر جقمق

---

48 - نبذة العصر، ص 39.
49 - المصدر السابق، ص43 - 44.
50 - الزهر الباسم، ص 55 - 56.
51 - البحر الزخار، ص 527.
52 - افريقيا 111 : 1
53 - المصدر السابق، 448.

في سنة 844 هـ لكنها لم تسفر عن نتائج تذكر. إلا أن حوادث الأندلس المفجعة كانت قد داعت في العالم الإسلامي وأصبح صداها يتردد في بلاط القاهرة، وهذا مؤرخ مصر ابن أياس يسجل في حوادث ذي الحجة عام 886 هـ: «... وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله محمد بن أبي الحسن علي بن سعد بن الأحمر قد ثار على أبيه الغالب بالله صاحب غرناطة وملكها من أبيه، وجرت بينهما أمور يطول شرحها، وآل الأمر بعد ذلك إلى خروج الأندلس عن المسلمين، وملكها الفرنجة والأمر لله في ذلك»[54]. وهكذا فقد وضع السلطان المملوكي قايتباي (1460 - 1496) خطة مشتركة مع السلطان العثماني بايزيد الثاني (1481 - 1512) تنص على أن يرسل هذا الأخير أسطولا قويا لغزو جزيرة صقلية التي كانت يومئذ من أملاك اسبانيا، فيشغل بذلك اهتمام فرينادو وايزابيلا، وأن تبعث سريات كبيرة من الجند من مصر وإفريقيا، تجوز البحر إلى الأندلس، لتجنيد جيوشها وقواعدها[55]. لكن الظروف الداخلية للسلطان با يزيد الثاني حالت دون تنفيذ هذه الخطة، واكتفى بتوجيه كتاب إلى الملكين الكاثولكيين، لم يعملا بشيء منه، وكان ذلك بعيد انتفاضة البيازين عام 1499[56]. وقد واصلت مصر جهودها بالرغم من كل ذلك، إذ وصلت سفارة من الأندلس في أواخر سنة 892هـ، ويصف ابن أياس هذه اسفارة قائلا: «... وفي ذي القعدة (سنة 892 هـ) جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس، وعلى يده مكاتبة من مرسلة تتضمن أن السلطان يرسل له تجريده تعينه على قتال الفرنج، فإنهم أشرفوا على أخذ غرناطة وهو في المحاصرة معهم، فلما سمع السلطان ذلك، افتضى رأيه أن يبعث إلى القسوس الذين بالقمامة التي بالقدس بأن يرسلوا كتابا على يد قسيس من أعيانهم، إلى ملك الفرنج صاحب نابل، بأن يكاتب صاحب اشبيلية بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم، وألا يشوش السلطان على أهل القمامة، ويقبض على أيانهم ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول إلى القمامة ويهدمها، فأرسلوا قاصدهم وعلى يده كتاب إلى صاحب نابل، أشار السلطان فلم يفد ذلك شيء ا، وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد...»[57].

---

54 - بدائع الزهور، 2: 216.

55 - م. عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص 219، علي محمود حمودة تاريخ الأندلس السياسي... 302.

56 - م. عبده حتامله، التنصير القسري، 92.

57 - بدائع الزهور، 2: 246.

ملاحظة: لا يتعلق الأمر بحصار غرناطة، ولكن يتعلق بحصار مالقة.

انظر: م. عبد الله عنان، نهاية الأندلس، 220.

ولم يكن في موسوع مصر آنذاك أن تلبي نداء الأندلس بفعل ظروفها الداخلية ونزعاتها مع الأتراك فحاولت السبيل الدبلوماسي، ذلك أن سلطان مصر الملك الأشراف أجاب عن سفارة الأندلس بتوجيه سفارة مصرية إلى البابا وملوك النصرانية، واختار لأدائها راهبين من رعاياه النصارى، أحدهما القس أنطونيو ميلان رئيس دير القسيس فرنسيس في بيت المقدس، وعهد إليها بكتب إلى الباب وهو يومئذ أنوصان الثامن، وإلى ملك نابولي فرينادو الأول، وإلى فرينادو وإيزابيلا، وفي هذه الكتب يعاتب سلطان مصر ملوك النصارى على ماينزل بأبناء دينه المسلمين في مملكة غرناطة، في حين أن رعاياه النصارى في مصر وبيت المقدس يتمتعون بجميع الحريات. وقد هذذ السلطان بأن يعامل رعاياه النصارى بالمثل[58].

ولم ير فرناندو وايزابيلا في مطالب السلطان ووعيده ما يحملها على تغيير خطتها، في الوقت الذي أخذت في قواعد الأندلس الباقية تسقط تباعا في أيديهما، ومع ذلك فقد كتبا في أدب ومجاملة إلى السلطان : «أنهما لا يفرقان في المعاملة بين رعاياهما المسلمين والنصارى ولكنهما لا يستطيعان صبرا على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية...)[59].

ولما استولى الملكان الكاثولكيان على غرناطة بعث Picrto Martiri Angleria سفيرا له لسلطان مصر وهو آنذاك الملك الأشرف ليقنعه بحسن معاملة الملكين الكاثولكيين للمسلمين بالأندلس، لكن الأندلسيين والمغاربة هناك كانوا يشرحون باستمرار للملك الأشرف ما يلاقيه المسلمون هناك، مما أدى به إلى أن يطلب من السفير الانصراف، لكن هذا الأخير أقنعه بحسن وصدق رسالته[60].

وقد استنجد الأندلسيون أيضا بالسلطان بايزيد الثاني، إذ بعثوا له برسالة محزنة يصف فيها كاتبها في شعر ركيك ولكن مؤثر قوي التعبير ما تفعله إسبانيا برعاياها الجدد، وما يصيب «المتنصرين» من تعسف محاكم التفتيش ومطارداتها وعقوباتها، وهذه بعض أبيات هذه القصيدة، بعدما ورد فيها من ديباجة شعرية طويلة في تحية السلطان با يزيد :

---

58 - م. عبد الله عنان، المصدر السابق، 221.

59 - المصدر السابق، 222.

60 - المصدر السابق، 272، 273 .

فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم بدأ غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهودا كان قد غرنا بعضها ونصرنا كرها بعنف وسطرة
وكل كتاب كان في أمر ديننا ففي النار القوة بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم ولا مصحفا يخلى له للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ففي النار يلقوه على كل حالة
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت بغير رضا منا وغير إرادة
فآها على تبديل دين محمد بدين كلاب الروم شر البرية
وآها على تلك الصوامع علقت نواقسهم فيها نظير الشهادة
وآها على تلك البلاد وحسنها لقد ظلمت بالكفر أعظم ظلمة
ولو أبصرت عيناك ما صار حالنا إليه الحادث بالدموع الغزيرة[61]

ومن المرجح أن هذه الرسالة وجهت إلى السلطان عقب ثورة البشرات وما تلاها من إجراءات قمعية سنة 1501، ويبدو مما ورد من أبيات القصيدة بعد ذلك أن السلطان با يزيد كان قد بعث إلى فرناندو الكاثوليكي رسالة للكهف عن مطاردة المسلمين، كما يبدو أنهم توجهوا في نفس الوقت بصريخهم إلى مصر، وأن مصر بعثت برسالة مماصلة، وولكن الملك النصراني لم يقم أي وزن لهذه المساعي، وهذا ما جاء في القصيدة موضحا ذلك :

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم فلم يعملوا منه جميعا بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة علينا وإقداما بكل مساءة
وقد بلغت إرسال مصر إليهم وما نالهم غدر وهتك حرمة
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا رضينا بدين الكفر من غير قهرة[62].

هكذا استغاث الأندلسيون بالمغرب أولا وبالشرق الإسلامي ثانيا، وبذلوا جهودهم للحفاظ على حضورهم بالأندلس، لكن هل حاولا أن يسألوا أنفسيهم عن أسباب الهزيمة، هل كانوا واعين بخطورة الموقف ؟ هل كنوا واعين بحقيقة الحضور العربي الإسلامي بالأندلس ؟

---

61 – انظر القصيدة عند أ. المقري، نفح 1 : 109 – 115.
62 – نفس المصدر.

إن هذه الأمور بم تعد واضحة لديهم إلا بعد أن استيقظوا من هول المأساة، فأصبحوا يصرخون للغير ويتأملون لأنفسيهم.

4 - الأندلسيون أمام مأساتهم

سنختار خمسة مؤلفين أندلسيين عاصروا الأحداث وأعطوا رأيهم بشكل أو بآخر، ولهم مواقف معينة من مأساتهم وسوف نقسمهم إلى مجموعتين :

- المجموعة الأولى وتضم أناسا ساهموا في الحياة السياسية بالفعل، وخبروا أسرارها، وأدركوا مدى الخطر الذي يهدد كيانهم ووجهوا نداءتهم بصراحة إلى جمهور الأندلسيين لمواجهة المواقف.

- المجموعة الثانية: تضم فئة أخرى ارتأت أن تواجه الأزمة بشك آخر عن طريق الصمود في وجه الأحداث، وذلك بالنضال العلمي المستميت الذي يتلخص في الحفاظ على تراثها الحضاري، لكنها في الأخير وأمام هول المأساة واستنفاذ جميع الوسائل سوف تحاول الحفاظ على هذا التراث بالهروب خارج الحدود، وتلك قضية أخرى تباينت في الآراء والمواقف وصدرت فيها الفتاوي العديدة.

أ - المجموعة الأولى: سوف نركز على شخصيتين أساسيتين : ابن عاصم وابن الأزرق.

- ابن عاصم في مواجهة المأساة

تولى ابن عاصم[63]، اثنتي عشرة خطة، منها القضاء والكتابة والوزارة والامامة الخطابة في فترات عصيبة بالنسبة للأندلس، وشاهد أمام مدن الأندلس تسقط الواحدة تلو الأخرى، ولم يبق بيد المسلمين إلا غرناطة التي بدأ العدو يستعد للوثوب عليها. وقد لاحظ عدم جدية ملوك بني نصر وتهاونهم لاشتعالهم بفتنهم الداخلية، وأفضت به تأملاته إلى تأليف كتاب في شكل «صور» محاولا البحث عن أسباب المأساة وفي نفس الوقت التحذير من الخطر الداهم، وقد لاحظ المقري ذلك، وهو بصدد نقل نص للمؤلف المذكور قائلا :(عندما رأى «ابن العاصم اختلال أمر الجزيرة - أعادها الله - وأخذ النصارى - دمرهم الله - لمعظمها، ولم يبق إذ ذاك بيد المسلمين إلا غرناطة، وما يقرب منها مع وقوع فتن بين ملوك بني نصر حينئذ، ثن أفضى الملك إلى بعضهم،

63 - انظر ترجمته عند أ. المقري، أزهار، 1 : 50 - 55.

بعد تمحيص وأمور يطول بيانها، ألف كتابا سماه : «جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى» وهو كتاب عجيب جدا غريب...)[64].

وسنحاول أن نلقي نظرة على كتابه[65] متوخين من ذلك الوقوف على الهدف منه، ومنهجه في تحليل المأساة.

يوضح ابن العاصم أول الأمر الهدف من تأليف كتابه قائلا:(إنما قررت من هذا التمثيل ما قررت وحررت فيه من العبارة ما حررت، ليكون لي ولمن اعتبر بمثل اعتباري ووثق بيما حققت له من اختيارا تذكره، ومن غفلة هذه النفوس الأمارة بالسوء تبصره...)[66]، ولهذا الغرض فإنه يورد العديد من الأحاديث النبوية والآيات القرآنية، وكلام الحكماء وقصص الأولياء، وأحداث تاريخية متنوعة تؤيد ما ذهب إليه. ووضع الكتاب في ست صور :

الصورة الأولى : أن يكون الابتلاء في المقتنيات العزيزة على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك متوقعا في الاستقبال وليس بواضع الحال.

الصورة الثانية : أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال، وهو مأمول الجبر ولا مرجو الزوال.

الصورة الثالثة : أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال إلا إنه غير مأمول الجبر ولا مرجو الزوال.

الصورة الرابعة : أن يكون الابتلاء في النفوس أو ما لحق بها من أعضاء وقوى متوقعا في الاستقبال وليس بواقع في الحال.

الصورة الخامسة : أن يكون الابتلاء فيها واقعا في الحال إلا أنه غير موجو الارتفاع والزوال.

تحت هذه الصورة من الابتلاءات والتمحيصات والاختيارات جزئيات متعددة ينشأ عنها من الحزن والأسف والوجد والتعب والكرب والقلق والهم والنكد وغير ذلك من التأثيرات النفسانية ما يذهل العقل ويشغل الفكر ويغمر القلب ويتعب النفس ويضيق الصدر ويذهب النوم ويطرد الأنس، ويتفاوت أثره بحسب مأثره في اللين والشدة والثقل والخفة والكثرة والقلة وبحسب الملاقي له والوارد عليه وقوة الجأش

---

64 - أ. المقري، المصدر السابق، 50 .

65 - مخطوط خ، ح، بالرباط عدد 2648، وهو في 327 صفحة من الحجم الكبير، أما تاريخ التأليف فهو 854 هـ، وهو برسم الغالب بالله النصري.

66 - جنة الرضى، ص 6.

وضعفه ومضاء العزيمة ووهنها»[67]. وهي صور توحي لأول وهلة أنها بين اليأس والرجاء، إلا أنه بالتدقيق فيها يتضح أن صور الرجل إلى اليأس أكثر من الرجاء، فإنه قد تمرس بالسلطة وعرف رجالها كما أنه خبر قوة المسيحيين ومكايدهم ومدى قدرة واستعداد المسلمين على المواجهة وهذا ما يتضح بجلاء من بين ثنايا الصور :

«... ولا أمل للطاغية إلا التمرس بالإسلام والمسلمين، وأعمال الحيلة على المؤمنين، واضمار المكيدة للموحدين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى، وأنه مهتم بمراعاة أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم، وهو يسير حسوا في ارتغائه ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وابتغائه. فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوجه أو بحال. وليت المغمور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حسه، وراجع أوليات وتجريبات حدسه، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه، فأنا أناشده الله هل بات قط لمصالح النصارى وسلطانهم مهتما...)[68].

فالرجل واع بخطورة الأساليب التي يبتعدها المسيحيون لضرب المسلمين هناك خاصة أنهم استمالوا عددا منهم بدافع المصلحة الآنية، ونداؤه هنا صريح : وهو أن التعاون مع هؤلاء هو في حقيقة الأمر تمهيد غير مباشر لسيطرة المسيحيين على ما تبقى من أرض المسلمين، فهو على مستوى العامة يدعوهم إلى عدم التعاون مع المسيحيين، وعلى مستوى السللطة : يدعوها إلى الاتحاد ، لأن الفرقة في السلطة تؤدي حتما إلى دب الخلاف بين العامة مما يهيئ عاملا إضافيا للقوات المسيحية المتربصة :(... فاتحاد السلطان في مثل هذه الأوطان واجب قياسا وسماعا، وتعدد الخلافة في مثل هذه المسافة غير جائز اجماعا، ... تعلمون حقا أن هذا الوطن الأندلسي كان قد تحين للهلك بسبب هذا الخلاف، وتوقعت القلوب المشفقة حدوث الفاقرة بوقوع هذا الاختلاف....)[69].

ومن خلال ما أوردناه نلاحظ أن ابن عاصم يركز في تحليله للمأساة على ى ثلاثة نقط :

* أساليب العدو في الاستيلاء على أراضي المسلمين بالمكايذ والحيل.

* الخلاف في السلطة.

---

67 - المصدر السابق، ص 13 - 14.

68 - المصدر السابق، 280.

69 - المصدر السابق، ص 282.

*عدم التمسك بالعقيدة (بفعل الحملات التشكيكية القوية التي كان يمارسها المسيحيون).

وهذه العوامل متكاملة إلى حد كبير، فاستمالة المسلمين تقتضي التشكيك في عقيدتهم، والخلاف في السلطة يؤدي إلى اضعافها وعدم القدرة على مواجهة المحاولات التخريبية التي يقوم بها المسيحيون لهدم الكيان العربي الإسلامي.

لكن يبقى السؤال دائما مطروحا : هل وجدت نداءات ابن عاصم آذنا صاغية؟

إن التاريخ يبين عكس ذلك ! فالمسألة كانت قد استشرت داخل المجتمع الإسلامي الأندلسي بغرناطة إلى حد كبير، والاسبان كانوا على الأبواب.

* أبو عبد الله محمد بن الأزرق (ث . 896 هـ/ 1491) : محاولة تشخيص الداء.

اشتغل ابن الأزرق بأربع وظائف، اثنتين رسميتين واثنتين تطوعيتين، اما الرسميتان فهما القضاء والسفارة، واما التطوعيتان فهما التدريس والافتاء[70]. وقد شغل هذه المناصب بالأندلس (خاصة مسقط رأسه مالقة وغرناطة) كما شغلها بالقدس الشريف[71].

السفارة

يقول السخاوي في هذا الصدد : (ثم خرج (ابن الأزرق) معه (أي مع الملك أبي عبد الله محمد الزغل) إلى وادي آش وهما منفصلان (عن منصبهما بغرناطة)، فوجهه - قاصدا - إلى السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد بن أبي محمد بن أبي فارس، لمساعدة الأندلسيين على عدوهم الكافر، فلم يلبث أن مات أبو عمرو، فارتحل صاحب الترجمة إلى الديار المصرية ليحج...)[72].

وظيفة التدريس

باشر وظيفة التدريس بالجامع الأعظم وغيره بغرناطة، وقد اعترف له تلامذته بكفايته ودرايته في هذا الميدان[73].

---

70 - محمد بن الكريم مقدمة تحقيق كتاب بدائع السلك، ص 13.
71 - عبد الرحمان أبو اليمن: الانس الجليل، 2 : 256.
72 - الضوء اللامع، 9 : 21
73 - أ. المقري أزهار، 3 : 303، 305.

وظيفة الافتاء

أثبت عدد من الفقهاء فتاويه مثل تلميذه الوادي آشي، وأحمد الونشريسي[74].

وخلاصة القول فإن ابن الأزرق كانت له مشاركة واسعة في الفقه والعقائد والأدب والتاريخ كما تدل على ذلك مؤلفاته[75]، على أن ما يهمنا على الاطلاق هو كتابة في موضوع السياسة[76]:

بدائع السلك، في طبائع الملك

كتبه ابن الأزرق سنة 883هـ / 1478 ولم يلبث إلا مدة حتى سقطت مالقة موطنه سنة 892هـ / 1487، فهل استشعر النكسة قبل وقوعها ؟

أوضح ابن الأزرق الهدف من تأليف كتابه قائلا :(... قصدت إلى تلخيص ما كتب الناس في الملك والامارة والسياسة التي رعيها على الاسعاد بصالح المعاش والمعاد أصدق إمارة على نهج يكشف عن محيا الحكمة قناع الاحتجاب، ويأتي في تقريره لتهذيب ما فصل وتحريره بالعجب العجاب، لا تحف به به من تشوف لهذا الغرض، ولم يعدل فيه من الجوهر إلى العرض، من أمير صدقت فيه رغبته وظهرت، ومأمور وضحت له دلائل الافادة به وبهرت...)[77].

وفعلا فالكتاب في كثير من جوانبه تلخيص لما أورده ابن خلدون، فكأنه أراد بذلك أن ينبه إلى ما يبق أن نبه إليه الأول عندما استعرض أسباب فساد العمران، وهو إن اختلف مع سابقه من حيث المنهج فإن الهدف مع ذلك واحد، إذ هو مرتبط أساس بالوضعية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيشها الأندلس آنذاك، فحاول من خلال استعراض(قواعد الملك) أي الأسس التي يجب أن يرتكز عليها كل حكم أراد بنفسه الاستقرار والبقاء، فقد وضع الأندلس أمام الصورة بكل وضوح عندما استعرض هذه الأسس، أي أن مخالفتها تؤدي حتما إلى هدم الكيان ككل وقيام كيان جديد دخيل وهو في هذه الحالة : الاسبان.

ولهذا فكتاب ابن الأزرق اعتبارا لهذه الأسس جميعا تشخيص للداء ومحاولة للبحث عن الدواء.

---

74 - المعيار، 11 : 111، 112.

75 - انظر جملة من تآليفه عند أ. المقري، أزهار، 3 : 318.

76 - هناك تحقيقان للكتاب، احدهما لمحمد بن عبد الكريم والآخر لسامي النشار، وسنعتمد لتحقيق الأول.

77 - بدائع السلك، ص 59.

ب : المجموعة الثانية : النضال العلمي

يقول المقري :(لما تقلص الاسلام بالجزيرة واسترد الكفار أكثر أمصارها وقراها عتلى وجه العنوة والصلح والاستسلام، لم يزل العلماء والكتاب والوزراء يحركون حميات ذوي البصائر والأبصار، ويستنهضون عزماتهم في كل الأمصار)[78].

وهكذا فإن النضال العلمي يسير جنبا إلى جنب مع النضال السياسي، فقد حدثنا السراج عن انتصاب أبي عبد الله اللوشي بالجامع الأعظم في غرناطة يقرأ القرآن والحديث محتسبا في ذلك من غير جراية يأخذها بأخذها[79]. وكما تجلى النضال الغلمي في التدريس، فقد تجلى أيضا في الاقبال على تصنيف بعض المصنفات في فنون علمية مختلفة، وفي القيام بالأبحاث والمناظرات والمراجعات مما يتيح احتكاكا فكريا مثمرا.

ولمعت في سماء الحياة الفكرية بغرناطة خلال القرن التاسع أسر علمية أسهمت بنصيبها في الجهاد بالقلم والدعوة إلى الاتحاد وقد رحل العديد من هؤلاء خارج الأندلس (ومنهم من دون رحلته) مما يجعلنا نتساءل : لماذا كان يرحل هؤلاء إلى الخارج باستمرار ؟ هل يئسوا من نضالهم العلمي بالأندلس فأرادوا تهيئة الرأي العام الإسلامي خارة الأندلس لمساعدتها ؟ هل أرادوا أن يثبتوا لعامة المسلمين أن علماء الأندلس ما زالوا على كفاية ودارية بأمور دينهم، خاصة أن الاتهام الرئيسي الذي كان يوجه إليهم : أنهم المسؤولون عن فقدان الأندلس لتفريطهم في دينهم؟ أم أرادوا أن يقبتوا للعالم الإسلامي أنهم - كما كانوا في الماضي - أساتذة العلم الإسلامي؟

على كل سنحاول أن نتعرف على ذلك من خلال استعراض ثلاث شخصيات لها ما تقوله في هذا الباب، وتنطبق عليها الكثير من الصفات التي أوردها سابقا.

أبو عبد الله المجاري (ت. 862 هـ)[80]:

هو شخصية علمية بارزة بشهادة معاصريه، وقد اتجه أولا من غرناطة إلى تلمسان، وقصد بعد ذلك تونس عن طريق بجاية، متجها إلى مصر، وتتلمذ على المجاري العديد من الشخصيات التي أصبح لها ذكر فيما بعد.

---

78 - ازهار الرياض 1 : 63

79 - فهرس السراج، 119.

80 - انظر ترجمته ومصادرها عند محمد أبو الاجفان، مقدمة تحقيق برنامة المجاري، ص 9 - 74.

ألف المجاري «برنامجا» على غرار سابقه[81]، وذلك ببعد رحلته المشرقية وبعد شيوخه الأندلسيين[82].

وقد رتب فيه الشيوخ حسب ببلدانهم وأماكنهم التي تلقى عنهم فيها، مبتدئا بشيوخ غرناطة ثم تلمسان ثم بجباية ثم تونس ثم مصر.

أبو الحسن عي القلصادي (توفي ببجاية افريقية 891هـ)[83]:

من مدينة بسطة، بها تلقى دراسته الأولية على يد شيوخ المنطقة كأبي بكر البياز وأبي عبد الله البياضي الخ... وقد اتجه في رحلته إلى تلمسان حيث تلقى العلم على يد شيوخها وظل هناك حوالي ثماني سنوات، ثم انتقل بعد ذلك إلى تونس وعبر عن اعجابه لما رأى فيها (سوق العلم حينئذ نافقة وينابيع العلوم على اختلافها مغدقة)[84]، ثم اتجه بعد ذلك إلى القاهرة ومن هناك إلى البقاع المقدسة[85]. وبعد هذه الرحلة التي تواصلت حوالي 15 سنة، انتقل من جديد إلى غرناطة، فاشتغل بالتأليف والتدريس خاصة في علم الفرائض والحساب الذي أبدع فيه ايما ابداع[86]. ولما شعر بالخطر يتفاقم في وطنه (تحيل في تخليصه من شرك الشرك)[87]. ولم يبين المترجمون الطريقة التي توخاها لتلخيص الوطن من شرك الشرك المنصوب وإنما ذكر المقري أنه خرج لهذا الغرض الش ريف فنزل بتلمسان[88]. وأقام لدى صديقه ابن مرزوق الكفيف ثم رحل إلى باجة افريقية حيث واصل نشاطه العلمي هناك[89]. وقد اشتهر بتآليفه العديدة إلا ما يهمنا منها ونحن بصدد دراسة

---

81 - كان لعلماء الأندلس شغف بالغ بالفهارس والبرامج تأليفا ورواية، فقل أن لا ينسب للعالم منهم في ترجمته فهرس شيوخ. ويرتبط هذا الشغف بحب العلم وأهليه والرغبة في الالتحاق بالسند والتشوف بالاجازة والعناية بالرواية. وقد ظهرت مصنفات الفهارس منذ العهود الأولى بالأندلس وانصب الاهتمام على تداولها بالقراءة والرواية. ويدلنا على ذلك ما استعرضه بعض العلماء من الفهارس التي أخذوها عن شيوخهم مثل القاضي عياض في آخر كتابه الغنية وابن خير الاشبيلي والمنتوري في فهرستيهما.

82 - محمد أبو الاجفان مقدمة تحقيق برنامج المجاري، ص 69.

83 - انظر ترجمة مفصلة عند م. أبو الاجفان، مقدمة تحقيق رحلة القلصادي، ص 17 - 78.

84 - رحلة القلصادي 115 .

85- م. أبو الاجفان، مقدمة تحقيق رحلة القلصادي، ص 36.

86 - انظر مؤلفاته عند م. أبو الاجفان، المصدر السابق ، ص 40 - 48 .

87 - الحلل السندسية، 1 : 672.

88 - م. أبو الاجفان المصدر السابق، ص39 .

89 - نفس المصدر السابق والصفحة.

شخصيته هي رحلته، فقد وصف فيها المناطق التي زارها وشيوخ العلم بها، ويبدي تقديرا خاصا للأصدقاء والمغتربين من أهل الأندلس.

ومن خلال الرحلة نستطيع أن نلتمس أن القلصادي نجح إلى حد كبير في اقناع مخاطبيه بأهمية العلم الأندلسي، وكونه لم يأل جهدا في الدفاع عن الكيان العربي الإسلامي، فقد حظي بتقدير كبير في تونس، بل (مازال أهل بباجة يبدون اعتزازهم بالقلصادي العالم ويعدونه من الأفذاذ الذين أنجبتهم مدينتهم عبر تاريخها الإسلامي الطويل...)[90].

وهكذا استقر القلصادي بباجة وطاب له المقام هناك، لكن هل نسي الناس مسؤولية الأندلسيين في فقدانهم وطنهم آنذاك ؟

يصعب الاجابة بالايجاب عن هذا السؤال، فإن حظي بعض علماء الأندلس باحترام الناس فهذا فقط لعلمهم، ومن قبيل إيجاد العذر لهم. فالقلصادي ناضل نضالا مستميتا من أجل الحفاظ على العلم الأندلسي، وظل على حاله هذا إلى أن وصل إلى حد معين جعله يختار بين أمرين: اما البقاء بالأندلس وينتظر العلم الأندلسي مصيره المحتوم، أو الهروب به خارج الأندلس مقابل البقاء عليه، وذلك رهان التاريخ.

أبو جعفر أحمد علي البلوي (ت.سنة 938هـ / 1532):

شهد له معصروه بقدمه الراسخ في مختلف العلوم والفنون، كما يتجلى ذلك من خلال المصادر التي أرخت له،[91]، ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على ثبته[92] لنتأكد من ذلك. على كل ما يهمنا في هذه المرحلة هو أن نتساءل هل صمد في نضاله العلمي بالأندلس أم أنه فضل الهجرة ؟

سلك مسلك سابقيه، فقد اتجه إلى تلمسان - وكانت آنذاك مركز علم وثقافة - ومن هناك نزع إلى وهران، ومن هناك إلى تونس (منذ أوائل دجنبر 1492 إلى غاية أبريل 1493)، ومن تونس ارتحل عن طريق البحر قاصدا القسطنطينية، وهناك استوطن لمدة طويلة. وقد وجد الرعاية في ظل با يزيد الثاني مما شجعه على التأليف والدرس، وقد استمر هذا السند المادي والعلمي في ظل سليم الأول وسليمان القانوني[93].

---

90 - م. أبو الاجفان، المصدر السابق، ص 55.

91 - انظر هذه المصادر عند عبد الله العمراني، مقدمة تحقيق ثبت البلوي، ص 11، 99.

92 - حققه عبد الله العمراني وقد نشر سنة 1983.

93 - انظر عبدالله العمراني المصدر السابق، ص 37.

لنا أن نتساءل من جديد لماذا هاجر البلوي ؟

هناك نص صريح للمقري يوضح هذه النقطة، إذ ذكر عن بني داود (يقصد آل البلوي) - وهو بصدد الحديث عن العلماء الذين خرجوا من الأندلس ونزلوا بتلمسان - ما يأتي:(...ومنهم بنوا داود المذكورون في فهرسة الشيخ ابن غازي، وهؤلاء خرجوا من الأندلس قبل أخذ غرناطة، ولكن لما رأوا استطالة العدو عليها وأنه آخذها لا محالة، قوضوا رحالهم عنها فنزلت بتلمسان المحروسة، وأخذت الحضرة الغرناطية بعد ارتحالهم بقريب)[94].

لكن بعض الباحثين لا يوافق المقري على كلامه : (إن كلام أبي العباس أحمد المقري يوحي بأن هجرة البلويين كانت لأنهم أيقنوا من أخذ غرناطة، إن عاجلا أو آجلا، فكأنهم فروا فرارا من هذا الجو السياسي المضطرب والمعترك الحربي الذي ما فتئ تدور رحاه في ربوع المملكة الغرناطية إلى حيث ينعمون بالاستمرار والهدوء والسلام والاطمئنان)[95]. ويضيف نفس الباحث قائلا : (.... انهم في نظره (نظر المقري) ارتحلوا خائفين وجلين، تدفعهم الروح الانهزامية دفعا، فهو بذلك يسمهم بسمية الجبن والخذلان.

قد يكون المقري استنتج هذا المفهوم من الظروف المضطربة السائدة، ومن أن بعض الأندلسيين فروا فعلا بدينهم، والتجأوا إلى مأمنهم ولكن لسنا على هذا الرأي، ولا نستطيع أن نصم جميع أفراد هذه الأسرة بوصمة عار، وفيهم شخصيات تعتبر قدوة لغيرها، فهذا الحسن البلوي يصفه بعض الأساتذة بشيخ العصر، وهذا ولده أبو جعفر يصفه المقري نفسه(بالإمام)، وكيف ينتظر من الأئمة أن يفروا من القضاء والقدر على اعتبار أن سقوط غرناطة كان حين هجرتهم شيئا لا مناص منه؟ وزيادة في الايضاح أقوال : انه كان غرض البلويين الفرار بدينهم لا تجهروا إلى المغرب، فهو أقرب بلد من الأندلس وأقرب - بصفة خاصة - من ميناء المنكب، فقد كان في إمكانهم ألا يتجسموا كبير مشقة في الرحيل وان يستقروا في المغرب كما استقر بعض أسلافهم من قبل، وكما استقر أبو عبد الله الملك الغرناطي المستسلم من بعد، ان شيئا من هذا لم يقع ، وان أي دليل لم يتوافر لدينا على عزم هذه الأسرة على

94 - عبد الله العمراني، المصدر السابق، ص 41.

95 - عبد الله العمراني، المصدر السابق، ص 41.

مغادرة الأندلس نهائيا، ومن ذلك أننا لا نعرف شيئا بهذا الخصوص، ولا تشير المصادر إلى أن الأسرة استصفت أملاكها وباعتها قبل الرحيل - مثلا - ...)[96].

ويخرج بعد ذلك بالملاحظات الآتية :

* الملاحظة الأولى : ان رحلة أبي الحسن البلوي وأولاده لم تكن فرارا من واقع الأندلس المر، وخصوصا أن أفراد هذه الأسرة كلهم علماء، متشبتون بأهداب الدين.

* الملاحظة الثانية : ان رحلتهم صوب الشرق كانت ترمي إلى أداء فريضة الحج أولا، وإلى الاتصال بالعلماء ثانيا، قصد الأخذ عنهم، واعطائهم، سعيا وراء السند العالي.

*الملاحظة الثالثة : لا يقدم في هذا أن البلويين ذهبوا إلى الشرق بقضهم وقضيضهم، ذلك أن كثيرا من الأس الموسرة أو المستورة الحال، كانت تفعل ذلك فتذهب إلى الحج جماعات، وفي ذلك آجر مضاعف ولا ريب.

*الملاحظة الرابعة : أثناء هذه الرحلة العلمية وقع ما وقع فسقطت غرناطة في يد المسيحيين واستسلم أبو عبد الله، وهاجر إلى افريقية، حيث اختار المغرب وعاصمته فاس التي مكث فيها حتى لبى داعي ربه سنة 940 هـ.

ومن الطبيعي - والحال على هذا المنوال - أن يسقر البلويون في بلد الشرق»[97].

ذلك قول المقري، وهذا رد الباحث السالف الذكر، فكيف يمكن تصور الموقف في هذه الحالة ؟

في تقديرنا لا يتعلق الأمر بشجاعة أدبية وعلمية بقدر ما يتعلق بالظرفية التاريخية السائدة آنذاك والسؤال المناسب في هذه الحالة هو : هل كان بإمكانه فعلا البقاء في ظل سقوط غرناطة في يد الملكين الكاثوليكيين ؟ هل كان بإمكاه أن يبقى في ظل جهاز قمعي صمم العزم على محو أي أثر اسلامي هناك كما فعل الكاردينال عندما أحرق الكتب العربية ؟

إن الفئة التي ظلت بالأندلس كانت تعرف بالفعل مصيرها المختوم، وكانت واعية بالظروف المستحدثة، بل ورضيت إلى حد ما بها، وكانت تهيئ باستمرار للنضال المسلح ضد المغتصبين، كما تجلى ذلك في الثورات العديدة التي قاموا بها

---

96 - المصدر السابق، ص 40 .

97 - المصدر السابق، ص 43 .

هناك بعبارة أخرى : إن الذين ظلوا هناك هو أولئك الذين لمسوا في أنفسهم القدرة على المقاومة بجميع أشكالها، وأنى العالم مثل البلوي بمثل هذه المواجهة المسلحة ؟

لقد سقطت الأندلس وهي تعج بالعلماء والأدباء والشعراء، مما يحتم معه التساؤل الآتي : ما مدى دور هؤلاء جميعا في هذا السقوط ؟

لقد رأينا موقف العلماء ورأيناه يتراوح بن الصمود والانسحاب؟ فما هو موقف الأدباء والشعراء !

حاول احسان عباس أن يحلل - في دراسة له - دور الأدب في انحلال أخلاق المجتمع وسقوط الأندلس، وأعطى لدراسته تلك عنوانا يحمل أكثر من معنى (هل كان الشعراء في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها أن كان لها مجرد مرآة وانعكاس[98].

وقد حاول أن يبرز في دراسته أن الأدب الأندلسي كان يعيش ضمن ضوابط أخلاقية بفعل خضوعه لضروب مختلفة من الرقابة، منها الرقابة الذاتية والرقابة النقدية والرقابة الرسمية، وعلى ذلك فإنه لم يكن سائبا سادرا دون ضوابط أخلاقية، وان أدب المتعة نفسه كان يقصد به أحيانا كشف جمال الكون (كوصف الطبيعة) وأن بعضه الاخر كان تقديرا للذكاء والمهارة الانسانيتين (كوصف القصور والتماثيل) وان قسما ثالثا منه كان نقلا لمشاعر انسانية سليمة (كالغزل العفيف) وانه حتى في بعض صورة الماجنة كان معوانا على الجد، ومن تم استطعنا أن نقول أنه لم يكن - في الأغلب - يقصد التبذل من أجل التبذل في ذاته....)[99].

ويخرج ببعد ذلك بالخلاصة التالية : (... وعلى هذا قد يكون من الصواب ألا نحمل الأدب مسؤولية كبرى في النهاية التي انتهت إليها الأندلس، بل إننا نرى فيه نشاطا إنسانيا يتضافر مع سائر ضروب النشاط الإنساني من فكرية وتنظيمية واقتصادية وعسكرية ودينية، وانه مرتبط متلاحم معها، يعكس الواقع ويقدم العون، ويصاب بالمد أو الجزر بحسب مد تلك النشاطات وانحسارها....)[100].

ونختم هذا الفصل بالاستنتاجات التالية :

---

98 - مقال بمجلة «الاصالة» الجزائرية، السنة الرابعة العدد 27، شتنبر - أكتوبر 1975، ص 189 - 208.

99 - المقال السابق، 202 .

100 - المقال السابق، 206.

أ - ان نجاح الملكين الكاثوليكيين في القضاء بسرعة على مملكة غرناطة يرجع أساسا إلى عاملين :

* الخلافات التي كانت تعرفها المملكة من حين لآخر، وما ترتب عنها من تفكك.

* اختفاء المساعدة المغربية بفعل الظروف الداخلية للمغرب.

ب - انتهج الملكان الكاثوليكيان سياسة المراوغة لشراء الضمائر أمام عنف المواجهة العربية، لكن سرعان ما ظهرت النوايا الحقيقة لهما عند فرض التعميد الاجباري، واخلالهم بالعهود المبرمة مع المسلمين.

ج - رفض المسلمين المطلق لأية محاولة لادماجهم في المجتمع الاسباني، فأعلنوا الثورة مرارا من أجل المحافظة على هويتهم الحضارية.

د - واجه الاسبان هذه الثورات مرارا بعنف ووحشية لادراكهم عمق المشكل المطروح، كانت تلك تجربة الملكين الكاثوليكيين مع الأندلسيين، وستتلوها تجربة أخرى لملكين آخرين ستبدو فيها الأمور بشكل أوضح.

الفصل الثاني

المورسكيون في عهدي شارل الخامس وفليب الثاني

عرفت هذه الفترة أحداثا خطيرة نتجت بالخصوص عن اصدار كل من شارل الخامس وفليب الثاني قرارات مجحفة كان القصد منها ادماج المورسكيين في المجتمع الاسباني لكن عنف المقاومة كان يحول دائما دون تنفيذ المخطط الاسباني خاصة ان العلاقة لم تعد مقتصرة على طرفين، بل ستدخل فيها أطراف أخرى (أتراك، مغاربة، فرنسيون) مما جعل الصراع يكتسي أبعاد أكبر من تلك التي كان يتصورها الاسبان.

3

الموريسكيون في عهد شارل الخامس
(925 هـ - 963هـ / 1519م 1556م)

المواجهات الأولية

يمكن تلخيص سياسة الملك شارل الخامس في: «إقامة السلم بين المسيحيين وإعلان الحرب الصليبية ضد المسلمين»[1]، إذ أن كل الأعمال التي سيقوم بها على الصعيدين الداخلي والخارجي تدخل في هذا الاطار.

واجه شارل الخامس على الصعيد الداخلي أوضاعا سياسية صعبة بسبب القرارات التي أصدرها لتنظيم الأحوال الداخلية بالبلاد خاصة تعيين الكاردينال أدريانو دي اتريش Adrino de Utrech (وهو من أصل غير اسباني) وصيا على عرش ممالك قشتالة وليون، إذ ثار النبلاء والسادة ضد هذا التعيين الذي يفضل شخصا غريبا عليهم. وقدموا عدة احتجاجات ضد الملك، لكنه لم يأبه بها واستمر في سياسته[2].

كان ذلك بمثابة الشرارة الأولى التي الهبت نار الثورة، إذ انطلقت من طليطلة، وشقوبية Segovial وسمورة Zammora وشلمنقة Salamaenca، وآبلة Avila إلى غير ذلك. وشكلت جمعيات Comunidades بمدينة آبلة بزعامة الجنرال اخوان ذي باديا الذي حاول أن يجعل الملكة خوانا المعتوهة (والدة شارل الخامس) على رأس هذه المعارضة. كما نشأت منظمات أخرى في بلنسية عرفت باسم Germanias[3]، تعارض سياسة الملكو وتقف أمام مصالح النبلاء والسادة. وكانت هذه المنظمان الأخيرة أقوى من سابقتها وأكثرها عنفا، واستمرت من عام 1519 - إلى غاية 1525.

---

1 - انظر:

-Ranon Menendez Pidal «Formacion del Fudamental Pansamientu politico de Carlos V»in, Charles - Quint et son temps, pp 1- 8

2 -Jose luis Comemmas Historia de Espana Moderna y contemporanea, page 101 - 106.

3 - للمزيد من الايضاح عن هذه المنظمات انظر:

Ricardo Garcel, las Germanias de Valencia

وازداد الأمر سوءا عندما قرر الملك فصل الكاثوليكية عن البروتستانت نهائيا، ولم يعد يسمح لغير الكاثوليك بالاقامة في ممالكه مما أدى بالبروتستانت إلى تشكيل عصبة Samalcada مستعينين بفرانسوا الأول ملك فرنسا - الخصم العنيد لشارل الخامس - وبهنري الثامن ملك انجلترا.

وقد تصرف شارل الخامس بقسوة، فقاوم كل من لم يدن بالكاثوليكية، وبذل قصارى جهوده لتحقيق وحدة دينية كاثوليكية، إذ كانت هدفه الأول والأخير. وداخل هذا الاطار يمكن تفسير جميع أعماله ومن ضمنها اجراءاته ضد الموركسيين.

موقف شارل الخامس من الموركسيين

قدم النواب الموركسيين[4] بالمجالس البلدية بغرناطة مذكرة بمظالم اخوانهم تبين ما لحقهم من اضطهاد وأذى على يد كاثوليكي غرناطة[5]، نتيجة الأحكام القاسية التي كان قد أصدرها الملك عام 1518 بحق الموركسيين لكثرة ثوراتهم، فاتخذ من هذه المذكرة سبيلا لفتح لمفهم وللتشديد عليهم في نفس الوقت خشية أن يقوم منهم قائم جديد، فأمر أن تثار هذه القضية في مجلس خاص، وشكل لجنة ظاهرها تقضي الحقائق وباطنها اختبار مدى تمسك الموركسيين بدينهم الاسلامي. وقد اختار لهذه الغاية شخصيات مهمة لها وزنها بالمنطقة[6]. وبعد أن تحققوا من الظلم والاضطهاد الذي لحق بالموركسيين غضوا النظر في تقريرهم عن الجرائم المرتكبة في حقهم، وتبيتوا أنن الموركسيين - بالرغم من المحن المتتالية - لم يكن بينهم من يدين بالنصرانية[7].

وقد رفعوا تقاريرهم عن تلك المظالم إلى الملك، وبعد اطلاعه عليها تبين له أن الموركسيين كانوا يرغمون على اعتناق النصرانية دون تلقينهم مبادئ الايمان المسيحي،

4- هم :
- Don Fernando Vennagas
- don Miguel de Aragon
- Don Diego lopez Berusjara

5- julio caro Baroja, los Moriscos del Reino de Granada,p. 52

6- هم :
- Don Antonio de Guevara - Don Gaspar de Avalos
- DR. Juan de Quintana
- DR. Franscisco de Untiel
- El Canonigo Pedro lopez

7 - Julio Caro Baroja, op. cit p. 52

لذلك اجتمع رجال الدين في اطار لجنة خاصة[8] وقضوا بأن الطريقة السابقة في تنصير المورسكيين قسرا لم تعد مجدية، فلجأوا أساليب أكثر دهاء وعنفا :

- نقل محاكم التفتيش من بلدة جيان إلى غرناطة لتتمكن منن ايقاع القصاص على من يرجع إلى الاسلام من المورسكيين.

- تغفر للمورسكيين كل (الشرور والمغالطات) المرتكبة حتى عام 1526 ضد الايمان الكاثوليكي، وينذرون بأشد العقوبات إذا لم يرتدوا عن غيهم.

- منع الموريسكيين من استخدام اللغة العربية، سواء في الخطاب أو الكتابة، وعليهم أن يتعلموا اللغة الاسبانية، ويكتبوا عقودهم ومعاملاتهم بها.

- على كل موريسكي أن يبدل ملابسه حتى تصبح متفقة مع ملابس الاسبان.

- يمنع الخياطون والصاعة من الخياطة أو الصياغة على النمط المورسكي.

- حظر عليهم استعمال الحمامات.

- منع اقتناء المورسكيين للعبيد والأسرى لخدمتهم[9].

استمرت المفاوضات السرية بين ممثلي المورسكيين وبين الملك حتى قر قراره أن يلغي تلك القرارات المجحفة مقابل أن يدفع المورسكيون للملك 80.000 دوكات Ducados.[10] وقد نفذ المورسكيون ما التزموا به، فدفعوا المبلغ الذكور، وألغى شارل الخامس سنة 1526 تلك القرارات، لكن إلى حين.

وضعية المسلمين ببلنسية

كان النبلاء وأمراء الاقطاع يعارضون دائما في طرد المسلمين من المنطقة، لما يلحقه الطرد بمصالحهم من ضرر بالغ لأنهم اعتبروا دائما يدا عمالية زراعية نشيطة ومخلصة، لكن الكنيسة كانت دائما ضد هذا الرأي إذ كانت تعمل باستمرار على اثارة الحكام والعامة ضد المسلمين، وحملهم على إساءة معاملتهم واجبارهم على التنصر أو الرحيل. وقد فكر الكاردينال (خميس) - مستشار الملكة الذي أصبح وصيا على عرش قشتالة بعد موت الملك فرناندو - في تأليف قوة مسلجة تكون في خدمة الكنيسة لتستعملها ضد النبلاء. فألف حرسا وطنيا مرتبطا بالكنيسة، وأخذ

---

8 - انظر اسماء أعضاء اللجنة عند :
Luis de Marmol Carvajal; Histoire de rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada, tomo I, libro I; capitulo 21 pags 105 - 109

9 - Julio Caro Baroja, op. cit. pp. 52 - 53

10 - Miguel la Fuente al Cantarc, Historia de Granada, tomo IV, copt XIX pags, 181 - 183

يستخدمه ضد النبلاء كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ثم جاء شارل الخامس فوجد المنظمة قائمة فأراد أن يستخدمها هو أيضا ضد النبلاء وضد الشعب، ولكنها افلتت من يده، وتحولت ضده.

وفي عام 1520 ألف ثلاثة من الفرسان جمعية من النبلاء في المدن، انضم اليها الكثير من الكبراء والأساقفة، فكانت هذه الجمعية تعبيرا عن شعور الأرستقراطية الاسبانية ضد محاولات الكاردينال والملكية لاخضاع النبلاء.

وفي نفس الوقت تألفت منظمة Germanias - السالفة الذكر - للاحتجاج على تصرفات المحكمة الكنسية. وأراد الملك أن يستخدم Germanias في خدمة أغراضه، فرد عليهم بأنه يوافق على قيام المنظمة ولكن تحت اشراف حاكم بلنسية. وفي عام 1519 انتخبت المنظمة المفوضين النهائيين من الشعب، وكان أعنفهم وأنشطهم يدعي خيين سورولا Jaen Sorolla، فأصبح رئيسا للجمعية واتخذ لنفسه حرسا خاصا وأحاط نفسه بمظاهر الأبهة، وأصبح الحاكم الفعلي لبلنسية، وأخذت الحركة في الامتداد إلى المدن والقرى[11].

وقد اتجهت أنظار أعضاء المنظمة بعد ذلك للمسلمين باالمنطقة، وأخذوا يشيعون أن العبيد المسلمين أبناء أسيادهم النصارى، فاندفع الناس إلى الحي العربي Morial في بلنسية، وهدموه بعد أن نهبوه فقتلوا من صادفوه منهم، وفعلوا في قرى المنطقة ما فعلوا في بلنسية. ويقول أحد المؤرخين أن المسلمين بمدينة (غانديا) Gandia قبلوا التعميد وهم جاثون بين أنقاض بيوتهم وبين جثث نسائهم وأطفالهم[12]. وارتفع أعضاء المنظمة في حق المسلمين أفضع الجرائم كما وقع في قرية (بولب) الواقعة في منطقة دانية Denia ، إذ كان في القلعة 600 من المسلمين متحصنين فيها، ولما هاجمهم المخربون دافعوا عن أنفسهم إلى النهاية، وقبلوا أن يضعوا سلاحهم وأن يتعمدوا شرط المحافظة على حياتهم وأموالهم. لكنهم عندما خرجوا من القلعة انقض عليهم أعضاء المنظمة وقتلوهم جميعا.

وقد استمرت أعمال هذه الحركة التخريبية ثلاث سنين داق فيها المسلمون صنوف العذاب والقتل والتشريد.

---

11 - للمزيد من الايضاح، وخاصة حول علاقة المنظمة بمحاكم التفتيش
Ricardo Garcia Gârcel, *origines de la Inquisicion Espanôla* ; El tribunal de Valencia

12- انظر
Comtre de Circourt, *Histoire des arabes d'Espagne*, 2 : 174

التعميد

استطاع شارل الخامس أن يحصل من البابا على براءة سنة 1524 أحل فيها الملك من اليمين التي أقسمها عام 1519 (بالمحافظة على حياة المسلمين، وحريتهم وأموالهم، وامتيازاتهم وقضائهم...)، وحثه على الاهتمام بموضوع تحويل المسلمين إلى النصرانية في مملكة أراغون. ونصح البابا (كليمانت السابع) الملك بأن يكلف أعضاء ديوان التحقيق بإتمام عملية التنصير. أما إذا أصر أحد المسلمين على التمسك بالإسلام، فيحسن إخراجه من المملكة تحت طائلة استرقاقه مدى الحياة[13].

كان الضغط المتزايد على المسلمين يدفعهم إلى المخاطرة بأنفسهم وأولادهم في سبيل الهجرة إلى شمال إفريقا، نجاة بدينهم وحريتهم وأعراضهم، رغم ما في هذه المخاطرة من عواقب وخيمة.

فقد كانت الأوامر الملكية تقضي باسترقاق من يقبض عليه وهو يحاول الهرب، واسترقاق زوجته وأولاده، ومصادرة أموالهم. ولكنهم برغم جميع هذه المخاطر كانوا يتسللون باستمرار إلى شمال افريقيا بمساعدة المغاربة، إذ يسجل المؤرخون سلسلة من الهجرات المتتالية.

أول هجرة مؤرخة سنة 1526 : 2200 موريسكي غادروا مملكة بلنسية في سنة 1529 : 200 موريسكي من بلدة Olive في سنة 1532 : 2000 موريسكي غادروا منطقة[14] Cuillera.

وأمام هذه الهجرات التي كانت تهدد المملكة بالبوار والخراب، تعالت شكاوي السادة الاقطاعيين، فأمر شارل الخامس بدعوة لجنة مشتركة من كبار رجال الدين وكبار رجال الدولة عام 1525 لمناقشة صحة التعميد الذي تم بالضغط والاكراه، وقد أعلنت اللجنة أن التعميد الذي تلقاه العرب يعتبر صحيحا، وبالتالي فرنهم مسيحيون حقيقيون، ويجب إجبارهم على الحياة النصرانية، وتعليمهم الدين، وتعميد أبنائهم.

أما المسلمون غير المعمدين، فيجب أن يتلقوا التعميد خلال فترة معينة، وإلا أصبحوا عبيدا مدى الحياة.

وقد جمعوا عرب بلنسية بالفعل في الكنيسة وأخبروا بأن لهم 10 أيام لإعلان دخولهم في الدين المسيحي وإلا تعرضوا للاسترقاق. لكن المسلمين لم يأبهوا بما

---

13 - Manuel Danvilla y Collado, *La Expulsion de los moriscos espagnoles*, p. 87

سمعوا وشرعوا في بيع أملاكهم وقرروا الهرب للنجاة بدينهم، ولما أدركت السلطات الاسبانية حقيقة الأمر منعت على المسلمين بيع أملاكهم.

وهكذا لم يرض المسلمون بالتخلي عن دينهم مهما كلفهم ذلك من ثمن، فاندلعت في أواخر عام 1525 نيران الثورة في المنطقة وقابلتها السلطات الاسبانية بأعنف وسائل القمع والإرهاب. ولم تتمكن مملكة أراغون من التغلب على الثائرين، إلا بعد أن استعانت بجيش من الألمان، وأبلى المسلمون أحسن البلاء في المعارك التي دارت خلال عشرة أشهر، وأدت هذه الثورة إلى قتل عدد كبير من المسلمين، ونسائهم وأطفاللهم، واسترقاق عدد كبير منهم، وإلى هجرة عدد كبير إلى شمال إفريقيا، أما الباقون فقد أجبروا على تلقي التعميد[15].

لكن المسلمين لم ييأسوا برغم جميع ما جرى، إذ أنهم كانوا يعرفون الوسيلة التي يتغلبون بها على صلف الاسبان وعجرفتهم، ألا وهي بذل المال وتقديم الرشاوي، إذ كان كل شيء في اسبانيا في ذلك الحين يباع ويشتري : الشرف والقانون والأخلاق، حتى أصبح الاعتراف بشرعية أبناء الاكلروس ممكنا[16]. فتابع الفقهاء الأثنى عشر - الذين يمثلون جمعيات المسلمين في بلنسية - جهودهم، لايجاد تسوية المواضيع المعلقة، فاتصلوا بكردينال طليطلة، وبديوان التحيق الأعلى، وبالأمبراطور نفسه، وتوصلوا في سنة 1528 إلى اتفاق مع رئيس ديوان التحقيق ومع كاردينال طليطلة، قبل به الملك ووافق عليه، وهذه بعض بنوده[17].

- لايمكن أن يستمر المورسكيون في الاقامة في مكان يعاملون فيه معاملة سيئة كالتي يتلقوها اليوم.

- لايتابع المورسكيون من طرف محاكم التفتيش خلال أربعين عاما.

- لايجبرون على ارتداء الملابس المسيحية خلال عشر سنوات.

- لايجبرون على استعمال اللغة الاسبانية خلال عشر سنوات.

- يسمح لهم بأن تكون لهم مقابر خاصة بهم بجانب المساجد.

---

14 - انظر:

Henri Lapeyre, *Géographie de L'Espagne morisque*, 29 -30

15 - اسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 169.

16 - Manuel Danvilla y collado, op. cit. p. 153.

17 - Ibid p. 102

- تنفق أموال المساجد على خدمات الدين المسيحي ماعدا ما هو ضروري لنفقات الفقهاء.

- يسمح للموريسكيين بحمل السلاح.

لكن الملك نقض الاتفاق، ويحاول بعض المؤرخين تبرير ذلك بأن الملك اكتشفت مؤامرة أواخر عام 1528، ومنهم من يجعل سبب نقض الاتفاق حملات المجاهدين البحرية- انطلاقا من شمال إفريقيا - على الشوطئ الاسبانية وجزر البليار[18].

غير أن سياسة شارل الخامس كان تجنح أحيانا إلى اللين، فنراه في سنة 1543 يبلغ المحققين العامين بأنه تنفيذا لرغبة مطران طليطلة والمحقق العام فإنه أصدر أمرا بالعفو عن المسلمين المتنصرين من أهل مدينة «دلكامبو» و«أريفالو» فيما ارتكبوه من ذنوب «الكفر والمروق»، وأنه يكتفي بأن يطلب إليهم الاعتراف بذنوبهم أمام محاكم التفتيش، ثم ترد إليهم أملاكهم الثابثة والمنقولة التي أخذت منهم[19].

وهكذا لبثت السياسة الاسبانية أمام الامبرطور شرلكان إزاء الموريسكيين، تتردد بين الاقدام والاحجام، واللين والشدة. بيد أنها كانت على وجه العموم أقل عسفا وأكثر اعتدالا منها أيام فيرناندو وايزابيلا. وفي عهده نال الموريسكيون كثيرا من ضروب الاعفاء والتسامح الرفيقة نوعا، ولكنهم ظلوا في جميع الأحوال موضع القطيعة والريب، عرضة للارهاق والمطاردة، ولبث محاكم التفتيش تجد فيهم دائما ميدان نشاطها المفضل[20].

موريسكيو بلنسية أمام محاكم التفتيش : معطيات إحصائية

بلغت نسبة الموريسكيين المقدمين لمحاكم التفتيش(لغاية 1530) 3، 3 % من النسبة العامة[21]

ويمكن تصنيف الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين والمعاقب عليها من طرف محاكم التفتيش إلى ما يأتي :

الوضوء - الطهارة - الصلاة - صوم رمضان - الاحتفال بيوم الجمعة - عدم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير - قراءة كتب عربية - القول بأن الديانة المحمدية في الاصلح - ختان الأطفال[22].

---

18 - Ibid p. 107

19 - A2. G. S.P.R. Lef 28, Fol. 49

20 - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص 356.

21 - Ricardo Garcia, op. cit. p. 200

22 - A.H.N. Inquisicion de Valencia, leg 799

وقد ظهر الموريسكيون بشكل مكثف أمام محاكم التفتيش خلال سنة 1518، إذا بلغ عددهم في منشور العفو الصادر في 19 أبريل من نفس السنة 219 موريسكيا[23].

والملاحظة الأساسية أنه بالرغم من جميع الاجراءات ظلت الممارسات الاسلامية بنفس الشكل تقريبا[24]. وقد سجل المبشر Bartolomé de los Angeles في زياراته لمختلف قرى المملكة ما يأتي[25] :

Benifairo : 3 حالات ختان

La taverna : 9 حالات ختان

Cerfuller : 8 حالات ختان

Riba - roja : اثنان وجد بحوزتهم القرآن، اثنان تزوجا بدون إذن كنسي، 3 حالات ختان.

Benaguasil : 16 زواج على الطريقة الموريسكية.

: 11 دفنوا على الطريقة الموريسكية.

: 4 بدون تعميد.

: 6 حالات ختان.

Beniloba : 17 حالات ختان.

أما على الصعيد الخارجي فقد كان شارل الخامس يعي جيدا الدور الذي يمكن أن يقوم به الموريسكيون في شمال إفريقيا لمهاجمة الشواطئ الاسبانية، ولا عاقة حملته الصليبية الكبرى ضد المنطقة. فعند احتلاله تونس في صيف 1535 فرض على الملك الحفصي معاهدة ينص أحد بنودها على : «أن مولاي الحسن لن يقبل في مملكته أحدا من العرب الأندلسيين (الموريسكيين) الذين اعتنقوا أخيرا الدين المسيحي، باعتبارهم رعايا جلالته الامبراطورية سواء أكانوا من بلنسية أو غرناطة أو أي مكان آخر في مملكته، وأن الملك الحفصي لا يسمح لهم بالقدوم وبالاقامة (بتونس) بل، على العكس من ذلك يطردهم من مملكته ويرحلهم تماما عن طريق ضباطه ويعتبرهم كأعداء...»[26].

---

23 - A.H.N. Inquisicion de Valencia, leg 597

24 - Ricardo Garcia Cârcel, op. cit. pp. 200 - 201

25 - Bartolomé de los Angeles : «Padron de los moriscos residentes en parte del reino de Valencia. Manuscrito num, 81 de la biblioteca Univ. de Valencia «in» origense de la Inquisicion Espagnola» p. 201 - 202

26 - Elie de la Primandie, «Documents Inédits sur l'Histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506 - 1574) in Revue Africaine, 1876, p. 136.

كما تبدو أهمية المورسكيين أيضا بشمال إفريقيا من خلال التقارير الواردة من المنطقة إلى اسبانيا. ففي تقرير سري اسباني عن حالة الجزائر بعث به من بجاية في 29 مارس 1536 ورد ما يأتي: «... يوجد الآن في مدينة الجزائر ألفان من الأتراك، وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر ومليانة وبقاع أخرى وضع بها بربروس حاميات ...»[27].

وقد ظلت هذه الأهمية تزداد باستمرار، فقد ذكر فليب الثاني لسفير فرنسا - حسب رواية هذا الأخير - أنه : «يوجد بمدينة الجزئا 15 ألفا ممن يحسنون استعمال الأسلحة النارية من بينهم عشرة آلاف رجل من العرب الذين نزحوا من اسبانيا في السنوات الأخيرة، وهم من خيرة الجنود»[28].

المورسكيون والأتراك

كان المورسكيون يتتبعون باهتمام مدى النجاح الذي حققه العثمانيون، وخاصة بالجزائر التي أصبحت حصنا منيعا يلتجىء إليه المهاجرون الأندلسيون. وقد استطاع خير الدين بربروس أن يلاحق الاسبان بالولاية إلى غاية تدميره حصن البنيون Penôn سنة 1529، بل كان يشجع بقوة حركة إنقاذ مسلمي الأندلس[29]. وهكذا فقد هاجم مرارا السواحل الشرقية لاسبانيا، وجمع في سفنه كثيرا من المورسكيين الراغبين في الهجرة، وأسر كثيرا من الاسبان، ومن أهم الغارات التي نظمها خير الدين على السواحل الاسبانية غارة وقعت 1529، إذ أرسل نائبيه إيدين وصالح ريس إلى المياه الاسبانية، واستطاعت أن تجمع 600 من موريسكي بلنسية الراغبين في الهجرة[30]. ويذكر لنا المؤرخ كاتب شبلي أن خير الدين تمكن خلال سبع سنوا أن يوجه 36 بارجة إلى السواحل الاسبانية لنقل سبعين ألف موريسكي خلال سنة 1529[31]. ويدل

27- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا، ص278.

28 - F. Braudel, «*Les espagnols et l'Afrique du Nord de 1942 à 1577* in Revue Africaine: 1928, p, p. 358

29 - عبد الجليل التميمي «رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541» مقال بالمجلة التاريخية المغربية، العدد 3، 1975، ص 39.

30 - محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، ص .386

31 - تحفة الكبار في اسفار البحار، ص40.

على مدى الدور الفعال الذي قام به خير الدين لانقاد آلاف من مسلمين الأندلس إلى السواحل المغربية[32].

ولقي خير الدين هذا استحسانا كبيرا من لدن مسلمي الأندلس، فقد جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 ما يأتي : «.... وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 ما يأتي: «...وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد في سبيل الله : خير الدين وناصر الدين، وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجد هي من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الاسلام علي طاعة مولانا ومحبته بالخواطر والظماير (كذا)، وانتظم الشرع والأمان في البادي والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سبب خلاص كثير من المسلمين، من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الاسلام، وتحت أيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك وشرشال ونواحي تلمسان....»[33].

استغاثة المورسكيين بالأتراك

أظهر قادة إسبانيا خوفهم من اتحاد كلمة المورسكيين مع العثمانيين، فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك إلى إنشاء «مليشيا» لرد هجمات المغاربة الخطيرة على السواحل الاسبانية[34]. وكان الاسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب العربي لأمكنهم إنشاء مملكة على السواحل المغربية[35]، وهم بذلك يقطعون الطريق على رسل المورسكيين إلى اصطنبول لطلب النجدة، ومما لاشك فيه أن احتمال قيام العثمانيين بحملة على إسبانيا قد أثيرت في بلاط مدريد[36]. وببعد فشل حملة شال الخامس على الجزائر سنة 1541، والأصدقاء التي تركتها خاصة لدى المورسكيين بدأ هؤلاء يتطلعون إلى نجدة السلطان سليمان القانوني. وبالفعل ففي أقل من شهر فقط من هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلى السلطان العثمان يوضحون فيها له :

---

32 - Charles. André Julien, *Histoire de l'Afrique du Nord*, 2 : 254

33- عبد الجليل التميمي، المقال السالف الذكر، ص 45 – 46.

34 - P. Chunu, *L'Espagne de Charles Quint*. p. 242

35 - L. Guin «Quelques notes sur les entreprises des espagnols pendant la première occupation d'Oran : in Revue Africaine, n° 178, 1886, p. 313

36 - John Lynch, Spain, *Under the Habsburgs*, p. 214

أورده عبد الجليل التميمي في المقال السالف الذكر ص 41.

أولا : مايقاسي المورسكيون من طرف محاكم التفتيش، والقرارات الجائزة التي سلطت عليهم: «... فإن عبيد الفقر (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلثمائة ألف وأربعة وستون ألفا منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقي من عامة المسلمين، رافعين شكواهم وما يلاقون من بلواهم بباكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، وما هم فيه من مكاندة الكفار، ومقاسات (كذا) التضييق والاضرار، وجور أهل الشرك أثناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار...»[37].

ثانيا : الشكاية من أهل المغرب : «... وطالت بنا الأيام وعاتت فينا يد النكاية والايلام، وخدلنا جيراننا ببلاد المغرب من أهل الايمان...»[38].

ثالثا : اعتبر محررو هاته الرسالة أن المدد المرسل إلى الجزائر هو تعزيز شوكة المسلمين، ولذا طالبوا بإعادة تعيين خير الدين باشا على الجزائر ليعمل من جديد على صد العدوان الاسباني، وإنقاذ مسلمي الأندلس : «... وهم عازمين (كذا) - الاسبان - على الجزائر والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصر يامولانا سلطان البرين والبحرين نصركم الله، المدد لنصرة الجزائر لأنها سياج لأهل الإسلام، وعذاب وشغل لأهل الكفر والطغيان... وقد اتفق جميعا من المسلمين المذكورين على رفع الشكو (كذا) إلى مولانا السلطان الأعظم سلطان الاسلام لازال بالعز موصوف (كذا) وبالبهاء والنصر محفوف (كذا) بأن بعثنا بإرسال المجاهد خير الدين باشخ (كذا) إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجميع أهل الشرك منه خايف وحاير (كذا)...»[39]. ونتيجة لهذه العلاقات القوية بين المورسكيين والأتراك وما كانت تسببه من مشاكل تعوق تنفيذ مشروعه (وحدة الجبهة المسيحية) فإنه كان يتصور فتح القسطنطينية من جديد وإعادة وحدة الامبراطوريتين الغربية والشرقية لوضع حد (لانتهاكات) السلاطن هذه الوحدة التي ستتوج عرش بالنصر الخالد، نصر الكنيسة والمسيحية[40].

---

37 - عبد الجليل التميمي ، المقال السابق، ص 45.

38 - نفس المصدر والصفحة.

39 - المقال السابق، ص 46.

40 - Hugo Hantsch, le problème de la lutte contre l'invasion turque dans l'idée politique générale de Charles - Quint, in *Charles Quint et son temps*, p. 55

إن هذه الحمية الدينية المتأصلة في شارل الخامس، هي التي كانت تبلور سياسته والتي كان محورها الأساسي في نظرته ورؤيته وحدة العالم المسيحي التي لا تنفصم، خاصة أنه كان يعتبر نفسه المسؤول والحارس الأول عن سلامة العقيدة المسيحية[41]. وهذا ما جعله أيضا يعتبر الاسلام عنصرا تهديدا خطيرا لمشروعه، وبالتالي يجب تسخير كل الوسائل للقضاء عليه مما يسبب له هذه المقاومة الموريسكية العنيفة في الداخل والخارج.

المقاومة المورسكية المسلحة

اعتبر الاسبان هذه المقاومة ضمن أعمال اللصوصية El Bandolcrismo التي كانت سائدة بإسبانيا آنذاك نتيجة الأزمات الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعرفها المنطقة ، لكنها كانت غير ذلك بالنسبة للمورسكيين، فهي تدخل في إطار المواجهة الحضارية المستمرية بين المسلمين والمسيحيين، وبالتالي فإن الأعمال التي كانوا يقومون بها لم تكن في نظر المورسكيين قط أعمالا إرهابية أو أخلاقية وعفوية، بل كانت أعمالات هادفة ومخططا لها مسبقا، فهي من قبيل الأعمال الفدائية وحروب التحرير لمقاومة موجات القمع الاسباني الموجه ضدهم لمسخ حضارتهم ونفي كيانهم.

وترتكز هذه المقاومة على ثلاثة عناصر أساسية :

1 -Gandules : هم أعضاء الملشيات المسلحة بالمدن، وينظم إليها غالبا الشبان. وهي مستعدة دائما للقيام بأعمال عنف داخل المدن ويبدو أنه كان لها دور كبير في انتفاضة 1568 بغرناطة[42].

2 -Piratas وهم في مفهوم النصوص الاسبانية أولئك المجاهدين الذين ينطلقون من شمال إفريقيا انطلاقا من الجزائر وتطوان العرائش وسلا للقيام بغارات على السواحل الاسبانية. وهم يعملون دائما بنفس الطريقة. ويقود هؤلاء بعض المورسكيين المهاجرين. وينزلون أول الأمر في مكان خال، ومن هناك ينطلقون إلى قرية ما ويقومون بعمليات انتقامية ضد المسيحيين، والعمليات من هذا النوع متعددة

---

41 - Ibid, p. 56.

42 - B. Vincent, « Les bandits morisques en Andalousie au XVI, siècle , « In Revue d'Histoire moderne et contemporaine 1974, XXI, p. 389

خلال القرن السادس عشر على السواحل الاسبانية، انطلاقا من قادس إلى جزر البلبار[43]. وكثيرا ما تؤدي هذه العمليات إلى خراب العديد من القرى. ويرجع نجاح هذه العمليات إلى المشاركة الفعالة للمورسكيين بالمنطقة الذين غالبا ما يكونون على علم بالحملة[44]. وقد اعتبر Garo Baroja هذه العمليات كمظهر من مظاهر القرصنة البربرية خلال القرن السادس عشر[45]. واعتبرها Braudel أخت القرصنة البحرية[46].

وقد كانت للمجاهدين البحريين شبكة قوية من المعلومات داخل إسبانيا بواسطة (المنفيين) Monfiers[47].

3 - Monfiers: المنفي في قاموس الأكاديمية الاسبانية هو المغربي أو المورسكي الذي يشكل جزءا من عصابات Salteadores بمنطقة الأندلس بعد عمليات إعادة الغزو، فالمنفي بالنسبة للاسبان هو عبارة عن مجرم لا غير[49].

فالمنفي بالنسبة للمورسكيين بطل الحرية، بل هو رمز الورع والصلاح[50] ولهذا السبب نرى أن المورسكيين يتعلقون به كثيرا ويجلونه باعتباره رمز تحررهم من قمع الكنيسة. وهم يهاجمون فقط المسيحيين من رجال دين وأصحاب فنادق وتجار. فالنسبة لرجال الدين لايخفى أن الرهبان كانوا دائما محطة أنظار المورسكيين، إذ كانوا بالنسبة رمز القمع. أما بالنسبة لأصحاب الفنادق فقد كانوا بالضرورة مسيحيين وكانوا يستخدمون كمخبرين للسلطات الاسبانية. وبالنسبة للتجار فإنهم يصادفونهم في الطريق المفضل لديهم للقيام بعملياتهم الانتقامية[51] وقد كانت هذه المقاومة تقلق بال الاسبانيين باستمرار كما يتجلى ذلك من خلال المطالب التي قدمت للسلطات لمواجهة هذه الأعمال[52].

---

43 - B. Vincent, op. cit p. 390

44 - Ibid, p. 390

45 -Les Moriscos del Reino de Granada. pp. 159 - 166

46 -La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 2 , 83 et 123 sq

47 -B. Vincent, op. cit p. 390

48 – Siteadores آتية من Saltea أي الذي يهاجم بالسلاح

49 -B. Vincent, op. cit p. 390

50 - C. Bernaldo de Quirose et L. ARDICA, «El Bandolerismo andalouz» in, les Bandits morisques en andalousie», p. 390

51 - A.G.S. CAMARA Cadulas, n° 255 Fom. 65, in «Les Bandits morisques...» p. 391

52 - Archives Municipales de Grenade, Provisiones, I fol 162. in les bandits morisques....» p. 391

الموريسكيون في عهد فليب الثاني
(963هـ - 1006هـ / 1556م 1598م)

صار فيليب الثاني في نفس استراتيجية العامة التي حددها له أبوه، فقد بادر إلى بذل مجهوداته قصد وضع حد للتناقضات السياسية الصارخة بينه وبين فرنسا وانجلترا، وتوج عمله بعقد معاهدة كاتوكمبريسيس Cateau Gambrésis بتاريخ 2 و3 أبريل سنة 1559[53]، وأصبح في استطاعته تحويل اهتمامه إلى الخطر الأساسي الخارجي المتمثل في التوسع المخيف للعثمانيين وبحارتهم في حوض البحر الأبيض المتوسط والذي يهدد ليس فقط النظام السياسي والاقتصادي والتجاري للقارة الأوروبية، بل أيضا الدول المسيحية على الاطلاق[54]. وقد عبر فليب الثاني عن هذه المشاغل في رسالة كان قد وجهها إلى دوق فلورنسا: «برضاء من الله تمت المعاهدة وإقامة السلم مع المسيحي الغيور الملك الفرنسي، فقد بدا إلىى أنه طاعة لله وخدمة للدين المسيحي، وحتى لا تبقى جميع السفن التي تحت امرتي بإيطاليا عاطلة عن التحرك؛ خلال هذا الصيف، فإننا سنستعملها، للقضاء على القراصنة لنضمن الحرية البحرية... وعلى هذا الأساس فقد أذنت بالحملة على طرابلس الغرب...»[55].

ويدخل في هذا الاطار أيضا ما أورده السفير الاسباني في البندقية غارسي هرنانديز Garcia Hernandez في رسالة بعث بها إلى ملكه يخبره فيها أن العدد الكبير من الموريسكيين الفارين الذين نجحوا في عام 1560 في الوصول إلى القسطنطينية عبر البندقية قد استخدمتهم تركيا جنودا ومترجمين وجواسيس، ويبدو أنهم في هجرتهم كانوا يكونون أحيانا جماعات تنتظم تحت رئاسة واحد منهم.

---

53 - F. Braudel, la méditerranée.... 2 : 279

54 - عبد الجليل التميمي : الخلفية الدينية للصراع الاسباني - العثماني على الايالات المغربية في القرن السادس عشر»، مقال بالمجلة التاريخية المغربية العدد الثالث، سنة 1975، تونس، ص 13.

55 - F. Braudel, op. cit. 2œ 282

وعندما استجوب بعضهم حول علاقتهم مع الأتراك العثمانيين فإنهم أجابوا : ليس هناك من موريسكي واحد لا يقدم نفسه طواعية للأتراك في ظروف المعاملة السيئة التي تلاحق بها اسبانيا المورسكيين»[56]. كما أن التقارير الواردة إلى مدريد من الجزائر تفيد أن مدينة شرشال قد عمرت تماما من طرف المورسكيين، وأن علاقتهم قوية مع أقاربهم وإخوانهم بالسواحل الاسبانية.[57]

لم يكن المشكل الموريسكي إذن ينحصر بين طرفين - أو كما كانت تدعى إسبانيا مشكلا داخليا - بل مشكلا عالميا يؤثر على العلاقات بين القويتين العظيمتين إسبانيا وتركيا، وبالتالي كان فليب الثاني أن يتخذ إجراءات أكثر زجرية في حق من يساعدون أعداءه.

فليب الثاني تجاه المشكل الموريسكي

قضى فليب الثاني على آخر ما تبقى من السياسة المعتدلة التي حاول أن ينتهجها أبوه، فأصدر عدة مراسيم تبين من جهة مدى الفزع الذي أصابه من غزو إسلامي جديد للمنطقة، وتبين من جهة أخرى مدى التأثير الذي كان يمارسه رجال الكنيسة على الملك لجعل السياسية في خدمة الدين.

وهذه جملة مراسيم أصدرها الملك وكلها تدور في نفس الاتجاه :

1 - أصدر قرارا في عام 1560 يحرم فيه على المورسكيين اقتناء العبيد السود حتى لا يدينوا بالاسلام. وقد تقدم المورسكيون بطلبات تظلم إلى الملك يوضحون فيها مدى الآثار السلبية المترتبة عن هذا القرار. وبقيت المسألة كذلك إلى حين صدور قرار الملك في مطلع سنة 1563 يرفض شكوى المورسكيين.

2 - في 14 ماي 1563 أصدر الملك أمرا :

- يجدد فيه الأمرين الصادرين عامي 1526 و1552 المتعلقين بتحريم اقتناء الأسلحة بدون رخصة.

---

56 - Ibid, 2. 348

57 - Ibid, 2. 301

- ويأمر المورسكيين بتقديم جميع أسلحتهم لختمها في مدة أقصاها خمسون يوما، كما ينص المرسوم على أن يمتنع عن تسليم أسلحة بعد انتهاء المدة المذكورة يعرض نفسه للأشغال الشاقة لمدة ست سنوات، ولا يجوز لأي موريسكي أن يقتني الأسلحة إلا أن تكون مختومة بخاتم الحاكم العام[58].

وفوض الملك إلى الحاكم العالم لمنطقة غرناطة أمر تحديد العقوبة المترتبة على مخالفات حمل السلاح. وبيناء على هذا التفويض جعل الحاكم العالم الاعدام عقوبة للمخالفين، ووافق الملك على ذلك. وقد أدى هذا الأمر إلى مآسي كثيرة وإلى ملاحقات غير مشروعة، وإلى ابتزاز أموال المورسكيين. ولم يكن أمامهم أمكنة يلتجأون إليها غير الكنائس وأراضي السادة الاقطاعيين، ولكن الملك سد الطريق أمامهم، إذ أصدر أمرا حدد فيه حق اللجوء إلى الكنائس بثلاثة أيام، وحرم على السادة الاقطاعيين ايواء الهاربين. لذلك لم يبق أمامهم غير اللجوء إلى الجبال والانضمام إلى طوائف «المنفيين»، واستمرت تقوم بأعمال فدائية كبيرة بالمنطقة وتعاظم أمرها إلى أن سيطرت على المنطقة الممتدة من جبال البشرات إلى روندة، وبلغ من جرأتهم أنهم كانوا يصلون إلى أبواب غرناطة متحدين بذلك السلطات ومنذ ذلك الحين بدأت تختمر فكرة القيام بالثورة وبدأ الاعداد لها[59].

3 - الأوامر الصادرة عام 1566 :

تدخل هذه المرة البابا، إذ أبلغ فليب الثاني بضرورة اتخاذ تدابير صارمة بحق المورسكيين، وأنه يعتبر الملك مخطئا في «التسامح» الذي يبديه في ترك المورسكيين يقيمون على عاداتهم وتقاليدهم الاسلامية القديمة.

وقد تألفت لجنة لوضع الاقتراحات اللازم اتخاذها على الأنظمة المطبقة على المورسكيين[60]. واقترح الرهبان والقساوسة أن تزداد التدابير الواردة في الأمر الملكي الصادر عام 1526. وقد أصدرت عدة توصيات منها :

---

58 - Maria Soldad Carrasco Urgoiti, El problema moriscos en Aragon el comeienzo del reinado de Fellipe II capt. IV pags 56 - 57

59 - اسعد حومد، محنة العرب في الأندلس، ص 178.

60 - لم يشترك في هذه اللجنة أحد من المورسكيين.

- منع استعمال اللغة العربية، ويمنح المورسكيون مهلة ثلاثة أعوام لتعلم اللغة القشتالية، ولا يسمح بعد ذلك بالتكلم بها. وكل المعاملات والعقود بهذه اللغة تعتبر باطلة، ويجب تسليم الكتب العربية في ظرف ثلاثين يوما[61].

- منع استعمال ألبسة العربية، إذ يستعمل منها فقط ما كان مطابقا لألبسة النصارى.

- إجبار النساء الموريسكيات على كشف وجوهن[62].

- إجبارهن على ترك أبواب بيوتهن مفتوحة في أيام الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.

- يمنع المورسكيون منعا كليا من امتلاك العبيد[63].

وافق الملك على هذه التوصيات وأصدر أمره بتنفيذها. ورغم المحاولات التي بذلها المورسكيون سواء في غرناطة أو لدى العرش الاسباني نفسه فإن السلطات الدينية استمرت في تنفيذ القرارات الملكية بكل قساوة معتبرة «أن المورسكيون جبناء، ولا سلاح لديهم ولا حصون»[64]، وبالتالي فإن تطبيق الأوامر الملكية لن يعترضها أي حاجز، لكن الأمر كان على العكس تماما، إذ اندلعت الثورة الكبرى بغرناطة متحدية بذلك جميع القرارات الصادرة عن العرش الاسباني.

---

61 - بالرغم من هذا القرار ظلت الكتب العربية متداولة، ففي رسالة بعثت بها السلطات الدينية الأرجواني (9 يناير 1979). نجد أنها تخبر المحقق العام بأن جهودها سوف تنصب أساسا على الفقهاء وأعيان المورسكيين الذين يقومون بترويج هذه الكتب. وفي 15 فبراير 1593 أصدرت السلطات الكنسية في سرقسطة بيانا أوضحت فيه أن المورسكيين الذين يقومون بتسليم الكتب العربية سوف يحظون بعفو الكنيسة. ونجد بمحاضر محاكم التفتيش العديد من المعلومات عن هذه الكتب وأصحابها وطريقة نسخها، والأدوات المستخدمة بذلك، وثمنها، والجهات المتداولة فيها وكذا أماكن خزنها (اكتشفت مكتبة سرية مورسكية بمنطقة Almonacid de je sierra سنة 1884). وقد احتلت تهمة حيازة الكتب العربية مكان الصدارة لدى محاكم التفتيش، إذ نجد من بين 900 موريسكي حوكموا من طرفها بأرجوان : 400 موريسكيا حوكموا بتهمة حيازة كتب عربية.

انظر :

Jacqueline Fournel - Guérin, les morisques aragonais et l'inquisition de Saragosse (1540 - 1620), thèse inédite. III, 1980. pp. 155 - 176

62 - حول وضعية المرأة المورسكية ومدى مواجهتها لقرارات محاكم التفتيش، انظر المصدر السابق، ص 183- ص 179.

63 - Julio Caro Baroj, los moriscos del reino de Granada, p. 159

64 - Prescott, Philip II of Spain, 3 . 12 - 29

عن محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس... ص 361.

الثورة المورسكية الكبرى[65]

اندلعت الثورة في أواخر سنة 1568 ولعل هذا التوقيت كان مخططا له مسبقا، إذ ان اسبانيا كانت منشغلة بثورة الأراضي المنخفضة وجندت العديد من سكانها لهذا الغرض، كما أن السواحل الأندلسية كانت مقفرة بسبب الحرب والخوف من الغارات البحرية الإسلامية[66]. وقد كان لهذه الثورة صدى على الصعيدين الداخلي والخارجي وشغلت الاسبان والأوروبيين بصفة عامة لمدة سنتين.

كان زعيم الثورة فرج بن فرج قد بدأ عدته وأخبر مواطنيه بذلك، وبعث برسله إلى المغرب والجزائر لكن العملاء المندسين بين صفوفهم بلغوا رئيس المجمع الملكي بذلك مما جعل الثورة مكشوفة أمام الاسبان[67]. إلا أن الثوار عادو مرة أخرى إلى تدبير الثورة، وفي اليوم الموعود بعث علي باشا والي الجزائر التركي إمدادات إلى المورسكيين نزلت على السواحل الأندلسية في جهتي ألمرية ومربلة ثم سارت إلى الأماكن المحددة لها[68]. ولم تمض أيام حتى انضم إلى ابن فرج مورسكيون آخرون من البشرات ومن جميع أنحاء مملكة غرناطة. وقد قدر عدد الثوار في

65- للمزيد من الايضاح عن هذه الثورة انظر:

أولا المصادر الأساسية:

- Marmol Cavajal, Histoire de rebelion y castigo de los moriscos del reino de Granada.
- Perez de Hite, Guerras civiles de Granada.

ثانيا: الدراسات:

- Julio caro Baroja, los moriscos del reino de Granada. page,s 175 - 236.
- Mercedes Garcia Arenal, los moriscos, pags 63 -65
F. Braudel, la méditerranée.... ; 2 - 124 - 126.
- Bernard Vincent; l'explusion des morisques du royaume de Grenade et leur répartition en Castille(1570 -1571), in «*Mélanges de la casa de Velézquez*, VI 1970, pp. 210- 246.
- ليلى الصباغ، ثورة مسلمي غرناطة، مقال بمجلة الأصالة الجزائرية، السنة الرابعة ، العدد 27، شتنبر
- أكتوبر 1975، ص 116- 175.
- محمد عبده حتامله، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد فليب الثاني، ص 27- ص 96.
- اسعد حومد، محنة العرب في الأندلس. ص 209 - 246.
- محمد قشيليو، محنة المورسكوس في اسبانيا، ص 34- ص 66.
- محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، 361- 376.

66- ليلى الصباغ، "ثورة مسلمي غرناطة" مجلة الاصالة الجزائرية، العدد 27، شتنبر - أكتوبر 1975، ص 147.

67- مورسكي مجهول، ص 117.
عن محمد عبده حتامله، التهجيز القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فليب الثاني، ص 33.

68 - موريسكي مجهول، ص 123- 124.
عن محمد عبده حتامله، المصدر السابق، ص 37.

مطلع الثورة بـ (4000) ثائر. ويذكر Sauli صولي - وهو عميل جنوة السياسي في اسبانيا - لحكومته: «إن بعض الناس يقولون أنهم أكثر من ذلك بينما يؤكد آخرون أنهم أقل... وأن بينهم بعض الأتراك... وقد خرج عدد وفير من الفرسان والمشاة من قرطبة وغيرها من الأماكن...»[69]. وإذا كان صولي لايظهر قلقه من الحركة فإن فوركفو - سفير فرنسا - كان أكثر تشاؤما[70].

ويبدو أن الثورة لم تكن لمطلب آلي، كرجوع الحكومة الاسبانية عن قرارها السابق، أو السعي لرفع مختلف ضروب الظلم والتعسف عن المورسكيين، أو الالحاح عن معاملتهم كمواطنين كاملي الحقوق كغيرهم، وإنما كانت ذات هدف ثوري إيجابي عميق هو إعادة تكوين مملكة غرناطة، وهكذا أعلنوا استقلالهم[71]. والتفوا حول شاب من حي البيازين ينسب إلى سلالة بني أمية يدعى فرناندو دي فالوراي قرطبة). وكان من أعيان قرطبة ومستشارا في بلديتها. وقد يكون لاختباره دلالات بعيدة المدي، كإعادة الحكم في اسبانيا كلها للمسلمين كما كان الأمر في عهد الخلافة الأموية الأندلسية، واحتفل المسلمون بتتويجه ملكا عليهم في احتفال ديني مهيب في 29 دجنبر 1568، وأعطى الاسم العربي (محمد بن أمية)[72]. وقد كان أول اجراء قامت به السلطات الاسبانية هو ارسال المال إلى القائد العام للعمل على تمويل الجند، وكذلك لحاكم مرسية. وفي الوقت نفسه أخطرت السفن الاسبانية لتحرس الشواطئ الأندلسية وتعزل الثوار عن شمال افريقيا، ويمنع كل ما يمكن أن يأتي من نجدات منها[73].

ومهما كان الحجم الحقيقي لثورة غرناطة في الخارج، واستغلالها على المستوى الدولي، فإنها في اسبانيا قد هزتها هزا عنيفا. فقد أثبت لها مرة أخرى أن مراس المسلمين لا يزال شديدا، وأن قواهم الجهادية كانت لا تزال في عنفوانها.

ومع كل العنف الذي صاحب الثورة، ومع أنباء الاخفاق الاسباني في اخمادها، فإن فليب الثاني لم يظهر تشاؤمه، فقد ادعى أن الأتراك لديهم مشاغل غير هذه الثورة، وأن النجدة الجزائرية غير ممكنة لأن حراسة السفن على السواحل الأندلسية شديدة، إلا أن عملاءه السياسيين في الخارج لم يكونوا يشاطرونه هذا الرأي لأن أخبار

---

69 - F.Braudel, op cit. 2 368

70 - Ibid, 2 : 368.

71 -Marmol, op. cit. IV. cop VII

72 - Marcelino Menendez y. Pelayo, Historia in de Espana, p. 149

73 - F. Braudel, op. cit. 2- 299

حربه مع ثوار غرناطة، واخفاقها كانت مدوية في الخارج، وقد ضخمتها الاشاعات المختلفة، حتى ان عميله في لندن أعلمه بأن الأمر سيصل بالناس إلى الاشاعة بأن ممالك اسبانية أخرى قد ثارت ضد الملك[74]. وهذا بحسب رأيه انتقاص من هيبته.

وفي الواقع لقد اقلقت هذه الثورة الاسبان والعروش الكاثوليكية في أوروبا لأنها جاءت وسط تحركات دينية ثورية بروتستانية كانت تمزق أوروبا، وهذا ما عبر عنه سفير فرنسا (فوركفو) عندما قال : «إنها دليل آخر على أن هذه الأزمنة هي أزمنة ثورات الرعايا ضد أمرائهم الشرعيين، فالأمس كانت ضد شارل التاسع في فرنسا، وضد ماري ستيوارت في اسكتلندا، وضد الملك الكاثوليكي في فلندرا، فالعالم اليوم نازع إلى الثورة، والرعايا متجهون إلى التمرد...»[75]. وقد رد شارل التاسع على سفيره قائلا :«إنني آمل أن يعاقب هؤلاء الثوار، وكل أولئك الذين حملوا السلاح مثلهم بهدف بلبلة دولة ملكهم وسيدهم»[76].

وقد ازدادت مخاوف فليب الثاني بشكل كبير، فقد قال (فرانسيس دو آلافا) - سفير اسبانيا في باريس - لسكرتير الدول في رسالة متبادلة :« كل ما ارجوه أن يعاقب الله ثوار البشرات قبل أن يستطيع هذا الكلب (كذا) - أي السلطان العثماني الذي علموا باستعدادته العسكرية - أن يعبئ قواته»[77].

بل خشيت اسبانيا كذلك أن تمتد الثورة إلى خارج مملكة غرناطة، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الثوار 30.000 ثائرا إنما 100.000 ثائرا[78].

وعلى الرغم من اغتيال محمد بن أمية نتيجة مؤامرة دبرت به من طرف فرق الأتراك العاملة مع الثوار[79]، فإنهم تداركوا الأمر بسرعة، وأحلوا محله قريبه (دييغولوبيث) الذي تلقب بمولاي عبد الله بن عبو، ووافق عن انتخابه على باشا والي الجزائر وبعث له ببعض التعزيزات[80]. وقد كانت له جولات كثيرة مع الاسبان كان النصر حليفه في العديد منها رغم ما جنده فليب الثاني من امكانيات مادية ومعنوية لايقاف زحفها.

---

74 - F. Braudel, op. cit. 2- 361
75 - Ibid. 2. 361
76 -Ibid. 2. 361
77 -Ibid. 2. 362
78 -F. Braudel, op. cit. 2- 362
79 - انظر محمد عبده حتامله، المصدر السابق، ص 67 S.I.H. 1er Série France 1.291
80 -محمد عبده حتمله، المصدر السابق، ص 69.

وقد ظلت الثورة بين مد وجزر، وظل الموريسكيون يقاومون بكل ما بيدهم في الجبال والسهول، في المدن والقرى، كما حاول القادة الاسبان الذين تعاقبوا على قيادة الجيوش المحاربة للموريسكيين أن يستخدموا كل وسائل العنف والسلب والنهب والتشريد لبث اليأس في نفوسهم، لكن الموريسكيين ظلوا يحاربون إلى حين استنفاد الوسائل المتوفرة لهم آنذاك، فوضعوا السلاح إلى حين.

واثر ذلك صدر قرار في 28 أكتوبر 1970 بنفي الموريسكيون من مملكة غرناطة ومصادرة أملاكهم العقارية، مع السماح لهم بحمل الأموال المنقولة فحسب.

ويقدر عدد من شملهم قرار النفي بـ 80.000 موريسكي(81) رحلوا إلى قشتالة وغيرها في ظروف جد سيئة مما سبب المرض والموت للكثير منهم أثناء الطريق(82).

غير أن بعض المؤرخين يعتبرون أن الثورة قضي عليها من الخارج، وليس من الداخل، وذلك بهزيمة الأتراك في معركة ليبانتو سنة 1571.

إن نجاح الأتراك وتقدمهم نحو نابولي وصقلية كان سيبعث الأمل في نفوس الموريسكيين، ويستجمعون قواهم للنهوض من جديد(83).

ويشير بعض المؤرخين إلى أن موقف الوالي التركي بالجزائر كان فاترا(84)، وانه أظهر اهتماما بتحصين مدينته أكثر من اهتمامه بمساعدته ثوار غرناطة(85)، وانه استغل الثورة ليحقق مطامح شخصية في توسيع ولايته بفتح تونس(86).

هذا الموقف يؤدي بنا إلى التساؤل حول نقطة أساسية : ما هو الهدف من تقديم المساعدة للموريسكيين ؟ هل هو احتلال اسبانيا واعادتها للمسلمين ؟ هل الضغط على الحكومة الاسبانية للتخفيف من وطئتها على الموريسكيين ؟

إذا اعتبرنا الهدف الأول، فإن الجزائر غير قادرة على ذلك وحدها، ولا بد لها من استشارة القسطنطينية، فهي المؤهلة عمليا لأن تهيئ الأجواء الدبلوماسية والعسكرية للقيام بهذا العمل.

---

81 - Bernard Vincent, op. cit. p. 239

ملاحظة : هناك من يقدر عدد المنفيين بـ(150 ألف)،

انظر : H. Lapeyre, *Géographie de l'Espagne morisque*, p.122

82 - Bernard Vincent, op. cit p. 239 note 3

83 – ليلي الصباغ، المقال السالف الذكر، ص 175.

84 – محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، 368، وحمد عبده حتامله المصدر السابق، 38.

85 - F. Braudel, op. cit 2. 364

86 - Ibid, 2. 364

أما إذا اعتبرنا عامل الضغط على اسبانيا لتغيير موقفها تجاه الموريسكيين، فهذا ما كانت تقوم به بالفعل والشهادة تأتي من الداخل، أي من اسبانيا، ومن جهازها القمعي نفسه. إذ ان محاضر محاكم التفتيش زاخرة باعترافات الموريسكيين حول حقيقة المساعدات التي كانت تقدمها الجزائر للموريسكيين أثناء الثورة وبعدها[87].

وإذا كان موقف الجزائر واضحا في حدود إمكانياتها، فإن موقف القسطنطينية أثار الكثير من النقاش.

نلاحظ أولا أن المصادر التاريخية تذكر أن الصدر الأعظم محمد الصقلي كان يخطط للهجوم على اسبانيا، لغرض مساعدة موريسكيي غرناطة الثائرين، وانه اقترح على السلطان القيام بجملة على اسبانيا بدل قبرص[88]. لكن بطانة السلطان وخاصة مستشاره اليهودي (جوزيف ناسي)، كانوا يؤيدون بكل قواهم فكرة الاتجاه إلى قبرص لاستخلاصها من البندقية، فالنصر سريع، ويعيد إلى حاشية السلطان حظوتها، ويدعم مركزها، ويزيد من نفوذها[89]. كما أن استجابة فرنسا للتحالف مع الأتراك كانت ضعيفة جدا، لأن الملك شارل التاسع كان يعيش أوضاعا داخلية صعبة تحت وطأة رجال الدين، الكاثوليك. خاصة أن الأجواء في البحر الأبيض المتوسط في شتاء سنة 1570 كانت أسوأ من سابقاتها، وبالتالي يصعب القيام بأي عمل عسكري بدون مخاطر كبيرة[90].

ويضيف (بروديل) إلى العوامل السالفة الذكر عاملا آخر يتلخص في بعد المسافة، حتى انه ينفي تماما تفكير الدولة العثمانية في غزو اسبانيا ومساعدة ثوار غرناطة[91].

وعلى كل، فمهما قبل عن دور الأتراك في ثورة غرناطة فإن المشكل الموريسكي كان يشغلهم باستمرار، وان اختلفت طرق معالجتهم له تبعا للظرفية السائدة. وهكذا نلاحظ بهذا الصدد فرمانين موجهين إلى الموريسكيين.

ففي الفرمان الأول الذي وجه إلى والي الجزائر بتاريخ 16 أبريل 1570 أظهر المسؤولون العثمانيون معرفتهم الجيدة والدقيقة لمسألة «أهالي الأندلس» - حسب

---

87 - Jacqueline Fournel Guérin, op. cit. pp 279 - 299

88 - عبد العزيز محمد الشناوي الدولة العثمانية، 2 : 925. عن : عبد الجليل التميمي، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، مقال بالمجلة التاريخية المغربية - تونس، العدد 23- 24، نوفمبر 1981ص197.

89 - Edward S. Crusy, *History of the Ottoman Empire*, p. 217

90 - ليلى الصباغ، المقال السالف الذكر، ص 171.

91 - La Méditerranée..... 2 : 370

تعبير الرسالة - وبالمحن التي الحق بها مضطهدوهم، وقد طلبوا من والي الجزائر أن يقدم جميع المساعدات وبكل الوسائل الممكنة، وهذا في انتظار قدوم الأسطول العثماني[92]، أما الفرمان الثاني الذي وجه إلى الأندلسيين فقد أشار إلى أن عدد الثوار بلغ العشرين ألفا وأن مائة ألفا أخرى تنتظر اسلاح والذخيرة[93]، وأعلن أن الدولة العثمانية قد طلبت من والي الجزائر أن يقدم الأسلحة والذخيرة والمؤونة اليهم وأن رجال الدولة العثمانية يعبرون عن أملهم في انتصار الاسلام : «انه على ضوء امري شريفي إلى بيلرباي الجزائر، فيقوم هذا الأخير على تقديم جميع المساعدات والاعانات اليكم، وذلك كما أظهرتموه من همة اسلامية وغيرة في الدفاع على الدين وعدم وترككم له، وهذا على الرغم من الحروب والقتال مع الكفار أذلهم الله، إذ انكن أبديتم كل أنواع الاقدام والشجاعة، وحين يكون النصر ميسرا لنا في ذلك الجانب فإن العلماء والصلحاء وساير أهل الاسلام سوف لن يتخلوا عن الدعاء لنا بذلك، وان لا تتخلوا عن اعلامنا دائما بأحوالكم وأوضاعكم في تلك الجهة»[94]. وقد جاء في هذا الفرمان انه بعد فتح الدولة العثمانية لقبرص، فإن الأسطول العثماني سوف يتحول إلى اسبانيا لمساعدة المورسكيين[95].

بعد هذا لنا أن نتساءل عن نتائج هذه الثورة على أقطار المغرب العربي والوضع في البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة ؟

أولا : ان آلاف المورسكيين التجأ إلى الجزائر والمغرب والدولة العثمانية بفعل فشل هذه الثورة. وقد نشطوا نتيجة لذلك حركة التصدي للاسبان وساعدوا القيادات العثمانية، بفضل معرفتهم اللغة القشتالية والأماكن الجغرافية والطرق البحرية.

ثانيا : ان سياسة فليب الثاني أصبحت مهتمه جدا بسواحل شمال افريقيا وعلى الخصوص قلعة حلق الوادي، وكان يخطط لتحصينها أكثر والعمل على تصفية ولاية الجزائر الخطيرة على أمن السواحل والبواخر الاسبانية.

ثالثا : إن رد فعل على باشا كان تخطيطه ضرب النفوذ الاسباني في تونس والقضاء على الحفصيين، محميي الاسبان، وبالفعل قد تم له ذلك.

---

92 - عبد الجليل التميمي، المقال السالف الذكر، ص 197.

93 - نفس الرقم قدمه السفير الفرنسي Fourquevaux فوركفو

انظر : -F. Braudel, op. cit 2. 362

94 - انظر نص الرسالة عند عبد الجليل التميمي، المقال السالف الذكر، ص 201 - 204.

95 - راجع نص الفرمان عند عبد الجليل التميمي، المقال السالف الذكر، ص 201 - 204

رابعا : إن خنق الثورة المورسكية أعطى بعدا جديدا لحركية الاسبانيين وحتم عليهم خلق أرضية جديدة تتجلى في النشاط الذي تزعمته اسبانيا والباب الذي كان وراء الحلف المقدس ومعركة ليبانتو التي أدت بدورها إلى احتلال تونس بصورة فعلية وطرد العثمانيين منها سنة 1573. وهذا ما يؤيد ترابط الاحدداث بالبحر الأبيض المتوسط[96].

صدى الثورة

إن صدى الثورة ظل سنوات يلازم آذان محققي محاكم التفتيش، فكثير هي المحاضر التي نلاحظ فيها ذكرا لهذا الحدث أو ذاك، إذ كان المورسكيون يذكرون هذه الحرب باستمرار ويعتبرونها رمزا ايجابيا لقدرتهم على الثورة. لكن محاكم التفتيش كانت دائما لهم بالمرصاد، فبمجرد ذكر الثورة يؤدي بصاحبه إلى السقوط بين أيدي جلادي محاكم التفتيش، وهذا ما حدث بالفعل لأندري لوباز Andrés lopez أحد موريسكيي يابس Yepes والذي ثار أثناء استراحة في الحقل : حوادث بلاده غرناطة والسنوات التي قضاها بها وحرب البشرات الأخيرة، وقد ختم كلامه «معبرا عن أمله في استرجاع هويته العربية قبل أن يموت»[97].

وكان المسيحيون بعد الثورة يعيشون تخوف انتفاضة عامة للمورسكيين، وقد تناقل الناس انهم لاينتظرون لهذا الأمر الا وقته المناسب وانهم ساعون لجمع الأسلحة، ومنذ ودلادة طفل لهم فإنهم يبدأون في جمع الأموال، حتى يتمكنوا، عندما يبلغ الطفل سن العاشرة، من شراء سلاحه»[98].

وفي مثل هذا اليوم، كم هو سعيد ذلك المسيحي الذي اتخذ من المويسكي صديقا! وارتاعت الأقليا المسيحية بأراجون عندما وصلتها هذه الشائعات وأبلغوا ذلك في الحين إلى محاكم التفتيش[99].

وقد كان هناك عدد كبير من النواب قد عرضوا على الملك الأخطار التي يمثلها المورسكيون للمملكة، ويتأسفون انه خلال عشرين سنة لم يستطيعوا حل هذا المشكل : «ففي أثناء الاجتماعات الأخيرة، رجونا من سموكم السعي للعثور على علاج شامل

---

96 - عبد الجليل التميمي، رؤية منهجية لدراسة العلاقة العثمانية - المغربية في القرن السادس عشر، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 29- 30، يوليوز 1983، ص 92 - 93.

97 - A.H.N leg. 194 n° 24 d'après Louis Cardaillac, *Morisques et chrétiens*, p. 16

98 - A.H.N. inq. leg 452911 in Morisques et Chrétiens, p. 21

99 - Louis Cardaillac, op. cit, p, 21 et note 37

للمرض العالي والمستقبلي الذي يمثله هذا العدد الكبير من موريسكيي مملكة غرناطة، وانه حتى يومنا هذا لم نعالج الموضوع، وان الوضعية ما فتئت تستفحل»[100]. غير أنه وجدت طائفة من الشخصيات الاسبانية التي لم تكن راضية على الطريقة التي تصرف بها الجيش الاسباني أثناء الثورة. وظلت تردد هذا النقد الصريح باستمرار، فقد ذكر الشهاب الحجري مما يأتي :

«.... وطلبت منه (القسيس) أن يكون سندا للأندلس لأنهم ذلال عند النصارى (كذا). قال لي: اعلم انني من جانبهم في كل زمن، وحين قاموا على السلطان كنت أنا قاض القضاة بهذه المدينة (غرناطة)، وجاء إليها أخو السلطان (غير الشرعي ضون خوان النمساوي)، وقبض من أعيان الأندلس بهذه المدينة مائة وأربعين رجلا وقتلهم. كل ذلك ليأخذ أموالهم، وكان الحق أن يتركهم لأنهم كانوا من القوام وأصحاب المال والنعمة، ولايسعون إلا في أمور العافية لينعموا فيما عندهم بخلاف غيرهم..»[101].

ورغم أن السلطات الاسبانية نفت ما يقرب من 80 ألف موريسكي إلى فشتالة، فإنه ظلت مع ذلك هناك مجموعتان كبيرتان من الموريسكيين : الأولى بأراجون، وقد بلغ تعدادها لغاية 1603 نحو 63.400 موريسكي أي 21 ٪ من مجموع سكان أراجون والمجموعة الثانية ببلنسية[102].

وكانت الحراسة تشدد عليهم باستمرار، فقد كان نواب الملك - خاصة الكونت ايتونا Comte D'Aytona الذي حكم بلنسية من 1581 إلى غاية 1594 - يسعون إلى تجريدهم من السلاح، وابعادهم عن الشواطئ، ومنع الاتصال بعضهم مع بعض أو مع العثمانيين والبروتستانت. لكن تطبيق سياسة السلطة المركزية هذه كانت تحول دونها عدة حواجز، من بينها على الخصوص انعدام الأمن بالمنطقة بسبب الأعمال الفدائية المتعددة التي يقوم بها الموريسكيون، والتي تنسف دائما أي مخطط أمني بالمنطقة[103]. وأمام هذه الوضعية ازدادت وحشية محاكم التفتيش، فاستخدمت مختلق وسائل القمع البوليسية ضدهم، إنها - كما يقول رفائيل كراسكو -:

---

100 - Guadalajara y Xavier, *Prodicion y destierro de los Moriscos de Castilla*, F° 3°

101 - ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 20 - 21.

102 - Dominguez Ortiz, A. et B. Vincent, *Histoire de los moriscos, vida y tragedia de une minoria*, pp. 76 - 77

103 - Raphaîl Carrasco, *Péril Ottoman et solidarité morisque, in Revue d'histoire maghrébine* N° 25 - 26 Juin 1982, Tunis, pp. 33 - 34

«تهدف، بكل بساطة، إلى التصفية النهائية للموركسيين بالمنطقة»[104]. خاصة أن فكرة الطرد بدأت تفرض نفسها منذ الثمانينات، فقد اجتمع مجلس الدولة الاسباني في لشبونة سنة 1582، وقرر أن أي حل ممكن في هذا الشأن[105]. كما ذكر الشهاب الحجري في هذا الباب أيضا ما يأتي : «وهذا فليب الثاني أمر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يزمموا[106] جميع الأندلسيين صغارا أو كبارا، حتى التي في رحم النساء بظهور الحمل، ولا علم لأحد ما السر في ذلك، ثم بعد ذلك بنحو السبع عشرة سنة عملوا زماما[107] آخر مثل الأول - كما أعلمونا بمراكش - ولم يدر أحد السر في ذلك حقيقة. ولكن قال لسان الحال انهم أردوا يعلمو (كذا) هل كانوا في زيادة أم لا؟ ولما وجدوا زيادة كثيرة أمروا بقرب ذلك باخراجهم»[108]. وتورد الوثائق الاسبانية المعاصرة نفسها هذه الفكرة، فكل الدلائل تشير إلى أنه بدأ الحديث عن فكرة الطرد انطلاقا من سنة 1582، وان السلطة الملكية كانت تنتظر فقط الظروف المناسبة[109]. فقد كتب محقق من أراجون إلى المجلس الأعلى يقول: «يبدو أنه آن الآوان لتنفيذ فكرة الطرد فهم اليوم مسيحيون سيؤون»[110]، ولكن السياسة الامبراطورية لفليب الثاني، بتورطه في الأراضي المنخفضة، وحربه ضد فرنسا وانجلترا، اعطت للموركسيين مهلة اضافية[111]. وبعد العودة إلى السلم وتجنيد الأسطول الحربي الاسباني أصبح الوضع يوحي من جديد ان من الممكن اخراجهم، خاصة أن الأتراك منهم كون في حرب دائمة مع الفرس[112]. وعلى كل، وان لم تنفذ فكرة الطرد في عهد فليب الثاني إلا أنه سار خطوات في رسم القرار النهائي الذي سيصدر في عهد فليب الثالث سنة 1609.

---

104 - Ibid. p. 34

105 -Raphaïl Carrasco op. cit. p. 34

106 - يزمموا : يقصد يسجلون

107 - زماما : يقصد مسجلا

108 - ناصر الدين على القوم الكافرين ص 106.

109 - Jacqueline Fournel - Guérin, op. cit. p 311

110 - A.H.N. Inq qlibro 100, F. 34, d'après Jacqueline Fournel- Guérin, op. cit. p 311

وعن مشاريع الطرد انطلاقا من سنة 1582 انظر :

P. Bornat. los moriscos espanôles, 1- 300

111 - Jacqueline Fournel - Guérin, op. cit. p.311

112 - Ibid , p. 311

لنا أن نتساءل بعد هذا ما هو موقف الموروسكيين من كل المخططات التي كانت تحاك ضدهم؟ هل كانوا واعين بخطورة المرحلة، وبحقيقة المشاريع المدبرة؟ ما هو أسلوبهم في مجابهتها؟

نجزم منذ البداية أنهم كانوا واعين بهذه المرحلة، إذ انهم كانوا على اتصال فيما بهم داخل اسبانيا نفسها من جهة، وبينهم وبين المغاربة الأتراك من جهة أخرى، وان مقاومتهم ما فتئت تندلع بين الفينة والأخرى. وقد أحبطوا فعلا كثيرا من المخططات التي كانت تستهدف طمس حضارتهم.

المقاومة ومراحلها

انطلقت المقاومة أساس من (الجماعات) Aljamas[113] الغنية والمألوفة في كل من أراجون وبلنسية. وقد كانت هذه الثورات متعددة. لكن أهمها هي التي واجهتا محاكم التفتيش في كل منبلنسية وسرقسطة فيما بين سنتي 1575 و 1585، إذ وجهت فيها النداءات المتكررة إلى جميع موريسكيي الأندلس، وإلى الدولة العثمانية، وإلى البروتستانت. ففي سنة 1575 توصل محققو بلنسية وسرقسطة إلى أن موريسكيي المنطقة، مدفوعون بالموريسكيين المطرودين من غرناطة، يهيئون انتفاضة عارمة بمساعدة الأسطول العثماني، وسفن جزائرية[114]، وهؤلاء الذين نجدهم في جميع الانتفاضات المورسكية، ليسوا فقط أولئك الذين طردوا إلى فشتالة، ولكنهم أيضا أولئك الذين شاركوا في حرب البشرات، وسقطوا نتيجة لذلك في الرق، وفروا من مستعبديهم القشتاليين محاولين الفرار إلى شمال افريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط بمساعدة موريسكيي أراجون وبلنسية. وقد ظلوا دائما معتصمين بالجبال، ولا يخضعون لأية سلطة رسمية، وهم أكثر عداء للمسيحيين، وأكثر عدوانية تجاههم.

---

113 - Aljamas : الجماعات تنظيمات مورسكية سرية كانت تقوم بربط الاتصال بين المورسكيين بعضهم ببعض من جهة وبينهم وبين الأتراك من جهة أخرى. وكانت تضم أعيان المورسكيين واغنياءهم، أي من الذين كما كانت لديهم الوسائل المادية والمعنوية لتنفيذ مخططاتهم، كما كانت تتكون من المثقفين الذين يستطعون ضمان استمرارية المجتمع المورسكي. وهكذا فقد كانت هذه التنظيمات تحث باستمرار المورسكيين على الحفاظ على دينهم والابتعاد عن كل ما من شأنه أن يشوش على عقيدتهم، كما كانت تدعو المورسكيين للحفاظ عن تماسكهم.

انظر : Raphaîl Carrasco op. cit. pp. 41 - 47

114 - Ibid, p. 34

وكانوا صلة وصل بين المورسكيين الباقين بالمنطقة، وبين ذويهم الذين هاجروا إلى العدوة الأخرى، كما كانوا صلة وصل بين (الجماعات) Aljamas والأتراك، يحملون السلاح والرسائل والكتب(115).

وقد كان حضور هؤلاء الغرناطيين يعني السلطات، إذ كان شبح ثورة 1569 مخيما على الأجواء الاسبانية(116).

ومن جهة أخرى فإن استنطاقات محاكم التفتيش لا تترك أي مجال للشك في أن المورسكيين كانت تحدوهم زغبة قوية في الانتقام، وانهم كانوا يعملون على تجنب الأخطاء التي وقعوا فيها أثناء الثورة الكبرى.

وقد كانت المرحلة حاسمة خلال سنوات 1578 - 1580 إذ أفادت المعلومات الواردة من جواسيس محاكم التفتيش أن مبعوثا من الحكومة التركية يدعى جوان دوارت Juan Duarte زار مناطق مورسكية، وعقد عدة اجتماعات مع المورسكيين، وذلك للتخطيط للانتفاضة المقبلة. وكان هذا المعبوث يصرح في التجمعات بأن الحكومة التركية بعثته لمعرفة حالة المورسكيين لتقديم المساعدة لهم(117).

وبموازاة ذلك استطاع المحققون أن يضعوا أيديهم على مشروع تعاون موريسكي بروتستانتي. إذ ألقت السلطات الاسبانية القبض سنة 1575 على الفرنسي فرانسكو نالياس Fransisco Nalias، وقد اعترف بأنه استخدم كواسطة بين البارون دي روس Baron de Ros، اللوثري، من بيارن Bearnain، وبين لوبي دي أركوس lope de Arcos المورسكي، إذ كان من المنتظر أن يتوصل البارون ب 12.000 دوكة Ducats من(الجماعات) Aljamas مقابل مساعدة عسكرية بروتستانتية. وقد حكم على الفرنسي أولا بالحرق، لكن أرسل بعد ذلك إلى أشغال التجذيف الدائمة(118). كما اعترف الفرنسي بيرنار سيرا Bernard

---

115 - Ibid, p. 34

116 -Ibid, p. 34

ملاحظة: أشار رفائيل كراسكو إلى أن نشاط الغرناطيين بعد فشل ثورتهم إلى دراسات متعمقة، خاصة اننا نجد معلومات كثيرة حول هذا الموضوع في إطار وثائق محاكم التفتيش.

انظر المصدر السابق، هامش 4.

117 - Ibid, p. 37

118 - Ibid, p. 37

119 - Ibid, p. 37

Serra انه كان يقوم بتسهيل الاتصالات بين اللوثيرين والموريسكيين الأغنياء، كما أكد اعترافات مواطنه السابق، وكان على علم بأن الموريسكيين أرسلوا أيضا إلى الأتراك يطلبون منهم المساعدة[119].

وهناك طائفة من الاسبان كانت تساعد الموريسكيين، كما هو الحال بالنسبة لجوان دي اوريولا Joan de Oriola، الذي اتهمته محاكم التفتيش بأنه كان رأس خلية موريسكية لاعداد انتفاضة في منطقة قريبة من بلنسية، كما اتهم بأنه استقبل مبعوثين مسلمين (أحدهما تركي والآخر أوروبي دخل إلى الاسلام حديثا) حملا معهما رسائل من الجزائر بشأن الانتفاضة[120].

انتظر الموريسكيون الأسطول العثماني في صيف 1577، وانتظروه سنة 1578 و1579، وهكذا كانت الانتفاضة تؤجل كل مرة، وكانت الاتصالات جارية باستمرار بين الموريسكيين من جهة، والجزائر والقسطنطينية من جهة أخرى، وظلت الوضعية كذلك إلى غاية 1583 حيث تأكدت السلطات الاسبانية أن أي انتفاضة بمساعدة الأتراك لم تعد ممكنة[121].

غير أن الأعمال الجهادية البحرية ظلت دائما قائمة بفعل تدفق المهاجرين المستمر على الايالات المغربية، وحث هؤلاء السلطات التركية على انقاذ إخوانهم[122]. وفعلا فقد تمكن درغوث باشا أثناء غارة كبيرة قام بها على السواحل الاسبانية من حمل 1500 موريسكي. وفي سنة 1570 استطاعت سفن المجاهدين أن تحمل جميع موريسكي بالميرا، وفي سنة 1584 سار أسطول من الجزائر إلى بلنسية واستطاع أن يحمل معه 2300 موريسكي[123]. وقد تواصل نشاط البحارة الجزائريين أمثال حسن فينزيانو الذي تمكن في نفس السنة من نقل أكثر من 2000 موريسكي من نواحي اليقانت Alicante كانوا ينتظرون نجدته[124].

---

120 - Ibid, p. 37

121- ذلك أن الظروف الدولية قد تغيرت تماما، فالأتراك بدأوا يهتمون بشرق البحر الأبيض المتوسط بالخصوص، وفليب الثاني أصبح يهتم أكثر بالمشاكل الأوروبية والأطلنتية. ثم أن محاكم التفتيش توصلت إلىى زيف كثير من الادعاءات حول حقيقة هذه الاتصالات والانتفاضات، ولعل ذلك يرجع إلى بعض الموريسكيين كانوا يقومون بابلاغ محاكم التفتيش حول انتفاضات وهمية، وذلك بغرض التشويش على السلطات الاسبانية لابعادها عن المديرين الحقيقيين للانتفاضة.

122 - ناصر الدين السعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر ، مجلة أوراق - مدريد - العدد 4، 1981، ص 115.

123 - محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، ص 388.

124 - Haêdo, *D: Histoire des rois d'Alger*. P. 38

وفي السنة الموالية استطاعت سفن المجاهدين أن تحمل جميع موريسكي مدينة كالوسيا[125]. وبلغت حملات المجاهدين البحرية على السواحل الاسبانية بين سنتي 1528 و 1584 حوالي 33 حملة، هذا عدا الحملات التي كانت تقوم بها سفن صغيرة لحمل جماعات من الموريسكيين المهاجرين[126]. وقد وصف لنا الكاتب الاسباني الكبير سيرفانتيس Cervantes هذه الغارات البحرية في صور مثيرة[127].

ورغم المجهودات المكثفة التي بذلتها السلطات الاسبانية لمنع أي اتصال بين الموريسكيين داخل اسبانيا والمجاهدين فإن تبادل الرسائل ظل مستمرا بنفس الشكل تقريبا، وذلك بغض تدبير عمليات انقاذ الموريسكيين، وارسال الأسلحة، وهذا ما أكده الكونت دي ميراندا Comte de miranda سنة 1588 عندما صرح بأن «الموريسكيين يجتازون البحر في كل ربيع إلى شمال افريقيا»[128]. لقد أصبحت شرشال مختصة في«صناعة مرور الموريسكيين الى شمال افريقيا» فهي مأهولة بموريسكي غرناطة وبلنسية واراجون، وتوجد خلفها الغابات الضرورية لصناعة السفن الصغيرة التي تتميز بسرعة الحركة والهجوم. وفعلا فقد انتظم «مويسكيو شرشال» في جماعات خاصة تقوم بهجومات سريعة وخاطفة على السواحل الاسبانية، إذ بمجرد ما تصل إليها تخفي سفنها الصغيرة داخل الرمال، وتنطلق نحو الداخل لتلخيص ذويهم، ولأسر المسيحيين الذين يباعون في سوق الجزائر[129].

وأمام عنف وجرأة هذه العمليات أصدرت السلطات الاسبانية عدة قرارات تمنع الموريسكيين من الدخول إلى المناطق البحرية إذ صدر قرار بهذا الشأن سنة 1579، وصدر قرار ثان سنة 1586، مما يدل على أن الأول لم تكن له فعالية تذكر[130].

---

125 - محمد عبد الله عنان، المصدر السابق، ص 388.

126 - نفس المصدر و ص.

127 - كان هو نفس من ضحايا الحملات البحرية، إذا سر في الغارات التي وقعت سنة 1575، وحمل اسيرا إلى الجزائر، ولبث في أسرة بضعة أعوام حتى ثم افتداؤه سنة 1580.

ملاحظة: للمزيد من الايضاح حو الجهاد البحري انظر

Jean Monlai, *les Etats Barberesques*

ويذيل الكتاب دراسة لمختلف مصادر ومراجع الجهاد البحري.

128 - F. Braudel, «conflits et refus de civilisation : Espagnols et Morisques au XVII siècle», *in Annales; Economies, sociétés Civilisation*, II, Octobre - Décembre 1947, n° 4 P. 402

129 - Ibid, p. 402

130 - Ibid, p. 403

المواجهة ورفضي الاندماج

أشار بروديل إلى: «ان المشكل الموريسكي صراع ديني، وبمعنى آخر أعمق صراع حضاري، وهو بهذه الصفة يصعب حله وبالتالي فهو مدعو لأن يستمر»[131].

وبالفعل فقد كان كل طرف مشبثا بهويته الحضارية، بل ويحاول أن يستوعب الآخر، فمن خلال مناقشة جرت بغرناطة بين الشهاب الحجري وقس هناك، سأل هذا الأخير الشهاب الحجري قائلا : «انتم الأندلس (كذا) فيكم عادة غير محمودة... انكم لا تمشون إلا بعضكم مع بعض، ولا تعطون بناتكم للنصارى القدما (كذا)، ولا تتزوجون مع النصرانيات القدما(كذا)...»[132]. فأجاب اشهاب الحجري : ما نتزوج النصرانيات القدما، وكان بمدينة انتقيرا رجلا من قرابتي عشق بنتا نصرانية. ففي اليوم الذي مشوا فيه بالعروسة إلى الكنيسة ليتم النكاح احتاج بلبس العروس الزرد المهند من تحت الحوايج، وأخذ عنده سيفا لأن قرابتها حلفوا أنهم يقتلونه في الطريق، وبعد أن تزوجها بسنين لم يدخل إليها أحد من قرابتها، بل يتمنون موته وموتها...»[133] ويضيف الشهاب الحجري قائلا : «وما ذكرت له عن أندلسي والنصرانية كان صحيحا، وأسلمت على يده، وحسن اسلامها غاية الحسن، وأسلمت على يدها أمها عجوزة»[134]. فالمورسكيون، إذن لم يكتفوا بالصمود أمام حملات التبشير القوية التي كانت تمارس ضدهم، بل كانوا يحاولون باستمرار أن يقنعوا قدماء المسيحيين بوجهة نظرهم للدخول في الاسلام.

لقد كان للمورسكيين أسلوب خاص لمواجهة هذا المد المسيحي، يرتكز أساس على مبدأ التقية، إذ يقول الشهاب الحجري في هذا الصدد : «... وكانوا يعبدون دينين : دين النصارى جهرا ودين المسلمين في خفاء من الناس. وإذا ظهر عى أحد شيء من عمل المسلمين يحكمون فيهم الكفار الحكم القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدت... من عشرين سنة قبل خروجي منها...»[135]. وهو يشير هنا إلى محاكم التفتيش وماكانت تقوم به تجاه المورسكيين، فما زال هذا الجهاز القمعي إلى يومنا

---

131 - Ibid. p. 402

132- ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 21.

133 - نفس المصدر والصفحة.

ملاحظة: انتقير Antequera احدى مدن منطقة الأندلس، وتبعد عن مالقة بنحو 60 كم.

134 - نفس المصدر والصفحة.

135 - المصدر السابق، ص 3 - 4.

هذا - بوثائقه - يجسد هذا الصراع المرير بكل أبعاده، أو كما قال لوي كاردياك: «ان قضايا محاكم التفتيش مازالت لحد الآن ترتجف بالحياة، إذ من خلال شهادات الشهود ومرافعة المهتمين أو اتهام الوكيل العام تنبثق أمام أعيننا الطائفة المسيحية وعلاقتها مع الأقلية الموركسية»[136].

المساجد والفقهاء أعمدة الحياة الدينية لدى الموركسيين

ظل الأندلسيون إلى غاية 1525 يتمتعون بمساجدهم وفقهائهم، لكن بعد فرض التعميد الاجباري أعطيت الأوامر باغلاق جميع المساجد وأصبحت بذلك العبادات تمارس داخل المنازل وفي مساجد سرية، ففي 22 مارس سنة 1574 توصل محققو سرقسطة إلى وجود مسجد بقرية كلاندا Calanda بين الجبال، إذ كان يذهب إليه الموركيون بانتظام. واستمر هذا المجد نفسه في العمل، إذ حوكم الفقيه أمادور سمبيرويلو Amador Sampervelo سنة 1593 بتهمة تدريس القرآن داخله، كما ورد بعد ذلك في محضر تحقيق الفلاح الموركسي باسكوال راييس Pascual Raez، الذي اتهم بأنه كان يصلي فيه[137].

وإلى غاية فترة الطرد ظل دور المسجد أساسيا، ففي مدينة Vila Faliche كان الموركيون يتمتعون بمسجدهم سنة 1609، وقد كتب المحققون أن الموركسيين كانوا يدخلون اليه ويخرجون علانية تماما كما كان يدخل المسيحيون إلى كنائسهم ويخرجون[138]. وكذلك الشأن بالنسبة لمسجد Purroy استمر الموركيون في الذهاب اليه رغم أن نصفه خرب تماما 1608، وكان الفقيه مكيل كالفو Miguel Calvo يعلم فيه القرآن لمواطنيه[139].

ورغم المتابعات المتواصلة التي كان يقوم بها المحققون فإن الفقهاء ظلوا يؤطرون الموركسيين ويعلمونهم مبادئ دينهم، ويحثونهم على التمسك بها، وعدم الانجراف وراء حملات التبشير التي كان يقوم بها الرهبان. وكان هؤلاء الفقهاء يمارسون عدة مهن تكون أحيانا متواضعة، لكنهم غالبا ما يكونون على علم بأمور دينهم[140].

---

136 - Morisques et Chrétiens, p. 13
137 - Jacqueline Fournel - Guérin, op. cit. p 128
138 - Ibid, p. 128
139 -Ibid, p. 128
140 -Ibid, p. 128

وكانت مهامهم متعددة : فقد كانوا يمارسون مهمة الوعظ والارشاد ويساعدون المرضى، ويقومون بنسخ القرآن. ففي مدينة Belchite، كان الفقيه ميكيل دي لافوينتي Miguel de la Fuente يمتهن النسخ ويقوم بمهمة التعليم في نفس الوقت: إذ كان يستقبل المورسكيين لديه في الليل، ويقوم بتعليمهم القرآن مقابل «كيس» من القمح، كما اتهم الفقيه الكسندر بنيالوصا Alexandre Penalosa بأنه كان يقوم بنسخ الكتب الدينية[141] كما كانوا يقومون باستقبال المبعوثين من شماال افريقيا، حاملين معهم الكتب الضرورية لنسخها وبيعها للمورسكيين[142].

وكان دورهم بارزاً أثناء المناسبات الدينية، فقد كانوا مكلفين بجمع الصدقات، وتوزيعها على المعوزين، كما كانوا يشرفون على عمليات ختان الأطفال[143].

لقد حافظ المورسكيون وإلى اللحظة الأخيرة، على فقهائهم وتنظيماتهم الدينية، إذ أشار Fonseca إلى الدور الذي لعبه هؤلاء ساعة الرحيل، وكيف كانوا يرشدون مواطينهم[144]. ولا غرابة في هذا الدور الخطير الذي كانوا يقومون به، فقد اتصفوا بالصبر والثبات حتى في أحلك الظروف : ظروف السجن. ففي سنة 1601، وبسجن طليطلة كان الفقيه خيرونيمودي روخاس Geronimo de Rujas يجادل المسيحيين المسجونين معه ويقول لهم: «.... انه يرغب في انقاذ أرواحهم، وان الله سوف يبصرهم وينقذهم من العمى والجهل الذي يحيط بهم....»[145] وصرح Aznar Cardona – وكان قد مارس مهنته التبشيرية طويلا لدى المورسكيين – بأنهم ظلوا يمارسون عباداتهم إلى آخر يوم من طردهم[146]، وهذا أوضحه الشهاب الحجري قائلا : «... ولتعلموا ما بين عبادة الكافرين وعبادة المسلمين ولنشكر الله على ما أنعم به علينا باعتقاد الحق، وطهارة الجسد والملبس، والجامع الظاهر النقي من الأوثان والأذران، لأنها من أعظم النقم»[147]. وكثيرا ما واجه المورسكيون مخاطبهم بما يكنونه في صدورهم، فايزابيل Izabel d امة دونيا خوانا Dona Juana من طليطلة صرحت من «أن عقيدة العرب أفضل من عقيدة المسيحيين»[149].

141 -Ibid, p. 129
142 -Ibid, p. 130
143 - Anzar Cardona, op.cit. IF° 49V°.
144 - Fonseca, Relacion.... pp. 89 - 90
145 - Louis Cardaillac, op. cit. p 65
146 - Expulsion justificada... II F. 49

147 – المصدر السابق، ص 44.

148 - Louis Cardaillac, op. cit. p 16
149 - Ibid, p.16

وقد توبع المورسكيون من طرف محاكم التفتيش على الصوم، والوضوء والصلاة، والصدقة، بل الحج.

إذا كان الوضوء صعبا (مجرد الغسل بانتظام يعتبر في نظر محاكم التفتيش وضوءا يعاقب عليه»، فإن الصلاة على العكس من ذلك مارسها المورسكيون بصيغ مختلفة، وكانوا يقومون فيها في إطار عائلي أو في اطار جماعي تحت امرة امام يختارونه لهذا الغرض[150]. وكانوا متمسكين بها إلى أقصى حد ممكن، مارسوها وهم تحت التعذيب، وهم ذاهبون إلى الحرق، وكثيرا ما اكتشفوا من طرف جواسيس محاكم التفتيش وهم يمارسونها[151].

كما حافظوا على قدسية يوم الجمعة، إذ تتوقف في هذا اليوم جميع الأنشطة التجارية، ويرتدون الألبسة النظيفة،[152]، وقد اتهم امادوربيون Amador Paon من كلاندا Calanda سنة 1579 بأنه يغير يوم جمعة ملابسه، وانه يعتبره كيوم الأحد[153].

كذلك حافظ المورسكيون على صوم رمضان رغم شبكة الجواسيس الخطيرة التي كانت تحيط بهم، إذ يتغير في هذا الشهر سلوك المورسكيين تماما، مما يثير معه شكوك المسيحيين وتتجند طائفة كبيرة منهم لحث المورسكيين على الصوم والتشبت به، فقد شهد المسيحيون الذين يشتغلون مع المورسكيين في معصرة للزيت بقرية البالات Albalate سنة 1607 بأن جميع موريسكيي القرية يصومون رمضان، وان عاداتهم تتغير تماما معهم[154].

ولمجابهة هذه الوضعية كان المورسكيون يحاولون ما أمكن الابتعاد عن المسيحيين أثناء فترة الأكل، أو التظاهر أمامهم بأنهم يأكلون[155]، وعلى العكس من ذلك إذا كان جميع العمال مورسكيون فإن الصوم يكون سهلا، بل ويذهبون إلى حل الاتفاق مع رب العمل على تغيير أوقات عملهم بما يتناسب وهذا الشهر[156].

---

150 - Jacqueline Fournel- Guérin, op. cit p. 132
151 - Ibid p. 133
152 - Ibid p. 133
153 - Ibid p. 133
154 - Ibid p. 136
155 - Ibid p. 136
156 - Ibid p. 136

وكثيرا ما أثار الصيام نقاشا حادا بين المورسكيين والمسيحيين، كما هو الحال بالنسبة للشهاب الحجري وهو يناقش « قاضي الأندلس»[157] بباريس إذ يقول في هذا الصدد: «.... فالقاضي ابتدا بالكلام، اعني قاضي الأندلس، وقال لي : هل عندكم صيام في دينكم فرض ؟ قلت له عندنا شهر قمري في العام، قال لي : كيف هو صيامكم ؟ قلت له : نمسك عن الأكل والشرب من انشقاق الفجر إلى غروب الشمس، قال : نحن عندنا صيام فرض في كل سنة... وهو تسع (كذا) وأربعون يوما متوالية، قلت له كيف هو صيامكم ؟ وأنا عارف به قال: في نصف النهار ساعة معتدلة، ثم نمسك عن الأكل إلى الليل، وفي أوله نأكل أقل طعاما مما أكلنا في نصف النهار. قلت له: ما السر في الصوم والمراد به ؟ لأننا في ديننا هو لنرد النفس عن الشهوات، ونزيل من قوتها بالصوم، قال لي ونحن كذلك ، قلت له: بل تزيدون في قوتكم بهذا الصيام....»[158].

امتنع المورسكيون بصفة عامة عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر رغم الضغوط الكبيرة التي كانت تمارس ضدهم.

ذأب المورسكيون على تعليم أطفالهم الامتناع عن للحم الخنزير منذ صباهم، وهذا ما فعله الموريسكي لوبي البلنسي Lope Valenciano عندما أودع أبناءه لدى المسيحيين، وأوصاهم ألا يعطيهم خمرا أو لحم خنزير، مما أدى به إلىى الوقوع بين أيدي جلادي محاكم التفتيش[159]. كذلك مان النقد اللاذع يوجه إلى المسيحيين من طرف المورسكيين عندما يقدمون اليهم طعاما تشم منه رائحة لحم الخنزير[160]، فخوان هرادور Juan Herrador بالقلعة Alcala قد رفض الأكل في صحون بها لحم خنزير، ولهذا السبب كان يقطع كل ما وجب أكله بأصابعه[161]. ونفس هذا الأمر المورسكية من كاتلانيا التي حضرت ذبح أحد الخنازير عند جزار القرية، فقد صاحت: «أنها لا تأكل لحم الخنزير حتى ولو نوجوها ملكة»[162].

---

157 - يقصد القاضي الذي كان يفصل في قضايا المورسكيين بفرنسا

158 - المصدر السابق 49 - 50.

159 - Jacqueline Fournel- Guérin, op. cit p. 141

160 - Ibid p. 141

161 - Louis Cardaillac op. cit p. 24

162 -Ignacio Bauer y landauer, Relaciones y manuscritos (Moriscos). p. 60

وأثار الامتناع عن أكل لحم الخنزير أيضا مجادلة بين الموريسكيين والمسيحيين، فقد أورد الشهاب الحجري ما يأتي : «قال لي القاضي[163]: ولحم الخنزير، لماذا هو ممنوع عندكم؟ قلت : لأنه نجس، لأنه لا يأكل إلا النجاسات، وحتى في الأنجيل هو ممنوع، قالوا: ليس بممنوع، وأين المنع في الانجيل...»[164].

كان الامتناع عن شرب الخمر عاما[165]، إذ كان الموريسكيون يراوغون كثيرا محاكم التفتيش، فقد كانوا - مثلا - يملكون مزارع العنب ليظهروا أنهم «مسيحيون طيبون»، غير أن هذا الجهاز القمعي المروع كان يفطن أحيانا لحيل الموريسكيين، فقد ألقي القبض بطليطلة على خوان هيرادو Juan Herrado لأنه يملك العنب ويصنع منه الخمر قصد «إخفاء نيته السيئة، إذ هو في الواقع لا يشرب الخمر»[166].

وكما أثار الامتناع عن أكل لحم الخنزير جدالا بين الموريسكيين والمسيحيين فقد أثاره أيضا الامتناع عن شرب الخمر، فقد أورد الشهاب الحجري في هذا الصدد : «.... وانتقل إلى مسألة أخرى، وقال: ما السبب حتى منعكم نبيكم من الخمر ؟ قلت : منعه الله تعالى، لأن أفضل ما تكرم به على بني آدم هو العقل، والذي يزيله هو الخمر، وهو أقبح المسائل كلها، قال : حتى عندنا هو ممنوع أن يشرب الانسان منه حتى يسكر، قلت، ظهر لي أنه ممنوع لكم في الانجيل ولا انتبهتم له، قالوا : في أي موضع ؟ قلت : الدعاء الذي أمركم به سيدنا عيسى - عليه السلام - أن تدعوا به، وأوله أبونا الذي في السماء... إلى أن تقولوا: ولا تدعنا نقع فتنه النفس وآخرون يترجمون : «ولا تدخلنا التخريب» وهم الأكثر،... والأول عندي هو الصحيح....[167]. إن حقد المسيحيين على الموريسكيين تطور بشكل سريع من حقد ديني إلىحقد عام وشامل لجميع التقاليد والعادات الموريسكية، فهذا أزنار كاردونا يلاحظ : «أن طريقة تناولهم الأكل تترجم عن همجيتهم، فهم يأكلون على الأرض دون مائدة ولا أي شيء آخر...، وبنفس هذه الطريقة ينامون على الأرض، على «المضربة»[168] Almadraba....»[169]، كما أصبحت هذه التقاليد

---

163 - يقصد القاضي السالف الذكر

164 - المصدر السابق، ص 53.

165 - Louis Cardaillac, op. cit p. 24

166 - Ibid p. 24

167 - المصدر السابق، ص 50 - 51.

168 - مازالت الكلمة مستعملة إلى يومنا هذا بالمغرب.

169 - Expulsion... II, F° 33, r

والعادات علامة على اتباع المورسكيين للدين الاسلامي، كما هو الشأن بالنسبة لأكل الكسكس: «فخيرونيكا لافرانكا Geronima la franca وكذلك أعضاء عائلته مع أشخاص مورسكيين آخرين نجدهم متبرعين وواضعين الكسكس في إناء وسطهم، ليأكلوا بأيديهم على شكل كرات حسب عادة العرب، وهم بهذا يداومون على اتباع دين محمد...»[170].

ونختم هذا الفصل بتسجيل الملاحظات الآتية

- كانت سياسة شارل الخامس أقل عنفا من سياسة الملكين الكاثولكيين، إذ نلاحظ أنه كان يتبع سياسة اللين في أحيان كثيرة، ويرجع هذا أساس إلى آثار الاقتصادية الناجمة عن هجرة عدد كبير من المورسكيين وبيع أملاكهم.

- مواجهة المورسكيين لقرارات شارل الخامس بقوة واحتفاظهم بتنظيماتهم السرية رغم حملات القمع الموجهة ضدهم.

- تدخل الأتراك لمساعدة المورسكيين على الهجرة أذكى حماسهم، وجعلهم يربطون اتصالات مباشرة معهم في شأن القيام بثورات داخل إسبانيا نفسها مما كان يثير مخاوف الاسبان باستمرار، لأن هذا التعاون كفيل بإفشال المشروع القاضي بوحدة الجبهة المسيحية.

- تراجع فليب الثاني عن سياسة أبيه المعتدلة، وذلك نتيجة فزعه الشديد من غزو إسلامي جديد للمنطقة، فقد أصدر مجموعة من القرارات التي من شأنها التضييق على المورسكيين، وجعلهم تحت قبضته لمراقبتهم.

- كان رد الفعل المورسكي خطيرا بإعلان «الثورة الكبرى»، إذ إن الآثار الناجمة عنها تتجاوز كل التقديرات، فقد كانت بها أبعاد سياسية وحضارية يدل على ذلك الوزن الذي أعطاه لها المورسكيون والاسبان على السواء، وكذلك الإجراءات التي اتخذها الاسبان بعد هذه الثورة مخافة أن تتكرر.

- استمرت موجة المقاومة ضد السلطات الاسبانية رغم الاجراءات المتخذة وظل المورسكيو متشبتون بهويتهم الحضارية مما أقنع فليب الثاني بفشله، وجعله يفكر آخر أيامه بإخراجهم. وهذا ما سيقوم به بالفعل ابنة فليب الثالث.

---

170 - Ibid, IIF° 33 r°

الفصل الثالث

المورسكيون في عهد فليب الثالث

(1006 هـ 1030 هـ / 1598 م 1621م)

استمر فليب الثالث في السياسة التي انتهجها أبوه تجاه المورسكيين والتي تنبني أساسا على القمع والمراوغة، وسوف نتعرض في هذا الفصل لمركزين مورسكيين خطيرين، يستمد الاول خطورته من تراثه النضالي بالمنطقة وامتداد هذا التراث داخل المغرب، بينما يستمد الثاني خطورته من كثافة سكانه.

1

موريسكيو هورناتشوش HORNACHOS

تبدي أولا ملاحظات عامد تساعدنا على وضع إطار عام للموضوع :

الملاحظة الأولى إن اهتمامنا بموريسكيي هذه المنطقة يأتي من كونهم يمثلون نموذجا فريدا من بين جميع النماذج الموريسكية المعروفة[1]، إذ يبرزون بخصوصيات معينة تميزهم عن باقي موريسكيي إسبانيا[2]، فقد اعتبروا رمزا للخطر الموريسكي، وبالتالي كان «خطرهم هذا» من أهم العوامل التي أدت إلى طرد الموركسيين من إسبانيا[3].

الملاحظة الثانية : اعتبرت مجموعة موريسكيي هورناتشوش مجموعة متماسكة، وهاجرت إلى المغرب وهي متماسكة، وهذا لم يتوفر في أي مجموعة مهاجرة أخرى[4].

الملاحظة الثالثة : حمل الهورناتشيون معهم إلى قصبة الرباط تراثهم النضالي والسياسي، مما أضفى صبغة جديدة على الوجود الموركسي بالمغرب[5].

الملاحظة الرابعة : حمل هورناتشيون معهم ثرواتهم المالية وخبرتهم الصناعية والتجارية، مما سيدعم مركزهم بالمنطقة[6].

- المجال الطبيعي والبشري

تقع قرية هورناتشوش وسط منطقة اكسترامادورا Extramadura في إقليم Badajoz على بعد 50 كلم من Merida على نهر Matachel أحد روافد Guadina.

---

1 - Julio Fernandez Nieva, El enfrentamiento entre Moriscos y cristianos viejos el caso de Hornachos en Extramadura. in «les morisques et leur temps», p 271

2 - Bartolomé Bennassar, *un siècle espagnol*, p. 288

3 - Bernard Vincent, «les morisques d'estrémadure au XVe siècle, *in annales démo graphie historique*, p. 431

4 - Guillermo Gozalbes Busto, les republics andaluza de Raba en el Siglo XVXX p. 50

5 - Guillermo Gozalbes Busto, loc, cit

6 - Roger Coindreau, *les Corsaires de Salé*, p. 36

ولا ينتمي موريسكيو هورناتشوش إلى المورسكيين الذين قدموا من غرناطة إبان ثورة 1568[7].

فهم مويسكيون «أصليون» كما تدل على ذلك الوثائق المحلية[8] لذلك كان الهورناتشيون يشعرون دائما بأن جذورهم متأصلة بالمنطقة، وهذا ما يفسر من جهة أخرى تشبتهم بتراثهم النضالي. وقد ظلت هورناتوشس إسلامية لفترات طويلة إلى غاية 1234 بعد أن سقطت في أيدي الاسبان[9].

ومن المؤكد أن المجموعة الإسلامية ظلت موجودة بالقرية، معترفة بسلطة الملك، وتؤدي الخراج لعرش قشتالة، التي كانت تسمح لها بالمقابل أن تمارس شعائرها الدينية وهي الفترة التي اصطلح على تسميتها بفترة المدجنين. وظل هذا التسامح الديني هو الغالب إلى نهاية القرن الرابع عشر1348[10].

وظل التعايش منذ ذلك التاريخ بين مد وجزر إلى غاية 1502 عندما فرض الملكان الكاثوليكيان التعميد الاجباري بالمنطقة، إذ جابهه الهورناتشيون بقوة[11].

وقدر Salazar de Mendoza (زار المنطقة في بداية القرن السابع عشر) عدد سكانها بحوالي1000 كانون[12] في حين قدرها Jaime Bledda بحوالي 1200 كانون[13]، وقدرها Marcos de Guadalajara بحوالي 1000 كانون[14]، فيكون العدد، إذن ما بين 4000 إلى 5000 نسمة[15]. ولكن الوثائق الكنائسية لا تتحدث

7- Vincent; op.cit. p.436

8 - ينتمون إلى قبائل نفزة وكتامة ومصمودة، وقد قدموا إلى المنطقة في بداية القرن الثامن الميلادي
انظر:

- Andrés Sanchez pérez, los moriscos de Hornachos, p. 12

9 - J. Fernandez Nieva, op. cit. 275

10 - وجدت وثيقة بالمنطقة تشير إلى زواج شابين حسب الأعراف الاسلامية
انظر:

J. Fernandez Nieva, op. cit. 277

11 - اختار البعض منهم طريق الهجرة، إذ هاجر منهم 34 مورسكيا إلى البرتغال، لكن الأغلبية الساحقة فضلت البقاء في أرض الأجداد، مفضبة المواجهة المباشرة.
انظر: في هذا الصدد:

J. Fernandez Nieva,loc. cit

12 - S. H.M 1ère série, France, 3.187

13 - Crônicade los moros de Espana, p. 921

14 - Mémorable expulsion.... p. 122

15 - B. Vincent, op. cit p. 435

إلا عن خروج 3000 مورسكي، ويمكن تفسير هذا بكونهم تركوا أطفالهم الذين لاتتجاوز أعمارهم أربع سنوات.

وعلى كل فإن أهم ما يميز هذه القرية هو طابعها الموريسكي فمن بين 4000 أو 5000 موريسكي لم يوجد أكثر من 100 مسيحي بينهم 20 راهبا، وهذا ما يفسر قوتهم[16].

وقد مارس السكان نشاطات تهم على الخصوص الفلاحة والتجارة، إذ إن القرية بالفعل كانت مركزا فلاحيا وتجاريا[17].

وكانت تزرع بالمنطقة الحبوب والخضر والفواكه التي لم تكن تتوفر في كثير من المناطق الاسبانية الأخرى، مثل الرمان والكروم والليمون[18]. كما كانوا يعتنون بتربية النحل[19]، وبتربية الماشية تربية كثيفة[20].

وعلى العموم فقد كانت هورناتشوس قبيل الطرد مدينة غنية ذات فلاحة متنوعة وكثيفة[21]. وبعد الطرد، وبالضبط في سنة 1672، بعد أن عمرت من جديد من طرف الاسبان، زارها الفرنسي A. Jouvin فلاحظ أن الأراضي الزراعية فيها مهجورة[22].

المواجهة

كل الذين زاروا المنطقة أو عاصروا أحداثها أكدوا على خطورة هذا المركز بالنسبة لباقي المراكز الأخرى، وقد كانت المواجهة طويلة وعنيفة، ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة فروع أساسية:

يقول Salazar de Mendoza : «كان الهورناتشيون يتعاملون فيما بينهم في إطار جمهورية لها مجلسها Consejo se Estado الذي يجتمع في أحد كهوف جبال المنطقة، وكانوا يشتغلون بالنقل لأنهم يعرفون الطرق الاسبانية جيدا كما ضربوا

---

16 - B. Vincent, op. cit pp. 435 - 436
17 - B. Bennassar, op. cit p. 288
18 - J. Fernandez Nieva, op. cit. p 273
19 - Andrés Sanchez Pérez, op. cit p. 14
20 - J. Fernandez Nieva, op. cit. p 273
21 - Guillermo Gosalbes Busto, op. cit. p . 44
22 - . J. Fernandez Nieva, loc. cit

سكة مزورة، وكانت لهم مراسلات مع الأتراك والمغاربة. وكانوا يأتون إلى طليطلة (للتباحث مع مورسكيين آخرين) بواسطة طريق تسمى «Moruna»[23].

واستخدموا جميع الوسائل للمحافظة على هذا (الكيان المستقل) :

- فقد حصلوا من فليب الثاني على حق حمل السلاح مقابل 30 ألف دوكا[24].

- وبفضل الرشوة المقدمة إلى رجال القصر ومحاكم التفتيش تمكنوا من الإفلات في فترات عصيبة من المتابعة[25].

- كما كانت لهم أماكن لضرب السكة المزورة السلاح داخل الكهوف[26]، وذلك بفضل استغلالهم للمعادن بالمنطقة مثل الفضة والرصاص والفحم[27]، كما كانوا يصنعون داخل المناجم نفسها[28].

وبالاضافة رلى هذا النشاط المكثف داخليا، فقد كانوا على اتصال دائم مع الخارج، إذ أكد راهب هورناتشوس Diego de Cuenca في رسالة بعثها إلى مجلس الدولة الاسباني (قبيل الطرد) أن الهورناتشيين يستقبلون سفراء من سلطان المغرب (زيدان) قصد الثورة ضد إسبانيا[29].

وكانت هورناتشوس مركزا إسلاميا وسط أرض مسيحية[30]، وهذا يوضحه 133 محضرا من محاضر محاكم التفتيش[31].

---

23 - 8S. I.H.M 1ère, France 3 : 187 - 188, note 4 Jaime Bleda, op. cit p. 921
Fr. Marcos de quadalajara, op. cit . p 122

24 - R. Coindreau, op. cit. p. 36, Jacques Caillée, *Histoire de la ville de Rabat*, 1: 213

25 - J. Bleda, loc. cit Jean- Marc Pelorson, « Recherches sur la comedia los moriscos de Hornachos» in Bulletin Hispanique, vol LXXIV, janvier - juin 1972 n° 1 - 2p. 11

26 - كان لديهم ثلاثة صناع بالإضافة إلى عدد كبير من الشركاء وتورد المصادر الاسبانية بعض الأسماء المشهورة مثل Francisco Blanco الذي كانت تبحث عنه السلطات الاسبانية باستمرار.
انظر : Andrés Sanchez Pérez, Loc. cit -34

27 - Andrés Sanchez Pérez, Loc. cit

28 - Andrés Sanchez Pérez, Loc. cit

29 - انظر نص الرسالة عند :
Jean- Maroc, Pelorson, op. cit. pp.41 - 42

30 - B. Bennassar, op. cit p. 288

31 - كانت هورناتشوس تابعة لمحكمة تفتيش lerena وقد ازداد نشاطها كتابة فيما بين سنتي 1585 - 1610،
انظر : J. Fernandez Nieva, la Inquisicion y los moriscos Extremenos, p. 18

- فقد كان سكان هورناتشوس يستغلون انعزالهم الطبيعي (بعملهم في الحقول) لأداء الصلوات الخمس اليومية (داخل مغارات الصخور).

- ويصومون رمضان.

- ويحتلفون بيوم الجمعة كعيد ديني، إذ يقومون بزيارة بعضهم البعض، ويقدمون الصدقات لفقرائهم.

- ويدفنون موتاهم حسب القواعد الاسلامية، إذ يغسل ويكفن ويتلون عليه القرآن، ولا يتركون أي مسيحي يقترب منهم[32].

- ولا يأكلون لحم الخنزير، ويمنعون الآخرين من تربيته.

- كما كانوا يحفظون القرآن ويتعلمون العربية، إذ أكد J. Bleda في هذا الصدد «أنهم لايعرفون اللغة القشتالية، ويعرفون فقط اللغة العربية»[33] وأكد النبيل الألماني Erich lassota de steblovo الذي زار المنطقة في 6 يونيو منذ سنة 1580 أنهم: «يتكلمون العربية فقط»[34]، وقد توصلت محكمة التفتيش ليرينا Lerana إلى مجموعة من الكتب العربية وأرسلتها إلى اشبيلية لترجمتها[35]، ويفسر وجود هذه الكتب بأن جميع التجمعات العائلية كانت منصبة أساسا على التعليم الديني، إذ أن فقهاء هورناتشوس كانو يدرسون السيرة النبوية، وكانت هذه الكتب تأتي بالخصوص من غرناطة[36].

وهكذا فإن المصادر المعاصرة أكدت أن الهورناتشيين كانوا يرفضون بصفة قاطعة كل طابع مسيحي لقريتهم[37]. فقد قاموا بتخريب تمثال القديس Saint Jacques وتمثال القديس Saint Pierre [39]، كما كانوا يغسلون أبناءهم من آثار

---

32 - Andrés Sanchez Pérez, loc . cit

33 - J. Belda, loc. cit

34 - J. Fernandez Nieva, El en Frentamiento entre moriscos y cristianos viejos, in les morisques et leur temps, p. 272.

35 - I bid, p. 272

36 - B. Bennassar , op. cit. p. 288

37 - J. Bleda, loc. cit

38 - H. De Castries; *les trois républiques du Bou Regrag*, in I.S.H.M 1ère série, Pays - Bas, 5 : p. 6

39 - Henri Lapeyre, *Géographie de l'Espagne morisque*, p. 147

التعميد في أماكن خاصة يسمونها Morquités[40]. ونتيجة لذلك فقد بعث مجلس الدولة الاسباني بالقاضي Gregorio Popez Madera الذي حكم على العديد منهم بالشنق أو التجذيف في البحار[41]. وأصبحت هورناتشوس ببالفعل تشكل قلقا دائما لمجلس الدولة الإسباني.

لم يكتف الهورناتشيون بالصمود أمام المد المسيحي، بل إن عملهم في هذا المجال كان أقوى من باقي المناطق، وذلك بالتصدي لجميع المحاولات المسيحية التي من شأنها أن تفكك هذا التجمع الإسللامي الصامد، فقد أكدت المصادر الاسبانية أنه : «كان لديهم عدد من المجاهددين كانت مهمتهم تعكير صفو السلام بين المسيحيين»[42]، كما كانوا يقومون بتصفية كل من يمر بقريتهم من المسيحيين[43]. وكذا تصفية كل من يحاول المساس بنظام الحياة عند الموركيين[44]، بالإضافة إلى أعمال «السلب والنهب والسرقة» ضد المسيحيين[45]. ونتيجة لذلك فقد قام Madera بعدة تحريات أدت إلى اكتشاف عدد كبير من القتلى في مغارات الجبال المحيطة بالمنطقة، وهذا كان يدخل الرعب في نفوس الاسبان، وينفرهم من الاستقرار بالمنطقة أو المرور قربها، مما كان يهيء الظروف الملائمة للهورناتشيين لتنفيذ مخططاتهم بمنأى عن أعين الرهبان ومحاكم التفتيش. وقد فشل جميع الحكام الذين توالوا على النطقة في مواجهتهم للهورناتشيين[46]، وتكونت بذلك قناعة بضرورة اتخاذ قرار حاسم تجاه هؤلاء، خاصة أن الأمر لم يكن مجرد قضايا دينية تعرض على محاكم التفتيش بل اكتشفت اتصالات هؤلاء القوية مع الموريسكيين داخل إسبانيا، واتصالاتهم مع العالم الإسلامي (خاصة المغرب) لتنظيم ثورة عارمة في إسبانيا تعيد لهم جزءا مما ضاع منهم. وكان بالفعل أن اتخذ

---

40 - Jean- Marc Pelorson, op.cit. p. 41

41 - Henri Lapeyre, op. cit, p. 147

42 - J. Bleda, loc. cit

43 - Fr. Marcos de Guadalajara. loc. cit

44 - J. Bleda, loc. cit

45 - F. R. Marcos de Guadalajara. Loc. cit

ملاحظة :

من المعلوم أن المصادر الاسبانية تعتبر مايقوم به المورسكيون (قتلا وسلبا ونهبا) في حين يعتبره المورسكيون جهادا في سبيل الله القصد منه المحافظة على (الكيان العربي الاسلامي) بالمنطقة.

46 - انظر لائحة الحكام الذين توالوا على المنطقة عند :

J. Fernandez Nieva, op. cit. p. 281

القرار الحاسم في ددجنبر 1609 يقضي بطرد موريسكيي غرناطة ومرسية والأندلس، ونفس القرار ينص أيضا على طرد موريسكيي هورناتشوس رغم أن هذه القرية لا تدخل في حدود هذه الممالك[47]. وهكذا عمد Madera إلى تجميع أكثر من 3 آلاف مرسكي ونقلهم إلى اشبيلية انطلاقا من يناير سنة 1610، مستثنيا من ذللك الأطفال الذي يتراوح أعمارهم بين 4 سنوات و6 سنوات، وقد أدت هورناتشو وحدها 22 ألف دوكا كواجب الانتقال إلى المغرب[48].

47 - J. Bleda, op. cit. p. 1038

48 - Andrés Sanchez Pérez. op.cit. p. 38

ملاحظة:

هناك من يعتقد أن الهورناتشيين كانوا يعلمون بنوايا مجلس الدولة الاسباني فهاجروا طواعية إلى المغرب، وهذا اعتمادا على اشارة عابرة للأب DAN في كتابه:

Histoire de la Barbarie et ses corsaires p. 175

ولكن كل الوثائق المتوفرة لدينا تشير إلى أنهم لم يغادروا هورناتشوس إلا بعد صدور الطرد في 9 دجنبر 1609.

انظر في هذا الصدد:

H. de Castries, op. cit. p 7

J. Caillé, op.cit 1: 213 note 5

2

موريسكيو بلنسية

زار فليب الثالث بلنسية سنة 1599 وتدارس المشكلة الموسكية مع حاشيته هناك، واتفق الجميع على ضرورة الاستمرار في تنصير المورسكيين قسرا، وأصدر بشكل مواز مراسيم ملكية بالعفو إذا اعترفوا (بجرائمهم) وطلبوا الصفح. كما طلب إلى رجال الدين التوفق عن ملاحقتهم وايذائهم إذا هم نفذوا ما طلب منهم، وطلب في نفس الوقت أن تكثف عملية تلقين المسيحية على الوجه الأكمل للمورسكيين[49].

وهكذا نلاحظ أن الملك لم يكن راغبا في بداية الأمر بتهجير المورسكيين وإن قراره كان تبشيرهم بالمسيحية بشكل كاف وسريع. لكن العملية لم تمر بالشكل الذي أراده الأساقفة فقد أعلن المحقق العام لمحاكم التفتيش أنه لم يعتنق المسيحية طواعية إلا 84 مورسيكيا، كما اعترف رئيس أساقفة بلنسية بأنه فشل في مهمته حينما حاول منذ سنتين تنصير المورسكيين بحسن المعاملة، وعلى ضوء ذلك طلب من الملك ومن رئيس وزرائه الدوق ليرما Larma تهجير المورسكيين عن المملكة[50]. ومع ذلك فقد أصدر البابا بولو الخامس (Paulo V) عفوا عاما لمدة سنة، وأخبر المورسكيين في نفس الوقت أن هذه آخر فرصة لديهم وإلا اتخذ في شأنهم الاجراءات الزجرية الحاسمة، لكن المورسكيين واصلوا المقاومة والتصدي لهذه القرارات الزجرية. ولما رأى أسقف بلنسية أن الملك والدوق لم يتخذا أي قرار عملي فوري لتهجير المورسكيين بعث بتقريرين جديدين إليه يوضح فيهما خطر المورسكيين على البلاد وتزايد حركتهم واقترح ثانية تهجيرهم تدريجيا.

---

49 -Boronat y Barrachina, los moriscos espanoles y su expulsion 2, 8 - 10
50 - Boronat y Barrachina, loc cit

بدأت المسائل تقترب من النهاية عندما اتفق المورسكيون مع السفير الفرنسي Painssoult الذي بعث به الدوق de la Force منطقة Béarn على موعد للثورة. لكن الأب Jaime Bleda استطاع أن يكتشف المؤامرة ويبلغ عنها قبل التنفيذ، فأحبطت وأعدم رؤساؤها شنقا، وإثر ذلك أصدر الأمر إلى نائب الملك بلنسية بإلقاء القبض على أي موريسكي يحاول الهرب من بلنسية برا أو بحرا[51]. وقد طلب أسقف بلنسية استبدال تعذيب المورسكيين بتهجيرهم «لأنهم كافة يؤمنون بالدين المسيحي، إضافة إلى أنهم على صلة تكاد لا تنقطع بمجاهدي البحر المغاربة، وبهنري الرابع ملك فرنسا، وهم وراء اختفاء مجموعة كبيرة من الأطفال والنساء الاسبان، إذ يختطفهم هؤلاء ليصدوهم عن دينهم في شمال إفريقيا، وإذا أهملت إسبانيا المورسكيين ومؤامراتهم فستنهار قريبا لا محالة..»[52]. وقد شكر الملك ورئيس وزرائه الدوق ليرما الأسقف على إخلاصه للكاثوليكية لكنهما لم يتخذا أي قرار عملي في هذا الشأن وقد ازدادت الوضعية استفحالا مما اضطر معه مجلس الدولة إلى الاجتماع من جديد وأقر على أنه من الضروري أن ينصر المورسكيون ثانية، ويطلبوا بيانا بالعفو، وأن يعلموا أصول الدين المسيحي. أما من يرفض التنصير فيجب تهجيره من المملكة آخذين برأي الدوق ليرما الذي كان يقول دائما: «لا تصبح مما لك إسبانيا نقية طاهرة إلا بإقصاء المورسكيين عنها»[53].

لكن هذا القرار ظل أثره محدودا إلى أن صادق مجلس الدولة الاسباني على قراره الحاسم في 4 أبريل 1609 والذي يقضي بطرد جميع المورسكيين من إسبانيا خاصة أن الظروف الدولية أصبحت مواتية له[54].

---

51 - A. Dominguez Ortiz y B. Vincent, *Histoire de los moriscos*..... pp 173 - 174

52 - Henry Kamen la Inquisicion Espanola, p.126

53 - Jean Regle, Estudios sobre los moriscos, p. 49

54 - سبق لاسبانيا عقدت اتفاقية مع انجلترا سنة 1604، كما عقدت اتفاقية هدنه لمدة 12 سنة مع هولندا سنة 1609، انظر هذا الصدد:

F. Braudel, op. cit, 2: 128, H Lapeyre, op. cit. p 51

2

قرار النفي

يمكن تلخيص الأسباب التي أدت إلى طرد المورسكيين في ثلاثة أسباب :

السبب الأول : فشل سياسة الادماج رغم جميع المحا،لات التي قامت بها السلطات الاسبانية، فقد كتب الملك يقول في الديباجة «.... إنكم لعلى علم بمحاولاتي، مدة سنين طويلة لتنصير موريسكيي هذه المملكة (بلنسية) وكذلك موريكسيي قشتالة، وبإصداري أوامر العفو منة مني عليهم، وبمساعي لتفقيهم في ديانتنا المقدسة وبالنتائج الهزيلة المحصل عليها، إذ من الواضح أنه لم يتنصر أحد، بل على العكس لم يزدد إصرارهم إلا حدة...»[55].

وهذا ما أكدته الترجمة التي أورداتها المصادر الأندلسية للقرار فقد كتب الشهاب الحجري في الترجمة التي قام بها للسلطان مولاي زيدان ما يأتي : «.... قد علمت ما صنع وعمل مع النصارى الجدود (كذا) أهل تلك السلطنة وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والارشاد لاثباتهم في ديننا المجيد وايماننا ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا لأنه لم يجد فيهم واحد ممن هو نصراني حقيقة...»[56]، وكذلك الأمر بالنسبة لابن عبد الرفيع حيث يقول في ترجمته للقرار : .. والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الأندلس (كذا) الذين هم متولدون من الذين كدروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا مرارا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتمزيق أعضائهم... مع عدم توبتهم مما فعلوه وعدم ورجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية، وأنه لم ينفع فيها وصايانا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا...»[57].

---

55 – انظر القرار عند :

Mercedes Carcia Arnela, los Moriscos, pp 251 - 253

56 – ناصر الدين على القوم الكافرين 106 / 107.

57 – الأنوار النبوية في اباء خير البرية ، 331

السبب الثاني: الذي أورده النص الرسمي الاسباني يقول: «أنه من المعلوم أن موركسيي هذه المماليك قشتالة تقدموا أكثر فأكثر في تنفيذ مشاريعهم الشنيعة، وبما أني علمت بنفسي من تقارير صادقة وصحيحة أنهم في إصرارهم على الردة والضلال أرادوا ويريدون دائما الشر والفساد لملكتنا عن طريق سفرائهم، وكذلك بسبل أخرى...»[58].

وبذلك لم يوضح هذا النص ما هي هذه المشاريع اشنيعة ؟ ولا ما هو الشر والفساد الذي كان يسعى إليه الموركسيون للمملكة؟ وإلى من كان هؤلاء اسفراء ؟

وما هي السببل الأخرى التي كان يستخدمها الموركسيون ؟

ذلك ما توضحه المصادر الأندلسية بتفصيل فقد أورد الشهاب الحجري في ترجمته السالفة الذكر ما يأتي: «... ونحن في هذا تحققنا وصح من وجوه، أنهم بعثوا للتركي الكبير باصطنبول ومولاي زيدان بمراكش رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم وأنهم عندهم مائة وخمسون ألف رجللا مسلمون مثل الذين ببلاد المغرب الافريقية، وأيضا لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا (كذا) أنهم يعينهم بسفونهم (كذا) وأما سلطان اصطنبول قد اصطلح مع سلطان الفرس، لأنه كان يشغله، وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها، وإذا تفرقوا جميعا مع هؤلاء نرو (كذا) نفوسنا في الأمر الذي لايخفي...»[59].

أما ابن عبد الرفيع فقد أورد الترجمة على الشكل الآتي : «..... وظهر منهم العناد بعيشهم فيه بصفة دائمة واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا، وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات الإسلامية ومعاملات دينية، وقد تلقيت ذلك من إخبارات صادقة وصلت إلي، ومع هذا إن أحدا منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يديرونه في هذه المدة بينهم وفيما سبق من السنين بل كتموه بينهم...»[60].

واضح، إذن أن النص الرسمي الاسباني كان يشير بذلك إلى علاقة الموركسيين مع المغرب والأتراك وكذا مع الفرنسيين.

السبب الثالث : لم يتعرض له البيان الرسمي الاسباني ولكن الموركسيين كانوا يعرفونه جيدا، فقد سئل الشهاب الحجري - أثناء سفارته بهولندا - عن السبب الذي أدى بفليب الثالث إلى طرد الموركسين فأجاب : «... اعلم أن الأندلس كانوا

---

58 - Mercedes Carcia Arenal, loc. cit

59 - ناصر الدين على القوم الكافرين، 107 .

60 - الأنوار النبوية في آباء خير البرية، 331.

مسلمين في خفاء من النصارى، ولكن تارة يظهر عليهم الاسلام ويحكمون فيهم، ولما تحقق منهم ذلك لم يأمن فيهم ولا كان يحمل منهم أحدا إلى الحروب، وهي التي تفني كثيرا من الناس، وكان أيضا يمنعهم من ركوب البحر لئلا يهربوا إلى أهل ملتهم، والبحر يفني كثيرا من الرجال، وأيضا في النصارى كثيرون قسيسون، ورهبان، ومترهبات وبتركهم الزواج ينقطع فيهم النسل، وفي الأندلس لم يكن فيهم قسيسون ولا رهببان ولا مترهبات، إلا جميعهم يتزوجون ويزداد عددهم بالأولاد وبترك الحروب، وركوب البحر. وهذا الذي ظهر لي على إخراجهم، لأنهم بطول الزمن يكثرون...»[61].

وفعلا فإن المورسكيين كانوا يزداون بنسبة أكبر من نسبة ازدياد الاسبان، فمن خلال إحصاء 1565 / 1572 إلى غاية الطرد(1609) ازداد الاسبان بنسبة 7%، 44 في حين ازداد المورسكيون بنسبة 7%، 69، وهذه النسبة المرتفعة كانت تشكل قلقا دائما بالنسبة للاسبان إلى أن وجدت «الحل» أخيرا[62].

الموقف المغربي

رأينا أن السلطان زيدان كان يرسل مبعوثيه إلى اسبانيا قصد البحث عن إمكانية تقديم الدعم للمورسكيين[63].

ويرى البحث الاسباني Julio caro Baroja أن انتصارات السلطان زيدان على الشيخ المامون هي التي دفعت مجلس الدولة بالتعجيل بطرد المورسكيين، لأن الاسبان كانوا يعلمون بالدور الذي كان يقوم به زيدان، ومشاريعه لغزو الأندلس[64]، ولهذا سوف يقوم الاسبان بأعمال موازية داخل المغرب تمكنهم من ضمان سلامة شواطئهم بعد استقرار المورسكيين به، خاصة أن المشكل لم يكن ليمر بسهولة على المغربة، فقد عمل مع زيدان حوالي 500 من مهاجرة الأندلس في مواجهة أخيه المامون[65]، وكان المورسكيون كذلك يعملون باتصالاته في هذا الشأن مع الباب العالي ومع الهولنديين[66] في حين سجل المورسكيون للمامون عدة مواقف خيانية:

---

61 - ناصر الدين على القوم الكافيرن 103 - 104 .

62 - P. Chaunu, «Minorités et conjoncture, l'expulsion des Morisques, en 1609», In Revue historique, Paris 1961, cc xx v, n° 90

63 - Jean - Marc Pelorson, op. cit pp. 41 - 42

64 - Los Moriscos de Reino de Granada. pp 224 - 225

65 - المؤرخ المجهول تاريخ الدولة اسعدية، ص93.

66 - S.I.H.M 1ère série, Pays Bas, 1.670

- فقد سجلوا خيانته لهم وهو بإسبانيا، ذلك «أن المسلمين لما كانوا في بلاد النصارى أعلمه رئيسهم بأن جلهم في الجيش وإنهم مستعدون وأنهم أقوام كثيرة نحو ثمانية آلاف رجل يقومون على النصارى ويستندون عليه في قيامهم عليهم ظنا منهم فيه أنه مسلم ينصر المسلمين ويعنيهم، ففضح بسرهم عند سلطان النصارى وأورد أن يحرق جموعا منهم فتشفع فيهم لأجل صداقته له واستشار فيهم معه فأشار عليه أن يخرجهم من أرضه فكان الأمر كذلك...»[67].

- وسجلوا خيانته الثانية عند تسليم العرائش للاسبان سنة 1610 مقابل 200 ألف دوكا[68]. وقد كانت مرفا هاما لعمليات الجهاد البحري التي يقوم بها الموريسكيون، بالإضافة إلى أنها كانت ملجأ لعدد من الموريسكيين الذين قرروا الاستقرار بالمنطقة، إذ تذكر المصادر الاسبانية في هذا الصدد أن المدينة عند احتلالها كان بها حوالي 150 من الموريسكيين المطرودين يشتغلون بالزراعة في الحقول والبساتين وبأعمال البناء، إلا أن أكثرهم لم يكن محل ثقة من طرف الاسبان إذ أبعدوهم عن المدينة ولم يتركوا إلا 30 موريسكيا «برهنوا على تمسكهم بالمسيحية واتقانهم لمهمة الترجمة والتجسس»[69].

وفعلا فقد توصل حاكم العرائش Valdés برسالة من الدوق ليرما (قائد عمليات طرد الموريسكيين من إسبانيا) يخبره فيه بأن موريسكيا من تطوان سيفجر حصن Nuestra senora بمدينته[70].

- وسجلوا خيانته أيضا عندما أوعز إليه الاسبان بقتل «حارس البحر مراد برتقيش» وهو من المتعاونين مع الموريسكيين، يقول المؤرخ المجهول في هذا الصدد: «.. وتصرف في تطوان قائدة حمو بودبيرة وقتل مراد ببرتقيش في غرض النصارى، كان - رحمه الله- رجلا تركيا وسكن تطوان وكانت له فركاطة يدخل بها في كل شهر أربعة غنائم أو خمسة فضاقت منه النصارى أهل جبل الطرم مع أهل سبتة فأرسلوا إلى الشيخ العدو، المخدول يشكون أذى حارس البحر فقتله الشيخ ليلا وغيبه في أرض النصارى...»[71].

---

67 - المؤرخ المجهول، المصدر السابق ص 96.

68 - S.I.H.M 1ère série, Pays Bas, 1:628

69 - Tomas Garcia Figueras y Carlos Rodriguez Joulia, saint cyr, Larache, datos para su historia en el siglo XVII p. 191

70 - Tomas Garcia Figueras, op. cit. p 108

71 - تاريخ الدولة السعدية، ص 95.

- كما سجلوا احتياله لاغتيال المقدم أحمد النقسيس بتطوان[72].

- وصل به الأمر في الأخير إلى أن أسرى المسلمين كانوا يفرون من طنجة فيرجعهم إليها[73].

وهكذا وصل المامون في علاقته مع المورسكيين إلى خط عدم الرجعة، إذ يقول المؤرخ المجهول في هذا الصدد : «وبغشه لأهل الأندلس وغدره إياهم وبإعطائه مدينة العرائش ختم أفعاله...»[74]. وتكونت قناعة لدى مجاهدي تطوان بضرورة تصفيته، وفعلا تمت تصفيته سنة 1613 / 1022 «وبقي في فج الفرس مطروحا خمسة زيام بلياليها والناس يأتون يشاهدونه وكانت عليه سمة النصراني...»[75]

أما باللنسبة للجانب الاسباني فقد انتشر احتلال العرائش بسرعة، وبعث فليب الثالث برسائل إلى جميع سفرائه يخبرهم بالحديث وقرر مجلس الدولة الاسباني بهذا الحدث «الذي أتى ليعزز عملية طرد المورسكيين من اسبانيا» فأقيمت الصلوات والأفراح نظمت الاستعراضات ابتهاجا بانتصار المسيحية في جبهتين : داخلية بإتمام طرد المورورسكيين، وخارجية باحتلال العرائش[76]. لنا أن نطرح سؤالا بعد هذا كله : هل تمكن الااسبان بالفعل من الحد من عمليات الجهاد البحري باستيلائهم على العرائش؟ بمعنى آخر هل تحقق غرض الاسبان بالوقوف في وجه العمليات التي كان يقوم بها المورسكيون بالمغرب؟

لم يحل المشكل إطلاقا فعمليات الجهاد البحري ازدادت كثافة، إذ تحول إلى مصب سبو حيث مرفأ المعمورة، ومن هناك أخذوا يكيلون الضربات للاسبان، مما جعلهم - مرة أخرى - يفكرون في الاستيلاء عليها، وقد ظلوا بالفعل يناورون إلى أن تمكنوا من الاستيلاء عليها سنة 1614[77].

وباحتلالها للمدينتين السالفتين أصبحت تراقب النقط الستراتيجية الآتية: وهران، المرسى الكبير، مليلية، بادس، سبة، طنجة، العرائش، الجديدة المعمورة.

---

72 - المصدر السابق ص 94 - 95.

73 - المصدر السابق ص 95.

74 - المصدر السابق ص97.

75 - المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 97.

76 - Tomas Garcias Figueras, op. cit. p. 90

77 - Tomas Garcias Figueras, op. cit. p. 114

وكل ذلك في إطار خطة دفاعية القصد منها حماية شواطئها من المجاهدين، وحماية سفنها الذاهبة إلى العالم الجديد(78).

لكن عمليات الجهاد البحري لم تتوقف وازدادت حدة بعد آن انتقلت إلى مصب أبي رقراق وأصبحت أشد عنفا مما كانت عليه(79).

الموقف التركي

كانت الدولة العثمانية على علم بقضية المورسكيين عن طريق عدد من المراسلات التي كانت ترد إليها سرا، وكذلك بفضل عدد آخر من الوسطاء أمثال Jeronimo Enriguez(80).

وكان المورسكيون هم الآخرون على علم بكل ما يجري بالدولة العثمانية، وكلما تحرك الأسطول العثماني في عرض البحر الأبيض المتوسط إلا وقوي أملهم في النجدة والمساعدة وبرر ذلك تحركهم السري، بل إن المورسكيين الذين أمكن لهم النجاة والهجرة خارج إسبانيا، كانوا يعتقدون أن ذلك بفضل التدخل العثماني(81). وقد سعت الدولة العثمانية لتمتين علاقاتها مع المغرب، إذ أرسل اسلطان أحمد الأول الاميرال خليل باشا في مهمة إلى المغرب بتاريخ 2 شتنبير 1613، الظاهر منها، كما يقرره المؤرخون، هو تمتين العلاقات بين الدولتين وتبادل السفراء(82)، غير أن المتتبع والمتأمل في سياسة الباب العالي، في هذه الفترة بالذات، لا ينفي أن تكون مهمة خليل باشا لها مهمة مباشرة بقضية المورسكيين(83).

ولكن الذي يسترعي انتباهنا أكثر هو المساعي الحثيثة التي قام بها السلطان العثماني أحمد الأول لدى بريطانيا وفرنسا والبندقية، لمساعدة المورسكيين بتسهيل تحولهم إلى أراضي الدولة العثمانية، إذ كلف السلطان الحاج إبراهيم أغا بالسفر إلى لندن ومقابلة ملكها جاك الأول Jacque 1er وطلب مساعدته في تسهيل نقل

---

78 -Tomas Garcias Figueras, op. cit. p. 90

79 - سنتعرض إلى ذلك بتفصيل في الفصل الثالث من الباب الثاني.

80 - H. Lapeyre , op. cit, p. 178

81 - عبد الجليل االتميمي، رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوق البندقية حول المورسكيين «مقال بالمجلة التاريخية المغربية»، تونس، العدد 7 / 8 يناير 1977 ص 9.

82 - Chantal de la Véronne «Relation entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XVI^es - in, Revue de l'occident Musulman et de la méditerranée n° 15 - 16, Aix en Provence, 2e semestre, 1973, p. 398

83 - عبد الجليل التميمي، المصدر السابق ص10 .

المورسكيين إلى أراضي الامبراطورية، إلا أن برريطانيا لم تستجب لهذا الطلب نتيجة معاهدتها السالفة الذكر مع اسبانيا 1604 [84].

وقد بعث السلطان أيضا سفارة أخرى لفرنسا لنفس الغرض فلبت فرنسا الطلب [85].

كما ناشد السلطان دوق البندقية في رسالة بعث بها إليه تقديم كل إعانة لهؤلاء المورسكيين، كما طلب إليه أن لا «يتدخل في أمورهم أو يتعرض لهم ولأرزاقهم وأموالهم ودوابهم... وهذا أثناء مرورهم بالمنازل والمراحل ليصلوا آمنين سالمين...» [86].

أما بالنسبة لفرنسا فيكفي الرجوع إلى محاضر محاكم التفتيش لنتأكد من الاتصالات التي كانت قائمة بين المورسكيين والفرنسيين، بل لقد اقترحوا قبيل الطرد على هنري الرابع أن يساعدوه في احتلال منطقة Gascogne لكنه رفض رغم تحمس Sully [87].

موقف المورسكيين

اعتبر فريق من المورسكيين أن النفي «فرج من الله» :

«.... وبعد ذلك باثنتي عشرة 1018هـ فرج الله تعالى على مسلمي الأندلس الذين كانوا فيها تحت قهر سلطان البلاد المسمى بفليب الثالث ...» [88]، ويذكر ابن عبد الرفيع في هذا الصدد أيضا : «ولايخفى أن هذا أمر عظيم ومحال عادة، لما كنا فيه معه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال، فسبحان رب السماوت والأرض الذي إذا أراد أمرا قال له : كن ! فيكون ! فيا لها من أعجوبة ما أعظمها ! ومن فضيلة ما أشرفها!...» [89] ويقول مويسكي آخر استقر بتونس: «الحمد لله الذي انتزعنا من أيدي هؤلاء الكفرة (الاسبان)، فقد كان الحقد يزداد ولا تابعتنا محاكم التفتيش، وانتزع منا أبناؤنا، وانتهبت أموالنا، ومست أعراضنا، وفي لحظة خاطفة كنا نجد أنفسنا في سجن مظلم كظلمة أغراضهم الدنيئة... ولهذا كنا نطلب من الله تعالى

---

84 – نفس المصدر واصفحة.

85 – نفس المصدر والصفحة.

86 – انظر نص الرسالة في المصدر السابق ص 14 .

87 - L. Cardaillac, *Le Passage des Morisques en Languedoc, thèse inédite* Montpellier, 1970, p. 7

88 – الشهاب الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، 2.

89 – ابن عبد الرفيع ، الأنوار النبوية في آباء خير البرية، 336.

باستمرار أن يزيل عنا هذا الكرب ويسهلل لنا أمر الخروج إلى دار الاسلام.. وظل الأمر كذلك إلى أن أوحى الله تبارك وتعالى إلى فليب الثالث ومستشاريه بإخراجنا من اسبانيا...»[90]، وسئل فقيه مورسكي عن سبب اعتباط المورسكيين أثناء الهجرة فأجاب : «انهم كثيرا ما سعوا إلى شراء قارب أو سرقته للفرار إلى المغرب مستهدفين لكثير من المخاطر، فكيف إذا عرضت لنا فرصة السفر الأمين مجانا، ألا ننتهزها للعودة إلى أرض الأجداد، حيث نستظل بحماية سلطاننا، سلطان الترك، وهناك نعيش أحرارا مسلمين لا عبيد كما كنا»[91].

على أننا لا يجب أن نفهم أن هذا الموقف كان موقفا استسلاميا، فقد كانوا يعتبرونه موقفا مرحليا فقط الغرض منه الالتجاء إلى الأتراك لاسترجاع ما ضاع منهم، وهذا ماسجله الرهبان الذين قادو عمليات الطرد، إذ صرح Aznar Cardona «بأن المورسكيين كانوا يخرجون وهم يهددون الاسبان بأنهم سيرجعون بمساعدة الأتراك لإعادة الإسلام إلى اسبانيا»[92]، كما أن العديد منهم ظل لوقت طويل يحتفظ بمفاتيح بيوته بالأندلس على أمل الرجوع[93]. ورفض الفريق الثاني الهجرة، وعرض على الملك - من خلال النبلاء والسادة ونائبه ببلنسية - مبالغ كبيرة، وعرضوا عليه كذلك أن يفتدوا الأسرى الاسبان الذين كانوا بأيدي مجاهدي البحر المغاربة والأتراك مهما كان الثمن، وعرضوا عليه في الأخير العمل في السفن (التجذيف) مقابل بقائهم، لكن الملك لم يأبه لتلك العروض واستمر في تنفيذ مخططه فلم يبق لهم إذن إلا الدفاع عن بقائهم بأرض أجدادهم بالقوة، وهكذا فقد التجأوا إلى الجبال وتجمعوا قرب Granada، واعتصم جماعة أخرى منهم بين دانية والكوى Denia y Alcoy وأعلنت ثورتها، وانضمت إليها عشرون قرية في جبال Bernia. وقد قدر عدد الثائرين بحوالي 20 ألف تجمعوا في وادي الهار Vallé de Alhar فقتلوا وكيل الشرطة المكلف بتهجيرهم، ونجح الفقيه عميرة في اشعال الثورة في كوفرنتيس Confrentes وخلانثي Jalance فتبعه مويسكيو موله دي كورتيس

---

90 -Henri Pieri, l'accueil par des tunisiens aux Morisques in Etude sur les Moriscos andalous en Tunisie, p. 132

91 - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص 398.

92 - Jacqueline Fournel. Guerin, op. cit p.314:

93 - ناصر الدين السعيدوني، «الجالية الأندلسية بالجزائر» ، مقال بمجلة اوراق، مدريد، العدد الرابع ، 1981. ص 121.

وهناك نصبوا عليهم ملكا يقودهم[94]، واستمرت الثورات بعد Muela de Cortes ذلك في عدة مناطق أخرى. لكن كان كل شيء قد انتهى بالنسبة للموريسكيين داخل اسبانيا، إذ تجندت هذه الأخيرة - بمساعدة الدول الأوربية - لتسوية هذه المسألة.

أما بالنسبة للطرف الآخر (الجانب الاسباني) فإن النبلاء والسادة وقفوا ضد هذا القرار، نظرا للأرباح الطائلة التي كان يجنيها هؤلاء من خلال العمل الشاق والمتقن الذي كان يقوم به الموريسكيون، لذلك فقد ارسلوا مندوبيهم إلى الملك والدوق ليرما وأوضحوا له الخسائر والأخطار التي تهدد البلاد في اقتصادها وأديرتها وجامعاتها[95].

كم بلغ عدد الموريسكيين المطرودين من اسبانيا ؟

بالنسبة للمؤرخين الذين شاركوا في الأحداث أو على الأقل عاصروها نجد :

Bleda بقدرهم بحوالي	340 .672 موريسكي
Penalosa يقدره بحوالي	310.000 موريسكي
Salazar de Mondoza بقدرهمت بحوالي	313 000 موريسكي

وهناك مؤرخون آخرون من القرن السابع عشر أعطوا أرقاما أخرى :

Moncada	400 .000 موريسكي
Escolano	600.000 موريسكي
Rodrigo Mendez Silva	900 000 موريسكي[96]

وهناك مؤرخون أوربيون آخرون أوصلوا الرقم إلى غاية مليون موريسكي مطرود، لكن Lapeyre استبعد تماما هذا الرقم، إذ كيف يتم نقل مليون شخص بوسائل بداية القرن السابع عشر ؟[97].

---

94 - مؤرخ موريسكي مجهول، ص 175 - 180.
نقلا عن محمد عبده حتامله " موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد الملك فليب الثالث"، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموركسية، تونس، 1983.

95 - Jacqueline Fournel - Guerin, op. cit. p. 312

96 - H. Lapeyre, op. cit. p. 206 Peirre Chaunu op. cit pp 87 - 88

97 - H. Lapeyre, loc cit

أما المصادر الموركسية فتقدر هذا العدد كالآتي :

وعلى كل فإن جل الباحثين يركزون على رقم 300 000 موريسكي كانوا باسبانيا آنذاك، وان عدد المطرودين منهم بلغ موالي 275 000 موريسكي، أي أن حوالي 25 ألف موريسكي استطاعت البقاء في اسبانيا بعد فترة الطرد(100).

بقي لنا أن نتساءل بعد هذا عن الآثار الناجمة عن فقدان اسبانيا لحوالي 275 ألف نسمة من سكانها البالغ عددهم آنذاك حوالي 8 ملايين نسمة.

الآثار الناجمة عن الطرد

أدى الطرد على المستوى العمراني إلى فراغ العديد من المراكز، ففي خلال سنتي 1613 و 1614 عندما كان Juan Bautista يزور منطقة الأرجوان لاحظ الفراغ المهمول بها :

Longares : لم يبق إلا 15 ساكنا من أصل 1000 ساكن كانوا بها قبل الطرد.

Alfamen	3 من	120
Clanda	100 من	300
Miedas	80 من	700(101)

وكان للطرد آثار سلبية على الميدان الفلاحي باسبانيا، فقد ظلت الضياع مهجورة مخربة لوقت طويل نتيجة تخريب السدود والقنوات، وأهملت العديد من الزراعات كزراعة قصب السكر والقطن وتربية النحل ودودة القز. وحاول النبلاء والسادة تعويض الموركسيين بمزارعين آخرين لخدمة أرضهم لكن جهودهم لم تعط أية نتيجة(102).

---

98 - ناصر الدين على القوم الكافرين، 41.

99 - الأنوار البنيوية في آباء خير البرية، 335.

100 - H. Lapeyre, op. cit 206 P Chaunu, op.cit PP. 87 - 88 F. Braudel, op. cit. 2 : 129 Jean Monlau, les Etats Barbaresques; collection que sais-je ? n° 1097. p. 73

101 - F. Braudel. loc . cit

102 - للمزيد من الايضاح انظر :
Pierre Ponsot, ls Morisques, la culture irriguée du blé, et le problème de la décadence de l'agriculture espagnole au XVIIe siècle Mélanges de la case c valazquez, VII 1971 pp. 237 - 262

وهكذا فقد لاحظ المركيز de Aytona سنة 1610 إن الملكيات الزراعية قل ثمنها نتيجة وفرة العرض على الطلب بفعل نقص الأموال وقلة السكان[103].

وتضررت اسبانيا كثيرا في الجانب الصناعي والتجاري، إذ كان الموريسكيون يمارسون الصناعة والتجارة بمهارة فائقة كانت تدهش الاسبان أنفسهم، فقد اختفت بعض الصناعات من بعض المناطق مثل سرقسطة التي اختفت منها صناعة الأسلحة[104]، وأغلقت في مناطق أخرى مصانع الورق والحرير والأقمشة[105].

103 - Jacqueline Fournel - Guérin, op. cit. p. 321

104 - Jacqueline Fournel - Guérin, op. cit. p. 318

105 - للمزيد من الايضاح انظر:

Jean Regla, la expulsion de los Moriscos y sus consecuencias in Estudios sobre los Moriscos, pp. 41 - 191, La expulsion de los Moriscos y sus consecuencias en la economia Valenciana; op. cit pp. 219 - 243

4

الانتقال

سجل الموررسكيون في البحار وهم في طريقهم إلى المغرب «... واتفق لكثير من المسلمين الأندلسيين عند خروجهم أن نهبهم في البحر النصارى وأكثرهم الأفرنج البحرية الذين اكتروهم ودفعوا لهم أجرتهم على أن يبلغوهم في عافية وأمان إلى بلاد المسلمين، وخانوهم كل واحد من الرياس في سفينته، وبعد أخذ كلما كان لهم أخرجوهم في بعض الجزر من بلاد المسلمين.

وأربعة من تلك اسفن النهوبة خرجت بالمغرب الأقصى، فأحسن المسلمون البربر بالأندلس، وجاءوا إلى مدينة مراكش وهي دار سلاطين المغرب وطلبوا من السلطان مولاي زيدان... ان يأذن لهم في ارسال بعض من أصحابهم مع رجال (من) الأندلس كانوا قبلهم بتلك المدينة، وأسفر نظرهم أن نمشي بأصحابهم وأعطانا السلطان كتابه...»[106].

وهكذا ورغم أن البيان الرسمي الاسباني قد أكد على أن المقصود هو عملية الطرد فقط، وإن الإساءة إلى المورسكيين أثناء هذه العملية تعرض صاحبها لعقوبة زجرية، فإن الانتهاكات واضحة سواء داخل التراب الاسباني نفسه أو أثناء عملية نقلهم في البحار، فقد استغلها الاسبان فرصة لنهب وسلب المورسكيين سواء في البر أو البحر. وقد شارك في هذه العملية الشنيعة أرباب السفن الفرنسيين الذين لم يتوانوا عن ارتكاب أفضع الجرائم في حق هؤلاء البؤساء وهذا بشهادة المحاكم الفرنسية نفسها.

و ازداد الأمر سوء ما لقيه هؤلاء على يد الأعراب بشمال افريقيا. وقد سجل المقري هذا الانتقال وبين أماكن استقرارهم وما تعرضوا له أثناء عملية انتقالهم :

---

106 - الشهاب الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين، 2/3.

«فخرجت ألوف بفاس وألوف بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة. وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطوان وسلا ومتيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكر جرارا وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصنوا قلعة سلا وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال...»[107].

الانتقال إلى المغرب

وكان انتقال الموريسكيين إلى المغرب عن طريق المراكز التي يحتلها الاسبان: طنجة، سبتة، مليلية... ومن هناك تسربوا إلى الداخل[108]، وينتمي هؤلاء إلى بلنسية ومنطقة الأندلس وقشتالة، وغرناطة، ومرسية، وبعض العناصر من الأراجون وكطالونيا[109].

كما انتقل موريسكيون آخرون من وهران إلى المغرب بعد ان ضاقت بهم المدينة[110]، وحسب juan luis de Rojas فقد تجمع عدد كبير من الموريسكيين بتطوان والقصر الكبير والعرائش لكي يكونوا على مقربة من اسبانيا[111]، وقد أكد هذه الحقيقة الدوق de Medina Sidonia إذ أنه أكد أنه كان يوجد بمدينة تطوان وحدها في سنة 1613 حوالي10.000 موريسكي[112]. كما استقر عدد آخر بمصب أبي رقراق كما هو معلوم. وبصفة عامة فإن المصادر الاسبانية تقدر عدد

107 - نفح الطيب، 4 : 528.

108 - Juan Penella, le transfert des Morisques Espagnols en Afrique du nord, in *Etude sur les Moriscos andalous en Tunisie*, p. 85

109 -Juan Penella, Los Moriscos Espanoles Emigrados al norte de Africa, (Resumen de la tesis) p. 17

110 - Juan Penella, *Le transfert des Morisques Espagnols en Afrique du Nord*, op.cit p. 86

111 - H. Lapeyre, op.cit p. 207

112 - H. Lapeyre, loc cit

113 -Damian Fonseca, *Justa explusion de los Moriscos de Espana* p. 200

114 - الشهاب الحجري، مخطوط المكتبة الجامعية بمدينة Bologne (ايطاليا) ورقة 156 ظ نقلا عن: Louis Cardaillac, op cit p. 83 note 8

115 -J. L. de Rojas, *Relacion de algunos sucessos prosteros de Berberie* F. 24 - V°25 V° Fonseca, op.cit. p. 185 sq

المورسكيين الذين استقروا بالمغرب بحوالي 40.000 موريسكي[113] في حين تقدره المصادر المورسكية بحوالي 60 ألف مورسكي[114]، لكن المصادر الاسبانية تشير في نفس الوقت إلى عمليات التقتيل الجماعية التي تعرض لها المورسكيون، مما أدى إلى إبادة مجموعات كاملة منهم وبالتالي أدى ذلك إلى تناقصهم باستمرار[115]. غير أن lapeyre يتحفظ كثيرا من كلام تلك المصادر ويعتبر أنها بالغت في تقدير عدد القتلى، وان المورسكيين تعرضوا للسلب والنهب أكثر ما تعرضوا للقتل، وحتى الذين ماتوا فقد كان غالبا موتهم ناتجا عن الجوع والارهاق[116]، يدل على ذلك العديد من محاولات الرجوع سرا إلى اسبانيا، ؤذ لوحظت في هذا الصدد تجمعات مورسكية ضخمة حول سبة وطنجة[117]. هذا على المستوى العام، أما على مستوى السلطة، فإن المصادر تشير إلى الاستقبال الذي حظى به المورسكيون لدى السلطان مولاي زيدان واهتمامه بقضاياهم وتصفية مشاكلهم، وتفهمه لكل ما يطرحون من قضايا «.... وكان الأندلس يقطعون البحر في سفن النصارى بالكراء، ودخل كثير منهم في سفن من الافرنج من أربع سفن وبعث رجل أندلسي من بلاد فرنجة يطلب منهم وكالة ليطلب بالشرع عنهم ببلاد الفرنج، واتفق نظرهم أنهم يبعثون خمسة رجالا (كذا) من المنهوبين لهم واحد من الأندلس الذين سبقوهم بالخروج واتفقوا انني نمشي لهم، وأعطاني السلطان كتابه وركبنا البحر المحيط بمدينة أسفي»[118].

وفعلا فقد أنجز مهمته بنجاح في باريس: «..... اعطوني (السلطات الفرنسية) كتاب السلطان بطابع الديوان الكبير للحكام على كافة الدواوين التي ببلاد الفرنجة، والأمر فيه أن جميع ما يجد من نهب الأندلس أن يدفعوه لي، وذكر قائد طابع السلطان أن في بلده باولونه واحد وعشرين رئيسا، كل واحد بسفينته نهب الأندلس الذين اكتروها، وكان فيهم واحد من الذين نهبوا إحدى السفن التي كانت لي الوكالة عليها....»[119].

ولكن لم يتحقق الأمر الثاني وهو معاقبة الجناة الفرنسيين لسبب يوضحه الشهاب الحجري قائلا: «... وأما المسألة التي جئنا إليها بكتاب السلطان لقبض الرياس الذين

---

116 - H. Lapeyre, op.cit p. 207

117 -H. Lapeyre, loc. cit

118 - الشهاب الحجري، ناثر الدين على القوم لكافرين، 30.

119- المصدر السابق، 55.

نهبوا الأندلس وكانوا بالونه، فلم نقض شيئا هنالك، وأظن أن قائد الطابع قبض منهم شيئا لنفسه...[120]

ونختم عرضنا هذا حول انتقال الموريسكيين إلى المغرب بملاحظة يوردها الكثير من الباحثين الاسبيان ويتعلق بنوعية الفئة الموريسكية المهاجرة إلى المغرب، ويقارنون في هذا المجال بينها وبين الفئة المهاجرة إلى تونس، فيذكرون في هذا الصدد أن الفئة المهاجرة إلى تونس فئة متعلمة (من منطقة اراجون) وبذلك ساهمت في تطوير الحياة الثقافية والاجتماعية بتونس، في حين استقرت بالمغرب فئة الموريسكيين المجاهدين الذين كان يطمحون إلى الانتقام من اسبانيا، وبذلك ساهم هؤلاء في تطوير التاريخ الدولي للمغرب أكثر من تطوير تاريخه الداخلي»[121].

الانتقال إلى الجزائر :

تقاطر عدد كبير من الموريسكيين على الجزائر حتى بلغ عددهم في العاصمة وحدها 25,000 موريسكي[122]. وكان استقبالهم على العموم في البداية حسنا بفعل وجود جالية موريسكية مهمة كانت مستقرة بها قبل الطرد، فقد ذكر الأب Haedo على أن عددهم كان يبلغ حوالي 1000 كانون[123].

غير أن هذا الاستقبال الحسن لم يكن في باقي المناطق فقد استقبلت وهران حوالي 22.000 موريسكي لكنها لم تستطع أن تأوي هذا العدد الضخم، فاضطر فريق منهم مكون من 500 إلى 600 موريسكي إلى التوجه إلى تلمسان لكن الأعراب نهبوهم، واتجهت جماعة أخرى مكونة من 40 موريسكيا إلى مستغانم لكن كان مصيرها هو مصير الجماعة الأولى[124]. وقد وصف المقري هذا الحادث في عبارته البليغة : «فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم[125]، «وانتهى بهم الأمر إلى قتلهم وبقر بطونهم مما يظنون ابتلاع الجوهر...»[126]. وقد

---

120 - ناصر الدين على القوم الكافرين ، 63.

121 -Juan Penella, *Los Moriscos Espagnoles Emigrados al notre de Africa*, Resumen de la tesis, p. 17.

122 - Jean Montali, *Les Etats Barbaresques*, collection Que sais-je , n° 1097 p. 108

123 - Topografia historia general de Aargel, Folio 9

124 - H. Lapeye, op.cit pp. 55 - 56

125 - أحمد المقري، المصدر السابق،.528 : 4

126 - المهدي البوعبدلي، مقدمة كتاب الشعر الجماني، ص 27.

أثار هذا استنكار وغضب الفقهاء والعلماء وشيوخ القبائل الذين دعوا إلى معاقبة هؤلاء الأعراب ونصرة المورسكيين، وكان في طليعتهم الشيخ محمد اقدار التوجيني الذي استنهض الشيخ احميدة العبد وحثه على ى أن يغزو بعشائر سويد قبيلة هبرة لاعتدائها على المورسكيين بنواحي ارزيو[127]، وحسب أبي راس الناصري في كتابه عجائب الأسفار «فإن احميدة المذكور أتاه بجنود عظيمة يوم الجمعة ووافق ذلك ختمه صحيح البخاري، ثم ساروا ولقتهم جموع هبرة فانهزمت وركبت سويدا أكتافهم فقتلتهم كيف شاءوا»[128].

لكن الأمر لم يقتصر على الأعراب وحدهم بل تعداهم إلى الأتراك أنفسهم، ففي الجزائر العاصمة بعد وصول المورسكيين بقليل سنة 1512 حل بها جفاف خطير وحمل المورسكيون مسؤوليته فصدر أمر من عميد الشرطة التركي بطردهم من العاصمة في ظرف 3 أيام، وطبق هذا القرار بصرامة، حتى إن المرضى والذين لم يستطيعوا الخروج قتلوا عنوة[129]، وقد وقع بهم نفس الأمر عندما كانوا بفرنسا إذ اعتبر سكان Narbonne ان المورسكيين هم الذين يتحملون مسؤولية عدم سقوط المطر بهذه المنطقة وطالبوا بطردهم. وهكذا - كما يقول لوي كاردياك Louis Cardillac فإن مأساة المورسكيين انهم كانوا يحملون ماضيهم معهم أينما حلوا وارتحلوا، فهم في اسبانيا وفرنسا مسلمون، وهم في شمال افريقيا مسيحيون[130]. وأمام هذه الوضعية حاول العديد منهم العودة إلى اسبانيا، نذكر على الخصوص المحاولة التي قاموا بها سنة 1610 بمساعدة القبطان Garett[131]، والمحاولة التي قاموا بها في نفس السنة بمساعدة القبطان Barret[132].

الانتقال إلى تونس

أكد الشهاب الحجري أن جل المورسكيين انتقل إلى تونس: «... بلغ نهاية جميع الأندلس بصغارهم لثمان مائة ألف مخلوق، أكثرهم خرج بتونس...»[133]، كما

---

127 - ناصر الدين السعيدوني ؛ المصدر السابق، ص 117.

128 - نفس المصدر والصفحة.

129 - Louis Cardaillac op.cit. p 62

130 - Louis Cardaillac loc. cit

131 - H. Lapeye, op.cit p. 207

132 - Juan Penella, *Le transfert des Moriscos Espagnols en Afrique du Nord*, op.cit, p. 85

133 - ناصر الدين على القوم الكافرين، 41 .

أكد المقري نفس الملاحظة بقوله: «... فخرجت ألوف بفاس وألوف آخر بتلمسان من هران وجمهورهم خرج بتونس..»[134]، وسارت على نفس المنهج المصادر الاسبانية إذ اعتبرت تونس البلد الذي استقبل أكبر عدد كن الموركسيين، أكبر من العدد الذي استقبله المغرب نفسه[135]، فما هو إذن هذا العدد الذي استقبلته تونس ؟

صرح القبطان الانجليزي Robert Elliatt أن عدد الموركسيين بلغ بتونس سنة 1615 حوالي 8000 عائلة[136]، وقد حاول الباحث الانجليزي Latham أن يستخرج رقما تقريبا من العدد المذكور فقدره بحوالي 50 ألف موركسي (بمعدل 6 أفراد لكل عائلة)[137]، لكن المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب بقدر عددهم بحوالي 80 ألف موريسكي[138].

وعلى كل فإن الموركسيين كانوا يتقاطرون على تونس باستمرار إذ لوحظ في سنة 1610 بميناء Agde الفرنسي فقط حوالي 30 ألف موركسي من الأراجونيين صحبة القنصل التركي الذي كان ينصحهم بالتوجه إلى تونس لأنها أضمن لهم[139].

أما عن ظروف انتقال هؤلاء، فقد استغل Miguel de Epalza نوعا جديدا من الوثائق، ويتعلق الأمر بارشيف القنصلية الفرنسية بتونس[140]، إذ استغل حوالي 256 وثيقة لها مساس بالموضوع ويوضح بعض هذه الوثائق ما عاناه الموركسيون أثناء انتقالهم على يد ربانية االسفن الفرنسية، ومن أمثلة ذلك القضية التي عرفت في المحاكم الفرنسية بقضية Estienne إذ استولى هذا القبطان على ممتلكات الموركسيين وأنزلهم في شاطئ فارغ قرب بنزرت في 8 يناير 1610، وبعد شهر قام

---

134 - نفح الطيب، 528 .4.

135 - Juan Penella, op. cit p. 83

136 - Latham, contribution à l'Etude des immigrations Andalouses et leur place dans l'histoire de la Tunisie, in *Etude sur les Moriscos Andalous en Tunisie*, p 30

137 - I bid, p. 30

138 - Coup d'œil général sur les apports éthiques étrangers en Tunisie, in *Etude sur les Moriscos andalous en Tunisie* p. 18 jean Monalaii, op.cit 73

139 - Lathan, op.cit. p 30

140 - انشأت هذه القنصلية سنة 1582، وقد احتفظت بوثائقها في حالة جيدة، ونشرها P.Grandchamp في 8 أجزاء بعنوان *La France en Tunisie au XVIIIe siècle (1920 - 1930)*

المنهوبون بتقديم شكوى إلى محكمة Montpellier، وبعد فترة أصدرت المحكمة حكمها ويقضي بإعدام هذا القبطان وحجز سفينته وممتلكاته لتعويض الخسائر التي سببها للموريسكيين[141].

أما بالنسبة لنوعية االموريسكيين الذي استقبلتهم تونس، فإننا نلاحظ في هذا المجال أن الأراجونيين يحظون بنصيب الأسد 3/2، بالإضافة إلى عدد من البلنسيين والقشتاليين وغيرهم[142]. ولهذه الوضعية آثارها على صعيد استقرار الموريسكيين بتونس، فقد اعتبر فئةالأراجونيين هي الفئة الأكثر تعليما في جميع شبه الجزيرة الايبيرية، وبالتالي فإن تأثيرها سيكون بليغا في مختلف مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية بتونس[143].

وقد استقبل الموريسكيون استقبالا حسنا سواء على المستوى العام أو المستوى الرسمي. فعلى المستوى الرسمي أشارت المصادر الموريسكية بحسن استقبال عثمان داي (1593 – 1610) لهم: «... وكان عثمان داي أميرا فيها (تونس)، وتكفل أمورهم بالسكان في المدينة وغيرها في القرى، وأحسن إليهم غاية الاحسان – أحسن الله إليه– ...»[144]، كما أشار إلى ذلك المؤرخ التونسي ابن أبي دينار قائلا : «وفي هذه السنة (1608 / 1017) والتي تليها، جاءت الأندلس من بلاد النصارى، نفاهم صاحب اسبانية، وكانوا خلقا كثيرا، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد، وفرق ضعفاءهم على الناس، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا، فاشتروا الهناشير، وبنوا فيها، واتسعوا في البلاد فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن ومن بلدانهم المشهورة، سليمان وبلي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة وزغوان وطبرية وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من أعظم بلدانهم واحضرها، والعالية والقلعة وغير ذلك، بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا، فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين، ومهدوا الطرق بالكراريط للمسافرين وصاروا يعدون من أهل البلاد»[145].

---

141 - Miguel de Epalza, Moriscos et Andalous en Tunisie au XVII siècle, in *Etude sur les Moriscos Andalous en Tunisie* p. 158

وقد درس لوي كاردياك القضية بتفصيل في أطروحته :

Le Passage des Morisques en languedoc, pp. 31 - 36. Juan Penella, op. cit p. 82

143 - Juan Penella, op.cit. p. 83 *littérature Morisque en Espagnol en Tunisie*, op.cit pp. 178 - 198

144 - ابن أبي دينار، المؤنس في اخبار افريقية وتونس، 193.

145 - Latham, loc.cit

وتضيف المصادر الأوربية امتيازات أخرى لم تذكرها المصادر العربية.

- فقد أعفاهم من ضريبة الدخول.
- وأعطاهم وسائل الدفاع عن أنفسهم.
- أعفاهم من الضرائب لمدة ثلاث سنوات، إذ اعتبروا «انكشارية بدون راتب»
- ولم يكونوا يخضعون لأحكام القادة الأتراك[146].

ويمكننا أن نصنف المورسكيين بتونس إلى ثلاثة فئات:

الفئة الأولى: فئة الأعيان.

استقرت بالعاصمة وانشأت لها أحياء خاصة مثل «حومة الأندلس»، و«زقاق الأندلس» وهي تضم الأغنياء والوجهاء والمثقفين.

الفئة الثانية: الفئة المتوسطة.

استقر بالقرب من العاصمة (اريانة، الجديدة...)

وتضم الصناع والحرفيين ومنتجي الخضر والفواكه الذين نجحوا في تصريف منتجاتهم، كما أنشأ الصناع أسواق للصناعات التي جلبوها معهم كصناعة الشاشية ونسج الحرير ونقش الرخام والجبص والزليج.

الفئة الثالثة: وتتكون من الفلاحين، وهي أكبر عدد من باقي الفئتين السابقتين، وقد استقرت في المناطق الشمالية في الأراضي الخالية أو القليلة السكان، وكانوا يبحثون باستمرار عن الأراضي الخصبة القريبة من المياة، وهكذا نلاحظ أن !10 / 9 المناطق الفلاحية المستثمرة تقع على ضفتي نهر المجردة[146] مكررا

بقيت هناك فئة أخرى آثرت الاستمرار في جهادها ضد من طردها من أرضها، وهذه الفئة وجدت أيضا لدى عثمان داي كل التفهم والمساعدة، يقول ابراهيم مرباش في هذا الصدد: «... وأقبل على أمير المدينة عثمان داي - رحمه الله - وقدمني على مايتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسمائة سلطانية ومائتي مكحلة ومائتي سكينا وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر...»[147]، واستمر في جهاده هذا: «... ركبنا البحر وسفرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم ونحن بقرب مدينة مالقة... والتقينا بأحد عشر غرابا... ووقعت الحرب الشديدة ومات من الجانبين خلق كثير...»[148].

---

146 - مكرر Hassan Husni Abdul -Wahab, op.cit. p 18

147 - العزو والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، 10.

148 - نفس المصدر والصفحة.

ولم يكتف بالجانب العملي من الجهاد بل كان يولي الجانب التقني حقه أيضا، إذ كان يبحث باستمرار عن نقط الضعف وهوالخبير في الميدان إلى أن اهتدى إليه أخيرا: «... ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدفعة المرتبين لا معرفة لهم بالعمل وانهم لايعمرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل، عزمت على تصنيف هذا الكتاب (العز والمنافع)...»[149].

ولم يقتصر الأمر على السلطات الرسمية، فقد بادر التونسيون أيضا إلى تقديم كافة المساعات لهؤلاء الموركسيين، وهذا ما سجلته المصادر الموركسية نفسها. فقد كان «الولي الشهير سيدي أبو الغيث القشاش يعطيهم في كل يوم نحو ألف وخمسمائة قرصة من الخبز صدقة..»[150]، كما سجل ابن عبد الرفيع في هذا الصدد أيضا ان أبا الغيث القشاش كان يقول في شأنهم: «سلم لي هؤلاء الانصار الاطهار الأخيار، فإنه لايحكم إلا مؤمن ولا يبغضكم إلا منافق..»[151]. وردت المصادر التونسية صدى هذا الاستقبال أيضا: ولما جاء الأندلس إلى تونس ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون إلى الشيخ وإلى سماطه وجرى معهم الشيخ - رضي الله عنه - كالريح المرسلة في إطعام وكسوة العريان، حتى إني أحصيت ما يخرج لمؤونتهم اثني عشر مائة خبزة..»[152].

ويقول في مكان آخر: «وكان الأندلسيون ممتلثين لأمر الشيخ... سامعين له مطيعين في كل أمر، وكان يحسن اليهم... ويواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بخواطرهم في كل ما يحتاجون إليه فيه وكان أقربهم إليه سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي...»[153]. ويكفي أن نعرف أنه بعد موت أبي الغيث القشاش وعثمان داي ستواجه العامة بقساوة هؤلاء، فقد انتقدوا لباسهم وعاداتهم وتقاليدهم وكانوا يغارون بالخصوص من ثرواتهم الطائلة التي حملوها معهم[154]، ووصل البعض منهم إلى حالة من اليأس أصبحوا خلالها نادمين على فردوسهم المفقود[155].

---

149 - المصدر السابق، 11.

150 - الشهاب الحجري، المصدر السابق 41.

151 - الأنوار النبوية، 334.

152 - المنتصر القفصي: نور الارماش في مناقب القشاش، ص 70.

ملاحظة: اعتمدنا النص الذي نشره عبد المجيد التركي، حوليات الجامعة التونسية، العدد 4، سنة 1967.

153 - نفس المصدر والصفحة.

154 -Louis Cardaillac, op.cit p. 62

155 - Henri Pieri, op. cit. p 130

على أن السمة البارزة في هذا الوجود الموركسي بتونس انهم «انصرفوا عن السياسة انصرافا كاملا ولو يسعوا من قريب أو بعيد للتدخل في ما يمت بصلة إلى مجالات الحكم وميادين الوظائف السامية، فلا تجد منهم من شبت على يديه نار ثورة أو أعان عليها وكما لا تجد من بينهم طامعا في وظيف هام أو ساعيا اليه، وانما اتجهوا فور وصولهم البلاد إلى نقل المظاهر الحضارية الأندلسية في شتى الميادين من علمية وصناعية وزراعية[156].

الانتقال إلى فرنسا

انتقل البلنسيون إلى شمال افريقية عبر البحر (حوالي 116 ألف موركسي)، في حين اجتاز الآخرون جبال البرانس للتوجه إلى فرنسا، ومن هناك يتجهون إلى شمال افريقيا[157]. وهكذا اجتاز الحدود الاسبانية الفرنسية حوالي 50 ألف موريسكي على دفعات (ينتمون إلى اراجون وقشتالة وغرناطة). واتجهوا إلى ثلاثة موانئ رئيسية: Saint Jean-de-luz، ومن هنا كانوا ينقلون إلى المغرب، وميناء Agde ومرسيليا إلى كل من الجزائر وتونس[158].

وقد نشر لوي كارديك 56 وثيقة تتعلق بالوجود الموركسي بفرنسا، وهي تضم بالخصوص القرارات الصادرة عن برلمان تولوز وبروفانس والقرارات الصادرة عن الملك في شأنهم، وكذا الأحكام التي أصدرتها محاكم المنطقة في هذا الشأن[159].

اعتبر هنري الرابع نفسه أنه ملتزم سياسيا مع الموركسيين، إذ كان يحاول دائما خلق مصاعب لفليب الثالث عن طريقهم[160]، فكان أن اصدر مجلس الدولة في 22 فبراير 1610 قرارا باستقبالهم شريطة اعتناقهم الكاثوليكية وشريطة أن يجتازوا La Garonne و La Dordogne وكان يرمي بذلك إلى ابعادهم عن الحدود الاسبانية خوفا من تآمرهم مع الاسبان ضده[161].

---

156 - محمد الحبيب الهيله، مقدمة تحقيق كتاب الحلل السندسية، ص 58.

157 - فرض الاسبان على الموركسيين الذين يريدون أخذ أبنائهم (مادون السابعة) معهم أن يتجهوا إلى بلاد مسيحية انظر في هذا الصدد:
Louis Cardaillac, Morisques en Provence; In 164 *Etudes sur les Moriscos Andalous en Tunisie* p. 94

158 - H. Lapeyre, op.cit p. 208

159 - *Le passage des Morisques en languedoc*, pp. 87 - 220

160 - Louis Cardaillac, op. cit p 14

161 - I bid, p. 15

وقد تلقى أسقف المناطق التي استقر بها المورسكيون أمرا بمراقبة هؤلاء تحت طائلة حكم الاعدام. أما الذين يرفضون اعتناق المسيحية فيسمح لهم باجتياز جنوب فرنسا إلى شمال افريقيا وتعهدت الحكومة الفرنسية بسلامتهم أثناء وجودهم بالتراب الفرنسي أو أثناء تنقلاتهم البحرية، وأرغمت قبطان كل سفينة تنقل المورسكيين عل تقديم شهادة من هؤلاء تثبت سلامة العملية. لكن أمام تدفق المورسكيين على فرنسا لم تستمر قرارات هنري الرابع السابقة إلا بضعة أشهر، فانطلاقا من 25 ابريل 1610 أصدر مرسوما بطرد جميع المورسكيين من فرنسا وان يجمعوا في الموانئ الرئيسية قصد ترحيلهم إلى شمال افريقيا[162]، وازداد الأمر سوءا بعد اغتيال هنري الرابع[163]، إذ أصدرت الملكة Marie de Médicis (الوصية على عرش ابنها لويس الثالث عشر) أمرها لحاكم منطقة Béarn الدوق De la Force بأن لا يسمح لأي موريسكي اجتياز الحدود، خاصة عندما علمت أن هناك حوالي 30 ألف موريسكي على الحدود ينتظرون الدخول للتوجه الى تونس أو المغرب[164]، ولم يقتصر الأمر على السلطات الرسمية، بل ظهر العداء جليا حتى بالنسبة لسكان المناطق الفرنسية التي استقر بها المورسكيون[165].

على أن هذا العداء لم يقتصر على الوجود الموريسكي بالتراب الفرنسي، بل برز بوضوح أثناء عمليات نقلهم عبر البحر إلى شمال افريقيا، إذ تعرض المورسكيون إلى السلب والنهب من طرف أرباب السفن الفرنسية، وقد عرضت بالفعل بعض هذه القضايا على المحاكم الفرنسية وأصدرت فيها أحكامها[166].

*****

ونختم هذا الفصل بتسجيل الملاحظات الآتية :

- بروز مورسكيي هورناتشوس ككيان له خصائص معينة يتميز بها عن باقي المورسكيين الآخرين.

- اعتماد قليب الثالث في سياسته علىى القمع والمراوغة، وهكذا انجد قرارات العفو تسير جنبا إلى جنب مع قرارات القمع، لكنه عندما فشل في ذلك أصدر قرار الطرد.

---

162 - bid, p. 15

163 - كان الفرنسيون يعتقدون ان للاسبان يدا في اغتيال ملكهم انظر : H. Lapeyre, !op.cit P. 208

164 - Louis Cardaillac, op.cit. pp. 17 - 18

165 - عن أسباب هذا العداء تجاه المورسكيين، انظر : Louis Cardaillac, op.cit. 54 - 59

166 - Louis Cardaillac, pp. 31 - 45

- اختلاف موقف الموركسيين من الطرد إذ اعتبره البعض «فرج من الله» بينما رفضه البعض الآخر وقدم عدة اقتراحات في شأن البقاء.

- أصبحت الآثار الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عن قرارات الطرد مشاهدة للعيان، تعترف بها السلطات الاسبانية نفسها.

لم تكن ظروف انتقال الموركسيين إلى شمال افريقيا ظروفا مواتية، بل تعرضوا إلى السلب والنهب رغم قرارات التطمين الصادرة في هذا الشأن.

- اختلاف ظروف استقبال هؤلاء من طرف سكان شمال افريقيا من منطقة إلى أخرى ومن فترة إلى أخرى.

لقد حاول الموركسيون أن يصارعوا مصيرهم باسبانيا، وظلوا لسنوات عدية يعيشون تحت وطأة جهاز القمع الاسباني (محاكم التفتيش)، لكنهم لم يستسلموا قط لمصيرهم المحتوم بل ظلوا، إلى آخر لحظة من وجودهم بالأندلس، معتزين بتراثهم الحضاري يقاومون في سبيل المحافظة عليه. وعلينا أن نشير في نفس الوقت أن مقاومتهم لم تكن اعتباطية ولا ظرفية، بل كانت دائما تجري في ظل معطيات محددة، فقد كانوا على اتصال بالمغرب وبالأتراك وبالفرنسيين من أجل تنفيذ مخططاتهم، ولنا أن نتساءل من جديد : ماذا أثمرت هذه الاتصالات ؟ لم تؤد هذه الاتصالات إلى ما كان يرجوه الموركسيون لكنها، على الأقل، كانت تجعل الموركسيين يقتنعون بأنهم ليسوا وحدهم في الميدان، بل هناك من يهتم بقضيتهم، وبالتالي فقد جعلهم هذا الموقف يواصلون جهادهم وهم على ثقة من أن كرامتهم ستعود لهم يوما ماو كما تدل على ذلك مخطوطاتهم الخميادية، غير أن أهم ما كان يخرج به الموركسيون آخر كل ثورة قاموا بها هو ضرورة الاعتماد على النفس، إذ إن جميع الأطراف التي كانت تساعدهم كانت لها ظروفها الخاصة، وتنصرف أحيانا طبقا لمصلحتها الخاصة. وعلى كل فتلك تجربة قاسية حملها معهم الأندلسيون إلى المغرب ليضيفوا إليها تجربة أخرى أفرزها تعاملهم مع المغاربة، ذللك ما سنراه في الباب الثاني من هذه الدراسة.

الباب الثاني

الهجرة الأندلسية إلى المغرب

توالت الهجرة الأندلسية إلى المغرب خلال فترات متعددة يمكن أن نقسمها إلى ثلاث فترات متميزة :

- فترة العهد الوطاسي حيث كان المغرب يعيش ظروفا قلقة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، مما كان لها تأثير على استقرار أفراد هذه الجالية الأندلسية به.

- فترة العهد السعدي الأول، وهي فترة كان المغرب يعيش فيها عيشة استقرار في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فوجد الأندلسيون مجالات العمل مفتوحة أمامهم.

- فترات العهد السعدي الثاني، المتميزة بالخصوص باستقرار المهاجرين الأندلسيين في مصب أبي رقراق وتطوان وبمحاولتهم خلق كيان خاص بهم نتيجة الاضطرابات التي عرفها المغرب آنذاك.

الفصل الأول

الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد الوطاسي

(876 هـ - 961 هـ / 1471م - 1553م)

انتقلت الجالية الأندلسية إلى المغرب في هذه الفترة في ظل ظروف خاصة:

كانت السلطة المركزية ضعيفة بفعل الأزمات السياسية الخطيرة التي كانت تعيشها: إمارات مستقلة، غزو إيبيري متواصل للسواحل المغربية.

ولا نبالغ إذ قلنا أن الفترة كانت فترة أزمات اقتصادية واجتماعية : مجاعة، وأوبئة، وقحط، وغلاء، ونقص ديمغرافي خطير.

فماذا كان موقف الجالية الأندلسية تجاه هذه الوضعية ؟

هناك جماعات عبرت عن رأيها صراحة بأن الوضعية غير ملائمة لها، وهي بالتالي تفضل الرجوع إلى اسبانيا.

جماعات أخرى فضلت - بالرغم من ذلك - البقاء والتعاون مع الوطاسيين سواء ضد البرتغال والاسبان أو ضد خصومهم السعديين.

وهناك جماعات أخرى على العكس من ذلك، فضلت أن تعيش في شبه الاستقلال عن السلطة المركزية، وتدبر أمورها بنفسها.

1

تعاقب على المغرب منذ مقتل أبي عنان المريني أربعة عشر سلطانا في ظرف يسير ولم يكن من بينهم من يستطيع أن يأخذ زمام الأمور بيده. وقد قام آخرهم عبد الحق بن أبي سعيد المريني بمذبحة الوطاسيين الرهيبة، وبإسناد الوزارة إلى اليهوديين هارون وشاويل انتقاما من أهل فاس اللذين تأكد انحرافهم عنه، فساءت سيرة اليهوديين وكثر تعسفها ومصادرتهما لأموال تجار المسلمين، وانتهى الأمر بثورة عارمة قضت على حياة اليهوديين وعبد الحق جميعا (863 هـ/ 1465م)، وحاول الأدارسة في فاس بعد ذلك استرجاع ملكهم القديم، لكن محاولتهم آلت إلى الفشل، ثم قام على إثر ذلك محمد الشيخ الوطاسي (876هـ - 910هـ/ 1471 - 1505) بالدعوة إلى نفسه في أصيلا وفاس، فكانت له ولأبنائه من بعده سلطة محدودة في الشمال تقل كلما ابتعدت المنطقة عن المدينة الادريسية لتصبح مجرد سلطة اسمية في حوز مراكش.

وقد سهلت هذه البيئة المختلة مهمة الايبريين في غزو الشواطئ المغربية لأنهم كانوا يعتبرون عملهم بالمغرب امتداد لما قام به في شبه الجزيرة الايبرية[1]، اذان تصفية الوجود الاسلامي بشبه الجزيرة يجب أن يعزز بتطويق المسلمين بشمال افريقيا

---

1 - كان ملوك البرتغال حريصين على محاربة المسلمين بالمغرب والعمل على محو الاسلام منه، وتعويضه بالمسيحية، وتحويل المساجد إلى كنائس وانتشاء الاستقيات، وارسال الكهان والرهبان للعمل بها. كما تتجلى هذه الروح على الشعائر والطقوس الدينية التي تسبق كل هجوم على المغرب، وفي محاولة الملوك البرتغاليين دفع ملوك المسيحية الآخرين إلى الاقتداء بهم.

انظر رسالة الملك يوحنا الأول إلى ملك الارغون وخطاب سفير البرتغال لدى المجمع الديني سنة 1516. M. Witte; les Bulles... XL VIII

عن: أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي، ص 148.

- خاصة المغرب - لضرب أي محاولة من شأنها التفكير في إعادة غزو جديد لشبه الجزيرة[2].

وكل تصرفات الايبريين تدل على هذا: احتلال الثغور المغربية المواجهة أو القريبة من السواحل الايبرية (غساسة، مليلية، أصيلا، العرائش...) التي يمكن أن تكون كقواعد لانطلاق لمجاهدين، أي في النهاية ابعاد المغاربة عن البحر خاصة أن المواجهة لم تعد مقتصرة على طرفين، فقد دخل الأتراك حلبة الصراع، وأصبح بإمكان سكان شمال افريقيا الاعتماد عليهم[3]. هذا ما يبرر أيضا الاسراع بتكثيف المخطط التبشيري بالمغرب، وتسخير جميع الوسائل لتنفيذه. وقد سخر الايبيريون كل الوسائل المادية والمعنوية للتعميد، وبالفعل فقد «ارتدت طائفة من المغاربة، وشغلت هذه «الردة» الرأي العام المغربي، وكانت أحيانا موضوع مراسلات بين الوطاسيين والبرتغاليين[4]. لكن هناك سؤال يفرض نفسه: ما مدى مصداقية هذه «الردة» ؟

كل القرائن تشير إلى أن المغاربة لم يرتدوا قط : فقد رفض المغاربة التعميد وهم غرباء عن بلدهم، في شبه الجزيرة الايبرية نفسها[5] فكيف يقبلون بها وهم في بيلدهم؟

ويمكن حصر الاسباب التي جعلتهم يتقمصون دور «المسيحي المخلص» في ثلاثة :

---

2 - كان البابا Calixe 3 (وهو من أصل اسباني) - بعد أن عاين الانتصارات التركية - يخشى زحفا اسلاميا من ناحية الغرب تكون نتيجة الحتمية دخول المسلمين إلى اسبانيا، بلده وإلى البرتغال. لذا عمل كل ما في وسعه لتشجيع البرتغاليين على الاحتفاظ بسبتة، وعلى الاحتلال مدن أخرى. المصدر السابق، ص 150.

3 - A. Temimi; lettre de la population Algéroise au Sultan Selim 1er en 1519, in *Revue d'Histoire maghrébine*, n°5, Janvier 1976, Tunis, pp. 95- 101.

4 - انظر مثلا، S.I.H.M Portugal, 1: 48

5 - عن المورسكيين باسبانيا ومدى مواجهتم لمحاكم التفتيش انظر ما سبق. أما عن المورسكيين بالبرتغال، انظر:

S.I.H.M Portugal, 1: 48.

أحمد بوشرب: الجالية المورسكية المقيمة بالبرتغال، مقال بمجلة المناهل العدد 24، يوليوز 1982، ص 354 - 392.

نفس الكاتب : محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محكمة التفتيش الدينية البرتغالية، مجلة المناهل، العدد 21، يوليوز 1981، ص 224 - 278.

- الاسر الذي ينتج عنه تحويل الضحية إلى عبد، فقد تعود له حريته بالتنصر، وذلك في حالة ما إذا تعذر عليه تحرير نفسه[6].

- مشاكل معاشية : تكثر حالات الردة في فترات الجفاف وانعدام المواد الغذائية، لأن المغاربة كانوا يعتقدون أن النصارى يملكون باستمرار هذه المواد[7].

كان بعض ضعاف النفوس يجدون في التنصير، وخدمة البرتغاليين وسيلة للاغتناء وتحسين أوضاعهم المادية[8]. وقد أكد البرتغاليون أنفسهم حقيقية المغاربة «المرتدين» إذ كتب القبطان (ليط) إلى ملك البرتغال يخبره بأن عددا كبيرا من المسلمين المتنصرين، رغم أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم، فإنهم لا يزالون يعيشون على الديانة الاسلامية، وطلبوا لعدة مرات من السلطان الوطاسي القدوم لأخذهم، واقتراح نفيهم إلى إحدى جزر المحيط ليضطروا هناك إلى اعتناق الديانة النصرانية وليصدقوا في تنصيرهم[9].

*****

اتجهت أعمال المقاومة إلى ضرب مراكز المحتلين، وإلى اختطافهم وأسرهم[10]. كما تعرضت محاصيلهم - وكذا محاصيل حلفائهم - للحرق[11].

ومنعوا دخول القوافل إلى الثغور، لمنع أي تعامل مع المحتل مهما كان نوعه. لقد كان المغاربة يذكرون حقيقة الأثار الناجمة عن الغزو الايبيري للمغرب لذلك لم يتهاونوا بشأنه[12]، خاصة أن صدى سقوط الثغور الأندلسية مازال

---

6 - انظر الطريقة التي يتم بها أسر المغاربة وتنصيرهم عن المؤرخ البرتغالي المعاصر Bernardo Rodrigues في مجلة *Hespéris tamuda*, vol. XV Fascicule unique, 1974, pp. 93- 95

7 - B. Rosenberg et H. Triki, Famines et Epidémies au Maroc, in *Hespéris Tamuda*, vol. XIV Fascicule unique, 1973, pp 125 - 127

8 - أحمد بوشرب، دكالة والاستعمار البرتغالي، ص 341.

9 - S.I.H.M Portugal 1 : 576. Ricard, *Les Portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557* pp. 114- 115

10- تذكرنا هذه الأعمال بما كانت تقوم به طائفة «المنفيين» بغرناطة ضد الاسبان، مما لايستبعد معه وجود بعضهم ضمن المجاهدين خاصة أنهم خبروهم بغرناطة.

11 - S.I.H.M Portugal, 1:576

12 - كان الشيخ محمد بن يحي البهلولي يقوم بالجهاد في الثغور الهبطية، وعند عودته وجد زوجته قد توفيت، ووجد الناس على وشك الانتهاء من دفنها، «فقال لهم : مهلا، فتقدم وأعاد الصلاة عليها مع أصحابه، فتقدم الناس إليه بالنكير في تكرر الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين، فقال لهم على البديهية: صلاتكم فاسدة لكونها بغير امام، فقالوا : كيف ياسيدي ؟ فقال : إن من الشروط الامام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم، لأن الذي لم يتقلد سيفا قط في سبيل الله ولو يضرب به ولا يعرف الحرب كما كان نبيا عليه السلام، ولم يتصف بالسيرة النبوية فكيف يعد إماما ذكرا ؟ بل امامكم والله من جملة النساء...» انظر م. بن عسكر، دوحة الناشر، ص 60.

مدويا[13]. ووقفوا في وجه كل من تعاون مع المحتل وان كان الحاكم نفسه[14]. وتزعم هذه الحركة العلماء إذ أحصى ابن عسكر 50 شخصية علمية لها صلة مباشرة بقضية الجهاد.

ونكتفي في هذا الصدد بذكر شخصيتين كان لهما الأثر الفعال في هذه الحركة.

دعا ابن يجيش التازي[15] مواطنيه إلى الجهاد، اياهم إلى الأخطار المحدقة بهم: «... ماهذه الغفلة العظيمة التي أضحت على القلوب مقيمة، وركنت اليها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة ؟ أما علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم، مشتغلون بكل حيلة في نيل الوصول إليكم، قد جمعوا من العدد مالايحصى له عدد، وأرسلوا جيوشهم وعيونهم في كل بلد...»[16].

ويقول في التفجع على سوء أحوال المسلمين وما يلاقونه من هوان واسترقاق على يد المسيحيين في عدوتي المغرب والأندلس: «.. واجمعوا - بدد الله شملهم - فيما بلغنا عنهم من الخروج لهذه البلاد، ولم يقنعوا ما تملكوه في تلك القضية من الأموال والعباد، قد ابدلوا بعد العز والفرح ذلا وحزنا، واستولى عليهم الكرب والترح حسا ومعنى، قد اوثقوا بالسلاسل والحديد، وهم في كل يوم في عذاب شديد، وصاروا من جملة المماليك والعبيد، كانوا بالأمس أغنياء آمنين، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين. انتهبت أموالهم، وتغيرت أحوالهم، فرقت عنهم نساؤهم وأخذت منهم بناتهم، وصار الكفرة يتنافسون في بيعهم بالأثمان وجعلوا يفرقونهم في كل البلدان، ويريدون أن يفتنوهم عن دينهم ويفسدوا عليهم قوة يقينهم...»[17].

---

13 - جعل الشيخ محمد بن يحي البهلولي من نكبة الأندلس مثالا لترهيب الناس من أن يحل بالمغرب ما حل بها.

قم للجهاد رعاك الله متهجـــا ... نهج الرشاد إلى الأقوام لو فهموا
من بعد أندلس ما زالت محتدما ... لو كان يمكنني في الليل احتـزم

14 - جاء في دوحة الناشر (ص 60) أن الشيخ محمد بن يحي البهلولي عندما بلغه خبر الهدنة التي عقدها السلطان الوطاسي محمد البرتغالي مع الأعداء (آلى على نفسه الايلقي السلطان المذكور ولا يمشي إليه، ولا يقبل منه ماكان ولده عينه له من جزية أهل الذمة بفاس لقوته).

15 - انظر ترجمته عند م. حجي، الحركة، 2، 435، والمصادر بالهامش.

16 - تنبيه الهمم العالية، ص 125.

17 - المصدر السابق، ص 126.

ويذكر مأساة أصيلا قائلا :

فقصة أصيلا عرفتم جميعا — وما فعل الأعداء من شر غدوة
وأضحت على الاسلام تبكي رسومها — كذي سكن قد صار في أرض غربة
مساجدها تبكي على فقد أهلها — كأن لم يكن فيها مردد سورة
صومعها قد عطلت عن آذانها — كأن لم يكن يها آذان مصوت[18]

وكذلك فعل أبو عبد الله الهبطي[19] في دعوته مواطنية للجهاد وتنبيههم للأخطار المحدقة بهم :

إن الجهاد أكبر المعين — عليه تنبني أمور الدين
كانت تباع النفس دون ريب — بلذة عظيمة في القلب
وعندما مال إلى الزوال — دين الهدى ذي العز والمعال
انثر الايمان قل من عقده — شيئا فشيئا بانقضاء ذره[20].

وقد ازدادت مكانة الوطاسيين في الداخل اثر الانتصار الذي احرزوه على البرتغال بجزيرة المليحة بوادي اللكوس سنة1489[21]. غير أن تقاعس محمد الشيخ عن نجدة غرناطة، واحتلال الاسبان لمليلية سنة 1497 أثار الاستياء من جديد ضد الوطاسيين مما جعله يوالي حملاته ضد البرتغاليين محاولة منه لاسترجاع مكانته لدى العامة، كما أرسل مبعوثه الحسن الوزان إلى السودان وإلى الأتراك الخلق تحالف اسلامي ضد الايبريين[22]. لكن محاولة لم يكتب لها النجاح، وقد كان بوسعه أن يكرر المحاولة مع ملوك المسلمين في الشرق والغرب لولا اشتغاله بالأحداث الداخلية وخاصة فيما يرجع لانتشار الدعوة السعدية التي أخذت تعم بلاد السوس والجنوب المغربي، إذ أدرك الوطاسيون مدى خطورتها على دولتهم[23].

---

18 - المصدر السابق، ص 146.

19 - انظر ترجمته عند م. حجي، الحركة، 2 : 466 - 467، والمصادر بالهامش.

20 - الألفية السنية، باب ما وقع من التغيير في الجهاد بسبب تغير الايمان.

21 - انظر محمد الكراسي، عروسة المسائل، ص 15 - 17.

أحمد بوشرب، وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة المليحة، مجلة كلية الآداب بفاس، العددان الثاني والثالث لسنة 1979 - 1980، ص 376 - 387.

22 - عبد الكريم كريم، المصدر السابق، 30.

23 - المصدر السابق، ص 31.

وهكذا نلاحظ أن وزن أي مسؤول مغربي على الساحة آنذاك كان مرتبطا بمدى فعالية الأعمال التي يقوم بها ضد المحتلين وبالتالي فإن مصيره كان يحدد على أرض المعركة وليس داخل القصر.

تردد كثيرا حديث الجالية الأندلسية التي قدمت المغرب عن أوضاع اجتماعية واقتصادية متردية، فهذا صاحب نبذة العصر يذكر في هذا الصدد: «... وكان من قضاء الله تعالى وقدره انه لما جاز الأمير محمد بن علي وسار إلى مدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة، وغلاء مفرط، وجوع وطاعون، واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر ورجع بعض الناس من الذين جازوا إلى الأندلس فأخبروا بتلك الشدة، فقصر الناس عن الجواز، عند ذلك عزموا عن الإقامة والدجن..»[24].

ولم يقتصر الأمر على الجالية الأندلسية، بل لاحظ ذلك أيضا عدد من المؤرخين، نذكر من بينهم على الخصوص عبد الباسط بن خليل الحنفي الذي سجل بهذا الصدد: «.... ووقع بعد ذلك[25] بفاس واعمالها خطوب وحروب وفتن وأهوال وفساد عظيم وخراب ببلاد وهلاك عباد، وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة من مدن من بر العدوة، منها طنجة، وأصيلا وغير ذلك... ولازالت الفتن والشرور قائمة مستصحبة بذلك البلاد مدة سنين بل إلى يومنا هذا..»[26]، كما سجل الجنابي في هذا الصدد أيضا: «... في عام 927هـ وقع في بلاد فاس وباء شديد، وغلاء عظيم بحيث لم يعهد بمثله في قديم من الزمن...»[27].

تلك هي الوضعية كما سجلها المؤرخون، فما هي حقيقتها واسبابها؟ عرف المغرب أوبئة خطيرة خلال سنوات (1469 - 1468)، (1441 - 1442)[28]. وقد استمر الوباء الأول حوالي 18 شهرا، واستطاع أن ينتزع من مدينة فاس وحدها من 400 إلى 500 ضحية، أما الثاني فقد كان مروعا للغاية إذ انتزع حوالي 400.000 ضحية من المدن وحوالي 100.000 ضحية من البوادي[29].

---

24 - ص 43 - 44.

25 - يقصد فتنة اليهوديين هارون وشاويل.
انظر كتابه: الزهر الباسم في حوادث العمر والتراجم، ص 45، 49، 51، 52...

26 - المصدر السابق، ص 55.

27 - البحر الزخار والعليم التيار، ص 527.

28 - H.P.J. Renaud, *Recherches historiques sur les épidémies du Maroc*, pp. 368 - 370, R Brunschvig, *La Berbérie orientale sous les hafsides*, 2 : 257, 2: 257

29 - B. Rosenberger et H. Triki, Famines et Epidémies au Maroc, in *Hespéris Tamuda*, vol XIV- Fascicule unique, 1973, p 113

وسوف يعرف المغرب بعد سقوط غرناطة أوبئة أخرى، إذ حمل اليهود الذين لجأوا إلى المغرب أمراضا خطيرة[30].

وقد منع هؤلاء من دخول مدينة فاس خوفا من انتشار العدوى بين سكانها، وعين لهم مكان بالقرب من أبواب مدينة فاس، خاصة أن عددهم كان كبيرا جدا (حوالي (10.000 نسمة)[31].

ورغم هذه الاحتياطات التي اتخذتها السلطات بمدينة فاس، فإن الأوبئة استمرت في الانتشار بمدية فاس، إذ كان من ضحاياها أكثر من 20.000 نسمة[32] لذلك قرر اليهود الرجوع إلى اسبانيا و«اعتناق الديانة المسيحية».

وبصفة عامة فإن الأوبئة التي انتشرت في هذه الفترة بالمغرب ترجع في جزئها الكبير إلى المهاجرين الأندلسيين، سواء كانوا مسلمين أو يهودا[33]، وقد أثرت هذه الأوبئة حتى على الجيش المغربي، إذ لم يستطع محمد البرتغالي سنة 1511 أن يجمع ما هو ضروري لمواجهة خصمه عمر ابن راشد، وذلك بسبب الأوبئة التي كانت تفتك بعناصر الجيش[34].

ولاشك أن الوباء الذي ظهر بسوس سنة 917 هـ / 1511-1512 هو امتداد للوباء السابق، غير أنه كان مصحوبا بمجاعة مروعة[35].

كما أشارت المصادر البرتغالية أنه خلال سنة 1516-1517 عرفت السهول المحيطة بأزمور نقصا خطيرا في الحبوب مما تتطلب معه جلب حاجيات المنطقة من منطقة الأندلس باسبانيا[36]، وسجلت أيضا نفس المجاعة بأكادير سنة1518[37]. وفي سنة 1520 أصاب المغرب جفاف خطير نتيجة انحسار الأمطار، مما سبب معه مجاعة

---

30 - I bid p. 113

31 - I.D Abbou, *Musulmans andalous et judéo-espagnols*, p. 293

32 - I bid , p. 293

33 - H.P.J. Renaud, op.cit. pp 373- 374

34 - Damiao de Gois: *Les portugais au Maroc de 1495 à 1521*, pp. 78 - 79 note 1

35 -Justinard «Notes sur l'histoire du Sous, au XVI siècle, in *Arch. Marocaines*, t. XXIX, 1933,p. 182

36 - B. Rosenberger et H. T

37 - S.I.H.M Portugal 2: 187

ملاحظة :

عرفت شبه الجزيرة الايبيرية نفس الوباء سنة 1518، وكان مصحوبا بالقحط والمجاعة، لكن استطاعت السلطات هناك أن تتغلب في كثير من المرات على هذه الأزمات بفعل الوسائل المادية والمعنوية التي كانت لديها.

كبيرة، مصحوبة بارتفاع الأسعار، وتكرر نفس الأمر سنة 1522، إذ ظل المغاربة يبحثون باستمرار عما يقتاتون به[38]. وقد أحدثت هذه الأزمات نقصا ديموغرافيا خطيرا بالمغرب، فقد لاحظ المؤرخ البرتغالي المعاصر Bernardo Rodrigues سنة 1521 خرابا مهولا شمال المغرب، انطلاقا من مقر إقامته بأصيلا كما سجل من بين 40.000 فارس أخذهم معه الأمير الوطاسي لمحاصرة أصيلا لم يبق منهم إلا 3 000 فارس في مجموعة مملكته[39].

وقد زاد الأمر سوءا أن السلطة كانت عاجزة كل العجز عن مواجهة هذه الأزمات بفعل وجود جهاز اداري ومالي ضعيف، وإلى هذا يشير الحسن الوزان قائلا: «إن الملك فاس مملكة كبيرة، ولكن ليس له سوى دخل صغير، لايكاد يبلغ ثلاثمائة ألف مثقال، ولايصل إلى يده حتى خمس هذا المبلغ، لأن الباقي ينفق في الأوجه التي ذكرناها...» [40].

---

38 - Bernardo Rodrigues, Anais de ARZILA, 1 : 370, in *Hesperis Tamuda*, Vol. XIV, 1973. p. 120

39 - I bid, p. 128

40 – وصف افريقيا، 1 : 223.

2

الهجرة أو البقاء؟

تردد الأندلسيون في مسألة الهجرة أو البقاء بالأندلس، فعرضوا أمرهم على علماء العدوة المغربية قصد البث في الأمر، وسنعرض لمسألة فتاوي الهجرة من خلال ثلاث فتاوى، اثنتان منه لأحمد الونشريسي[41]، والأخيرة لأحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني[42]، وكلاهما يسير في اتجاه معين.

الونشريسي: وجوب الهجرة من دار الحرب

الفتوى الأولى [43]

كتب هذه الفتوى في شأن أندلسيين هاجروا إلى المغرب لكن ظروف العيش لم ترق لهم به ذلك أنهم: «ندموا على الهجرة بعد حلولهم بدار الاسلام وسخطوا وزعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيقة، وأنهم لم يجدوا بدار الاسلام التي هي دار المغرب... بالنسبة إلى التسبب في طلب أنواع المعاش على الجملة رفقا ولا يسرا ولا مرتفقا، ولا إلى التصرف في الأقطار أمنا لائقا...»[44]، وذهبوا إلى أبعد من هذا عندما صرح بعضهم أنه: «جاء صاحب قشتالة إلى هذه النواحي نسير اليه، فنطلب منه أن يردنا إلى هناك...»[45]. وقد كان جواب الونشريسي واضحا في هذا «أن الهجرة

---

41 - انظر ترجمته عند م. مقدمة تحقيق المعيار، 1 : (أ - ك).

42 - هو مفتي وهران، وأصله من Almagro، وقد توفي مابين سنتي 930 - 920 هـ 1514 - 1524.

انظر : J. Cantineau, lettre du mofti d'Oran aux musulmans d'Andalousie, in *Journal asiatique*, janvier- Mars 1927. pp. 5-7

43 - اسنى المتاجر، في بيان احكام من غلب على وطنه النار ولم يهاجر، وما يرتب عليه من العقوبات والزواجر. مخطوطة الاسكوريال رقم 1758 (من الورقة 83 إلى 95)، وقد نشرها حسين مؤنس بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد - المجلد الخامس - العدد 1 - 2، 1957، 129 - 147. وقارنها بتلك الواردة في المعيار 2: 119 - 133. وكتب الفتوى قبل سقوط غرناطة سنة 890 / 1484.

ملاحظة : سنعتمد في الاحالة على نص الفتوى الموجودة في المعيار.

44 - المعيار، 2/ 119.

45 - المصدر السابق، ص 120.

من أرض الكفر إلى أرض الاسلام فريضة إلى يوم القيامة... ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية - لعنه الله - على معاقلهم وبلادهم إلا تصور العجز عنها بكل وجه وحال الوطن والمالي، فإن ذلك كله ملغي في نظر الشرع.

قال تعالى: إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا... وأما المستطيع بأي وجه كان وبأي حيلة تمكنت فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام...»[46]. وقد أصدر حكما صارما في حقهم عندما صرح: «ما ذكرت عن هؤلاء المهاجرين من قبيح الكلام وسب دار الاسلام، وتمنى الرجوع إلى دار الشرك والأصنام وغير ذلك من الفواحش المنكرة التي لا تصدر إلا من اللئام، يوجب لهم خزي الدنيا والآخرة وينزلهم أسوأ المنازل. والواجب على من مكنه الله في الأرض ويسره لليسرى أن يقبض على هؤلاء وأن يرهقهم العقوبة الشدية والتنكيل المبرح ضربا وسجنا حتى لا يتعدوا حدود الله، لأن فتنة هؤلاء أشد ضرارا من فتنة الجوع والخوف ونهب النفس والأموال...»[47].

الفتوى الثانية: تأكيد الهجرة

كتب هذه الفتوى 901هـ / 1495، في شأن أحد مسلمي الأندلس، يريد البقاء بإسبانيا لمساعدة مواطنيه على حل مشاكلهم لدى السلطات الاسبانية، فهو: «يتكلم عنهم مع حكام النصارى فيما يعرض لهم معهم من نوائب الدهر ويخاصم عنهم ويخلص كثيرا منهم من ورطات عظيمة بحيث يعجز عن تعاطي ذلك عنها أكثرهم بل

---

46 - المصدر السابق، ص 122 - 121.

47 - المصدر السابق، ص 132.

ملاحظة: انتقد حسين مؤنس هذه الفتوى قائلا: «... فهذا الشيخ الذي تصدى لابداء الرأي في مصير المسلمين المتخلفين في الأندلس لم يكلف نفسه، عندما جلس يكتب هذه الفتوى، عناء البحث عن أحوال من يفتي فيهم ويتقصى أخبارهم ويعرف الأسباب التي تضطرهم إلى البقاء في الأندلس، وتحول بينهم وبين الهجرة إلى المغرب، ولم يذكر انهم أولا وقبل كل شيء بشر ضعفاء عسر عليهم مغادرة الأوطان ومعاهد الحياة الطويلة التي تقلب فيها الآباء والأجداد قرونا متطاولة...»

انظر مقاله السابق، ص 134 - 133.

ويقول في مكان آخر (ص144 - 145): وقد فاته ان ضعفاء الناس أكثر من الأقوياء وأن العاجزين عن الرحلة والهجرة هم الغالبية العظمى، وأن الهجرة لم تكن إذ ذاك رحلة هينة تتوقف على رغبة المسلم الذي وقع في ذلك المأزق، بل كانت أمرا عسيرا كل العسر حافلا بالصعوبات والمخاطر والمكاره إذ كان لايد للعازم عليها أن يؤدي قدرا من المال ذهبا حتى تأذن له السلطات في الانتقال...» وختم حسين مؤنس كلامه (146) قائلا: لقد كان لفتوى الونشريسي وامثالها أسوء الاثر على مصير الجماعات الاسلامية الباقية في الأندلس، فقد حكم عليها بالكفر وهي مقيمة في الجحيم الذي كانت تعانيه، وما دام فقهاء الاسلام قد حكموا بكفرها فأي شيء أهون عليها من عذاب الأرض الذي كانت تعانيه...»

قل ما يجدون مثله في ذلك الفن إن هاجر، وبحيث أنه يلحقهم في فقده ضرر كبيرا ان فقدوه...»[48]، وقد كان جواب الونشريسي هنا أيضا بالرفض: «لأن مساكنة الكفار، من غير أهل الذمة والصغار لا تجوز ولا تباح ساعة من نهار، لما تنتجه من الأدناس والأوصار، والمفاسد الدينية والدنيوية طول الأعمار....»[49].

وبدما سيتعرض مختلف قواعد الاسلام وصعوبة القيام بها هناك يصل إلى: «نقص صلاتهم وصيامهم وزكاتهم وجهادهم وإخلالهم بإعلاء كلمة الله وشهادة الحق، وإهمالهم لإجلالها، وتعظيمها وتنزيهها عن ازدراء الكفار، وتلاعب الفجار، فكيف يتوقف متسرع أو يشك متورع في تحريم هذه الاقامة مع استصحابها لمخالفة جميع القواعد الاسلامية الشريفة الجليلة ....»[50].

فتوى أحمد بن أبي جمعة المغراوي الوهراني[51]:

---

48 - المعيار، 2 : 137.

49 - المصدر السابق، 138.

50 - المصدر السابق، 139.

ملاحظة: سار على نهجه أحمد بن المامون البلغيثي في كتابه «حسن النظرة في أحكام الهجرة، إذ قسم كتابه إلى أربعة فصول:

الفصل الأول : متى يتحقق وجوب الهجرة ؟

الفصل الثاني : إذ لم يقدر المهاجر على حمل عياله فهل تجب عليه الهجرة وحده، ولو تركهم عرضة للضياع ؟

الفصل الثالث : إذا لم يجد بلاغا في هجرته إلا بالمالي الحرام فهل تسقط عنه الهجرة حينئذ أو تبقى واجبة ؟

الفصل الرابع : إذا توفرت دواعي الوجوب فهل ترك الهجرة حينئذ ردة أو كبيرة فقط ؟

51 - يوجد حاليا ثلاث نسخ من هذه الفتوى :

1 - محمد عبد الله عنان في كتابه نهاية الأندلس، ص 342 - 344. وأعاد نشرها الباحث الانجليزي Harvey مع ترجمة انجليزية، ضمن «أعمال المؤتمر الأول للدراسات الاسلامية بقرطبة» (نشر بمدريد سنة 1964).

والنسختان الأخريتان ترجمة بالالخاميادو للنص العربي: توجد احداهما بمكتبة لأكاديميه الملكية للتاريخ رقم 13 وقد نشر الباحث الاسباني P.Longas جزءا منها في كتابه La vida Religiosa de los moriscos (P.305 - 307) وأعاد نشرها كاملة الباحث الانجليزي السابق الذكر.

أما النسخة الثانية فتوجد بمكتبة Méjanes بمدينة Aix-en-Provence رقم 1233 من الورقة 130 إلى الورقة 138 وقد نشرها المؤرخ Cantineau في مقاله السالف الذكر.

وأرخ النصان العربي والالخامي وبمدريد ببداية رجب سنة 910هـ (بداية دجنبر 1504) في حين ارخ نص Méjanes برجب 909هـ (دجنبر 1503). ويبدو أن نص مدريد ترجم سنة 1563، إذ مازال مسجلا هناك، مما يدل على أن الفتوى ظلت تكتسي أهمية بالغة بالنسبة للموريسكيين إلى غاية النصف الثاني من القرن السادس عشر.

ونشرها - أخيرا - الباحث المغربي محمد قشتيليو في كتابه «محنة الموريسكيين في اسبانيا (ص 115 - 117).

ملاحظة : أثارت ليلى صباغ الانتباه إلى ثلاث نقط تهم هذه الفتوى :

1 - رغم أن الفتوى حققت وحللت أربع مرات، وترجمت إلى الانجليزية والفرنسية فإنها تلاحظ أن عدة ثغرات في هذه الأعمال: فكثير هي التعابير التي لم توضع في عمقها الاسلامي لتبين مدى تمسك الموريسكيين بدينهم.

2 - لم يقارن بعد بدقة بين النسخ الثلاث للفتوى، لأنه - حسب اعتقادها - هناك بعض الاختلافات بين النسخة العربية ونسختي الالخاميادو.

3 - هناك هفوات في الترجمة الفرنسية والانجليزية التي قام بها كل من Cantineau et Harvey وهذا راجع - حسب رأيها - أن نص الفتوى المختصر يجعل فهمه صعبا بالنسبة للمترجمين - انظر مقالها :

La religion des morisques entre deux Fatwas in Fatwas in *Les morisques et leur temps*, pp. 49 - 50

وجهت هذه الفتوى من مفتى وهران إلى مسلمي غرناطة الذي أجبروا على اعتناق المسيحية - نلاحظ في البداية أنها تتكون من مقدمة تشجع فيها الأندلسيين على التشبثت بدينهم: «... إخواننا القابضين على دينهم، كالقابض على الجمر، من أجزل الله ثوابهم، فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته... وارثوا سبيل السلف الصالح، في تحمل المشاق، إن بلغة النفوس إلى التراق...»[52]، ويدعوهم إلى التزام التقية[53] لأن الاسلام سيسمح لهم بذلك[54].

وأعطاهم «حلولا» لما يمكن أن يتعرضوا له أثناء ممارستهم لعبادتهم: «... وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية، وانووا صلاتكم المشروعة، وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم، ومقصودكم الله... وإن أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإ كلفوا عليكم خنزيرا فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم، ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرم... وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم...» [55].

وينتقل بعد ذلك إلى «الحل»: «... وأنا أسأل الله أن يديل الكره للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهرا بحول الله من غري محنة ولا جلة، بل بصدمة الأتراك الكرام...»[56]. هكذا نرى أن فتوى المغراوي لا تطرح فكرة الهجرة، بل على العكس من ذلك تدعوهم إلى البقاء والتمسك بدينهم على «الطريقة المورسكية» أي اعتناق المسيحية ظاهرا والتمسك بالدين الاسلامي باطنا. وهناك من يرى أنه ليس هناك تعرض بين فتوى الونشريسيي وفتوى المغراوي، ففتوى هذات الأخير ليست إلا تتمة لفتوى الأول، ذلك أن فتوى الونشريسي تبيح للمستضعفين أن يبقوا في اسبانيا وفتوى المغراوي أتت لتعطي حلولا لهذا البقاء، أي كيفية التلاؤم مع الأوضاع الجديدة[57].

---

52 - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس، ص 343.

53 - عن التزام المورسكيين بالتقية، انظر :
L. Cardaillac, *Morisques et chrétiens*, pp. 87 - 101

54 - طبقا للآية الكريمة : «من كفر بالله من بعد ايمانه الا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم». سورة النحل، الآية 106.

55 - انظر م. عبد الله عنان، المصدر السابق، 343.

56 - انظر عبد الله عنان، المصدر السابق، 344.

57 - Leila Sabbagh, la religion des morisques entre deux Fatwas, in *Les morisques et leurs temps*, p. 53

إننا لا نتفق تماما مع هذا الرأي، ظلوا في الأندلس ليسوا «مستضعفين» بل ربما العكس هو الصحيح !

إن المورسكيين ظلوا في الأندلس أقوياء منظمين داخل «الجماعات» Aljamas تحت زعامة فقهائهم الذين كانوا يأطرونهم ودخلوا في اتصالات عديدة مع شمال افريقيا وتركيا ودول أوربية متعاطفة معهم وكانوا عازمين بالفعل على استرجاع مجدهم بالأندلس، ويكفي أن نلقي نظرة على وثائق محاكم التفتيش نفسها لنتبين من ذلك[58].

58 – انظر ما سبق حول المورسكيين في عهد فليب الثاني.

3

أصبحت فكرة الهجرة هي السائدة منذ سقوط غرناطة، إذ توافد على المغرب نتيجة لذلك أندلسيون من فئات مختلفة.

انتقال الأمير الغرناطي إلى المغرب

لم يرتح الملكان الكثولكيان لوجود الأمير الغرناطي باسبانيا مخافة أن يكون مصدر قلق وفتن بالنسبة لهم، ويذكر صاحب كتاب نبذة العصر في هذا الصدد: «ثم إن الطاغية دمره الله ظهر له أن يصرف الأمير محمد بن علي إلى العدوة فأمره بالجواز وبعث للمراكب أن تأتي إلى مرسى عذرة بلدة من أعمال المرية...»[59]. وفعلا فقد استأذن السلطان محمد الشيخ الوطاسي في القدوم إلى فاس فرخص له[60]. وتذكر المصادر أنه: «اجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز...»[61]، فقد كان عدد السفن التي وضعت رهن إشارة المهاجرين عشرة من بينها سفينة الملكين كراكاس Caracas التي أقلت السلطان وحاشيته وقواده والفقهاء والقضاة والأطباء والعلماء والحكماء، وبلغ ما نقلته هذه السفن 1.130 شخصا[62]. بينما بلغ العدد الكلي الذي رافق أبي عبد الله من مرسى عذرة 2.919 شخصا، وفي نفس الوقت أبحر من مرسى المنكب نحو 1166 شخصا[63].

---

59 – نبذة العصر، ص 43.

60 – ذكر أ. المقري انه «كان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك...» انظر النفح، 4 : 527.

61 – نبذة العصر، ص 43.

وذكر في مكان آخر ص 47 انه اجتمع معه نحوا من سبعمائة رحيل.

62 - La Fuente y Alcantara de Granada, 4: 81

63 – رسالة فرناندو دي ثافرا إلى الملكين، ارشيف سيمنكاس، Negociado Mar y tierra ملف 1315.

وقد بعث الأمير الغرناطي برسالة إلى الأمير الوطاسي يستجيره فيها ويعتذر له فيها عما أصاب الإسلام في الأندلس على يده متبرئا مما نسب إليه من اثم وتفريط، فهي بهذه الصفة دفاع عن النفس أمام المغاربة الذين كانوا يرون فيه أنه يتحمل القسط الأكبر من مسؤولية السقوط.

وقد كتب هذه الرسالة وزيره وكاتبه محمد بن عبد الله العربي العقيلي[64]، وسماها: الروض العاطر الأنفاس، في التوسل إلى المولى الامام سلطان فاس[65].

يبدأ الرسالة بقصيدة مطلعها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم ... رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا ... وأفضع الخطب ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم[66]

ومنها في التوسل والاعتذار:

وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت ... فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه ... واعطف ولا تنصرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم ... نذنب ولو كثرت أقوال ذي الوخم
فما أطقنا دفاعنا للقضاء، ولا ... أرادت أنفسنا ما حل من نقم[67]

ويذكر بجهاد بني مرين في الأندلس:

هم بطائفة التثليث قد فتكوا ... كمثل ما يفتك السرحان بالغنم[68]

ثم ينتقل بعد ذلك إلى الرسالة قائلا: «... وما الذي يقول من وجهه خجل، وفؤاده وجل، وقضيته المقضية عن التنصل والاعتذار تجل، بيد أني أقول لكن ما أقوله لربي واجترائي عليه أكثر واحترام اليه أكبر: اللهم لابرىء فأعتذر، ولا قوي

64 - انظر ترجمته عند أ. المقري، نفح، 4 : 548 - 533.
65 - انظر كاملة عند، أ المقري 4 : 529 - 548، وازهار الرياض، 1 : 72 - 102.
66 - المصدر السابق، 4 : 529.
67 - المصدر السابق، ص 530.
68 - المصدر السابق، ص 532.

فأنتصر، لكن مستقيل مستقيل مستعتب مستغفر... على أني لا أنكر عيوبي فأنا معدن العيوب، ولا أجحد دنوبي فأنا جبل الذنوب، إلى الله أشكو عجري وبجري، وسقطاتي وغلطاتي...[69].

ثم يذكر بعد ذلك لجوءه إلى السلطان: «... ولم نفرغ إلى غير بابكم المنيع الجناب، المنفتحح حين سدت الأبواب، ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبس الملك من الأثواب وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهفان...»[70]، ويشير إلى أنه تلقى دعوات من المشرق للإقامة به لكنه آثر المغرب: «... ووصلت أيضا من الشرق الينا، كتب كريمة المقاصد لدينا، تستدعي الانحياز إلى تلك الجنبات، وتتضمن ما لا يزيد عليه من الرغبات، فلم نختر إلا دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا ولم نرتض الانضواء إلا لمن بحبله وصل حبلنا، وبريش نبله ريش نبلنا، إذلالا محل أضاء متوارص لا عن كلالة وامتثالا لوصاة أجداد لانظارهم وأقدارهم أصالة وجلالة، إذ قدر روينا عمن سلف من اسلافنا، في الايصاء لمن يخلف بعدهم من اخلافنا، أن لا يبتغوا إذ دهمهم داهم بالحضرة المرينية بديلا ...»[71].

وقد استقر الأمير الغرناطي بمدينة فاس في ظل الوطاسيين، وبنى بها قصورا على الطراز الأندلسي، رآها ودخلها المقري[72]، كما يذكر أنه توفي بفاس سنة 940هـ وأنه دفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة[73].

في حين تذكر الرواية الاسباني أنه قتل أثناء مشاركته في معركة أبي عقبة التي جرت بين الوطاسيين والسعديين سنة 943هـ / 1536، ذيقول مارمول في هذا الصدد: «... وقتل أبو عبد الله وهو يدافع عن عرش أجنبي بعدما تخلى عن التضحية بحياته دفاعا عن مملكته..»[74]. وقد استمر عقبه متصلا معروفا بفاس لغاية 1027 هـ لكن المقري يذكر أنهم كانوا «يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ويعدون من جملة الشحاذين»[75].

---

69 – النفح، 4 : 536.
70 – المصدر السابق، ص 541.
71 – المصدر السابق، ص 542
72 – نفس المصدر، ص 529.
73 – نفس المصدر والصفحة.
74 – افريقيا، 1 : 459.
75 – النفح، 4 : 529.

ويطرح قول المقري هذا عدة أسئلة تتعلق بالسبب الذي أوصلهم إلى هذا المستوى، خاصة أننا نعلم أن الأمير الغرناطي حمل معه أموالا ضخمة استطاع أن يبني بها قصورا فخمة على الطراز الأندلسي؟ فهل أساءوا التصرف في ثروة أبيهم؟ أم أنهم جوبهوا من طرف السعديين على اعتبار أنهم كانوا مؤيدين للوطاسيين؟ أم هل حوربوا من طرف العامة على أساس أنهم السبب في ضياع الأندلس؟ وقد ذكر نفس المؤرخ أن الأمير الغرناطي خلف ولدين : أحمد ويوسف[76]. وذكر القادري من جهته : «... وقد أدركنا قوما بفاس يقال لهم أولاد يوسف المذكور، والآن، انقرضوا ولم يبق أحد منهم...»[77].

انتقال أفواج من عامة الناس

ظلت الهجرة متواصلة إلى المغرب أثناء فترات الصراع بين الأندلسيين والملكين الكاثولكيين حول مختلف ثغور الأندلس الباقية. فبعد سقوط المرية وقادس سنة 1489، سمح الاسبان بالهجرة إلى شمال افريقيا، والتزموا بحرية العبور ومجانيته خلال سنة كاملة، كما سمح للمهاجرين بحمل أمتعتهم أو بيعها[78].

وبعد معاهدة تسليم غرناطة شجع الملكان الكاثولكيان الهجرة إلى المغرب، لكن سمحا لهم في نفس الوقت بالعودة إلى التراب الأندلسي خلال ثلاث سنين إذا ما رغبوا في ذلك[79].

وقد باع كثير من المهاجرين أمتعتهم - بثمن بخس - سواء للمسيحيين أو الأندلسين، استعداد للهجرة. لكن بعضهم لم ترق لهم الأوضاع داخل المغرب بفعل الأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مما اضطروا معه إلى الرجوع الى اسبانيا للعيش تحت الوعود الزائفة لفيرناندو الكاتوليكي[80]. وهكذا أصبحت الهجرة بطيئة خلال السنتين اللتين تلتا سقوط غرناطة[81]، مما أدى معه إلى وجود نسب كبيرة من الأندلسيين، لكن سرعان ما اكتشف هؤلاء النوايا الحقيقية لفيرناندو الكاثوليكي فشرعوا في الثورة انطلاقا من السنة 1499، وترتب عن ذلك هجرات جديدة إلى المغرب.

---

76 - نفس المصدر والصفحة.

77 - نشر المثاني، 1 : 146.

78 - Rachel Arié, *L'Espagne musulmane au temps des Nasrides*, p.175

79 - I bid, p. 313

80 - I bid, p. 313

81 - يمكن ملاحظة هذا من خلال الانطباعات التي سجلها الطبيب Jérome Muzer من (Nuremberg) خلال زيارته لاسبانيا. فقد لاحظ أنه في قرية Tabernas لايوجد إلا مسيحي واحد، يعيش وسط المسلمي. كما لاحظ في غرناطة والمرية ومالقة وجود نسب كبيرة من المدجنين
Viaje Espana y portugal (1494 - 1499). D'après Rachel Arie, op. cit. p. 314

وقد حاول صاحب كتاب نبذة العصر (ص 48) أن يرسم لنا صورة لهذه الهجرة لما يلخصه هذا الجدول :

المدينة الأندلسية المهاجر منها	الوقت الذي استغرقته الهجرة	المكان المهاجر إليه
مالقة	ثلاثة أيام	بادس
المرية	نصف يوم	تلمسان
الجزيرة الخضراء	نصف يوم	طنجة
رندة، بسطة، حصن موجر Zujar قرية قردوش، حصن مرتيل		تطوان وأحوازها
ترقة		المهدية
منسين		بلاد الريف
دانية، جزيرة صقيلية	أربعة أيام	تونس، الجزائر، القيروان
لوشة loja قرية الفخار، بعض من غرناطة، مرشانة، أهل البشرات Al pujarra		قبيلة غمارة بزاوية سيدي أحمد الغزال
بربرة Barbara برجة Berja بولة Bula اند راش Andrax		مابين طنجة وتطوان ثم انتقل البعض منهم إلى قبيلة بني سعيد من قبائل غمارة
مرينية	يوم واحد	أصيلا وما قرب منها
بليش Vez- malaga شيطة، شريش jerez		سلا
مابقي من أهل غرناطة	خمسة عشر يوما	بجاية، وهران، برشيد، زاولة، (هي زويلة بتونس قرب صفاقس)، ومازونة (بالجزائر قرب وهران)، نفطة (بتونس قرب توزر)، قابس، صفاقس، سوسة
طريفة	يوم واحد	أسفي، أزمور، أنفا
القلعة Alcalâ		أجدير

الجالية الأندلسية بمليلية

تزايدد اهتمام الاسبان بمليلية لعدة أسباب، من بينها :

- إستيعاب المنطقة لعدد كبير من المهاجرين الأندلسيين وهم في طريقهم إلى فاس وتلمسان[82].

-عامل استراتيجي، ويتلخص في كون المنطقة تقابل السواحل الأندلسية وخاصة ساحل المرية وهي بهذا الموقع كانت منطلق العديد من العمليات الجهادية البحرية ضد السواحل الاسبانية[83].

- عامل توسعي، إذ بالاستيلاء على مليلية « تتأتى السيطرة على غساسة وقلعية بل وعلى جميع أراضي ملوية والزحف إلى تازة وفاس»[84]. و«ربح أراضي اسلامية جديدة مثلما حدث بالنسبة لغرناطة»[85]. وقد بدأ الاسبان بالفعل في هذا المخطط، إذ استغل سكرتير الملكين الكاتولكيين Fernando de Zafra حالة الانهيار الناتج عن سقوط غرناطة، فاستمال بعض الأندلسيين من الذين كان لهم نفوذ في الدولة النصرية مثل قاضي البشرات، وابراهيم الزيات أحد قواد السلطان أبي عبد الله وطلب منهم أن يراسلوا الأندلسيين المستقرين بالساحل المغربي باسم الملكين الكاثوليكيين، وذلك لتسهيل تدخل الاسبان بمدن الساحل الشمالي المغربي[86]. كما أن عمليات نقل الأندلسيين إلى المغرب في أوائل أكتوبر 1493 ركزت في ذهنه فكرة المشروع التوسعي، إذ نظمت 13 رحلة ترأسها كبار ضباط البحرية الاسبانية، واطلعوا أثناءها في عين المكان على الامكانيات الممكن استخدامها لتنفيذ المشروع[87]. وكانت جماعة أندلسيي متريل Motril المستقرة بمليلة[88]،إحدى

---

82 – حسن الفكيكي، قليعة ومشكل الوجود الاسباني بمليلية، رسالة جامعية غير منشورة محفوظة بمكتبة كلية الآداب بالرباط، 1 : 77.

83 - Nicolas Cabrilana Cieza, Rebelion, guerra y expulsion de los moriscos de Almeria, in cudenos de la Biblioteca espanola de Tetuan n°13 - 14 Junio, Diciembre, 1976, p. 7

84 – رسالة Fernando de Zafra بتاريخ 25 أبريل ارشيف سنمكناس مجموعةNegociado Mar y tierra رقم 1315.

85 - Barrantes Maldonado, Ilustraciones de la casa de Niebla

عن حسن الفكيكي، المصدر السابق، 1 : 38.

86 - Rafael Fernando de Castro y pedrera Mellila, Prehisprennica, p. 440

87 – حسن الفكيكي، المصدر السابق 1 : 79.

88 – غادرت هذه الجماعة الأندلس قبل ثلاث سنوات من سقوط غرناطة، وكانت تملك الأراضي بأحواز المدينة، على جانب كلير من الثروة، واستطاعت أن تخلق لنفسها مرتبة عالية بمليلية التي اختارتها مكانا للاستقرار. انظر حسن الفكيكي، المصدر السابق،1 : 72.

هذه الإمكانيات، فقد كانت ترغب في العودة إلى الأندلس محاولة الاستفادة من شروط الاتفاق الغرناطي الذي يبيح للأندلسيين الرجوع في ظرف ثلاث سنين[89]. لكن العرقلة التي تقف في وجه الجماعة هي أن مغادرتها لساحل متريل قبل عقد الاتفاق قد حرمها من الحصول على ما يسميه الاتفاق «بطاقة التصريح» وهو إذن مكتوب كان الاسبان يقدمونه لكل من غادر مرسى عذرة أو المنكب أو شلوبينة في أوائل أكتوبر 1493. فكان على جماعة متريل أن تبذل الجهود لتقديم البديل، ولكن يكون هذا البديل إلا تسهيل دخول الاسبان لمليلية[90]. وقد استغل سكرتير الملكين الكاتولكيين بالفعل هذا العرض، وأرسل جماعة من رجاله إلى المنطقة، وهؤلاء هم الذين دبروا مع جماعة متريل تمرد مليلية على الحاكم الوطاسي في بداية فبراير1494[91]. وبالفعل فقد سيطر المتمردون على الوضع بالقصبة والمدينة لكنهم لم يلبثوا أن انقسموا إلى فئتين متنافستين، إلا أن الهدف، كما تصوره الرسائل المنقولة إلى سكرتير الملكين الكاتولكيين، كان واحدا : التسابق إلى نيل الحظوة لدى الاسبان لاسترجاع الأراضي التي كان يملكها كل فريق بمتريل، ووصل فعلا الفريقين إلى قرطبة لدى Zafra الذي حاول جهد الامكان التوفيق بينهما لتمرير مخططه[93]. لكن ماذا كان موقف المغاربة من كل ذلك؟ لقد أبعدت جماعة متريل الأندلسية عن تسيير المدينة[94]. وطلب القادة الجدد النجدة من محمد الشيخ الوطاسي. لكن الظروف كانت معاكسة تماما، فالاسبان كانوا على الأبواب، ومساعدة السلطان الوطاسي تأخرت[95]، فما كان من السكان إلا مغادرة المدينة وفي هذا يقول الحسن الوزان : «وقد أرسل ملك اسبانيا في هذه الأزمنة الحديثة أسطولا لحصار مليلية، لكن السكان اعلموا به قبل وصوله، فطلبوا النجدة من ملك فاس... فأرسل إليهم كتيبة خفيفة. أما أهل مليلية الذين كانوا على معرفة تامة بأهمية الأسطول الاسباني فنهم خافوا ألا يقدروا على التصدي للهجوم فأخلوا المدينة فارين بأمتعتهم إلى جبال

89 - Rachel Arié, op. cit. p. 313

90 - حسن الفكيكي، المصدر السابق 1 : 79.

91 - رسالة zafra إلى الملكين مؤرخة ب 12 فبراير و 25 منه سنة 1494 مجموعة Negociado Mary y tierra ارشيف سمكناس رقم 1315.

92 - نفس المصدر

93 - حسن الفكيكي، المصدر السابق 1 : 81.

94 - تأكد لهذه الجماعة مؤخرا أن الاسبان كانوا يخططون لاحتلال المدينة دون مساعدتهم.

95 - كانت مساعدة ضعيفة جدا، إذ قدر مارمول جنود الحملة ب 500 جندي، افريقيا، 2، 284.

بطيوة. ولما رأى ملك فاس ذلك أضرم النار في جميع المنازل وأحرق المدينة عقابا لأهلها ونكاية في المسيحيين»[96]. هكذا رأينا هذا السلوك الانتهازي لهذه الجالية الأندلسية بالمنطقة، فقد كانت مستعدة للتضحية بأي شيء في سبيل الرجوع إلى ثرواتها بالأندلس، ولو كان ذلك على حساب البلد الذي آواهم وهيأ لهم ظروف السلطة والجاه والنفوذ. غير أن هذا السلوك شاذ، فهناك جاليات أندلسية أخرى بالمنطقة آثرت المقام بأرض الإسلام الجهاد لصد المعتدين والانتقام لمجدها الضائع بالأندلس.

الجالية الأندلسية تجاه الأحداث

عندما أتت الجالية الأندلسية إلى المغرب وجدت نفسها أمام حدثين رئيسيين كان المغرب يعيشهما آنذاك : الغزو الايبيري والصراع الوطاسي السعدي، فانضموا إلى السلطة التي آوتهم وأذنت لهم بالاستقرار (سلطة الوطاسيين)، وحاربوا معها السعديين[97]. كما أنهم استخدموا لمواجهة الايبريين : فقد كلف السلطان الوطاسي عامله على تادلة القائد أحمد العطار الأندلسي بالهجوم على أزمور سنة 1521[98]. وبعد فشل الحصار الذي ضربه محمد البرتغالي على مراكش كلفه بالدخول في مفاوضات مع قبطان أزمور[99]، كما كلف أيضا بالتفاوض مع برتغاليي أسفي[100].

أما فيما يتعلق بمواجهة الغزو الاسباني في الشمال، فقد كلف محمد الشيخ الوطاسي علي العطار الأندلسي[101] باسترجاع مليلية من أيدي الاسبان. وفعلا

---

96 – وصف افريقيا، 1: 266.

97 – مارمول ، افريقيا، 1 : 458، 2 : 230.

98 - Luiz de Soussa, *Les portugais et l'Afrique du Nord de 1521 à 1557*, p. 24

99 - S.I.H.M, Portugal, 2 : 335 note 2, 321 note2

100 - S.I.H.M, Portugal, 3 : 381

101 – هو ابن قائد لوشة علي بن ابراهيم العطار، وكان أبوه ابراهيم من أشهر قواد السلطان ابن الأحمر، والمعروف بأعماله الحربية دفاعا عن غرناطة ولوشينة اجتاز البحر برفقة السلطان ونزل بغساسة، ثم انتقل إلى فاس. ومن هناك اختار محمد الشيخ ابنه عليا لمهمة تفقد أحوال قلعية الجهادية، ويعود هذا الاختيار إلى خبرة الأسرة وممارستها للأعمال الحربية بالأندلس.

انظر، حسن الفكيكي، المصدر السابق، 101 - 102.

فقد استقر بغساسة استعدادا للانفضاض عليها وبعد استيلاء الاسبان على غساسة، تصدى لهذا الغزو أحد قواد الأندلس[102]، فطلب من السلطان الوطاسي الاذن بإعادة بناء تزوطا لتكون منطلقا للعمليات الجهادية لتحرير غساسة وغيرها، وفي هذا الصدد يذكر الحسن الوزان : «فطلب أحد قواد ملك فاس، وهو من أصل أندلسي وعلى جانب كبير من الشجاعة أن يؤذن له بإعادة بناء تزوطا وأذن الملك بذلك، وأعيد بناء المدينة»[103]، وفعلا فقد استقر القائد العطار في منصبه متزعما للمجاهدين بتزوطا برفقة من جلبهم معه من الأندلسيين. وهذا ما سجله الحسن الوزان قائلا : «وتقوم اليوم بين نصارى غساسة ومسلمي تزوطة حرب دائمة وغارات متوالية، تكون الدائرة يوما فيها على هؤلاء ويوما على أولائك»[104]، ومن الأسر الأندلسية التي لعبت دورا مهما في الجهاد البحري والتجارة أسرة أعراض[105].

نذكر من بن أفرادها على أعراض الذي كان يجمع بين قيادة القبيلة والاشراف على الجهاد، فأمام عجز الوطاسيين، واتضاح تعاونهم مع الاسبان اتجه إلى محمد الشيخ السعدي الذي أعطاه تعليمات بتحرير مليلية[106]. وفعلا فقد حاصر المدينة المحتلة، خاصة عند التجاء أبي حسون الوطاسي صحبة قواده إليها، وظهور النوايا الحقيقية للاسبان من وراء ذلك. وقد كان علي أعراض يخبر مخدومه بجميع التطورات التي تشهدها المنطقة، وكان هو بدوره يمده بكل ما يحتاج إليه. والذي يثير الانتباه في هذه الفترة هو الخبر الذي أورده الاسبان عن تمرد جنود مليلية على حاكم المدينة، إذن أنه توصل الى اكتشاف مؤامرة نسج خيوطها Gaspar وهناك من يرجح أن المورسكيين كانت لهم اليد الطولى في هذه المؤامرة[107].

---

102 – رجح حسن الفكيكي أن يكون هذا القائد هو علي العطار السالف الذكر استنادا على عدة معطيات أوردها.
انظر المصدر السابق، ص 157 – 158.

103 – وصف افريقيا، 1 : 266.

104 – المصدر السابق، 1: 267.

105 – وثيقة نسب قلعية (كتاب الانساب)، ضمن مجموع، مخطوط خ، ع، بالرباط عدد 1275ك.

106 – S.I.H.M, Espagne, 1 : 183

107 – اعتمادا على أنه كان ضمن قائمة جنوده مليلة لسنة 1553 من كان اسمه كاسبار العربي Gaspar Y roby
انظر حسن الفكيكي، المصدر السابق، ص 191.

الجالية الأندلسية بتطوان(108)

المواجهة المباشرة مع الاسبان والبرتغال .

طلب القائد علي المنظري من محمد الشيخ الوطاسي الإذن له بتجديد بناء مدينة تطوان(109)، وذلك حتى تتمكن الجالية الأندلسية المصاحية له من اتخاذها

---

108 - للمزيد من الايضاح حول الجالية الأندلسية بتطوان، انظر أحمد الرهوني، عمدة الراوين في أخبار تطاوين، الجزء الثاني، الفصل الحادي عشر، مخطوط الخزانة العامة بتطوان رقم 318.

محمد داود، تاريخ تطوان، المجلد الأول، ص 86 - 124.

Emilio de Meneses, correspondencia del conde de tendilla

وهو يحتوي على مراسلات حاكم غرناطة للمنظري

Padre Gabriel de Arandra, vida del Siervo de dilos... el venerable Padre Fernando de contreras, 1962

والمعنى بالأمر زار تطوان، ورأى حفيد المنظري سنة 1540. والكتاب بالخزانة العامة بتطوان

Carranza Fernande de Reguera, Sidi Abul Hassan A Coli, Al Manziri, in *Archivo del Instituto de Estudios Africanos, 1950*, n° 13

وانظر كذلك رسالة Guillermo Gozalbes Busto بعنوان «المغرب في العصور الوسطى المتأخرة» وهي تتعلق بالخصوص بمساهمة الأندلسيين في بناء تطوات وشفشاون.

رسالة جامعية غير منشورة محفوظة بمكتبة جامعة مدريد المركزية Complutense يناير 1983.

«ولنفس المؤلف دراسة أخرى بعنوان : الحضور المورسكي في تطوان وشفشاون»

Presencia de los moriscos en teuan y XAUEN

وهي دراسة قدمها للمؤتمر العالمي للدرسات المورسكية الذي انعقد بتونس في شتنبر 1983، وقد نشرت ضمن أعمال المؤتمر سنة 1984.

Religion Identité et Sources Documentaires sur les morisques Andalous, 1: 361-374

109 - هناك اختلافات في تاريخ بناء مدينة تطوان، فعبد السلام السكيرج في مخطوطه «نزهة الأخوان» يذكر أنها بنييت سنة 888 هـ، وفي مخطوط قدم يذكر صاحبه أنها بنيت سنة 889 هـ (نقلا عن محمد داود المصدر السابق، ص95). غير أن احسن الوزان يذكر أن البناء تم بعد سقوط غرناطة (وصف افريقيا، 1:247) وإلى هذا الرأي يميل محمد داود اعتمادا على تقييد للعربي الفاسي (صاحب كتاب مرآة المحاسن، والمتوفي بتطوان سنة 1052 هـ)، إذ ذكر ما نصه : «إن هذا البناء الأخير كان على يد جماعة من الأندلسيين قدموا إلى هذه العدوة حين استولى الكفرة - دمرهم الله - على الجزيرة أعادها الله للإسلام، وذلك في شعبان لسبع خلت منه عام 989هـ) أورده محمد داود، المصدر السابق، ص 95 - 96).

ويرى G.G Busto أن البناء تم سنة 1483، اعتمادا على عدة حجج أوردها (انظر دراسته الأخيرة السالفة الذكر). وعلى كل فمن المرجح أن تكون المدينة قد بنيت على مراحل مما خلق معه هذا الاضطراب في التواريخ.

مقرا دائما لها[110]، وأذن له فعلا بذلك[111]، غير أن أمر الاستقرار لم يكن سهلا، فقد تصدت له القبائل المجاورة بدعوى أن هذه الأرض تدخل في إطار ملكيتهم، وأن الاستقرار بالمنطقة يضر بمصالحهم ومنن هذه القبائل بنى حرمز وبنى صالح وبني سالم[112]. وتجاوز الأمر حد المواجهة إلى محاولة التعاون مع الاسبان ضد الوافدين الجدد[113]، وقد طلب المنظري المساعدة من سلطان فاس فأمدهم بأربعين من أهل فاس وأربعين من أهل الريف لحمايتهم من اعتداءات القبائل المجاورة[114]، كما اشتكى المنظري أيضا لقائد شفشاون على ابن راشد[115]، فبعث إليه بنحو أربعمائة فارس، وبوجودهم ساد الأمن إمارته وتمكن القائد الأندلسي من اتمام البناء[116].

وكانت إمارته شبه مستقلة مما ترك له حرية الحركة، فقد ذكر الحسن الوزان في هذا الصدد :«وكانت له بعد ذلك حروب لاتنقطع مع البرتغاليين، وكثيرا ما ضيق

---

110 – هناك أيضا اختلاف في عدد المهاجرين الأندلسيين إلى تطوان، ففي نزهة الاخوان «يذكر السكيرج أن عدد المهاجرين نحو الثمانين، ويذكر العربي الفاسي في تقييده السالف الذكر أنهم كانوا 46 رجلا و 10 نسوة في حسن يذكر صاحب مخطوط قديم كتب بتطوات انهم كانوا نحو 40 دارا (أورده محمد داود، المصدر السابق ص 86). ويرى داود أنه ليس هناك أي خلاف بين هاته الروايات جميعا وإذ أن عدد المهاجرين كانوا 80 شخصا منهم 46 رجلا و10 نسوة ونحو 20 طفلا، وانهم كانوا يسكنون 40 دارا» وذلك اعتمادا على كناش قديم وقف عيه يذكر عدد المهاجرين في بيتين :

وكان عدة الرجال الابرار ... ميم وزاي ليس ثم أكثر
وعدة النساء نقط اليـــاء ... فهؤلاء أسسوا البنـــاء

فمدلول حرف الميم والزاي سبعة وأربعون، ومدلول حرف الياء عشرة، تاريخ تطوان، ص 86 – 87) وقد ذكر صاحب نبذة العصر (ص 48) أن تطوان وأحوازها استقر بها أهل رندة، وبسطة، وحصن موجز، وقرية قردوش، وحصن مرتيل.

ملاحظة : انتقد داود رواية بعض الباحثين الأجانب من كون بعض المهاجرين الأندلسيين حملوا معهم مفاتيح منازلهم، انتظارا لرجوعهم، إذ يذكر داود في هذا الصدد ... وهذا شيء ربما كان في القديم، أما في عصرنا فإننا لا نعرفه ولم نسمعه من أحد من أهل بلدنا». المصدر السابق، ص 88. وقد اتصلنا بالمهدي الدليرو (وهو من أصل أندلسي) المحافظ السابق للخزانة العامة بتطوان فأكد لنا أن هذه المفاتيح كانت موجودة بالفعل ولكنها ضاعت بعد حرب تطوان سنة 1860، كما أكد لنا عبد الله العمراني (استاذ بكلية أصول الدين بتطوان) أن بعض العائلات مازالت تحتفظ بهذه المفاتيح.

111 – وصف افريقيا، 1 : 247.

112 – عبد السلام السكيرج، نزهة الاخوان، نقلا عن محمد داود، المصدر السابق، 1 : 97.

113 – تقييد العربي الفاسي، نقلا عن محمد داود، المصدر السابق 1: 97.

114 – عبد السلام السكيرج، نزهة الاخوان، نقلا عن محمد داود، المصدر السابق، 1 : 97.

115 – انظر عن هذا القائد، عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية شفشاون وأحوازها، ص 86 – 90.

116 – مخطوط قديم لمؤلف مجهول، نقلا عن محمد داود، المصدر السابق، 1 : 97 – 98.

الخناق على سبتة والقصر وطنجة، وكان معه دائما ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون من نخبة أهل غرناطة، فجعل يجوب أنحاء البلاد بهذا الجيش ويأخذ العديد من المسيحيين يحتفظ بهم كأسرى ويستخدمهم في أعمال التحصين. ولقد شاهدت في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى هذه المدينة ثلاثة آلاف أسير مسيحي لابسين جميعا سترات من الصوف، ينامون ليلا مقيدين في الاصفاد داخل سراديب تحت الأرض....»[117].

كما ذكر مارمول أن المنظري كان يخرج على رأس 400 فارس أتى بهم من الأندلس مع من ينضم إليهم من المغاربة لماهجمة حدود سبتة والقصر وطنجة، وأنه كان يهاجم الشواطئ الاسبانية لأنه كان يملك بعض السفن الصغيرة السريعة الحركة، حتى اجتمع لديه نحو 3 آلاف من الأرقاء كان يجبرهم على العمل طول النهار في بناء الأسوار ويسجنون ليلا في مطامير وبأيديهم الحديد»[118].

---

117 – وصف افريقيا 1: 257.

118 – افريقيا 2 : 106.

ملاحظة : انظر بعض المستندات المتعلقة بافتداء الأسرى في مجلة Mauritania، طنجة، عدد 182، يناير 1943. وانظر كذلك م. داود، المصدر السابق، 1: 114 – 116.

استخلاص

إن أهم مايمكن تسجيله في نهاية هذا الفصل هو انتقال جالية أندلسية مهمة إلى المغرب واختلاف مواقف أفراد هذه الجالية. فهناك فئة كانت تتحفز باستمرار للذهاب إلى الأندلس، وكانت مستعدة للتضحية بأي شيء في سبيل تحقيق هذه الرغبة، وهناك فئة أخرى فضلت البقاء وآثرت المساهمة في الأحداث السياسسية التي كانت يعرفها المغرب، وذلك بالانضمام إلى الوطاسيين في حربهم ضد السعديين، وهي تريد بذلك الحصول على نفوذ ما، في حالة الانتصار يعوضها عن ما ضاع منها بالأندلس. وفئة ثالثة اتجهت إلى الجهاد لكن على الطريقة الأندلسية، أي العيش في استقلال تام عن السلطة المركزية محاولة بذلك أن تعيد مجدها بالأندلس.

إن هذه المواقف في الواقع متطابقة، وإن بدت لنا في الظاهر مختلفة، فإذا بحثنا في حقيقة هذه المواقف فإننا نجد أنها ترمي بالأساس إلى تحقيق كيان أندلسي ما بالمنطقة التي يستقرون بها. وهكذا نجد أن الفئة الأولى فضلت الهجرة لأنها لم تستطع تحقيق هذا الكيان بالمغرب، وبذلك فهي تطمح إلى تحقيقه في منطقة أخرى، وقد اثرت أن تبدأ بموطنها الأول.

والفئة الثانية شاركت في الأحداث السياسية أملا في تحقيق نفوذ داخل البلاط الوطاسي يمكنها من تحقيق وجود أندلسي ما داخل هذا البلاط نفسه، والفئة الثالثة كانت صريحة أكثر عندما تصرفت في حرية تامة عن السلطة المركزية.

وعلى كل فتلك مواقف أفراد هذه الجالية في ظل دولة ضعيفة تواجه أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية خطيرة، فكيف ستكون مواقف أفراد هذه الجالية بعد أن تستقر الأوضاع، وينتقل الحكم إلى سلطة مركزية قوية ؟

ذلك ما سنراه حين الحديث عن أوضاع هذه الجالية في ظل العهد السعدي الأول.

الفصل الثاني

الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد السعدي الأول

حاول الملوك السعديون في فترة إقبال دولتهم أن يفتحوا الباب على مصراعيه لمهاجرة الأندلس ويقدموا لهم كل المساعدات سواء على صعيد العمليات الجهادية، أو على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، بل تعدى الأمر ذلك إلى تقديم المساعدات للموركسيين باسبانيا نفسها، رغم المحاولات التي كانت تقوم بها هذه الأخيرة لمنع أي اتصال بين الموركسيين داخل اسبانيا وخارجها. لكن الضغط التركي أفشل الكثير من المشاريع الجهادية التي كان الملوك السعديون ينوون القيام بها ضد الاسبان. والتجأ بعضهم في الأخير إلى البحث في الجانب الآخر، لدى المعسكر البروتستانتي، عن حلفاء جدد يعوضون بهم الأتراك.

1

الجالية الأندلسية في عهد محمد الشيخ

كان لأنباء الانتصارات التي حققها محمد الشيخ على المسيحيين الصدى الواسع سواء لدى الجالية الأندلسية بالمغرب أو لدى المورسكيين بإسبانيا، وقد حاول جهده استغلال كل ذلك في سبيل تحرير باقي الثغور المحتلة، ولتقديم المساعدة إلى مورسكيي اسبانيا فاتجه إلى الأتراك للقيام بعمليات مشتركة ضد الاسبان لكن اختلاف وجهات النظر حال دون ذلك، مما أضاع على المغرب فرصة ثمينة لتوجيه ضربة قاضية للاسبان داخل الثغور المحتلة، وتقديم المساعدة الفعالة للمورسكيين باسبانيا نفسها.

لقد كان تأييد الجالية الأندلسية بالمغرب لمحمد الشيخ تأييدا مطلقا، خاصا أنهما يشتركان في نفس الهدف، وحفظ الشريف السعدي للأندلسيين هذا التأييد فثبت القائد المنظري لمدى الحياة في تطوان[1]. وكان مويسكيو غرناطة يتقاطرون باستمرار على فاس للانضمام إلى محمد الشيخ، وكانوا يحثونه على توجيه ضربة للاسبان في الصميم وذلك بالهجوم عليهم في أحد معاقلهم الرئيسية وهي سبتة، إذ يذكر اعلان Pedro Hernandez (يوليوز 1549) في هذا الصدد : «إن أنباء تروج في بادس مفادها أن محمد الشيخ سيحاصر سبتة برا وبحرا، وأن موريسكيي غرناطة يتوافدون يوميا على فاس، وانهم يحثونه على أخذ سبتة لأن هذا العمل يسبب مضايقة كبيرة للاسبان..»[2] ومن المعلوم أن لهؤلاء الموريسكيين تجربة كبيرة في محاربة الاسبان ، وبالتالي فإنهم سيقدمون خدمات كبرى لمحد الشيخ إذا ما أقدم على عمل مثل هذا.

---

1 - Lettre de Pedro de Herrera à Luis de Rueda, tetuan, 23Août 1549. S.I.H.M 1ère série, Espagne, 1: 377 - 339

2 - S.I.H.M 1ère série, Espagne, 1: 321-223

وقد تعدى صدى انتصارات محمد الشيخ الحدود ليصل إلى موريسكيي اسبانيا، إذ كان لهم أمل قوي في أن يأتي الشريف السعدي لخلاصهم على أسا أن يقوموا بثورة في الداخل متى شعروا باقترابه من اسبانيا، كما يتجلى ذلك في مذكرة Ignacio Nunes Gato المؤرخة بسنة 1549، إذ يذكر أنه (نزل أحد الموريسكيين في مكان بعيد بتسع مراحل عن مالقة، وأوهمه أنه ابن قائد من قواد محمد الشيخ، وطلب من الموريسكي المذكور أن يمدّ له يد المساعدة، وقد أجابه بأنه هو ومواطنيه لهم أمل كبير في أن يأتي إليهم محمد الشيخ لتخليصهم وأنه بمجرد الاقتراب من اسبانيا فإن 200 ألف موريسكي سيعلنون ثورتهم في ممالك مرسية وبلنسية وغرناطة، وأنه لديهم معدات عسكرية مهمة مخبأة في الجبال»[3].

والملاحظة الأساسية في كل هذا أن الموريسكيين كانوا في هذه الفترة يميلون بقوة إلى محمد الشيخ في مواجهة الأتراك إذ كانوا يكرهونهم، لأنهم كانوا يخشون من تحالفهم مع الاسبان. وهكذا نجد في اعلان Pedro Hernandez «إ موريسكيي بلنسية وارجون الموجودين بكثرة بالجزائر طلبوا من محمد الشيخ أن يرسل لهم ابنه، وأنهم سيؤيدونه فورا، وذلك حقدا منهم للأتراك....»[4]، كما «استقبل محمد الشيخ وفدا يمثل أهالي تلمسان والجماعات الأندلسية المقيمة بها، وأكدوا له انضمامهم إليه ومساعدته على فتح تلمسان كرها منهم للأتراك...»[5].

لكن بادي الأمر فضل محمد الشيخ أن يعرض مشروعه على الأتراك للتعاون فيما بينهما، ففي تقرير بعث به حاكم وهران Comte d'Acaudete إلى حكومته (21 أبريل 1549) ذكر أن محمد الشيخ كتب إلى باشا الجزائر يعرض عليه القيام بعمليات مشركة لفتح وهران والمرس الكبير... وأنهما يستطيعان أن يعلنا بعد ذلك الحرب على اسبانيا...»[6]، وقد أخذ الاسبان والبرتغال يترقبون بالفعل تعاون السعديين والأتراك ضد المراكز المحتلة في شمال افريقيا، خصوصا وقد تأكد لديهم اتفاق محمد الشيخ مع الأتراك على ذلك، إذ نجد في الرسالة التي بعثها من جبل طارق Luis de Ruedo بتاريخ 6 فبراير 1549، بعد أن تعلن عن خبر استيلاء الشريف

3 - S.I.H.M 1ère série, Espagne, 1: 294-297

4 - S.I.H.M 1ère série, Espagne, 1: 321-323

5 - S.I.H.M 1ère série, Espagne, 1: 208

6 - S.I.H.M 1ère série, Espagne, 1: 246-248

السعدي على فاس تشير إلى أنه على اتفاق مع الأتراك، وأنه يسعى لبناء أسطول لتحرير جميع السواحل المغربية، وللجهاد ضد المسيحيين بل للعمل لإستعادة اسبانيا نفسها.... [7].

لكن مشروع محمد الشيخ[8] لم يكتب له النجاح نتيجة الأطماع التركية في المغرب [9].

---

7 - S.I.H.M 1ère série, Espagne, 1:451
Andrzej Dziubinsk «l'armée, la flotte de guerre marocaine», in *Hespéri tamuda*, vol XII - Fascicule unique. 1972, p. 92

8 - كان مشروع محمد الشيخ بعيد المدى، فقد كان يهدف أولا إلى استرجاع باقي الثغور المحتلة بمساعدة المورسكيين الذين يتوافدون على المغرب باستمرار، كما أنه كان يهدف أيضا إلى تقديم المساعدة لموريسكيي اسبانيا، وذلك بالضغط على هذه الأخيرة لكي تحسن معاملتهم.

9 - حول العلاقات المغربية التركية، انظر :
A. Cour *L'Etablissement des dynasties des chérifs et leurs rivalités avec les Turcs de la régence d'Alger(1509- 1830)*.S
Ch. de la Véronne, «Relations entre le Maroc et la Turquie dans la Seconde moitié du XIVè siècle et le début du XVII siècle (1554 1616), in *Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée* (R.O.M.M), n° 15- 16, AIX, 1973
محمد حجي العلاقات المغربية العثمانية في القرن السادس عشر، مقال بالمجلة التاريخية المغربة، تونس، العدد 29 - 30 يوليوز 1983، ص 151 - 160.
محمد مزين «الكتابات التاريخية المتعلقة برصد الخطاب المعتمد في علاقات المغرب العثمانيين مقال بالمجلة التاريخية المغربية تونس العدد 29 - 30 يوليوز 1983، ص 457 - 481.

2

عبد الله غالب أمام التجربة

ظل الوجود الأندلسي قويا في المغرب بعد موت محمد الشيخ، فقد ذكر أحد البحارة الألمان المقيمين باسطنبول (حوالي سنة 1560) أن الشائعات كانت تروج بمركز الخلافة العثمانية حول وجود 80 ألف أندلسي قد التجأوا إلى فاس، وأنهم عازمون على الانتقام من محاكم التفتيش الاسبانية[10]. لكن إن كان الأمر عاديا في عهد محمد الشيخ ولم يثر أية مشاكل، إذ أن الجالية الأندلسية بالمغرب أيدت تأييدا مطلقا الشريف السعدي سواء في مواجهته للمسيحيين أو الأتراك فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة لابنه عبد الله الغالب الذي سيدخل في علاقات جديدة معها، خاصة عندما اتخذ اجراءات خطيرة في حقهم ذلك أنه «في عام سبعين وتسعمائة (1562 - 1563) أمر الغالب بجمع أهل الأندلس الذين خرجوا في الجالية على يد شيطان كان من أهل قرية بجبل غرناطة اسمه سعيد بن فرج الدغالي، وأخاه أحمد خرج بتطوان، وكانا بحريين بها، فنزلا على كبير دولة الغالب الحسن بن أبي بكر، فزين للغالب جمع أهل الأندلس على يد الدغالي، فرسم له بذلك، ودار عليهم في بلاد المغرب وجمعهم طوعا وكرها، وكتب منهم في الديوان أربعة عشر ألفا، ونقلهم إلى مراكش فاقطعهم الجانب الغربي منها وهو روض الزيتون سكنى... من المزارع والضياع واتخذوا فيه البساتين، وأعطوهم السلاح وسموا قائدا... عليهم الدغالي....»[11].

لكن ماذا كان موقف الجالبية الأندلسية تجاه هذه الاجراءات التي اتخذها عبد الله الغالب ؟

---

10 - Cuy Turbel- Dlof, *L'Afrique Barbaresque dans la littérature Française au XVIè siècle* p. 230

ملاحظة : ربما كان هذا الرقم (80 الف) فيه مبالغة إلا أنه يدل في نفس الوقت على أن العدد كان كبيرا جدا.

11 - ابو القاسم الزياني، الترجمات المعرب، ص 350.

ملاحظة : كان عبد الله الغالب قبل ذلك (حوالي سنة 1560) قد عين لليهود المطرودين من اسبانيا مكانا خاصا لهم بمراكش وظلوا في نفس المكان إلى غاية القرن العشرين.

انظر : Pierre Flamand, *Diaspora en terre d'Islam*, pp. 120 - 121

ذلك ماسيوضحه نفس المصدر في النص الآتي: «..... وكان أهل الأندلس أكرههم على الجندية وقهرهم عليها، وولى عليهم من لايرضون ولايته، كانوا يتمنون له النكب ليخرجوا من ربقة الرقية إلى الحرية ...»[12].

وهنا يمكن طرح سؤال رئيسي :

لماذا أمر عبد الله الغالب بجمع الجالية الأندلسية بالمغرب وادخالها إلى الجيش، هل كان يدافع الحاجة أم أن الأمر كانت وراءه أسباب خفية ؟

س نحاول أن نجيب من خلال عدة ملاحظات حول هذا الإجراء :

نشير أولا إلى أن النص يذكر أنهم جمعوا «طوعا وكرها»، أي أن طائفة من هذه الجالية أتت «كرها» وللأمر خطورته.

- ضخامة الرقم (14 ألف)، فهو رقم كبير جدا إذا ما قورن بعدد القوات التي كانت لجيش عبد الله الغالب (حوالي 30.000 جندي)[13]، فهل أراد بذلك أن تكون هذه الجالية عامل توازن تجاه مختلف عناصر الجيش المغربي، ويمكن استخدامها في جمع ثورات داخلية وتكون بالتالي أداة طبعة في يده، أي بعبارة أخرى «انكشارية أندلسية» داخل الجيش المغربي.

- كما يشير النص إلى أنه أقطعهم مزارع وضياع في حي رياض الزيتون بمراكش، ولا يمكن أن يكون هذا الاجراء ترضية لهذه الجالية مقابل الخدمة العسكرية، وتعويض لها مما ضاع منها في الأندلس، وخاصة أن مهارتهم في الميدان الفلاحي معروفة إلى جانب مهارتهم العسكرية ؟

- ويشير النص أيضا إلى أن أعيان أهل الأندلس وبيوتاتهم كانوا يحقدون على عبد الله الغالب ضد هذا الاجراء، إذ أدخلهم جميعا في الجندية، والأمر يتجلى بوضوح إذ علمنا أن كثيرا من أفراد هذه الجالية كانوا يمارسون التجارة والصناعة والفلاحة مما يدر عليهم الأرباح الوفيرة، وإن ادخالهم إلى الجندية ربما سيحرمهم من كل ذلك.

- ويشير النص أيضا إلى أنهم لم يكونوا راضين بتولية سعيد ابن فرج الدغالي، لاشك أن لهم أسبب موضوعية ضد هذه التولية : إما لماضيه بالأندلس، أو لعلهم

12 - أبو القاسم الزياني نفس المصدر والصفحة.

13 - Andrzej Dziubinski «l'armée et la flotte de guerre Marocaine» in *Hespéris tamuda*, Vol XIII Fascicule unique, 1972, p. 66

كانوا يعلمون مسبقا أن العملية كلها كانت في سبيل التقرب من السلطان السعدي وكسب نفوذ لديه، أي بالتالي مصلحة ملموسة له ولحاشيته.

- يشير النص - أخيرا - إلى أنهم اعبروا هذه العملية بمثابة استرقاق لهم وانهم يتمنون الخلاص منه ومن اجراءاته وهذه قضية خطيرة ستكون لها الآثار السلبية على المدى البعيد.

هذا عن علاقة عبد الله الغالب بالجالية الأندلسية داخل المغرب وردود الفعل تجاه اجراءات السلطان السعدي، فما موقفه من التطورات الجديدة التي ستعرفها قضية الجالية الأندلسية باسبانيا نفسها بعد اعلان هذه الأخيرة لثورتها سنة 1568، خاصة أنها كانت تدخل في حسابها مساعدة عبد الله الغالب وجاليته الأندلسية.

موقف عبد الله الغالب من ثورة غرناطة[14]

تشير المصادر إلى أن محمد بن أمية قائد الثورة بعث بسفارة برئاسة فرناندوا الحبقي (أحد قادة الثورة) إلى السلطان السعدي[15] كما أكد ذلك المؤرخ الجنابي قائلا: «وفي سنة سبع وتسعين وتسعمائة) قام أهل الأندلس على اسبانيا واجتمعوا بالجبل الأخضر بقرب غرناطة وأمروا عليها رجلا من أولاد الملك أبي سعيد ابن الأحمر، فاقتتلوا مع قائد عسكر اسبانية فهزموه، فنال الكفار منهم خوفا عظيما، وأرسل هؤلاء إلى الشريف مولاي عبد الله يستمدونه فلم يمدهم بسبب قلة الأغربة والمراكب عنده ولعلة أخرى...»[16].

غير أن صاحب تاريخ الدولة السعدية له رأي مغاير في الموضوع، إذ ذكر - وهو بصدد الحديث عن الثورة -: فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقا وغربا وهم يناشدونهم الله في الرغاثة، وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله لأنه هو القريب إلى أرضهم، وكان قد قوي سلطانه وصحت أركانه وجندت وكثرت أعداده، فأمرهم غشا منه بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم بظهور فعلهم، فلما قاموا على

14 - سبق أن تعرضنا لمراحل هذه الثورة ونتائجها على الصعيدين الداخلي والخارجي، وكذا موقف الجزائر والأتراك بصفة عامة من هذه الثورة وذلك عن حديثنا عن الموريسكيين في عهد فليب الثاني.

15 - محمد عبده حتاملة، التهجير القسري لمسلمي الأندلس في عهد فليب الثاني، ص 43.

ملاحظة: أورد المؤلف في الهامش1 من نفس الصفحة عددا من المصادر الاسبانية التي اعتمدها.

16 - البحر الزخار والعليم التيار، ص 535.

النصارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة وكذب عليهم، غشا منهم ولدين الله عز وجل ومصلحة الملك الزائل. . . »(17).

وعن السبب الذي جعل عبد الله الغالب لا يقدم المساعدة للموريسكيين في ثورتهم، يذكر نفس المصدر : «... وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات وانه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم منه بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في مصالح ملكه، فلما قاموا على النصارى عن أذنه وانشغلوا معهم بالقتال أرسلوا رؤسائهم وكبراءهم وذوي شأنهم إلى العدوة ليستغيثوا بالسلطان وبجماعة المسلمين في الاعانة وتركوا أهل الأندلس كلهم ممتنعين في جبال غرناطة وهم يقاتلون النصارى. فلما وصل إليهم تراخى عنهم وطول عليهم مقامهم فأتتهم المكاتبة من أهلهم بأنهم اطلعوا على مكاتبات بين السلطان وبين النصارى ومصادقة وتدبير على المسلمين فصح عندهم ذلك وظهر بالامارات الدالة عليه من كثرة قعودهم ومرور الأيام عليهم بلا فائدة فأمروهم أن يصطلحوا مع النصارى على أن يتركوهم يجوزوا لهذه العودة فأجابهم النصارى لذلك فقطع جلهم وتفرقوا في بلاد المغرب. . . »(18).

وفعلا فقد فشلت الثورة وهاجر عدد منهم إلى المغرب واستخدمهم الشريف السعدي في الهدف الذي أراده : «وأخدم الجيش من أهل الأندلس الفارين بدينهم من الكفر، وجعل يشق عليهم في الخدمة، وجمع منهم جيشا عظيما ليتعصب بهم ويتقوى بجمعهم، فصلح بذلك ملكه وعهد سلطانه. . .(19).

إنه بقدر ما كان صاحب التاريخ المذكور متحاملا على عبد الله الغالب بقدر ماكان الجنابي (وهو قريب من الأحداث) موضوعيا إذ أوضح أن السبب في عدم تقديمه المساعدة يرجع إلى عاملين :

---

17 - تاريخ الدولة السعدية، ص 37، 38.

18 - تاريخ الدولة السعدية، ص 38.

ملاحظة : ورد في رسالة السفير الفرنسي بمدريد إلى شارل التاسع انه : وقع اتفاق يسمح للموريسكيين لموجبة بالخروج إلى المغرب أو غيره من بلدان شمال افريقيا وأن عددا كبيرا منهم قد جاز إلى المغرب.
S.I.H.M 1ère série, France, I : 318

19 - المصدر السابق ص 39.

Andrzej Dziubinski, op.cit pp. 67 - 68

- قلة الأغربة والمراكب.
- وعلة أخرى
ولنبدأ بالسبب الثاني (أي بالعلة الأخرى).
لقد تخلص الجنابي من ذكر السبب بطريقة ذكية، إذ ترك الأمر عاما بدون تخصيص.

إن «العلة» التي تجنب ذكرها تتلخص في كون عبد الله الغالب التجأ إلى التقارب في سياسته مع دول أوروبا الغربية والعمل على مهادنتها[20]، وذلك تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب، فقد كانت علاقاته بأوروبا الغربية تشكل عامل توازن بالمنطقة يستخدمه في مواجهة الأطماع التركية، أي أنه كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة: إما التنازل عن نقط معينة للمسيحيين أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك ولا علاقة بين ما يورده المؤرخ المجهول عن شخصية عبد الله الغالب وبين ما تورده المصادر التاريخية المعاصرة له، إذ تؤكد هذه المصادر على أنه عرف بالورع والصلاح، وان المغرب لم يكن في عهد أبدا غافلا عن القضية الأندلسية فهذا المؤرخ الجنابي وهو بصدد الحديث عن السبب الأول الذي أدى إلى عدم تقديم المساعدة إلى المورسكيين (قلة الأغربة والمراكب): فمن ذلك اليوم (أي منذ فشل ثورة المورسكيين بغرناطة) شرع في تجهيز الأغربة وإنشاء المراكب حتى حصل عنده نحو ثلاثة عشر غرابا، وهم يسيرون اصيف والشتاء في وجه البحر فيحتمون من الكفار ويأسرون منهم، وبلغنا أنه عمال منشغل بتكثير الأغربة ويجتهدون فيها، وكان قلة الأغربة عندهم بسبب قلة الاخشاب الصالحة لذلك عندهم. فالآن آذن لهم في نقل الأخشاب من الروم إلى فاس. فجد الشريف المذكور في أمر العمارة والناس يقولون مراده فتح الأندلس لأنه علم أن ذلك هين بسبب الرعايا المتملكين فيها...»[21].

وهذا نص واضح ودليل على مدى تعاطف عبد الغالب مع القضية الأندلسية وانشغاله بها، خاصة أن المغرب - رغم الظروف المحيطة به - لم يبق مكتوف الأيدي أمام اندلاع الثورة، ففي رسالة بعث بها اسفير الفرنسي إلى شارل التاسع مع مدريد (5نونبر 1569) ذكر أنه خرجت 9 مراكب من العرائش في 22 شتنبر 1559

20 - سمح للاسبان بالاستيلاء على بادس وتراجع عن فتح البريجة (الجديدة) المحتلة من طرف البرتغال، وتناول للفرنسيين عن القصر الصغير.
21- البحر الزخار والعليم التيار، ص 535.

تحمل عددا من المجاهدين الذين قاموا بنهب جزيرة Lanzerotte وموانئ جزر الكناري، واحرقوا المدينة والكنائس واسروا العديد من المسيحيين وكانوا يصرحون بأنهم سيقطعون الطريق بين اسبانيا والعالم الجديد[22]، ومن المعلوم أن المقصود من هذه العملية أن تنشغل اسبانيا في جبهتين أو أكثر، لتشتيت مجهوداتها قصد التخفيف من الضغط على الثورة واللانتقام في نفس الوقت من الأعمال الوحشية التي يقوم بها الاسبان ضد رجال الثورة[23].

الطائفة الأندلسية

انطلق زعيم هذه الطائفة محمد الأندلسي من الحي الذي أنشأه عبد الله الغالب للجالية الأندلسية بمواكش (رياض الزيتون)، والأمر له خطورته لأن الزعيم الأندلسي سوف يجد سنده في جاليته التي كانت تنتظر الفرصة للظهور. وبالفعل فقد تحولت في ظرف وجيز إلى حركة دينية سياسية تسعى لكسب وتأييد العامة والعلماء على السواء.

ويبدوا أنه هاجر إلى مراكش مع أبيه بعد سقوط غرناطة[24]، وليست لدينا معلومات عن تكوينه العلمي غير ما ذكره ابن عسكر: «... أخذ عن أشياخ جمة وعول على الشيخ أبي الحسن علي بن أبي القاسم...»[25]، ويضيف نفس المؤلف بأنه: «كان مولعا بعلم الاقتباس وسر الحرف وعلم الكمياء والرياض والطب وعلم الهيئة والطبيعة...»[26]، مما ستنتج معه على أنه كان على دراسة بالعلوم التقنية بالاضافة إلى تضلعه في العلوم الشرعية، أي أنه بعبارة أخرى كانت لديه أدوات المواجهة. ويذكر ابن عسكر أنه: «كان كثير الوقوع في الأئمة فنحا منحى ابن حزم الظاهري، وشاع ذلك عن أصحابه، فافتى فقهاء مراكش بتضليله، وانهوا ذلك إلى السلطان فأمر بسجنه، وبقي فيه مدة ثم أفرج عنه، ثم شيعوا عليه أيضا أنه يقول: «الاشتغال بالصلاة على النبي (ﷺ) فتور عن الذكر وأشياء مستغربة، فسجن أيضا ثم أخلي سبيله..»[27].

---

22 - S.I.H.M 1ère série, France, 1: 290

23 - انظر حول انشاء أسطول لتحرير الأندلس من طرف محمد الشيخ وعبد الله الغالب:
Andrzej Dziubinski, op.cit pp. 92 - 93

24 - يستنتج هذا من كلام صاحب الدوحة ص 109 بقوله: «نزيل مراكش»

25 - م. بن عسكر، دوحة، ص 109.

26 - نفس المصدر والصفحة.

27 - نفس المصدر والصفحة.

وهكذا كان محمد الأندلسي ينحو منحى ابن حزم الظاهري ويبالغ في انتقاد أئمة الاسلام وخصوصا مالك بن أنس، حتى لقب أنصاره بالمحمدية وغيرهم بالمالكية: «... وتلقبت شيعته بالمحمدية، ويسمون من خالفهم بالمالكية نسبة إلى الامام مالك... »[28]، اشارة إلى أن هؤلاء ابتعدوا عن رسول الله وتشبثوا بغيره[29]. كما نال هؤلاء من قدر الرسول - عليه السلام - تسترا وراء تقديس الخالق القديم تعالى وتنزيهه عن أن يشاركه في قدسيه مخلوق مهما كان نبيا أو غيره، ولنستمع إلى مناظرة وقعت بين عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري عليوات وبين بعض دعاة هذه الطائفة: «... فقلت له سمعت منك أنكم لا تحتاجون إلى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام في شيئ وإنما هي أنا وربي حاضر لا يغيب، فتقول: يارب! فيقول: يا عبد! فقال: نعم! وما تنكر من ذلك؟ أليس محدثا وهو من جملة خلق الله تعالى والله خالق كل شيء وإليه ترجعون؟ فقال: سلمت هذا؟ قلت نعم؟ سلمته وأنا قائل به لكن بقي لي أن نزيد هذا بيانا: فقال: وما ذلك؟ فقلت له: ولماذا تقرأون القرآن وتحتج عليه بنصوصه وهو انما نزل على سيدنا محمد... »[30].

فهذه الأقوال إذن خطيرة، ولكن خطورتها لا تنسجم مع ما يشير إليه نص ابن عسكر من كونه كان يفرج عليه باستمرار كلما ألقي عليه القبض، فالرد لم يكن في مستوى ما تدعيه هذه الطائفة. إن السر في ذلك يكمن فيما أورده ابن عسكر نفسه قائلا... فانتشر صيته وبعد ذكره وكثر أتباعه ووقع بينهم وبين الفقراء خطب عظيم، وانتشر بسبب ذلك شغب في العامة، وكثر التعصب ووقعت المجاهرة بالقتال وسفك الدماء... لقيته مرارا وتكلمت معه فكان يتنصل من أكثر ما نسب إليه ويظهر التمسك بالسنة والاضراب عن القول بالرأي والقياس ويعيب طريقة الفقهاء... »[31]

فقد استخدم أسلوب التمويه مدعيا أن مبدأ الدين الإسلامي نفسه ليس موضوع نقاش، وإنما انتقاده موجه أساسا إلى الأساليب الجامدة لبعض الفقهاء، مما جعل الآراء تختلف حوله فيكثر خصومه وأنصاره.

لكن سيضع محمد الأندلسي نهايته بنفسه عندما سيتحول من حركة دينية إلى حركة سياسة تقف وراءها الجالية الأندلسية وتؤازرها، إذ شاركت طائفته في

28 - نفس المصدر والصفحة.

29 - محمد حجي، الحركة الفكرية، I : 241.

30 - سراج الغيوب في أعمال القلوب، ص 622 - 623.

31 - دوحة الناشر، ص 109.

الأحداث السياسية التي أدت إلى خلع محمد المتوكل وتولي عبد الملك المعتصم وإلى هذه يشير ابن عسكر قائلا «... وبقي في نفوس العامة شيء إلى أن دخل السلطان أبو عبد الله محمد ابن الغالب عبد الله بن محمد الشيخ مدينة مراكش عند خروج عمه السلطان عبد الملك عنها بالحركة إلى الجبل في ذي حجة من سنة أربعة (كذا) وثمانين، فوجه إليه القائد محمد بن كرمان التركي ليأتيه به فثار به أصحاب الشيخ الأندلسي فقتلوه، فأمر السلطان بإحضار الأندلسي والبحث عنه حيث كان، فأخرج من دار الشيخ أبي الحسن ابن أبي القاسم، فثار به العامة فقتلوه وصلبوه في التاريخ المذكور»[32] وإلى هذا التحويل يشير ابن القاضي أيضا: «... قتله السلطان أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشريف الحسني المخلوع فاز رحمه الله بقتله أياه، لكن قتله له ليس هو على بدعته وإنما قتله لكونه رئيس الأندلس الذين غرروه وكان ذلك سبب خلعه...»[33].

لنا أن نتساءل بعد هذا هل انتهت الحركة بانتهاء محمد الأندلسي ؟ يشير ابن القاضي إلى أن الحركة استمرت بعد موته: «... وتمسك بها أصحابه من بعده كعبد الخالق الومغاري... وابراهيم الراشدي، وكإبراهيم رفيق، ومن تبعهم أبعدهم الله وأذلهم[34]. كما ذكر في ترجمة عبد الخالق الومغاري: «وهو رأس الطائفة الأندلسية الملعونة، ولقد شاهدت بمدينة مكناس ثلمة عظيمة في الدين، أجلسوه على كرسي بجامعها الأعظم وهو يتكلم في التصوف بزعمه، ويضل العامة بمذهبه الشنيع - أهلكها الله - من طائفة مضرة بالسنة السمحة - بمحمد وآله. وهو حي من أهل العصر وله نظم ولم أذكره، بغضا في جانبه وطريقته وغيرته على أهل السنة: أهل الله.

وإنما ذكرته لا حذر منه، أبعده الله تعالى منه»[35].

كما ذكر عبد الكبير بن عبد المجيد الكثيري السالف الذكر (توفي بعد 1099هـ / 1687): قلت وقد وقعت لي مناظرة مع بعض أكابر الطائفة الخبيثة بقرية ولي الله تعالى سيدي عمر الراعي - رحمة الله عليه - بمحضر جم غفير من المسلمين عامتهم وخاصتهم وكان هو الطالب لذلك وتغيبت له في الناس ولا زال يبحث علي

---

32 - نفس المصدر والصفحة.

33 - درة المجال، 2: 35.

34 - المصدر السابق، ص 36.

35 - المصدر السابق، 3، 168.

من طلوع الشمس إلى الزوال، حينئذ ذل علي وقيل له هذ فلان. وكان فصيح اللسان جرئ الجنان قوي المنطق فدار بنا الناس وكانوا مهما تكلم يستلذون قوله وينصتون له فاتركه إلى حين يتنفس فتكلم بكلمات تبطل له ذلك، حتى صار أكثر الناس ينهرونني عن جوابه لشدة حلاوة منطقه فقلت في نفسي : هذا لا أقهره إلا بالله، وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد والله ناصر دينه...»[36].

أما فيما يتعلق برد فقهاء المغرب تجاه هذه الطائفة فنشير أولا إلى أن تعاليم هذه الطائفة قديمة في الأندلس ترجع إلى القرن السادس الهجري أو ما قبله، وقد رد عليها القاضي أبو بكر بن العربي (ت 545 / 1156) في كتابه عارضة الأحوذي في شرح جامع الترمذي[37].

ويمكن تلخيص تعاليم هذه الطائفة فيما يأتي :

الاجتهاد في الأحكام الشرعية جريا على ظاهر الكتاب والسنة وعدم تقليد مالك أو غيره من الفقهاء.

- إنكار أحكام جزئية مشهورة عند جمهور المسلمين فقالوا بعدم مشروعية الدعاء دبر الصلوات، وعدم وجوب إعادة الصلاة إذا خرج وقتها.

- استنكار ذكر النبي - عليه السلام - مع الله تعالى في الشهادة وغيرها «لأن المحدث لايفيد، ولايفيد إلا ذكر الله القديم سبحانه القديم سبحانه، بل قالوا أن الاكثار من ذكر النبي عليه السلام حجاب عن الله »[38].

وقد تصدى جماعة من فقهاء المغرب لهذه الطائفة وبينوا أضاليلها، فبالإضافة إلى ما أوردناه عند ابن القاضي وعليوات نذكر أيضا :

- أبا القاسم ابن سلطان القسنطيني خطيب القصبة بتطوان في تأليف له في مجلدين، «فقد أبدع فيهم، وزيف أقوالهم، وبين فسادها »[39].

- أحمد بن حسن الورياكلي المعروف بالصغير، كان في بداية أمره أندلسي المذهب ثم انفصل عنهم وبالغ في الرد عليهم وتسفيه آرائهم ، وألف في ذلك كتابا

---

36 - سراج الغيوب في أعمال القلوب، ص 622 - 624.

37 - ابن القاضي، المصدر السابق، 2 : 36.

38 - محمد حجي، المصدر السابق 1 / 242.

39 - ابن القاضي، المصدر السابق، 2 36 - 37.

مختصرا وقف عليه عبد الرحمان الفاسي مؤلف ابتهاج القلوب بخط المؤلف[40] «وكان يؤديهم كثيرا فغضبوا لذلك، وعظم الأمر لديهم، فقتلوه - رحمة اله عليه - وأخرى طائفتهم »[41].

-المؤلف المجهول صاحب تبصره الرئيس الأمين، ذكر في الباب الخامس الفرقة الأندلسية ومواطن انشارها مقارنا بينها وبين العكازية : «وأما الطائفة الأندلسية - أذلهم الله وأخلى منهم الأرض، فشرذمة قليلون . ونبغ شيخها وذبيحها بمراكش، وانتشرت بدعتها بسلا وظهر شيئ منها بمكناس الزيتون وخفى أمرها بفاس إلا النادر لكثرة الفقهاء والاشراف بفاس»[42]. ثم بين واجب السلطان تجاه هؤلاء المبتدعين بقوله «فيجب على الإمام إذ ظفر بواحد منهم تعزيره بما يراه من الضرب والسجن حتى يفيء إلى السنة والجماعة»[43].

---

40 - عبد الرحمان الفاسي، ابتهاج القلوب، ص 122.

41 - ابن القاضي المصدر السابق، 2 . 37

وانظر أيضا ابن أبي محلي، الاصليب، ص 58.

42 - نقلا عن محمد حجي، الحركة الفكرية 1 : 243.

43 - نفس المصدر والصفحة.

3

الجالية الأندلسية في عهد الملك المعتصم

ظلت الجالية الأندلسية تتحين الفرص للتخلص من عبد الله وابنه محمد المتوكل، وذلك بالاتصال بعبد الملك المعتصم وهو بالجزائر (... وكان معه (المتوكل) في الجيش ألف وثمانمائة من أهل الأندلس وكان رؤساؤهم يكتبون لمولاي عبد الملك بالقدوم عليهم غير مرة لأنهم كانوا يكرهون مولاي عبد الله وولده مولاي محمد لخيانته لهم في الاتفاق معه على القيام على النصارى وخذله لهم بعده فكانت عدواتهم له ومكرهم به في قلوبهم إلى أن يجدوا فرصتهم فيه أو في ولده...»[44].

وقد قدم أفراد هذه الجالية بالفعل خدمات جلى للمعتصم وهو بالجزائر وسنركز على ثلاث شخصيات منها:

أبو الفضل الغري: كان هو الواسطة بين المعتصم وشيعته بالمغرب ويفصل لنا الفشتالي المراحل التي خطاها في سبيل تمهيد الطريق لمخدومه: «... وكان «أبو الفضل الغري» ممن قذفت به النوى عندما عصفت بالأندلس رياح الكفر وطوحت به الطوائح إلى الجزائر فنزل على أمرائها من الأتراك فرسموه بديوانهم واثبتوا له الجراية لديهم. ثم حصلت له من بعد ذلك المداخلة التامة هنالك بالمعتصم - رحمه الله - فتقرب إليه بالبحث عن أخبار المغرب ونقلها بما كان يعلم ميله لذلك وتشوفه له، ثم أفضى الحال إلى أن أشخصه المعتصم إلى المغرب عينا له وسفيرا عنه إلى اشياعه، ومن كان يداخله في أمره، فوصل إلى مراكش بعهد الغالب بالله في صورة التاجر وحمل معه أحجارا من الياقوت فكان يطوف بها على منازل الأكابر توصلا إلى مكالمة أشياخ المعتصم وإيصال كتبه إليهم.

---

44 - المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة العدية ص 48.

ثم رحل لفاس، وكان المتوكل ولي العهد أميرها حينئذ وتلطف حتى اتصل به ورسمه في خدمته، ثم عقد له على حصة من جيوش النار لديه، وهو في ذلك كله حاطب في حبل المعتصم مرسله والمتوكل ووالده في غفلة من أمره...[45].

محمد زرقون : يفصل الفشتالي أيضا هنا خدماته للمعتصم قائلا :(... وخلص محمد زرقون هذا فيمن خلص من تلك الورطة(ثورة غرناطة) وعبر البحر إلى المغرب، فانتظم في جيوش النار لعهد الغالب بالله، ثم نزع إلى الجزائر عند الأتراك فأقام لديهم متحيزا إلى فئتهم إلى أن أجلب بهم المعتصم على المغرب وكان قد داخله وصحبه أيام الاغتراب بالمشرق إلى أن صارت إليه الخلافة فرعي له تلك السوابق ورفع منزلته وأوفى برتبته على سائر الرتب وألقى زمام الدولة وصرف إليه تدبير عساكر النار فانفرد بالتكلم في أموالهم وملك بذلك زمامهم...)[46].

سعيد بن فرج الدغالي: لعب سعيد بن فرج الدغالي دورا بارزا في الصراع بين المعتصم والمتوكل غير أن دوره برز أكثر في الاجراءات التي اتخذها عبد الله الغالب في حق الجالية الأندلسية بالمغرب «... ثم عبر (سعيد بن فرج الدغالي) البحر إلى العودة في سبيل الجولة ومطاوعة جنون الصبوة وطغيان الشباب ونزل بتطاوين من ثغور المغرب، وولع بالسفر في البحر خليع الرسن، ثم اتصل لعهد الغالب بالله بعظيم دوليته أبي علي الحسن بن أبي بكر، واختلف لداره بفاس أيام رياسته فجذب بضبعه ومكن قومه عند الخليفة وعقد له على الغرباء من قومه النازعين إلى المغرب من بلاد الأندلس، فجمعهم من كل قطر وتألف منهم على يده جيش كثيف من النار بمراكش وأقطعتهم الدولة أراضي فسيحة بالجانب الغربي من فحصها الأفيح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات، وحصلوا من استغلال ذلك إلي ايوم على ما أنساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به...)[47].

وبمجرد ما نزل عبد الملك بالمغرب أعلنت الجالية الأندلسية مبايعتهم له : «وأول من بعث إلى عبد الملك عسكر أهل الأندلس، قالوا : نحن بايعناك، فأمرنا نفعل، فقال لهم : إن كنتم على أمرنا فانزلوا، علينا ليلا، فلما أمسى المساء ارتحل أهل الأندلس ونزلوا على عبد الملك ولما أصبح شاع في العساكر أن عسكر أهل الأندلس غدورا ونزلوا على عبد الملك، فبلغ ذلك السلطان وكان بقصره بفاس فركب من وقته في

---

45 – عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 46 - 47.

46 – المصدر السابق، ص 45.

47 – المصدر السابق، 41 - 42.

حاشيته وأتباعه وتوجه راجعا لمراكش...)[48]. وهكذا فقد انضم سعيد بن فرج الدغالي بقواته البالغ تعدادها 1800 من الرماة الأندلسيين في معركة الركن بأحواز فاس (سنة 1576)، وجعل الكفة ترجع لصالح المعتصم، فكان بذلك أول انتصار فعلي تقدمه الجالية الأندلسية له[49].

وكلف المعتصم أخاه أحمد بمتابعته المتوكل في السوس وجعل أهل الأندلس تحت امرته[50]، ثم أرسل له بعد ذلك سعيد بن فرج الدغالي على رأس ألف من المشاة لنجدته في قلعة تحصن بها في تارودانت وتغلب القائد الغرناطي - بالرغم من قلة جنوده - على المتوكل وقتل عددا كبير من رجاله[51].

وقد سجل الفشتالي الحدث قائلا: «فاشتبكت الحرب واشتعلت وأشار أيده الله (المنصور) على سعيد بن فرج الدغالي وكان قائد جيش الأندلس وممن يدلى بالصرامة والشجاعة أن يصمم بعسكره من جيش النار تجاه المتوكل....»[52]، كما سجل المساهمة الكبيرة لجيش الأندلس في انتصار المنصور: «.. واحصيت القتلى في الملحمة فكانوا أربعة آلاف، ويقال قتل رجلان من جيش النار وحدها تسعين شخصا من الخوارج، فكانت هزيمة لم يسمع بأعظم منها ولا أشنع من خطبها...»[53].

---

48 - أبو القاسم الزياني، الترجمان المعرب، ص 353.

49 - المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 49.

م. الافراني، نزهة الحادي، ص 62.

ملاحظة: فسر Juan Bautista (الراهب الاسباني وصديق عبد الملك المعتصم) في كتيب له بعنوان اخبار عن حياة وأعمال المقتدر مولاي عبد الملك... » في الفصل الثالث انضمام الاندلسيين المعتصم بما يأتي:

«... كان مولاي محمد المتوكل) قائد أندلسي (سعيد بن فرج الدغالي) رأى الظلم الذي نزل بعبد الملك من جانب أخيه، المعتدي فأيقن أن عبد الملك هو ملكه الشرعي فانضم إليه مع 1800 من الرماة الأندلسيين كانوا تحت امرته...»

عن مرسيديس غرثيا ارينال «كتاب الراهب خوان بوتيستا عن عبد الملك، مقال بمجلة القنطرة الاسبانية عدد 2 ص 167 - 192.

وقد ترجمته امنة اللوه في مجلة البحث العلمي العدد 34، 1984 ص 113.

50 - المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 54.

51 - Vida de don Felipe de Africa; (1621 - 1566)

«حياة مولاي الشيخ بن محمد المتوكل»

نقلا عن محمد العربي الخطابي «امير سعدي في خدمة البلاط الاسباني مجلة المناهل، العدد 13، دجنبر 1978، ص 80.

ملاحظة: هذا الأمير السعدي هو الذي تزعم المصادر الاسبانية أنه تنصر.

52 - مناهل الصفا، ص 33.

53 - نفس المصدر والصفحة.

وهكذا صار أهل الأندلس يكونون ركنا أساسيا في جيش المعتصم: «.... وهو أول من اتخذ الجيش من فاس فجمع جيشا عظيما مع ما كان عنده من أهل الأندلس....»[54].

كما أنه اهتم بميدان يتقنه الأندلسيون كثيرا، وهو ميدان البحار «... وأمر بإنشاء السفن في العرائش وسلا وصار أهل الأندلس يسافرون في البحر من داخل المغرب وضيقوا بالنصارى أشد تضييق وكثرت الغنام....»[55].

وقد كان البرتغال والاسبان يدركون بالفعل خطورة تعاون الأندلسيين مع عبد الملك المعتصم في الميدان البحري، لذلك الحوا دائما على ضرورة احتلال اسواحل المغربية لإبعاد المغاربة عن البحر : (... وكان للنصارى عند وصوله (المتوكل) إليهم (البرتغال) تدبير عظيم على مولاي عبد الملك، فقال بعضهم لبعض : أن هذا السلطان رأى مملكة الترك ورأى منافع البحر، فأول ما أمر به إنشاء السفن إذا كملت العمارة يقطع إلى بلادنا مع أهل الأندلس وهم أقرب إلينا من غيرهم في الرأي ولايشتغلون إلا بنا لا محالة، ونحن ندبر على ملكنا قبل أن يصح سلطانه ويتمكن أمره وأول التدبير عندنا أن تخرجوا وتتمكنوا بالسواحل وتحتووا عليها وتقاتلوه في بلاده وأرضه، فاجتمع رأيهم على ما ذكر وقالوا لمولاي محمد : نحن خارجون وأنت معنا فإن ظفرنا بالبلاد فلا قسم لنا معك فيها إلا السواحل وما دونها فهو لك ...»[56].

غير أن ثقة المعتصم في هؤلاء لم تكن مطلقة خاصة أن لهم ماض معين مع عبد الله الغالب وابنه المتوكل، ويعرف تقلباتهم واتصالاتهم المريبة مع الأتراك لذلك فقد كان يحترز منهم، فقبل وقوع معركة وادي المخازن بقليل بدأت تظهر بالفعل بعض نواياهم الخفية إذ ذكر الفشتالي وهو بصدد الحديث عن تقلباتهم السياسية :(... وأما ثالثا فباستيام الثورة والاستبداد بالسوس في مغيب المولى المنصور عنه لتشريد المتوكل إلى أرض النصارى....)[57].

وفعلا عندما تأكد أحمد المنصور – عندما كان ينوب عن أخيه في تتبع المتوكل بالسوس – من النوايا المبيتة للغدر أمر بمراقبة أهل الأندلس ولو من بعيد «... وقد

---

54 – المؤرخ المجهول، تاريخ الدولة السعدية، ص 53.

55 – نفس المصدر والصفحة.

56 – المصدر السابق ص 59.

57 – عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 42.

أنس المنصور منهم (عسكر أهل الأندلس) الغدر لكن لم يتهيأ لهم مع وجود المنصور وفراسته. لكنه لما أراد التوجه للجهاد خاف أن يقع منهم الغدر في غيبته فترك معهم جند الموالي وجند البربر، وترك خاله الحاجب عبد الكريم بن يحي عينا على الدغالي وابن أخيه محمد والكاهية محمد زرقون وأبا الفضل الغري لما اشتهر غدرهم مع الغالب ومع المتوكل، وترك في مقابلتهم أيضا عساكر الشراقة من بني عامر وبني تسنوس وسقونة والاحلاف، وكل هؤلاء من عساكر النار، وهذا حرزا من عسكر أهل الأندلس إن يميلوا إلى شيعة المتوكل ويفسد عليهم الجهاد...»[58].

ورغم ذلك فإن نفير الجهاد أعلن، وجرت المعركة وشارك فيها كثير من الأندلسيين[59]، إذ أن الجيش البرتغالي كان يضم عددا كبيرا من الاسبان، فوجدها الأندلسيون سبيلا سهلا للانتقام، وقد كانت آثار هذه المعركة بعيدة المدى على القضية الأندلسية إذ أن فليب الثاني بدأ يفكر جديا في طرد الموريسكيين من اسبانيا، بل واتخذ قرار في هذا الشأن[60]، وهذا كله خوفا من التعاون بين الموريسكيين داخل اسبانيا وخارجها وخوفا من تقديم الموريسكيين للمساعدات لكل من المغرب والأتراك لغزو اسبانيا.

لنا أن نتساءل بعد هذا : لماذا لم يستغل المعتصم هذه الجالية الأندلسية الضخمة لتقديم المساعدة للموريسكيين باسبانيا ؟

إن الجواب واضح وهو يتكرر دائما، وبنفس الصورة تقريبا ألا وهو الضغط التركي الذي كان يحول دون تقديم هذه المساعدة، إذ سعى عبد الملك أيضا - كسابقيه - إلى عقد محالفات مع الاسبان ضد الأتراك، فقد أرسل سفارة أولى يذكر بأنه يعتبر الأتراك أعداء له وهو لذلك يعرض على اسبانيا مشروع حلف دفاعي - هجومي يبرم بينه وبين فليب الثاني[61].

كما أرسل سفارة ثانية يعرض فيها بنود مشروعه التي تنص فيها على إقرار السلم بين البلدين وحرية التجارة لرعاياهما، وعدم مديد المساعدة ضد بعضهما البعض[62].

---

58 - أبو القاسم الزياني، الترجمان المغرب، ص 354.

59 - J. Caro Baroja, los Moriscos del reino de Granada, p. 240 59

60 - انظر ما سبق الموريسكيون في عهد فليب الثاني.

61 -Vida de don Felipe de Africa

نقلا عن محمد العربي الخطابي، المصدر السابق، ص 87.

62 - S.I.H.M 1ère série. Angleterre, I : 214

4

الجالية الأندلسية في عهد المنصور

كانت سياسة المنصور تجاه الجالية الأندلسية تتميز بصفة عامة بالاهتمام المشوب بالحذر، فقد واجه هؤلاء وهو في أوائل حكمه فكان حسمه في الأمر في مستوى ما تتطلبه المرحلة، لكنه من جهة أخرى لم يفتأ يدافع عن القضية الأندلسية في المحافل الدولية، ويبحث عن حلفاء له التنفيذ مخططه في تقديم المساعدة للموريسكيين داخل اسبانيا نفسها، وتسهيل سبل الانتقال إلى المغرب، وفتح مجالات السعة والارتزاق به، أي بمعنى آخر فإن المنصور كان يقدم كافة المساعدات لأفراد هذه الجالية مادامت تعمل تحت سلطته، ومادامت تحترم التزاماتها بالكف عن التعامل مع أعدائه، خاصة الأتراك، أما إذا أبدت طموحا ما نحو السلطة والنفوذ فإنه كان يتصدى لها وبقوة.

*****

لقد تأكد المنصور - ومنذ أيام المعتصم - من النوايا الخفية لقواد الأندلس ومن علاقاتهم بالأتراك. وازداد الأمر وضوحا مباشرة بعد معركة وادي المخازن وإبان ثورة ابن أخيه داود بن عبد المومن، إذ كانوا يرغبون في تولية عميل لهم بالمغرب مما جعلها تتحول إلى مؤامرة أندلسية بحماية تركية، لذلك بادر المنصور إلى حسمها منذ البداية.

سعيد بن فرج الدغالي وابن أخيه محمد : اكتشف المنصور أمره وهو بعد بالسوس، لذلك كان حذرا منه فبعد معركة وادي المخازن أتت جموع القبائل من السوس إلى مراكش ومنها إلى فاس لتهنئة الخليفة الجديد، إلا أن الدغالي تخلف بمراكش لأنه كان عازما على الثورة، لكنه تحت ضغط القبائل، اضطر للاتيان معهم إلى فاس[63]، غير أنه مالبث يناور للتخلص من بقاءه بجوار المنصور بفاس : "... ولم يلبث الدغالي أن استعمل المرض وشكى إلى الخليفة وخامة المنزل وفساد مزاجه

---

63 - انظر عبد العزيز الفشتالي، مناهل، ص 52 - 43.

بفاس، وطلب منه الاذن في القدوم لسلا بما كانت تحت ولايته منذ عهد المعتصم يستنيب بها محمد بن أخيه، فتفطن الخليفة لكره وانطوائه على النكث واعتل عليه في الأذن، وأظهر له غاية الحاجة إلى حضوره بمجلسه للمفاوضة معه في أمور سلطانه وصالح مملكته، توثقا بنصحه، واعتدادا بمخالصته...»[64]. ورغم رفض المنصور منحه الاذن بالذهاب فقد مضى في تنفيذ مخططه: «فلم يصرفه بذلك كله عزمه وصمم على الغدو وألح في الطلب فسد له الخليفة باب الاذن، فاجترأ حينئذ لحتفه... مع الجهد والفضاضة إلى الغاية فخرج نهارا من غير إذن...»[65]. فبعث له المنصور أولا مع القائد أبي عبد الله محمد بن سليمان لكي يرجع عن ما صمم عليه، لكنه استمر في تنفيذ مخططه، إذاك اتخذ المنصور قراره الحاسم بأن سرح إليه القائد أبا اسحاق ابراهيم بن محمد السفياني وأحمد الزواوي، وحدو الزواوي، وعبد العزيز ابن يخلف اليفرني وعبد الله التلمساني، وكان هذا الاختيار مقصودا (لاستحداث العداوة بينهم وبين عساكر الأندلس)[66].

وقد كانت خطورة ماكان يهدف إليه الدغالي معروفة إلى حد كبير فهذا ابن القاضي - مثلا - يسجل في ترجمته: «... وكان سعيد هذا قائد جماعة الأندلس غدر بجماعته، وهرب إلى عبد الملك، فكان سبب خراب ملكه... وخدم مولانا أبا العباس أحمد المنصور، إلى السوس في بعض أغراض الملك، فحدثته نفسه هناك بالثورة على مخدومه، وغدره أيضا، فما زال به المخدوم حتى قبض عليه، وفتك به وبجماعة من طائفته المفسدين لشقهم العصا، وخلعهم ربقة البيعة من أعناقهم...»[68].

محمد زرقون الكاهية : لم يكن أقل خطرا من سابقه، فقد (... جمع كلمة الأجناد كافة على أفساد، فاضطربت الأحوال ومرج أمر الناس، وتحقق أمير المؤمنين حينئذ بذلك ما انطوى عليه محمد من العداوة والبغضاء لسلطانه وجده في هدم بناء دولته، وسعيه في فساد ملكه، وتفريق أمر الجماعة...)[69] وكان القائد الأندلسي يهدف بذلك إلى تولية الأمير داود بن عبد المومن الذي كانت تربطه علاقات قوية مع الأتراك، فهي

---

64 - المصدر السابق، ص 43.
65 - نفس المصدر والصفحة.
66 - نفس المصدر والصفحة.
67 - المصدر السابق ص 44.
68 - درة الحجال، 3 : 302 - 303.
69 - مناهل الصفا، ص 46.

في النهاية مؤامرة أندلسية بحماية تركية، لكن المنصور حسم في الأمر من جديد، وفوت بذلك على الأندلسيين ضرب الدولة وهي في مهدها.

أبو الفضل الغري : كان مصيره مثل مصير سابقيه إذ كشف أمره :«... صار (القائد الأندلسي) يسمو بنفسه إلى العظام التي ليس لها بأهل من تقليد الأعمال وولاية الثغور يقود عساكر الأسنة، وكان قد دخل أيضا الدغالي ظهيره في الخلاف ومساعده بغدر في شأن استيام الثورة التي جنح إليها واحتمل في أمرها بالسوي، ولما سطا أمير المؤمنين بالدغالي وعلم بينهما من الخلة واجتماع الكلمة على الشر حذر مغبة أمها له وأكد ذلك ما كان من انقباضه عن مجلس الخليفة في تلك الأيام باستعمال المرض، فاستراب لذل به وتقبض عليه يوم الفتك بالدغالي وأصحابه وجنب إلى مصرعه، فألحقه بهم وقتل النفر الأربعة، جميعا ليوم واحد في شهر رجب من عام ستة وثمانين - شتنبر 1578[70] ».

وقد عد قتلهم انتصارا كبيرا لسياسة المنصور وحذره، خاصة أن مكانتهم في الدولة كانت كبيرة جدا، وكانوا على اتصال دائم مع الأتراك :(... واعتدوا (المغاربة) قتلهم فتحا ثانيا لما عقبه من التمهيد واطمئنان الأحوال، واقتلعت جرثومة الشقاق باقتلاع جدوعهم واستقامت أحوال الجند من يومئذ ورغبة، واستولت قدم أمير المؤمنين في ملكه، وأجمع الرحلة لمراكش دار الخلافة وعنصر الدولة ...»[71].

علاقة الأندلسيين بثورة الأمير داود بن عبد المومن.

كانت للأمير داود علاقة قوية بالقادة الأندلسيين وبالأتراك على حد سواء، لذلك بادر المنصور - بمجرد القضاء على القادة الأندلسيين - إلى فرض نوع من الإقامة الاجبارية عليه (وتوقى لذلك ما ينشأ عن بقاء داود وراءه، وحذر مغبتة، فرأى جلبه ومقامه لديه أحوط على الكلمة...)[72]، لكنه تمكن من الفرار وإعلان الثورة ضد عمه بسوس (شعبان سنة 987 / 1579) بجيش يضم العديد من الأندلسيين والأتراك (فلحق بالسوس ونزل على المنحرفين عن الطاعة من أهله، فاجتمعوا إليه من صرخ في سائر القبائل بالخلاف والعصيان، وكان عهدهم بالطاعة حديثا لم ترسخ فيهم قواعدها كل الرسوخ، فلبوا داعيته واعلنوا بالعصيان وتواطأوا على الشقاق كافة...)[73].

70 - المصدر السابق، ص 47.

71 - المصدر السابق، ص 47.

72 - المصدر السابق، ص 56.

73 - المصدر السابق، ص 57.

وقد كان داود يسعى إلى الوصول إلى درعة والصحراء المغربية الشرقية من أجل الاتصال بالأتراك في الجزائر[74]، لكن المنصور كان حازما أيضا في مواجهته للثورة إذ أرسل أحد قواده المشهورين (محمد بن ابراهيم ابن بجة) للحسم في أمرها وتمكن من ذلك بالفعل.

هكذا ضاعت على المنصور - أمام ضغط الأتراك[75] - فرصة المساعدة للمورسكيين باسبانيا بل وتحرير ما تبقى من الثغور المحتلة[76]، إذ اضطر للتقارب من الاسبان[77].

ومن الطبيعي أن يكون للتقارب المغربي الاسباني آثار سلبية على المورسكيين باسبانيا، ففي صيف 1580 اكتشفت مؤامرة مورسكية واسعة النطاق، وقد يكون سفراء المنصور أنفسهم هم الذين أفشوا سرها للاسبان[78]. وكان المنصور يراقب أفراد الجالية الأندلسية، ويتتبع تحركاتها، فمن الممكن أن يتصلوا ببعض أفراد البيت المالك نفسه ممن لهم طموح ما (كما فعلوا مع داود بن عبد المومن). ومن الممكن أن يقدموا مساعدات للأتراك قصد غزو المغرب لذلك فهو يتفقد أمر عدوه قبل أن تشتد شوكته وتكثر شكته، ويعالجه قبل أن يعضل دواءه ويعجز دواؤه»[79].

---

74 - عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص111.

75 - أعطيت الاوامر إلى علوج على قائد الأسطول العثماني لغزو المغرب وقد وصل علوج إلى الجزائر في جمادى الثانية 989هـ/ 1581 بينما كان المنصور يرابط جرارة عند نهر تانسيفت.
انظر مناهل الصفا، ص 61.

76 - كان العلماء يلحون كثيرا على ضرورة استغلال نصر معركة وادي المخازن في سبيل استرجاع الثغور المحتلة، وهذا الشيخ رضوان الجنوي - مثلا - يذكر في رسالة موجهة للمنصور: «... وإلى هذا فالله، في الحزم وامضاء العزم وهو ماظهر لرعيتكم من انتهاز الفرصة الممكنة في هذا الوقت، من الحركة لمدائن الكفار التي هي طنجة وأصيلا وسبتة فإنهم في هذه الساعة في دهش وخزي وخذلان بما أمكن الله منهم ، ولا أظن - نصركم الله - مثل هذا يخفى عليكم حتى نحتاج أن نذكركم به ...».
انظر : أحمد المرابي الأندلسي، تحفة الاخوان، ص 432 - 424.

77 - ذهب المنصور إلى حد أنه وعد الاسبان بالتنازل لهم عن العرائش انظر :
S.I.H.M. 1ère série, Pays-Bas, 1 : 191 - 194
S.I.H.M. 1ère série, France, 1: 512

78 - F. Braudel, la Méditerranée.... 2: 126

79 - أحمد بن القاضي، المنتقى، 1 : 417.

قضية الأندلس في علاقات المنصور الدولية

كانت قضية الأندلس تشكل ركنا أساسيا في سياسة المنصور الدولية، فقد اتجه إلى كافة الدول التي تكن عداء ما للاسبان للتحالف والتنسيق معها قصد تحقيق أهدافه في تحرير الثغور المغربية، وفي تقديم المساعدة للموركسيين باسبانيا في مرحلة أولى وغزو الاسبان في عقر دارهم في مرحلة ثانية، فكل تصرفاته كانت تسير في هذا الاتجاه المحدد مسبقا، هكذا اتجه المنصور أولا إلى التعاون مع الانجليز ضد فليب الثاني وكان محرر هذا التعاون : حل المشكلة البرتغالية، وذلك بتقديم المساعدة لدون أنطونيو قصد استرجاع عرشه[80]، وقد تعززت الرغبة في التعاون بعد فشل الاسبان في حملة الأرمادا Armada ضد الانجليز (30 يوليوز - 10 غشت 1588) إذ أرسلت الملكة اليزابيت بالبشرى إلى المنصور مخبرة أياه بأن الأمير دون كرستوف بن دون أنطونيو سيبقى رهينة عنده بالمغرب مقابل المساعدة المادية التي سيقدمها لدون انطونيو لاسترجاع عرشه[81]، كما أن المنصور كتب إلى ولاته يطلعهم على الأمر ويؤكد لهم في نفس الوقت زوال الخطر الاسباني الذي كان يهدد المغرب، بل عزمه على تقديم المساعدة للموريسكيين في اسبانيا نفسها : «.... كان ذلك (انتصار الانجليز في الأرمادا) والمنة لله لهذا الأمر العزيز عنوان الأقابل والظفر، وعلامة على انجاز وعده المنتظر، في الاستيلاء بحول الله على بلاده وأقطاره، ومنازلته بجنود الله المظفرة في عقر داره، واستنقاذ النقدة المتغلب عليهم في الأعصر السالفة والدول الماضية من بين أنيابه وأظفاره، وبخاصة بلاد الأندلس التي هي بحول الله على سيوفنا أهون مطلوب، وأيسر موهوب، فهي الوديعة المستردة بحول الله على أيدينا، والقلادة التي خبأتها الأيام لجيدنا وقد آذن بدنو زمان ذلك إن شاء الله وميقاته، وبلوغ ساعته البادية الاشتراك أوقاته ...»[82]. وفعلا فقد سر الموريسكيون بهزيمة الاسبان، واعتبروها مؤشرا للخلاص، فأعلنت الثورة باراغون في نفس السنة(1588)[83] ولا يستبعد أن يكون للمنصور يد في ذلك: «... وهو الآن - أيده الله - لهذا العهد من عام سبعة وتسعين (وتسعمائة) واقف على قدم الأهبة والاستعداد لذلك توصلا بما ينشأ عن ذلك من اتساع نطاق الملك وامتداد جناح السلطان وانفساخ مجال

---

80 - S.I.H.M. 1ère série, France, 1: 513

81 - S.I.H.M. 1ère série, France, 2: 151

82 - رسائل سعدية، ص 155.

83 - F. Braudel, La Méditerranée... 2 : 127

الأعمال وكثرة الاتفال إلى التفرغ لما صرف إليه - أيد الله - عزمه وجعله قصده وهمه من جهاد المشركين واغراء أرضهم في الجنوب والشمال يعساكره الأمامية وموالات البعوث إلى أقطارهم حتى ينجز الله وعده الكريم في إعلاء كلمة الحق ...»[84].

وقام بعمل مواز لذلك داخل المغرب نفسه، إذ أمر الجالية الأندلسية بتطوان بالهجوم على سبتة في شهر دجنبر من نفس السنة (وكادوا أن يستولوا على سبتة بما أتيح لهم من الظهور...»[85].

كما اشتركت الجالية الأندلسية بمراكش في مظاهرة عدائية ضد الاسبان، إذ قصدت بيت السفير الاسباني بالمغرب Diego Marin وقامت بإضرام النار فيه، مما أجبر السفير الاسباني ومن معه على استعمال الأسلحة النارية ضد المهاجمين[86].

وكان المنصور حريصا - في تحالفه مع الانجليز - على بناء أسطول قوي يمكنه من تقديم مساعدة فعلية للجالية الأندلسية داخل المغرب وخارجه:

(... وهو اليوم - أيده الله - لهذا العهد بصدد الاكثار من الأساطيل، رغبة في الجهاد والاستظهار على عدو الدين، قوي الأسر بحمد الله وافر العدد والمدد... حتى يبلغ أمل الاسلام في الجهاد ويفتح من أرض الأندلس من أقصى البلاد والأقطار البعاد...»[87]. وقد حاول فليب الثاني أن يواجه المنصور بالمورسكيين أنفسهم ليفسد عليه «مشاريعه الأندلسية»، إذ يذكر الفشتالي في هذا الصدد: «... وأنس (فليب الثاني) أيضا نار العزم تلتهب من جانب العناية الأمامية المولوية المنصورية التهابا وبحر الاحتفال تضطرب أمواجه الزاخرة بكل عدد وعدة اضطرابات والهمم الشريفة قد همت بتجديد الأسطول وكلفت بالاستكثار من المراكب الجهادية والآلات الحربية بما كان مولانا أمير المؤمنين - أيده الله - يؤمل من فتح جزيرة الأندلس وعبور البحر إليها بجنود الله وعساكر الاسلام لتجديد رسوم الايمان بها وافتكاكها من يد الكفر المتغلب عليها... وحذر الطاغية مغبة ذلك... فاعتمل مكافأة مولانا أمير المؤمنين... بما أمل أن يفت به في عهد الدين... فأمل الناصر لذلك ورمى به إلى وراء البحر...»[88]. وفعلا أبحر الناصر بن الغالب بالله - اللاجيء باسبانيا آنذاك

---

84 - عبد العزيز الفشتالي، مناهل، ص 81.

85 - المصدر السابق، ص 96.

86 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 2:97

87 - مناهل الصفا، ص 197.

88 - المصدر السابق، 170، رسائل سعدية، 53 - 54.

- من مالقة يوم 7 ماي 1595 ومعه قوات جرارة معظمها من الموركسيين الذي كانوا يعيشون تحت وطأة محاكم التفتيش القمعية فوجدوا في ذلك فرصة لتحقيق أمانيهم باللجوء إلى شمال افريقيا فرارا من جحيم الاضطهاد، كما وجدها فليب الثاني كذلك فرصة للتخلص منهم، خاصة أنه - كما ألمحنا إلى ذلك سابقا - كان يخطط لطردهم[89]. نزل الناصر، إذن ، بمدينة مليلة المحتلة ومنها أعلن الثورة ضد عمه المنصور. وأهمية ثورة الناصر تأتي بالخصوص من كونها كانت تضم عددا من الموركسيين، إذ أن وجودهم ضمن قواته جعل المنصور يتخوف منها إلى حد كبير نظرا للجالية الموركسية الكبيرة التي كانت تضمها قوات الخليفة، ونظرا للتجارب السابقة التي كانت له معها، وهذا من بين العناصر التي تفسر الصعوبة التي وجدها المنصور في القضاء على الثورة لكنه تمكن في الأخير من التغلب عليها وأرسل إلى ولاته وإلى علماء الشرق العربي يخبرهم فيها بهذا الانتصار المحقق، وبأن عمل الاسبان هذا لن يؤثر مستقبلا على مشاريعه الأندلسية :

(... إن يؤيدنا الله على عدو الدين بفضله وينجز لنا وعده الصادق في إظهار دين الحق على الدين كله ويسهل علينا بفضله ومعونته أسباب فتح الأندلس وتجديد رسوم الإيمان بها وإحياء اطلاله الدرس حتى ينطلق لسان الآذان في أرضها بكلمة الله...»[90].

وكان المنصور يرمي من وراء توجيه تلك الرسائل إلى علماء الشرق العربي إلى إقناعهم بأنه مؤهل أكثر من غيره لتقديم المساعدة للموركسيين، خاصة أن الأتراك- في عهد محمد الثالث - كانوا يعانون الكثير من جراء حروبهم بأوروبا الشرقية، ومن جراء الثورات والفتن التي كانت تعيشها الامبراطورية.

وبالفعل فقد انطلق المنصور في محاولته لعقد حلف عسكري يضم المغرب وبريطانيا وفرنسا وهولندا، إذ أن المعسكر البروستانتي كان مصمما على توجيه الضربة القاضية للاسبان، متخذا من مدينة قادس قاعدة انطلاق نحو قلب اسبانيا[91]، وطلبت اليزابيت من المنصور أن يقوم بتخريب المناطق الزراعية حول مراكز الاحتلال

---

89 -Georges Pianel, le Maroc à la recherche d'une conquête: l'Espagne ou les Indes, in *Hespéris*, 1953, t x I 3 4 + 2pp, 512 - 513

عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، ص 195.

ملاحظة: نشر عبد الكريم بعض الرسائل المتعلقة بثورة الناصر في ملحق كتابه السالف الذكر.

90 - مناهل الصفا، ص 191.

91 - مناهل الصفا، ص 91.

الاسباني بالمغرب، وإن يفرض عليها حصارا اقتصاديا شديدا[92]. ويعد هذا العمل كحظوة أولى للهجوم على اسبانيا نفسها أي ضرب المراكز الأمامية قبل التعمق في الداخل، وفي مارس من سنة 1600 أرسل المنصور وفدا إلى لندن ظل لمدة 6 أشهر، إذ لم يغادرها إلا في مطلع يناير 1601، وتتخلص مقترحات الوفد المغربي في[93]:

- عقد حلف عسكري بين المغرب وانجلترا، وذلك للهجوم على الاسبان في المراكز المحتلة بالمغرب، ثم نقل الحرب بعد ذلك إلى اسبانيا نفسها وكذا الهجوم على المستعمرات الاسبانية في غربي افريقيا وجزيرة Arguin وجزر الهند الشرقية[94].

- نقل وفد مغربي إلى حلب على متن سفن انجليزية. وكان قصد المنصور من ذلك الاستفادة من الظروف السيئة التي كانت تعيشها الامبراطورية العثمانية آنذاك.

لكن اليزابيت رفضت نقل الوفد المغربي إلى حلب نظرا لعلاقاتها مع الأتراك[95].

أما بالنسبة للاقتراح الأول فإن انجلترا لا توافق على مهاجمة اسبانيا ولا تهاجم القواعد المحتلة بالمغرب، لكنها تقترح على المنصور إمدادها بقرض قيمة 100 ألف جنيه لتهييئ حملة عسكرية ضد الهند، إحدى المستعمرات الاسبانية، لأهميتها الاقتصادية[96]، غير أن المنصور ربط تقديم قروض بمشاركة القوات المغربي في غزو المستعمرات الاسبانية وبالتالي اقتسام الأراضي المفتوحة بينهما[97].

وقد أجابت اليزابيت بأنها تحبذ توجيه بعض أفراد الجالية الأندلسية بالمغرب إلى انجلترا للمشاركة في حروبها ضد الاسبان[98]، مما يدل بالفعل على أن الاتصال كان قائما بين الانجليز والجالية الأندلسية بالمغرب خاصة أن السفير الخاص الذي حمل مقترحات الزابيت كان هو نفسه أندلسيا (وقد ورد على مقامنا العلي فلان الأندلسي وقرر لنا

---

92 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 2 : 121

93 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 2 : 197

Georges Pianel, op. cit, pp; 516 - 521

محمد بن تاويت، من زوايا التاريخ المغربي، مجلة تطوات العدد الثامن 1963، ص 43، 48.

94 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 2 : 222

95 -F. Braudel, la Méditerranée...... 467

96 - محمد بن تاويت، المصدر السابق، ص 45.

97 - رسائل سعدية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط ك 278، ص 195.

98 - نفس المصدر والصفحة.

كل ما حمل من تلقائكم من المقاصد والأغراض التي لقيتموها إليه وقصصتموها عليه تقريرا أصغنا فيها بالأذن الواعية حتى فهمنا جملة وتفصيلا ووعيا كل ما قررتهم له تقريرا أصيلا)[99]. والواقع أن المنصور كان يخشى أي احتكاك مباشر بين الجالية الأندلسية بالمغرب والانجليز، إذ من الممكن أن يستخدموها أيضا ضده، فقد سبق للأتراك أن استخدموا هذه الجالية ضده، كما استخدمها الاسبان بعد ذلك، فلم يكن بيد إذن من أبعادهم عن مواقع القيادة والمسؤولية. وفي المقابل أعلن المنصور عن استعداده للجهاد وبأن المغاربة كلهم رهن إشارته (... ولو رفعنا النداء بالجهاد لنهض المغرب بحد أفره، سهوله وجباله عربه وبربره، بجموع تملأ الأرض وتغطي سوادها الأعظم الشمس..)[100]وشريطة أن يكون للمغاربة نصيب في ذلك: (..إذ تيسر ذلك وعلم المسلمون أن البلاد إذا فتحت تبقى لهم فإن هذا الأمر بحول الله وقوته أهون شيء علينا وعليهم بخلاف ما إذا كان البلاد إذا فتحت تبقى لهم فإن هذا الأمر بحول الله وقوته أهون شيء علينا وعليهم بخلاف ما إذا كان البلاد ستفتح ولا تبقى لهم فإن هذا الأمر بحول اله وقوته أهون شيء علينا وعليهم بخلاف ما إذا كانت البلاد ستفتح ولا تبقى لهم فإن فقهاءنا وعلماءنا لا يساعدونه على ركوب الأخطار بالمسلمين واقتحام الأهوال العظيمة لهم إلا إذا كانت البلاد يسلم إليهم أمرها ويلقي إليه حكم ولايتها والنهوض بغير هذا الشرط لا يجوز عندهم في الدين...)[101].

مشاركة الأندلسيين في عملية فتح السودان

لم تكن الأندلس بعيدة عن فتح السودان، فقد صرح المنصور في المجلس الاستشاري الذي عقده لهذا الغرض - إن الهدف هو : «الاستكثار من الأسطول لغزو عدو الدين والاجلاب عليه بحول الله وعزته في عقر داره...»[102]، وأكد في نفس المجلس أنه سوف يعتمد على عساكر الأندلس لأنها «عساكر قاذفة بشواط الناس»[103]. وفي رسالة بعث بها إلى اسكيا الحاج محمد أمير كاغو يقول حول الهدف من فرض خراج معين على ملح تغازي: «وقصدنا بما يحصل من ذلك

---

99 - نفس المصدر والصفحة.

100 - نفس المصدر والصفحة.

101 - نفس المصدر والصفحة.

102 - عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا، ص 128

103 -نفس المصدر والصفحة.

صرفه إن شاء الله في سبيل الغزو والجهاد.. ومنازلته (العدو) على الدوام في عقر داره...»[104].

وفعلا فقد شاركت الجالية الأندلسية بالمغرب بنصيب كبير في عملية فتح السودان، بل أن قيادة الجيش نفسه اسندت إلى قائد جيش الأندلس جودر باشا[105]، بالإضافة إلى عدد من القادة الأندلسيين، نذكر من بينهم : محمد بن زرقون وأحمد الحروسي الأندلسي، وقاسم وردوي الأندلسي[106].

وقدر المؤرخ الاسباني المجهول عدد الرماة الأندلسيين بألف من مهاجري غرناطة[107]، وظل عدد من أفراد الجالية الأندلسية يتوافدون على السودان، إذ ذهب - مثلا - مع القائد عمار باشا حوالي خمسمائة من الأندلسيين[108]. وقد شارك في الحملة أيضا عدد من الاسبان الذي دخلوا إلى الاسلام حديثا، وكان المنصور يسهر بنفسه على اقناعهم بالدخول في الاسلام ليستخدمهم بعد ذكر في هذه العملية، فقد ذلك الشهاب الحجري في هذا الصدد : «وكان قد ذكر لي رجل من علماء النصارى في مدينة مراكش، وكان راهبا ثم أسلم، وسمى برمضان ثم مشى إلى بلاد السودان ومات بها - والله أعلم - وقال لي: إن السلطان مولاي أحمد - رحمه الله تعالى - أمر باحضاره بين يديه بعد أن علم أنه من علماء النصارى...»[109]، كما ذكر عبد الرحمان السعدي أن الكاهية باحسن فرير Ferrer كان راهبا[110].

غير أن الحذر ظل هو الطابع المميز لعلاقة المنصور بهذه الجالية وان ابتعدت عنه بالسودان[111]، إذ لم يكن المنصور يطمئن كثيرا إلى هؤلاء خاصة أن رغبتهم في السيطرة ما زالت قائمة، وبعض تصرفات هذا الجيش الأندلسي وقادته لا تنسجم تماما مع الأهداف التي خطها المنصور، إذ يذكر عبد الرحمان السعدي في هذا الصدد: «... ثم أن السلطان مولاي أحمد بعث القائد منصور بن عبد الرحمان إلى أرض

---

104 - رسائل سعدية ص 134.

105 - من أصل اسباني، منLas cuevas قرب غرناطة. وقد دخل إلى الاسلام حديثا، Relation de l'Anonyme Espagnol, in *Hespéris*, 4ème trimestre 1923, p. 468.

106 - عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، ص 138.

107 - Relation de l'Anonyme Espagnol, in *Hespéris*, 4ème trimestre 1923, p. 468.

108 - عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، 181.

109 - انظر بقية المناظرة في كتابه ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 154.

110 - Relation de l'Anonyme Espagnol, in *Hespéris*, 4ème trimestre 1923, p. 472.

111 - ذهب محمد الغربي إلى أن المقصود من ارسال جيش الأندلس إلى السودان هو التخلص منه لأنه كان مصدر قلث بالنسبة له.

انظر : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص 157.

السودان برسم قبض محمود بن زرقون وقتله وإهانته...»[112]، مما جعل المنصور يستبدل الحاميات الأندلسية بحاميات مغربية غير مشكوك فيها[113]، وقد استمر الأمر كذلك إلى ما بعد وفاة المنصور، إذ يذكر نفس المؤرخ في هذا الصدد: «... ثم شرع القائد الحسن في تبديل نظام الجيش وبدل العلامات ورد سرية الفاسيين أصحاب اليمين وسرية المراكشيين أصحاب الشمال، ونزل العلوج والأندلسيين تحتهما، ورغم أن ذلك كان من عند السلطان مولاي بوفارس...»[114].

اهتمام المنصور بالأندلسيين

رغم سياسة الحذر التي اتبعها المنصور تجاه جاليته الأندلسية فإنه مع ذلك كان يفتح لها باستمرار سبل السعة والارتزاق بل والارتقاء إلى مختلف المناصب الحساسة في الدولة من جيش وإدارة إلى غير ذلك، فقد كانوا يحظون باهتمام بالغ داخل جيش المنصور: «والترتيب الذي جرى عليه العمل في عساكر النار بالحضرة أن يتقدم أولا جيش السوس، ثم يردفه جيش الشراقة... م يردفهما العسكران العظيمان: عسكر الموالي المعلوجي ومن انضاف إليهم، وعسكر الأندلس ومن لبس جلدتهم ودخل في زمرتهم...»[115]، ويدخل اهتمام المنصور بالأسطول في هذا المجال أيضا، إذ كانت الجالية الأندلسية تشارك المغاربة في عملياتهم الجهادية، وكانت هذه العمليات تخلف عددا من الأسرى لدى الاسبان، فكان لا يتوانى عن افتدائهم: «... ومن صدقاته (المنصور) أيضا إخراجه الكثير من الأسرى في كل وقت من أقطار بلاد الكفرة وجزيرة الأندلس وغيرها»[116]، بل تعدى الأمر ذلك إلى تقديم المساعدة للجالية الأندلسية خارج المغرب فقد قدم مساعدات كبيرة لأبي الغيث غالب بن القشاش، حامي الجالية الأندلسية بتونس[117]، إذ يذكر ابن القاضي - وقد اجتمع به في زاويته

---

112 - تاريخ السودان، ص 175.

113 - محمد الغربي، المصدر السابق، ص 332

114 - تاريخ السواداان، 193.

115 - عبد العزيز الفشتالي، مناهل، ص 203.

116 - أحمد بن القاضي، المنتقي، ص 1 : 346.

117 - يقول المنتصر القفصي عن دور هذا الشيخ في حماية الأندلسيين بتونس: «ولما جاء الأندلس(كذا) إلى تونس ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت وصاروا ياتون إلى الشيخ وإلى سماطة وجرى معهم الشيخ رضي الله عنه كالريح المرسلة في اطعام وكسوة العريان...».

نور الارماش في مناقب القشاش، ورقة 2 ظ.

وقد نشر هذا النص عبد المجيد التركي في مجلة حوليات الجامعة التونسية»، العدد الرابع، 1967، ص 70.

قرب جامع الزيتونة سنة 988 هـ - في هذا الصدد أنه : «استخلص أسيرا من أهل البيت شريفا أيضا فلما بلغ بلده قال هذا الشريف والله لا يخلص إلا بذهب شريفي، يعني من سكة ساداتنا الشرفاء الذين عمدتهم مخدومنا أبو العباس المنصور، وكان عدد المال ينيف على ثلاثة آلاف أوقية...»[118].

وكان الاسبان يدركون بالفعل خطورة أي اتصال بين الأندلسيين والمنصور لذلك فقد كانوا شديدي الحرص على ألا يدخل أو يخرج أي أحد من الأندلسيين إلا بإذن، إذا أورد الشهاب الحجري- وهو على أهبة الخروج من الأندلس إلى المغرب - في هذا الصدد: «أعلم - رحمك الله تعالى - أن البلاد التي حاشية البحر من بلاد الأندلس وأيضا فيما في بلاد المسلمين، إن النصارى فيها من الحرص والبحث في من يرد عليها من الغرباء شيئا كثيرا، كل ذلك لئلا يذهب أو يجوز عليهم إلى بلاد المسلمين. وهمني الأمر كثيرا في كيفية الخروج من بينهم»[119] لكن، ومع حرص الاسبان هذا فقد كان يرد على المنصور جاليات مهمة وكان يحسن استقبالهم فقد أورد الشهاب الحجري في هذا الصدد :«... وإذن (المنصور) لنا في الدخول إلى حضرته في يوم الديوان ولما ابتدأت بالكلام الذي اخترته أن أقوله بحضرته العالية بصوت جهير سكت جميع الناس الحاضرون (كذا) كأنها خطبة، ففرح السلطان وقال كيف يكون ببلاد الأندلس من يقول بالعربية مثل هذا الكلام، لأنه كلام الفقهاء، وفرح بذلك كافة الأندلس القدما، ورأينا العافية والرخا في تلك البلاد...»[120]. كما أورد علي التمجروتي في رحلته أنه نزل بتطوان - عندما كان ذاهبا إلى الشرق - عند أحد الأندلسيين الذي فتح لهم المنصور سبل الطعة والارتزاق إذ يقول :..... وصاحب المنزل الذي نحن فيه وهو السيد أحمد بن محمد بن أحمد بن المفضل الأندلس الغرناطي، وهو من أهل اليسار والسعة بها، وهو المتولي قبض السلطان لما يخرج من عند النصارى من سبتة وما يرحل إليها من التجارة والأسارى» وغير ذلك...»[121].

---

118 - درة الحجال، 3 : 261

119 - ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 22.

120 - المصدر السابق ، ص 29.

121 - النفحة المنسكية في السفارة التركية، ص 184.90 - مناهل الصفا، ص 191.

استخلاص

استمرت هجرة الأندلسيين إلى المغرب طوال العهد الأول لدولة السعديين، وسلك معهم ملوك هذه الدولة سياسة خاصة تتسم بالتعامل الحذر نتيجة الضغط التركي الذي كان يحول دائما دون تحقيق المخطط السعدي حول القضية الأندلسية، فقد كان السسعديون يحاولون باستمرار ادماج الجالية الأندلسية في مختلف مشاريعهم الجهادية، لكن االاتصالات المريبة التي كانت بين الأندلسيين والأتراك كانت تحول دون تحقيق تلك المشاريع، بل وتحول في أغلب الأحيان دون تقديم المساعدة للمورسكيين باسبانيا.

ومع ذلك لم يكن السعديون يحدون من نشاط الأندلسيين بالمغرب أو يضايقونهن بمراقبتهم، بل نجد أن العكس هو الصحيح، فقد فتحوا لهم مجالات العمل في مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية أيضا، ماداموا يحترمون سلطة البلد الذي يعيشون فيه وما داموا لا يتدخلون في شؤونه.

هذا، إذن عن الجالية الأندلسة بالمغرب والملوك السعديون في مركز قوة يقدمون المساعدات في الظروف العادية ويحسمون في الأمر في الظروف الاستثنائية، فماذا سيحدث عندما تتفكك السلطة وتتدفق على المغرب أفواج ضخمة من المهاجرين الأندلسيين في ظروف خاصة وبأفكار وأساليب جديدة وطموح محدد ؟

ذلك ما سنراه في الفصل الموالي من هذه الدراسة.

الفصل الثالث

الجالية الأندلسية بمصب أبي رقراق وتطوان

عاش الأندلسيون باسبانيا خلال بداية القرن السابع عشر آخر مراحل الصراع الذي خاضوه طيلة قرن كامل (1502 - 1609) ضد الجهاز القمعي الاسباني (محاكم التفتيش)، وانتهى ذلك الصراع بنفيهم كآخر (حل) للتخلص من هذه الفئة الصامدة التي سببت للاسبان مشاكل عديدة على الصعيدين الديني والسياسي. لكن الأندلسيين لم يشعروا قط أن المسألة قد حسمت بصفة نهائية، إذ كانوا يشعرون أن نفيهم إلى شمال افريقيا ما هو الا مرحلة لتجميع قواتهم المنهوكة، للانتقام من الاسبان، وبالتالي العودة إلى (فردوسهم المفقود). ويعطي الاستقرار الأندلسي بالمغرب نموذجا حيا لهذه الوضعية، غير أن السؤال الرئيسي الذي يطرح بهذه المناسبة : هل وجد الأندلسيون بالمغرب الظروف الملائمة لتحقيق طموحاتهم ؟

لقد كان المغرب يعيش ظروفا خاصة : انقسام سياسي عى مستوى السلطة المركزية، تدهور خطير لحق بالموارد للمغرب: السكر، والذهب، وتجارة القوافل، اضافة إلى الجفاف الخطير الذي زاد الأزمة الاقتصادية حدة، ظهور المجاعات والأوبئة التي أودت بحياة آلاف الأشخاص، وأدت بالتالي إلى نقص ديمغرافي خطير.

فهل تحمل المهاجرون مع المغاربة تبعات هذه الوضعية ؟

لقد حاولت السلطات المركزية ان تستغلهم لتثبيت نفوذها فرفضوا وحاولت بعض الزعامات المحلية ان تستعين في أعمال الجهاد فتمردوا الأمر الذي أدى بهم إلى الاصطدام مع هؤلاء وأولئك.

أولا: الجالية الأندلسية بمصب أبي رقراق

استقرت خلال القرن السابع عشر جالية أندلسية مهمة بسلا، ودخلت على الفور في طاعة مولاي زيدان الذي كان يقدر امكانياتها المادية والحربية، سواء للجهاد أو لمحاربة منافسيه داخليا. وجعلها تتمتع بنفس امتيازات أعيان المنطقة، وترك لها عشر الغنائم، بل كان يفكر دائما في اعطائها مناصب قيادية.[1] وقد استقرت بعد ذلك في القصبة تحت سلطة قائد سعدي، فاصلح الهورناتشيون الاسوار واعادوا بناء المنازل المهدمة، فأصبحت القصبة التي كانت شبه مخربة «كمدينة صغيرة»[2] ولاشباع رغبتهم في السيطرة وكذا لتعزيز قوتهم في نفس الوقت فإنهم استدعوا الأندلسيين المنبثين في باقي أجزاء المغرب العربي، وذهبوا إلى حد تسديد مصاريف نقلهم وجعلوهم يسقرون بالقرب من القصبة، إذ انبعثت مدينة الرباط الأندلسية داخل السور الموحدي القديم[3]. وقد اصطدم هذا الطموح بسلطة الوصاية التي كان يفرضها زيدان، إذ أمر هذا الأخير قائده على القصبة عبد العزيز الزعروري باغتيال العياشي أو القبض عليه، ففاوض في ذلك شيوخ الأندلسيين وأعيانهم. لكن الأندلسيين فضلوا البقاء بجانب المجاهد وحمايته من أية مؤامرة تحاك ضده[4].

واصطدم الأندلسيون مع زيدان للمرة الثانية عندما بعث لقائده السالف الذكر بأن يبعث له بالمزيد من الأندلسيين[5] لاخماد فتنة وقعت بدرعة. لكن أندلسيي القصبة رفضوا هذا العرض، خاصة انهم يعلمون المصير الذي آل اليه 400 من مواطنيهم «إذ طالت غيبتهم بها (الصحراء) فهرب أكثرهم»،[6] وعزموا على التخلص من

---

1 - S.I.H.M. 1ère série, France, 3 : 190

2 - S.I.H.M. 1ère série, Pays-Bas, 5 : 7

3 - تسمى أيضا سلا الجديدة بموازاة سلا القديمة.
انظر :

S.I.H.M. 1ère série, Pays- Bas, 5 : 7-8

R. Ricard et J. Caillé «Salé- le Vieux et Salé- le-Neuf» in Hespéris, t, XXXIV, 3e - 4e trim 1947. pp. 441 - 442

4 - انظر م. الافراني، نزهة الحادي، ص 264، أبو املاق، الخبر عن ظهور الفقيه العياشي، ص 203 / 204.

5 - اذكر جون هاريسون John Harrison في تقريره أن السلطان زيدان بعث أخيرا يطلب الفا من المورسكيين لأنه يعدهم من أحسن جيوشه انظر :

S.I.H.M. 1ère série, Angleterre : 3-39

6 - م. الافراني، المصدر السابق، ص 264.

الزعروري بالوشاية له عند السلطان، فبعث هذا الأخير بمن يقبض عليه (سنة 1625)، ونهب الأندلسيون داره وممتلكاته، «وكتبوا له (لزيدان) مظهرين طاعته مكيدة منهم ونفاقا»[7]. وبعث لهم بمملوكه عجيب (نهاية مارس 1627)،[8] لكن مصيره لم يكن أحسن من مصير سابقه، فلم يعتنوا به، وصاروا يستهزءون منه إلى أن قتل[9]. كما طردوا جميع القادة السعديين[10]، وجردوا المغاربة من سلاحهم وارغموهم على الهجرة[11]، فكانت بذلك مؤامرة فعلية محبوكة ضد السعديين[12].

ولم يكن العياشي بعيدا عن هذه الأحداث، فقد كتب اليه الملك شارل الأول الانجليزي رسالة في 12 أكتوبر 1627 يهنئه فيها على المساعدة التي قدمها للأندلسيين في هذه الثورة[13]. وقد ذكر الأب دان Dan أن زيدان حاول ارغام الأندلسيين على الدخول في طاعته فارسل اليهم محلة قوية لمحاصرة المدينة لكن ظل هذا الحصار بدون نتائج مشجعة (نتيجة مساعدة العياشي للأندلسيين). وانتهى هذا الحصار بعقد اتفاق بين الطرفين يصبح بمقتضاه الأندلسيون هم سادة المدينة والقصبة، ويلتزمون بالمقابل بتقديم عدد من الأسرى في كل سنة إلى السلطان، كما قبلوا بوجود موظفين مكلفين بالفصل في المنازعات وتطبيق العدالة[14].

هكذا كونت، إذن ثلاث «جمهوريات» : الهورناتشيرن بالقصبة وهي مقر الحكم، والأندلسيون الآخرون وجمعورية ثالثة بسلا[15]. وشرع الأندلسيون في

---

7 - نفس المصدر والصفحة.

8 - كانت لديه تعليمات بالاعتماد على القبائل المجاورة للوقوف ضد الأندلسيين.
انظر : S.I.H.M. 1ère série, France, 3 : 191

9 - م. الافراني، المصدر السابق، ص 264، أبو املاق، المصدر السابق، 203- 204.
ملاحظة : يذكر هاريسون أنه قتل من طرف القبائل المجاورة انظر :
1ère série, France, 3 : 191 note 6

10 - loc. cit.

11 - P. Dan, Histoire de la Barbarie et de ses corsaires, p 206

12 - S.I.H.M. 1ère série, France .3 : 192

13 - S.I.H.M. 1ère série, France ,3 : 192

14 - Histoire de la Barbarie et de ses corsaires, p 209

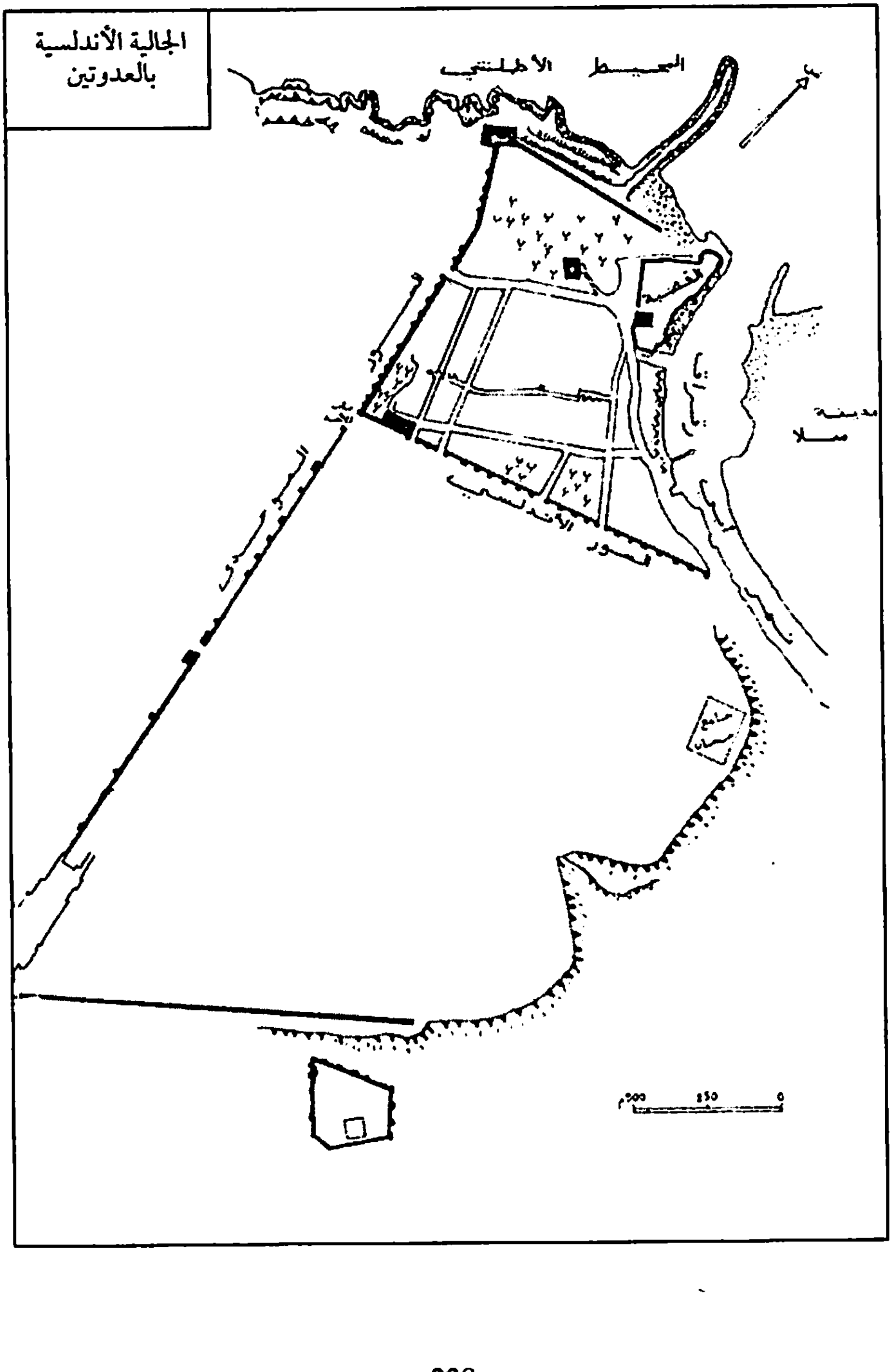
15 - لايتفق جاك كايي Jacques Caillé مع الرأي القائل بوجود ثلاث جمهوريات بمصب أبي رقراق، لأن هذا - في رأيه قد يوحي بوجود ثلاث مستقلة ومتمايزة، في حين أن العكس هو الصحيح تماما، فالرباط كانت خاضعة في أغلب الأوقات للقصبة، وسلا القديمة كانت تحت امرأة العياشي الذي كان ينتدل عنه قائا يحكم المدينة باسمه. ففي رأيه، إذن أن هناك جمهورية واحدة هي تلك التي كانت موجودة بالقصبة. انظر كتابه :
Histoire de la ville de Rabat, 1: 215 - note 18

تنظيم أنفسهم - على غرار ماكانوا عليه باسبانيا - فالسلطة أصبحت بيد حاكم أو قائد - ينتخب لمدة سنة من قبل «ديوان» مكون من 16 عضوا» وهذا الديوان، لايهتم إلا بالقضايا الحربية والدبلوماسية، أما قضايا العدالة فيعين لها من يفصل فيها، والجذير بالذكر أن هذا الديوان لم يكن يمثل فيه إلا الأندلسيون[16].

وعلى العموم تاريخ الأندلسيين السياسي بالمنطقة ظل منقلبا وغامضا إلى مجيء العلويين سنة 1666 ، وهو يبرز في ثلاثة مظاهر أساسية :

- الصراعات الداخلية
- الجهاد البحري
- العلاقات مع أوروبا

16 - P, Dan op.cit p. 209


الجالية الأندلسية
بالعدوتين
المحيط الأطلنتي
مدينة
سلا
السور الأندلسي

1

الصراعات الداخلية

خلال المرحلة الأولى (من 1627 إلى 1641) تمتعت الرباط والقصبة باستقلال تام، رغم محاولات السعديين، إذ حاولوا مرتين فرض سلطتهم على المنطقة. أما المرحلة الثانية (من 1641 إلى1660) فهي المرحلة التي دخلوا فيها تحت النفوذ الدلائي.

والمرحلة الأخيرة تبتدى انطلاقا من 1660، إذ حوصرت القصبة من طرف أندلسيي الرباط بتحريض ومساعدة من الخضر غيلان، وانتهى هذا الحصار بدخول الرباط والقصبة تحت نفوذه سنة 1664، وظل الأمر كذلك إلى غاية سنة 1666 عندما دخلت تحت نفوذ مولاي رشيد. وزاد من حدة هذه الصراعات الداخلية الصراع الذي كان قائما بالفعل بين الأندلسيين أنفسهم، فقد دخل الهورناتشيون (سكان القصبة) والأندلسيون الآخرون (سكان الرباط) في صراع حاد بينها.

الصراع بين القصبة والرباط

منذ أول وهلة حاول الهورناتشيون أن يفرضوا أنفسهم كسادة على أندلسيي الرباط، فقد كانوا هم وحدهم يكونون أعضاء الديوان، كما أن القائد يختار من بينهم، وكانوا يحتفظون بمجموع مداخيل الجمارك، وغنائم الجهاد البحري، ومختلف ثروات المجتمع الأندلسي. وكانوا يتعللون بأن هذه الأموال كانت تستخدم لصيانة القصبة (بناء مناطقها المخربة وتقوية سورها القديم)، ولكنها في الحقيقة كانت موجهة ضد الرباط، إذ قاموا بفتح عدة فجوات داخل السور لوضع القطع المدفعية بها، وهي موجهة أساسا إلى الرباط[17]. وقد طالب الأندلسيون (الأكثر عددا) باقتسام السلطة وباقتسام الحكم، ومداخيل الجمارك، ومختلف الغنائم والامتيازات كما كانوا

---

17 -S.I.H.M. 1ère série, Pays- Bas, 5: 9

هم أيضا يريدون تقوية مدينتهم، لكن رد الهورناتشيون على شكاوي وملتمسات أندلسيي الرباط بطلقات المدافع . وهكذا دخل سكان القصبة والرباط في صراع مرير في نهاية شهر شتنبر من سنة 1629[18].

وقد ثار الأندلسيون ضد هذه الوضعية من جديد في مارس من سنة 1630[19] مدفوعين في ذلك من طرف العياشي الذي كان يرمي بذلك إلى الاستحواذ على مصب نهر أبي رقراق بأجمعه[20]. فحاصر الأندلسيون القصبة برا، ولكن سكان سلا ساندوا الهورناتشيين ومونوهم عن طريق البحر، ولم يستطع المحاصرون (الذين لم يكونوا يملكون إلا مدفعا واحدا) أن يعرقلوا هذا التموين. هذا إذا أضفنا أن الهورناتشيين المستقرين بسلا (لأجل مراقبة تحركات الأندلسيين) كانوا يجتازون النهر ويهاجمون الأندلسيين على حين غرة ويستولون على ماشيتهم ومعاشهم. ولكن القبائل المجاورة أيضا كانت على استعداد للدخول في هذا الصراع لنهب ما يمكن نهبه من الطرفين. وأمام هذا «العدو المشترك» وبفضل تدخل أحد المتصوفة تمكن الأندلسيون والهورناتشيون من إبرام اتفاقية في شهر ماي من سنة 1630، تنص على ما يلي :

1 – ينتخب أندلسيو الرباط قائدا، ولكن هذا الأخير يستقر بالقصبة.

2 – يجتمع الديوان بالقصبة ويضم 16 عضوا، ينتخبون بالتساوي من طرف المركزين الأندلسيين (8 للرباط و 8 للقصبة).

3 – يكون للمدينتين نصيب متساو في غنائم الجهاد البحري ومداخيل الجمارك[21].

وإثر ذلك عين أحمد بن عبد القادر صيرون قائدا بالنسبة للهورناتشيين، وعين عبد الله بن علي القصري قائدا بالنسبة للرباط.

وقد شغلت هذه القضية علماء المغرب، وعرضت عليهم كنازلة «... جوابكم لله تعالى في مسألة طائفتين من المومنين اقتتلوا بسبب مال كان عندهم في أن يقتسموه في رواتبهم، وكان تحت يد إحدى الطائفتين، فلما طلبت الطائفة الأخرى أن يمكنوهم

---

18 - S.I.H.M. 1ère série, France, 3 : 243

19 – عندما زارجون هارسيون المنطقة وجد الرباط والقصبة قد دخلتا في حروب أهلية، وقد قدم تقرير ضافيا عن هذه الحرب في 8 أكتوبر من سنة 1630.

20 - S.I.H.M. 1ère série, Pays-Bas, 5: 9
Jacques Caillé, op. cit p. 216

21 - S.I.H.M. 1ère série, Pays-Bas, 5: 10

من واجبهم منعوهم من ذلك، ونشأ بينهم كلام انتهى إلى القتال...»[22]، وتوضح هذه النازلة سبب الفتنة: «وكان أهل القصبة قد جاء إليهم طالب فظنوا به العلم وشارطوه، وصاروا يثقون بقوله ويقلدونه في أمورهم، ويمتثلون أمره، لحسن نيتهم وظنهم الحسن. فلما وقعت هذه الشحنة صار يغريهم بأهل المدينة ويحرضهم على قتالهم ورميهم بالانفاظ وأنزلوا عليهم السخط، إفساط الثلثين في إصلح الثلث حق، فهل - سادتنا - ما قاله هذا الطالب حق أم لا...[23].

فأجاب الشيخ محمد العربي الفاسي بما نصه: «.... ما ذكره هذا الطالب من كون إفساد الثلين في اصلاح الثلثين حقا باطل باجماع المسلمين، ولم يحك عن أحد من الناس لا على وجه القبول ولا على الرد البتة وإنما هو اختلاف واختراق، ومخالفة للاجماع والاتفاق، وانما حكي جواز الثلث لمصلحة الثلثين ايثارا للأكثر على الأقل، ومحافظة على تقليل الفساد ما أمكن، فإن فساد الأقل أقل من فساد الأكثر»[24].

لنا أن نتساءل - بعد هذا - عن هذا (الطالب) الذي حرض الهورناتشيين على محاربة أندلسيي الرباط. هل بعث به سكان سلا الذين لم يكونوا ينظرون بعين الرضي إلى هؤلاء المستقرين الجدد (كانوا يسمونهم نصارى فشتالة) ؟

على كل فإن النازلة نفسها أكدت على الجانب الذي تواجه به الجانبين، فالنسبة للسلاويين تؤكد صدق عقيدة هؤلاء: «... ولكن الطائفتين لهم رغبة في الدين وتعظيم له، وتشوف لمعرفة حكم الشريعة، وغرض في العمل به والانقياد اليه...»[25]، وبالنسبة للعياشي تواجهه أمام المغاربة بأنهم لا يقلون جهادا عنه:

«... وهم ذلك في ثغر من الثغور في ساحل البحر، وعلى منكسر الموج، وهم مع ذلك مجاورة العدو الكافر في بر متصل ومسافة نحو نصف يوم، ولهم اجتهاد في نكاية العدو في البحر، واعداد ما استطاعوا له من قوة...»[26].

وهكذا آل الامر إلى هذه الازدواجية في الحكم التي أشرنا إليها سابقا، ونؤكد منذ البداية ان هذه الازدواجية لم تؤد إلى النتائج المرجوة. فقد أدت هذه الاتفاقية

---

22 - عبد العزيز الزياتي، الجواهر المختارة، ص: 236.
23 - نفس المصدر والصفحة.
24 - نفس المصدر والصفحة.
25 - نفس المصدر والصفحة.
26 - نفس المصدر والصفحة.

إلى «هدنة بين الطرفين»، ولم تستطع قط ان تصل إلى مستوى سلام حقيقي[27].
وهكذا منذ يناير 1631 رفع أندلسيو الرباط احتجاجات جديدة ضد ممارسات جيرانه، إذ حفر الهورناتشيون خندقا على طول اسوار القصبة من جهة الشرق وقد بدا هذا العمل واضحا على انه تدبير وقائي ضد الرباط[28]. ولكن سيبرز من جديد عدو مشترك يدفع بهم إلى التفاهم ولو مؤقتا، فقد كان سكان سلا يخشون من وجود «معمورة جديدة» على الضفة اليسرى لأبي رقراق، فالتجأوا إلى العياشي العدو المشترك للاسبان والأندلسيين على السواء[29]، إذ كان المجاهد يتهم هؤلاء باستمرار بتعاملهم مع الاسبان[30].

الصراع بين الأندلسيين والعياشي

حاول العياشي أول الأمر أن يستخبر الأندلسيين إذ : «... بعث إلى الأندلس بسلا يصنعون له السلاليم يصعد منها لمن بقي في الحلق (المعمورة) فتثاقلوا عليه من صنعها غشا منهم للإسلام ومناواة لسيدي محمد العياشي حتى جاء المدد لأهل الحلق، فلما أتى بها لم تغن شيئا بعد أن ركبها، ومن هنالك استحكمت البغضاء بينه وبين أهل الأندلس...»[31].

وقد عزم العياشي إثر ذلك على قتالهم، لكن قبل الاقدام على هذا العمل حاول أن يكسب عمله هذا الصفة الشرعية، وذلك بعرض أمرهم على العلماء: «... وكان أهل الأندلس أعلموا النصارى بأن محلة محمد النازلة في محاصرة الحلق ليس له إقامة، فبلغ ذلك لسيدي محمد فأقام عليهم الحجة وشاور العلماء قتالهم فأفتى سيدي العربي الفاسي بجواز مقاتلتهم لأنهم حادوا الله ورسوله ووالوا الكفار ونصحوهم، ولأنهم تصرفوا في مال المسلمين ومنعوهم من الراتب وقطعوا البيع والشراء على الناس، وخصوا به أنفسهم وصادقوا النصارى وأمدوهم بالطعام والسلاح...»[32]. غير أن بعض العلماء - مثل الامام عبد الواحد بن عاشر - لم يطمئن إلى عمل العياشي هذا حتى تأكد بنفسه من صدق ما يقوله المجاهد : «...

---

27 - J. Caillé, op. cit p. 217

28 - S.I.H.M. 1ère série, France ,3 : 370

29 - S.I.H.M. 1ère série, Pays-Bas, 5: 8

30 - سترجع إلى هذه النقطة بتفصيل عند استعراضنا للعلاقات بين الأندلسيون وأوروبا،

31 - م. الافراني، المصدر السابق، ص 267.

32 - م. الافراني، المصدر السابق، ص 267.

وكان الامام سيدي عبد الواحد بن عاشر - رحمة الله - لم يجب عن ذلك إلى أن رأى بعينه حيث قدم لسلا الأندلس، يحملون الطعام للكفار ويعلمونهم بغرة المسلمين فأفتى بجواز مقاتلتهم...»[33]، لكن وان كان العياشي قد احتج بفتوى علماء فاس، فإن الأندلسيين واجهوه بفتوى مضادة من علماء مراكش، وعلى رأسهم قاضي الجماعة بها أبو مهدي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني[34]، أي أن علماء مراكش ومعهم السلطة كانوا بجانب الأندلسيين، في حين فضل علماء فاس الاتجاه إلى جانب العياشي.

وتشكل هذه الفتوى مرافعة فريدة من نوعها ضد العياشي كما يتجلى ذلك في النقط الآتية :

1 - يبرز الأندلسيون في بداية الأمر رغبة السيطرة والنفوذ التي كانت لدى العياشي، وان هذه الرغبة ليست من الجهاد في شيء : «السادات الفقهاء تفضلوا - أبقاكم الله - بالجواب عن رجل كان أول مرة مشتغل بجهاد النصارى - دمرهم الله - مظهرا النسك والصلاح مدة حتى أقبل الناس عليه بقلوبهم بما يظهر لهم من القصد الجميل في فعله ذلك، فصار يدعوهم لنصرته ولزوم طاعته وامتثال أوامره ويعاقبهم على مخالفة ذلك، ويستعين ببعضهم على بعض، فيقاتل من لم يمتثل أمره من المسلمين وينهب أموالهم لأن يدخلوا طاعته، فتغلب بذلك على جماعة وافرة...»[35].

2 - يستعرض الأندلسيون ما فعلوه في الرباط والقصبة من أعمال عمرانية وجهادية: «وكان هذا الثغر (سلا) قبل دخول هذه الجماعة له وسكنها فيه غاية الاهمال فبالغوا في تشديده وتحصينه وبناء مساجده وأسواقه حتى صار حاضره من الحواضر، وصار الناس يأتون إليه من كل ناحية، وكانوا في عين الكفرة مبلغا لا يكيف لما يقع من هذه الجماعة من الاغارة على الكفرة في البحر في جزائرهم، وكانوا يغزونهم في عقر دورهم يغيرون عليهم في كل زمن ويسبون داريهم ويأسروهم حتى كانت النصارى بسبب ذلك تباع بالبخس، حتى استعبادهم الغني والفقير وأذلهم العزيز والحقير، وهم مع ذلك قائمون بحدود الشريعة، مظهرون شرائع الاسلام تحت أيالة مالك المغرب - أيده الله - »[36].

33 - الافراني، نفس المصدر والصفحة، أبو املاق، المصدر السابق 269 - 270.
34 - انظر ترجمة ومصادرها عند م. حجي الحركة، 2 : 391.
35 - عبد العزيز الزياتي، المصدر السابق، ص 241.
36 - المصدر السابق، ص 241 - 242.

3 - يذكر الأندلسيون انهم كانوا يقدمون كل المساعدات للعياشي في عملياته الجهادية، لكنه لم يأبه بذلك وفضل السيطرة عليهم : « ... ومع ذلك إذا طلبهم للجهاد معه أعانوه بالرماة والبارود والانفاظ، فلم يقبل منهم إلا اسلام البلد وتحكمه فيهم، فصار يقاتلهم على ذلك أزمنة متطاولة وحاصرهم ومنعهم من ادخال ما يقتاتون به، وتوعد كل من يأتي اليهم بشيء من الميرة أن يبالغ في عقوبته بالقتل وغيره، وعاقب كثيرا من الناس عن ذلك ... »[37].

4 - استعان عليهم العياشي بالنصارى في التضييق عليهم : « ... فلما ضاق بهم الأمر صاروا يركبون البحر ويأتون بأقواتهم من بلاد المسلمين فتكلم في ذلك مع النصارى، واستعان بهم عليهم، وصاروا يرسون لهم بالمرسى، فلا يتركون لهم شاذة ولا فادة ولايجدون سبيلا إلى الخروج وضاقت بهم الحيل، وبلغ السيل الزبى، وأكلوا الجيفة ما استعانوا بالمالك - أيده الله ونصره - ... »[38].

وفعلا انطلاقا من شهر يوليوز سنة 1629 كان الفرنسي رازيلي Razilly امام سلا، وتزعم بعض المصادر الأوربية ان العياشي « عبر عن امنيته في أن يخرب الاسطول الفرنسي القصبة، المنطقة الوحيدة التي كانت تحول بينه وبين السيطرة على مصب أبي رقراق » ![39]. ولكن رازيلي - امام ضخامة اسطوله - لم يستطع اجتياز الحواجز فانطلق إلى المعمورة ومن هناك أخذ يوجه عمليات الحصار ضد القصبة، وفي ظرف شهرين اضطر الهورناتشيون - تحت ضغط أندلسي الرباط الراغبين في السلم لأجل تجارتهم - إلى عقد اتفاقية هدنة مع الفرنسيين لمدة 5 أشهر في 2 أكتوبر 1029 ورجع قائد الاسطول الفرنسي إلى بلاده[40].

5 - تشير الفتوى أيضا إلى مدى شرعية تعامل عبد الملك (1037 - 1040 / 1627 - 1631) مع الاسبان في سبيل انقاذ الأندلسيين» : ... ولما رأى - أيده الله - أن الميرة لا تصل اليهم إلا من طريق البحر لتعذر وصولها اليهم من طريق البر رأى

---

37 - عبد العزيز الزياتي، المصدر السابق، ص 242.

38 - نفس المصدر والصفحة.

ملاحظة : يقصد(بالمالك) ملك مراكش عبد الملك بن زيدان بن أحمد المنصور(1037 / 1040هـ 1627 - 1631).

39 - S.I.H.M. 1ère série, France, 3 : 194

40 - S.I.H.M. 1ère série, France, 3 : 194

- نصره الله - أن إحياء أنفسهم من الأمر الواجب عليه هذا للكفرة لتصل اليهم أقواتهم من طريق البحر لإحياء نفوس أولئك المجاهدين المحصورين...»[41]، وقد كانت اسبانيا تراقب عن كثب الصراع الدائر بين لأندلسيين والعياشي وفضلت تقديم المساعدة للأوائل لابعادهم عن الانجليز والفرنسيين، وهكذا دخل مدينا سيدونا (القائد العام للأسطول الاسباني بالمحيط الأطلسي والسواحل الأندلسية) في مفاوضة سرية مع المحاصرين لقبول «حماية» اسبانية مقابل تقديم العون في عين المكان[42].

6 - لما رأى العياشي أن عمله هذا لم يكلل بالنجاح نتيجة المساعدة التي قدمها عبد الملك والاسبان للأندلسيين عمد إلى طرح قضية تعامل هؤلاء مع النصارى:

«...فلما بدا للرجل ان هذا الأمر الذي قصده من التضييق لهم لا يتم له ماداموا يستمدون من المالك مع بقاء المهادنة عمد إلى الكفرة المعاهدين فعذرهم وصار يقسد عقول الناس ويحيل اليهم من أجل هذه المهادنة ان المسلمين اتفقوا مع النصارى، ويوهمهم انهم يد واحدة وفي ذلك تشويش المسلمين وافساد عقائد المسلمين واغراهم على نبذ طاعة المالك والخروج عن بيعته...»[43]. وبذلك فقد سئل علماء مراكش في الحقيقة عن جملة قضايا مرتبطة، وليست قضية واحدة.

- ما حكم مقاتلة العياشي للأندلسيين ؟
- ما مدى شرعية فتوى علماء فاس الذين افتوا بمقاتلة الأندلسيين ؟
- ما حكم عبد الملك الذي أعان هؤلاء ؟
- ما حكم مهادنة الأندلسيين - ومعهم عبد الملك - للاسبان ؟

كان جواب السكتاني كالآتي: «ان حاصل امر هذا الرجل المسؤول عنه انه خالط عملا صالحا وآخر سيئا - عسى الله أن يتوب عليه ان الله غفور رحيم - أما جهاده ورباطه وحراسته فنعم هي، وما مقاتلته للمسلمين وعدم اكتراثه بدمائهم واعتقاده حليته ومحاصرته لسكان الثغر وافساده بلادهم التي هي في نحر العدو، وحل نظامهم، والسعي في ضعفها واخلائها من عملها، فعن الشرع والدين والصواب فيها بمعزل»[44].

---

41 - عبد العزيز الزياتي، المصدر السابق، 242.
42 - S.I.H.M. 1ère série, France, 3 : 196
43 - عبد العزيز الزياتي، المصدر السابق، 242.
44 - نفس المصدر والصفحة.

وعلى كل فقد واصل العياشي حصاره للقصبة، وتزعم بعض المصادر الأوربية انه كان «يدعي انه يريد ان يخضعها فقط للشريف السعدي»[45]. وانطلاقا من سلا - التي كانت مع العياشي - كانت المدافع تضرب القصبة، بينما كان ابنه عبد الله يرابط بشالة مرفوقا بـ 5000 فارس لمحاولة عرقلة تموين المدينة[46]. لكن لم يكن لعمل العياشي هذا نتائج تذكر، فقد استطاعت القصبة ان تحصل على التموين عن طريق البحر، كما اتجه قادة القصبة إلى الشريف السعدي وأكدوا له مبايعتهم وتأيدهم له.

وقد حاول الوليد (1040هـ - 1045 هـ/ 1641 - 1631) انت يستغل هذه الوضعية لبسط سلطته على التجمعات الثلاثة (سلا والرباط والقصبة) خاصة بعد ان بعث له الهورناتشيون والأندلسيون ممثليهم، لكن السلطة السعدية مع ذلك ظلت اسمية، إذ ظلت المراكز الثلاثة مستقلة تماما عن أي نفوذ سعدي[47]، وامام عدم امكانية الاستيلاء على القصبة بالقوة رفع الحصار في شهر أكتوبر سنة 1632 وانسحب العياشي إلى الغرب[48].

لكن العياشي سيجد الفرصة ملائمة من جديد للتدخل ابان الصراع الداخلي بين الرباط والقصبة، إذ سيطر أندلسيو الرباط على القصبة وطردوا الهورناتشيين منها في شهر شتنبر من سنة 1635، فالتجأ هؤلاء إلى العياشي طلبا للمساعدة[49].

وقد عزم العياشي أول الأمر على الهجوم على أندلسيي الرباط لكن صرفته عملياته الجهادية الأخرى فاستغلها قائد الأندلسيين عبد الله ابن علي القصري (الذي أصبح يسيطر على الرباط والقصبة) وقام بمحاصرة سلا ليتم له بذلك الاستيلاء كلية على مصب أبي رقراق وبنى لهذا الغرض قنطرة من السفن على النهر لنقل المدفعية وظلوا يحاصررون المدينة زهاء شهرين(يناير - فبراير1637)[50] أثرها التجأ لسلا إلى العياشي الذي لبى طلبهم والتجأ إلى الاميرال الانجليزي رينسبوروغ Rainsborough فاتجه هذا الأخير على الفور باسطوله لتخليص الاسرى الانجليز

---

45 - J. Caillé, op. cit p. 217- 218

46 - S.I.H.M. 1ère série, Pays- Bas, 5: 19

47 - .S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3: 154 - 155

48 - .I.H.M. 1ère série, France 3: 195

49 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3: 267

50 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3: 343- 353

ولمعاقبة الأندلسيين في نفس الوقت[51]، فخربت مدافع الملك شارل الأول الانجليزي بسرعة قنطرة أبي رقراق، واضطر القصري بذلك إلى الانسحاب[52].

وقد حاصر العياشي من جديد الرباط والقصبة في ماي 1637، وواصل الاسطول الانجليزي تقديم المساعدة له مما جعل وضعية القصبة مضطربة. ومن جهة أخرى كان محمد الشيخ الأصغر (1045هـ - 1063هـ / 1636 - 1652) يخشى من سقوط القصبة في أيدي العياشي أو الانجليز فوجه حملة كبيرة مكونة من 14 مدفعا في اتجاه مصب أبي رقراق، وقد روج العياشي لدى السلطان انه لا يريد الاستيلاء على القصبة والرباط الا لتسليمها له، ولكنه كان في نفس الوقت يتفاهم مع محمد الحاج الدلائي لعرقلة مسيرة الجيش السعدي، وروج الرجلان خبرا مفاده بأن مراكش ستهاجم من طرف جيش آخر[53]. وبالاضافة إلى ذلك فبمساعدة قبائل المنطقة تمكنا من احراق المحصولات الزراعية في طريق الشيخ الأصغر مما سبب نقصا خطيرا في الغذاء وبالتالي اضطر معظم جنود الحملة إلى هجرة المحلة، ولم يصل السلطان السعدي إلى فضالة الا بصعوبة اضطر معها إلى الوقوف عند هذا الحد والرجوع إلى عاصمته مراكش سنة 1637[54]). وفي هذا الوقت وقع اضطراب في القصبة نتيجة الحصار الانجليزي للقصبة (الذي أدى الى انتشار المجاعة). وبعد انتظار الناس لوحدات الشريف السعدي طويلا وتأكدهم من عدم امكانية وصول الجيش السعدي اليهم وقعت ثورة في فبراير سنة 1637 (ولم يكن العياشي بعيدا عن التدخل فيها) خلع خلالها القصري وسجن فعوض بثلاثة حكام منتخبين :

- Caya Vacher (الكاهية البشير)
- صهره الحاج عباس
- El Herrado (هرادو)

ونشأت ثلاث اتجاهات بالمدينة :

- طالب البعض برمي القصري في البحر وبقطع رأسه[55]، وهؤلاء هم محبذو التفاهم مع العياشي، وقد طالب هذا الأخير بنصف مداخيل الجمارك وغنائم البحر،

---

51 - S.I.H.M. 1ère série, France 3: 196
52 - Loc.cit
53 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3: 323
54 - Loc.cit
55 - S.I.H.M. 1ère série, France 3: 540

وبإصلاح الخسائر التي اصيبت بها سلا أثناء حصار يناير - فبراير 1637، وبعودة الهورناتشيين إلى القصبة. وقبل الأندلسيون بالشرطين الأولين لكنهم رفضوا الشرط الثالث الذي لم يصلوا في شأنه إلى أي شيء يذكر.

- وطالب البعض الآخر بالخضوع إلى الشريف السعدي محمد الشيخ الأصغر وتسليمه القائد المعتقل، وكانوا يرمون بذلك إلى التخلص من القصري (الذي لم تكن له الا اطماع شخصية، وكان يتصرف كدكتاتور)[56].

- أما القسم الثالث فكان يطالب فقط بإعادة القائد القديم إلى منصبه، نظرا لأنه أظهر حنكة ادارية في تسيير الأمور.

وظلت الأمور على حالها 20 يوما إلى ان انضم الجميع إلى الرأي الثاني بالانضمام إلى محمد الشيخ الأصغر وقرروا تسليمه القصري.

وفي 2 يوليوز - أثناء الليل - ولتجنب الاصطدامات أرسل القصري إلى أزمور ومن هناك اقتيد إلى السلطان[57].

وبعد سماعه قرر السلطان ان يرجعه إلى حكومته وأرسله إلى القصبة بسفينة مجملة بالقمح لتهدئة الثائرين وكلف التاجر الانجليزي بليك Blake (الذي تدخل لصالح القصري) بنقله إلى مصب أبي رقراق، وكان قائد الاسطول الانجليزي مازال يحاصر المنطقة، لذلك فقد طالب باطلاق جميع الاسرى الانجليز (300 اسيرا) مقابل السماح للقصري بالنزول، وقد هم التفاهم بين الطرفين بفضل تدخل «بليك» وفي 23 يوليوز من سنة 1637 استقبل القصري من طرف مواطنيه «بالتصفيقات وعلامات الفرح والطبول»، وأعيد تزكيته في منصبه باستثناء القيادة الخاصة للقصبة التي استقل بها صهره الكاهية البشير، وأظهر سلطته باحباط العديد من المؤامرات، فقد قام بقطع رؤوس المنشقين المؤيدين للعياشي[58] ومن بينهم صهره سليمان بن الطاهر، أما الباقون فإنهم اما هربوا أو نفوا خارج القصبة. وهكذا استعادت الرباط والقصبة هدوءها من جديد[59]. ومن جهة أخرى أصبحت الرباط والقصبة تمونان من الاسبان، ولم يعد للعياشي أي أمل في أضعاف المدينتين عن طريق تجويعهما.

---

56 - S.I.H.M. 1ère série, France 3: 540 - 542

57 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3: 343- 353

58 - S.I.H.M. 1ère série, France 3: 197

59 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3: 341

وبعد اغتيال القصري في بداية سنة 1638 بعث السلطان إلى القصبة بـ 350 جنديا تحت امرأة القائد مراد العلج[60]، فرفع العياشي الحصار مدعيا انه وصل إلى هدفه وهو اعادة سلطة الشريف السعدي، وعقد اتفاقا في أبريل سنة 1638 بمقتضاه يستطيع الهورناتشيون الدخول إلى الرباط ويسترجعون أملاكهم بها، وذهب العياشي ليعسكر أمام المعمورة[61].

لكن وفي أقل من ثلاثة أشهر تجدد الصراع مرة أخرى بتحريض من العياشي، إذ أصبح الهورناتشيون - بعد رجوعهم إلى المدينة - هم سادة الرباط بمساعدة ألف من الاعراب الذين دخلوا إلى المدينة لنقل التموين اليها[62]، ولكنهم فشلوا في محاولتهم الاستيلاء على القصبة إذا دافع عنها الأندلسيون، كما دافع عنها جنود السعديين تحت امرة القائد مراد.

وأما العياشي فبالرغم على أنه كان بعيدا عن سلا الا أنه كان يدفع بالهورناتشيين إلى الهجوم على القصبة، إذ ظهر من جديد في سنة 1938 وشجع على تكثيف الحصار[63]. وأصبح الأندلسيون يتساءلون عن الجهة التي سوف يتجهون إليها: إلى انجلترا أو اسبانيا لأجل ضمان الدفاع عن أنفسهم ؟ وكان مدينا سيدونيا يراقب عن كثب خطوات العميل الانجليزي بليك وكذا تحركات العياشي متخوفا من أن تقع القصبة في أيدي الانجليز أو العياشي[64]. وقد عرفت المنطقة هدوءا نسبيا في سنة 1639 إذ استدعى العياشي إلى أولاد الدويب لتغطية عملية جهادية ضد الجديدة[65]، انتهت بانتصار ساحق راح ضحيته قائد البريجة نفسه فرانسسكو ماسكارناس Francisco Mascarenhas في 11 أبريل سنة 1640[66]، وقد قرر - وهو

---

60 - Loc.cit

61 - S.I.H.M. 1ère série, Angleterre, 3: 347

62 - Loc.cit

63 -S.I.H.M. 1ère série, France 3: 197

64 - Loc.cit

65 - كانت مراسلات محمد الشيخ الأصغر مع الاسبان عن طريق الفرنسكاني ماتيس Mathias تؤدي إلى بث العديد من الاشاعات التي لم يكن العياشي بعيدا عنها أن اشيع ان أم السلطان السعدي مسيحية وانه لاينتظر إلا مساعدة فليب الرابع ليعلن مسيحيته وليرغم رعاياه على اعتناق المسيحية وقد استغل العياشي هذه الاشاعات واستقر قرب أزمور لقطع الطريق بين مراكش والجديدة، إذ كان من المنتظر أن يصل إليها المبعوث الاسباني من مدريد لكن تقرر آخر لحظة مد اقامته بمدريد ولم ير بذلك مشروع العياشي النور فهيأ مع أولاد الدويب مشروع الهجوم على الجديددة.

انظر : S.I.H.M. 1ère série, France 3: 198 note 5

66 - S.I.H.M. 1ère série, France 3: 198

في نشوة الانتصار - أن يتخلص من الأندلسيين بصفة نهائية إذ يقول الافراني في هذا الصدد: «... فاطلق سيدي محمد فيهم السبيل أياما فقتل من وجد منهم وهرب أكثرهم، فمنهم طائفة ذهبت لمراكش وطائفة ذهبت للجزائر وطائفة فرت للنصارى وفرقة ذهبت لأهل زاوية الدلاء فجاء أهل الدلاء يشفعون في الأندلس فأبى سيدي محمد أن يقبل الشفاعة فيهم وقال ان الرأي في استيصال شافتهم، فلما رأى أهل الدلاء امتناعه ورده شفاعتهم غضبوا لذلك واجمعوا على مقاتلته...»[67].

هكذا رفض إذن العياشي شفاعة الدلائيين لكن جواب هؤلاء الآخيرين كان أعنف من ذلك: «فخرج... اليهم سيدي محمد بجنوده فأوقع بينهم وهزم جمعهم وفتك بالعرب الذين كانوا مع التاغي فتفرقت الجموع وتبرا التابع من المتبوع وذهب سيدي محمد لغزو طنجة، فلما رجع من غزو طنجة وجد البربر مع أهل الدلاء وصلوا إلى أطراف ازغار ومعه التاغي وأهل حزبه من الكراردة والدخيسي عزموا على مصادمة سيدي محمد، فأراد سيدي محمد أن يغض طرفه عنهم ويصرف عنانه لغيرهم، فلم يزل به أصحابه وأهله إلى أن نبذ لمقاتلتهم، فلما التقى الجمعان كانت الواقعة على سيدي محمد فهزم من معه وقتل فرسه تحته فرجع إلى بلاد الخلط، وكان رؤساء الخلط أكثرهم في حزب التاغي وعلى رأي الكرادي فرجعت البرابر لأوطانهم وبقي سيدي محمد عند الخلط أياما فغدروا به وقتلوه...»[68].

وهكذا قتل العياشي في 9 محرم 1051 / 21 أبريل 1641، واحتز رأسه وذهبوا به إلى الرباط وقاموا بالتجوال به. وقد غمرت الفرحة الكبرى الاسبان في كل من المعمورة والعرائش وطنجة إذ اعتبر المسيحيون هذا الحدث بمثابة انتصار لهم[69].

ويرى بعض الباحثين انه ليس من المستبعد أن تكون المؤامرة قد دبرت من طرف «بعض غلاة المورسكيين بالرباط»، ويضيف قائلا: «وتوحي هذه الرواية أن العملية مدبرة في الأساس من طرف سكان المنطقة الذين يمكن أن يكونوا قد وضعوا لرأس العياشي ثمنا، وان قتلته حملوا الرأس كدليل مادي على قيامهم بالعملية ليتمكتوا من نيل المقابل المتفق عليه...»[70].

---

67 - نزهة الحادي ص 270، أبو املاق المصدر السابق، 273- 274.

68- م، الافراني، المصدر السابق 271.

69 - S.I.H.M. 1ère série, France 3: 198

70 - ع. اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية، ص 140.

بقي لنا أن نتساءل عن العنف الذي جابه به الدلائيون رفض العياشي ؟

أولا نشير إلى أن القصبة كانت محط اهتمام وتتبع من طرف الدلائيين في شخص محمد الحاج الدلائي، ففي رسالة موجهة منه إلى السلطان محمد الشيخ الأصغر يذكر في هذا الصدد : «... هم طرق السمع بعد ذلك - من غير تيقن لما هنالك - أن بعض الأندلسيين ممن ألزمه العياشي غرم ما مضى، لاذ ببعض الرعية في نقط ما انبرم وانقضى فوقع بينه وبين الجماعة الأندلسية مخالفة وظهرت بأثر ذلك عليهم مخالفة. فما ألقينا إلى ذلك بالا، ولا أعلمنا للنظر فيه مجالا، لعدم تحقيق القضية والاطلاع على ماهم من البلية، وعلما منا بأن ملاك أمرهم كافة انما هو بأيدي الخلافة الكافة...»[71].

وهناك رأي في الموضوع يذهب إلى أن «... نظر محمد الحاج كان متجها نحو الغرب، بعد أن تركزت قدماه في ملوية العليا وبسائط تادلا وما ولاهما من البلاد، وكان لا بد له إذا أراد تحقيق مطامحه من أن يتخلص من العياشي صاحب النفوذ في الثغور. ولانظن حادثة الأندلسيين إلا تعلة اتخذها محمد الحاج لتبرير موقفه العدائي من مجاهد سلا، وفرصة اهتبلها للقضاء على منافسه من أجل التوسع وبسط النفوذ...»[72].

ويسير مع هذا الرأي رأي آخر في نفس الاتجاه إذ يذكر أن «محمد الحاج وجد الفرصة الملائمة فتدخل لدى العياشي، وهو شبه متأكد من الموقف الذي ينتظر أن يتخذه المجاهد، ذلك أن تضرر العياشي من تصرفات بعض المورسكيين كان يزعمه على التخلص منهم، ولم يكن له أي مخرج غير ذلك. وهذا ماكان محمد الحاج على علم به...»[73]. وعلى كل فإن الأحداث القادمة ستؤكد صدق هذا الرأي.

علاقة الأندلسيين بالدلائيين

سبق أن تعرضنا إلى تدخل الدلائيين لصالح الأندلسيين في نزاعهم ضد العياشي، وكيف كانت نهاية هذا الأخير، وقد أقر الدلائيون الوضع في جمهوريات أبي رقراق الثلاث بعد أن اسندوا أمر النيابة عنهم فيها جميعا إلى قائد سلا الأمين سعيد

71 - أبو املاق، المصدر السابق، ص 272.

72 - م. حجي الزاوية الدلائية، ص 155.

73 - ع. اللطيف الشاذلي، الحركة العياشية، ص 137.

الجنوي[74]، وبذلك أصبح له الاشراف على قائد الرباط أبي الطيب بن عبد الرحمان عبدون[75] وقائد القصبة الحاج يوسف السنسياض[76]، وترك سعيد الجنوبي أمر قيادة سلا إلى عامر بن محمد[77] ليتفرغ هو للشؤون العامة ولتنفيذ سياسة الدلائيين في العدوتين.

وخلال ثلاث سنوات سارت الأمور - نسبيا -بصفة عادية تحت امرته لكن القصبة ظلت محتفظة ببعض العلاقات مع سلطان مراكش، ففي أكتوبر من سنة 1643 كتب قادتها بصفة شخصية إلى الولايات العامة بلاهاي ولم يخفوا شعورهم حول وضعيتهم الراهنة، وهم يتكلمون في رسائلهم فقط عن «ملوك المغرب، ملكوك فاس وسوس والسودان» بدون تسمية محمد الحاج، وعلى العكس من ذلك نجدهم في رسالة رسمية مؤرخة في نفس التاريخ - وهي بدون شك وضعت خصيصا لكي تقع بأيدي الدلائيين، ويطلعون عليها - يؤكدون اخلاصهم المنقطع النظير للدلائيين، اذ يسمونهم «حماة الاسلام وعضده»[78].

ولم يكن الدلائيون بغافلين عن النوايا الحقيقية لأندلسيي القصبة في الاستقلال التام والانفصال عن الدلائيين، ولا باتصالاتهم مع سلطان مراكش محمد الشيخ الأصغر، ولا باتصالاتهم مع أتراك الجزائر لذا أمر محمد الحاج هورناتشيي الرباط بمهاجمة القصبة برا سنة1644 [79]، كما اغرق سفينة عند مدخل النهر لتعزيز حصار القصبة من البحر، ولم تجد النجدات المقدمة للمحاصرين، من طرف السلطان محمد الشيخ وأتراك الجزائر نفعا. واضطر في الأخير أندلسيو القصبة إلى الاستسلام[80]، ولتعزيز سلطته بالقصبة طرد محمد الحاج جميع الأندلسيين، ولم يترك إلا جنودا مغاربة، وأعطى القيادة العليا للمدن الثلاث لابنه الأكبر الامير عبد الله الذي تلقبه المصادر الأوربية بأمير سلا أوسيد سلا Prince de Salé[81]. ولكن الحاكم الجديد

---

74 - J. Caillé, op. cit p. 221

75 - ذكر م. حجي ان أسرة عبدون الأندلسية كانت في الرباط ثم انقرضت، الزاوية الدلائية، ص 174 هامش 19.

76 - ذكر م. حجي أن هذه الأسرة الأندلسية قد انقرضت الآن. المصدر السابق، ص 174، هامش 20.

77 - عامر بن محمد من أسرة حركات الشهيرة بسلا حتى اليوم. م. حجي: المصدر السابق، ص 174، هامش 21.

78 -S.I.H.M. 1ère série P - B. 5 : 41

79 - كان الهورناتشيون قد وجدوها فرصة للرجوع إلى مقرهم القديم انظر:

S.I.H.M. 1ère série P - B. 5 : 25

80 -591.S.I.H.M. 1ère série P- B, 5 : 587-591

81 - S.I.H.M. 1ère série P - B. 5 : 25

لم يكن يستقر القصبة بصفة مستمرة لأنه كان يخشى من أن يكون جنوده البرابرة مصدر قلق بالمنطقة، وعندما كان يتغيب عن القصبة كان يعوضه في تسيير الأمور خليفته سعيد الجنوي الذي جعله امين سره[82].

وهكذا تمكن الدلائيون - باستقرارهم بالعدوتين - من التوفر على ميناء مهم على المحيط الأطلسي ضمن لهم موارد مالية هامة مكنتهم من تعزيز نفوذهم بالمنطقة سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، فقد اغتنوا عن طريق الاعشار التي فرضوها على البضائع المصدرة إلى أوروبا أو المستوردة منها وكذا من خلال أعمال الجهاد البحري[83] مما مكنهم من أن يعفوا أهل العدوتين من الاتاوات والمغارم، بالاضافة إلى أنهم كانوا معهم أعيان العدوتين في العمل التجاري الضخم مع شمال افريقيا[84].

وخلال 16 سنة (من سنة 1644 إلى غاية 1660) عرفت الرباط والقصبة تحت سلطتهم هدوءا لم تعرفه منذ وقت بعيد ولم يعكر صفو هذا الهدوء الا اضطراب بضعة أشهر من سنة 1650 عندما حاول محمد بن مولاي الشريف الحسني طرد الدلائيين من مدينة فاس[85]، إذ وصل صدى ما حققه أندلسيو مدينة فاس في شخص عبد الكريم الليريني الأندلسي رئيس عدوة الأندلس[86] من انتصار إلى مدينة الرباط، واعلنوا هم أيضا انضمامهم اليه. لكن انتصار الدلائيين في فاس وهلاك عبد الكريم الليريني انهى هذا الطموح الأندلسي بالرباط، فمنذ أواخر سنة 1650 (أو بداية 1651) قضي على التمرد الذي شهدته الرباط، خاصة ان السكان لم يشاركوا فيه، بل ذهبوا إلى حد ضربهم بالمدفعية لسفن المتمردين[87].

---

82 - S.I.H.M. 1ère série P - B, 5 : 375

83 - م. حجي، المصدر السابق، ص 178.

84 - نفس المصدر والصفحة.

85 - استولى محمد الحاج على مدينة فاس عام (1051هـ / 1641) عقب مقتل المجاهد العياشي، وولى عليها القائد أبا بكر التاملي الذي دخل في نزاع مسلح مع رئيس العدوتين، فاستنجد أهل فاس بمحمد بن الشريف الحسني صاحب سجلماسة الذي لبى دعوتهم وقبض على القائد التاملي وزج به في السجن.
انظر في هذا الصدد:
م. الافراني، نزهة 383، وم. القادري، التقاط 128.
م. حجي، الزاوية الدلائية، 209.
J. Caillé, op. cit p. 222

86- توارث آل الليريني الأندلسيون رئاسة عدوة الأندلس بفاس، وعبد الكريم هذا هو أول من ولاه واقره الدلائيون في منصبه.

87 - S.I.H.M. 1ère série P - B, 5 : 246

وهكذا كانت المنطقة في بداية سنة 1651 خاضعة خضوعا كليا للأمير عبد الله، اذ أبرم اتفاقية في 9 فيراير مع الأراضي المنخفضة، صودق عليها في 3 أكتوبر، وهي تسمى الأمير عبد الله سيد سلا(88)، وظلت الأمور عادية إلى غاية سنة 1660، إذ اعلنت الثورة العارمة ضد الدلائيين في سلا والرباط(89).

أسباب الثورة

- كان الأندلسيون يرون انه من الاهانة أن يحكموا من طرف «برابرة ملوية»، وفي حين ان اصلهم العربي يخول لهم يكونوا سادة المنطقة ، إذ كانوا يشعرون دائما بالفارق الحضاري بينهم وبين الدلائيين(90)، والجدير بالذكر ان هذه النفرة ليست وليدة فترتنا هذه، بل وليدة الفترات السابقة كما رأينا ذلك في المدخل التاريخي لهذه الدراسة. لهذا فلا غرابة ان يصرح الخضر غيلان الأندلسي(91) في 10 فبراير

---

88 - S.I.H.M. 1ère série P - B, 5 : 26

89 - لم تتحدث المصادر العربية عن هذه الثورة التي قامت في العدوتين الا عرضا وباشارات خاطفة، ولم نتعرف على بعض التفاصيل إلا بواسطة المراسلات التي وجهها قناصل الدول الأجنبية المقيمون في سلا آنذاك إلى حكوماتهم ولا سيما القنصل الهولندي « دوفيريس» الذي عاش تلك الأحداث، وعبر نهر أبي رقراق تحت وابل الطلقات النارية للثوار.

انظر نص الرسالتين التي بعث بهما دوفريس إلى الولايات العامة حول ثورة العدوتين في :

S.I.H.M. 1ère série P - B, 6 : 616

90 - S.I.H.M. 1ère série P - B, 5 : 26

91 - أكد نسبته الأندلسية محمد المهدي الفاسي في ممتع الاسماع (ص 144)، إذ يذكر في هذا الصدد في ترجمة أول أفراد العائلة التي استقر في قبيلة بني جرفط بعد سقوط غرناطة : «أبو حفص عمر بن ابراهيم غيلان الأندلسي ثم الجرفطي، توفي سنة سبع وعشرين وألف». وأكد هذه النسبة أيضا م. القادري في نشر المثاني، 225 1، والتقاط الدرر، ص 73.

كما أكدها كذلك مويت Mouette في كتابه :

Relation de la captivité du Sieur Mouette dans les royaumes de Fez et de Maroc, pp. 92 - 93

وقد مارس أفراد هذه العائلة الجهاد كشأن الجاليات الأندلسية المهاجرة في ذلك الوقت . انظر :

A. Pereté , Le Raıs El kadir Ghailan, in Arch.m. Vol. XVIII, 1912, p. 12

ويرى ميشو بلير Michaux- Bellaire حول تفسير لفظ الجرفطي المصاحب للفظ الأندلسي أن بعض أفراد القبيلة ربما قد خرجوا مع الادارسة اثر خروجهم من فاس إلى الأندلس واستقروا هناك إلى أن سقطت غرناطة فرجعوا للاستقرار بمواطنهم الأول وهذا هو السر في إعطاء أول أفراد هذه الأسرة لفظ الجرفطي بالإضافة إلى نسبة الأندلسي.

انظر :

Quelques Tribus de Montagne de la région du Habt. Les Beni Gorfet in Arch. m.t. XVII, p. 514

من سنة 1660 للأمير عبد الله الدلائي انه «يقسم ان يموت عوض ان يقع تحت سيطرة البرابرة[92].

- لاننس» أن الأمير الدلائي حاصرهم في القصبة وطردهم منها، وانتزع منهم السلطة الحقيقية، ولم يترك لديوانهم إلا مسائل ثانوية تافهة.

- نفور اعراب الغرب من الدلائيين: إذ كان حب العياشي متمكنا في نفوس مساعديه وانصاره، فلم يستسلم قط ابنه عبد الله العياشي، وظل يناصب الدلائيين العداء ويناوشهم في كل مناسبة[93].

- استطاع الخضر غيلان تحقيق كثير من الانتصارات ضد الاسبان والبرتغال بل الانجليز[94]. وفي نفس الوقت كان عدوا صريحا للذلائيين، مما جعل الأندلسيين يطمحون إلى مساعدته للتخلص منهم، خاصة ان عقلية أندلسيي الرباط والقصبة في الاستقلال تتفق تماما مع عقلية غيلان التي تطمح إلى نفس الهدف. فقد كون جهاز حكومته على أساس انه امير، إذ كان له مقر امارته، كما كانت له مداخيله[95] وجيشه النظامي[96]، بالاضافة إلى قبائل الاعراب، لكنه لم يكن يثق فيهم مخافة تمردهم، ولم يكن يستخدمهم الا في حالة جهاده ضد المسيحيين[97] وعلى العكس من ذلك فقد كان الأندلسيون يحظون بثقته، مثل عبد القادر صيرون امين سره وكاتبه، وصرح علانية بأنه محل ثقته[98]، وكان يوكل اليه عقد الاتفاقيات مع الأجانب (لمعرفته اللغة القشتالية وعادات وتقاليد الأوروبيين)[99].

وكانت له سياسته الخاصة: إذ كان يتعاون مع الانجليز لضرب الاسبان، وعندما آلت طنجة إلى الانجليز هاجمها أيضا - رغم الاتفاقيات المعقودة بينهما - إذ حاصرها حصارا عنيفا سنة 1662 ومنع الانجليز من الخروج من أسوار المدينة، وقد كان هؤلاء يدركون خطورة عمل الخضر غيلان لذا قاموا بوضع اسطول آخر مستقل عن حاكم

---

92 - S.I.H.M. 1ère série P - B, 5 : 26

93 - انظر عن هذه النقطة ع. اللطيف الشاذلي، المصدر السابق، مواضع متفررقة.

94 - عن عمليات الخضر غيلان الجهادية انظر :

A. Peretié, op.cit. PP 27 - 57

95 - فرض على المغاربة 2 من قيمة السلع عند الدخول إلى المدن، و 10 على الأجانب.

96 - كان يتكون من 2700 فارس و 220 من حملة البنادق.

97 - A. Peretié, op.cit. PP. 25

98 - A. Peretié, op.cit. PP. 38

99 - I bid, P. 34

طنجة لمنع الأسطول التركي من الملاحة في المضيق مخافة تقديم المساعدة للمجاهد الأندلسي[100]. وكان الاسبان في هذه المرحلة يقدمون المساعدة لغيلان ضد الانجليز بطنجة لأنهم كانوا يعتبرونها برتغالية[101]، لكن هذه المساعدة لم تدم طويلا بعد مهاجمته للعرائش، إذ واجهه الاسبان بعنف سنة 1664 وهزم، فاتجه إلى عقد اتفاقية مع الانجليز ومهادنتهم في أبريل سنة 1666، ومساعدة غيلان برا وبحرا ضد الاسبان[102].

على كل فقد كان الأندلسيون ينظرون إلى هذه التطورات في الشمال نظرة خاصة، إذ لاحظوا كيف استطاع أحد الأندلسيين أن يعمل باستقلال تام عن السلطة، وأن يدخل في علاقات دولية لتحقيق أهدافه.

حاصر الأندلسيون، اذن، الأمير عبد الله في القصبة بينما أخرج السلاويون مدافع العياشي الضخمة ونصبوها على ضفة النهر، وبدأوا يقصفون القصبة، ولم تتمكن مدافع الأندلسيين من اصابة حامية الحصن لانخفاض أرضهم فكوموا التراب إلى أن جعلوه عاليا كالأبراج، وبدأوا يصلون القصبة بنيران مدفعيتهم، وكان مع الأمير الدلائي داخل الحصن الفان من جنود البربر، ردوا بالمثل على هذا الهجوم المفاجئ وصوبوا مدافعهم شمال النهر وجنوبه وقاوموا في نفس الوقت السلاويين والرباطيين، ولم تتضرر مدينة سلا لبعدها عن مرمى مدافع القصبة، بينما هلك كثير من الرباطيين بالقنابل التي كانت تقذف بها مدافع الدلائيين وسط الشوارع والساحات[103]. وبلغت أخبار الانقلاب إلى محمد الحاج الدلائي فجيش الجيوش وقصد سلا على رأس جيش جرار من البربر قوامه 80.000 رجل وتقدم به إلى أن وصل إلى مولاي بوسلهام في بلاد الغرب وهناك على صفة وادي بوحريرة أحد روافد المرجة الزرقاء، وجد الخضر غيلان ينتظره، وقد اعصوصبت عليه قبائل الغرب من أنصار المجاهد العياشي القدماء، ودارت بين الفريقين معركة رهيبة، لم

---

100 - I bid, P. 49

101 - I bid, P. 54

102 - I bid, P. 57

ملاحظة: يرى م. حجي أن غرض الانجليز من هذه الاتفاقية كان الاستيلاء على القصبة التي كانت قد دخلت فعلا تحت نفوذه.

الزاوية الدلائية، ص 219.

103 - م. حجي، المصدر السابق، ص 224.

S.I.H.M. 1ère série, P - B, 5 : 27, J. Caillé. op. cit p. 223

تغن فيها وفرة جموع الدلائيين عنهم شيئا، فولوا الادبار، وقد مرت فلولهم المهزومة ببلاد الغرب وتامسنا تحمل إلى الناس البرهان الواضح على الانتكاسة الخطيرة التي اصابت إمارة الدلاء[104].

وقد بقى ابنه عبد الله محاصرا بالقصبة ثمانية عشر شهرا، وتذكر بعض الروايات الأوروبية ان الأمير لما طال عليه الحصار في القصبة وتيقن أن أباه لن ينجده، لجأ إلى الأوروبيين لامداده بالذخيرة لفك الحصار.

– فتذكر رواية أولى ان الأمير الدلائي طلب المعونة من حاكم سبتة الاسباني المركيز ديلوص اركوص Los Arcos واقترح عليه أن يسلم القصبة إلى فليب الرابع، مقابل أن يحمل فقط إلى الجهة التي يريد النزول فيها من شواطئ المغرب، لكن اسبانيا التي كانت مرتبطة بحلف صداقة مع الخضر غيلان، اخبرته بهذا الاقتراح، فأشار عليها برفضه لما كان يعلم من حرج موقف خصمه[105].

– هناك رواية أخرى تقول ان عبد الله الدلائي أرسل إلى حاكم طنجة الانجليزي الكونت ديطيفيو Comte de Teviot يطلب منه الزاد والمعونة، وفعلا فقد بعث له بالذخيرة والطعام مما مكنه من تحمل الحصار لمدة طويلة، ثم جاء أسطول انجليزي آخر إلى القصبة فاقترح الدلائي على قائد هذا الأسطول أن يسلم اليه القصبة مقابل قنطار من مسحوق البارود وألف بندقية[106].

– رواية ثالثة تقول بوجود تعليمات سرية وردت على حاكم طنجة في 21 دجنبر 1663 طلبت منه أن يمتلك القصبة حالة ما ذا طلب منه ذلك الدلائي مقابل شروط معقولة، وان يضاعف الجهود حتى لا يقع هذا الحصن في يد الخضر غيلان[107].

ويعتمد الباحثون الأوربيون الروايتين السالفتين (الأولى والثانية) فيذكرون انه التجأ بالفعل إلى الاسبان والانجليز، بل البرتغال. غير أن هناك رأيا آخر يرى عكس ذلك، إذ يذكر في هذا الصدد: «...يبدو أن كلتا الروايتين لا أساس لهما من الصحة، أما الأولى التي تقول بمد الأمير عبد الله الدلائي يده إلى الاسبانيين فإن ذلك مناف للعدواة الصريحة القائمة بين الطرفين باستمرار وما زلنا نذكر جهاد

---

104 - م. حجي، المصدر السابق، ص.218 - 217

S.I.H.M. 1ère série. P-B,5 : 27

105 – م. حجي، المصدر السابق، ص 225.

106 - Rabat et sa région, I: 84

107 - A. Peretié , op.cit. pp. 29

هذا الأمير ضد الاسبانيين في المعمورة، ومخالفته للدول الأوروبية المعادية لاسبانيا، كهولندا، وانجليزا، وفرنسا، ولم يثبت أنه هادن الاسبانيين أو عاملهم بالتجارة أو غيرها، فكيف يتصور أن يلجأ الأمير الدلائي إلى عدوه اللذود في احراج الظروف يوجو منه العون والنصرة؟ وفيما يتعلق بالمساعدة الانجليزية يبدو من المعقول جدا أن يتوجه الأمير الدلائي إلى هذه الدولة التي تربطه بها معاهدة 19 غشت 1657 ولا سيما وقد كانت طنجة أقوى المراكز التي يمكن أن يستنجد بها. لكن مسألة تسليم القصبة الى الانجليز مقابل كمية من الذخيرة الحربية تنقصها الحجة والبرهان..»[108].

وعلى كل، وان كانت الدراسات الأوروبة تبرز صمود الدلائي بالمساعدة التي كان يتلقاها من البرتغال أو الاسبان أو الانجليز[109] فإن هناك عوامل أخرى لا يجب اغفالها:

أولا: اغتيال قائد الحصار عبد القادر صيرون والقصبة على حافة السقوط، مما انقذها لفترة معينة.

ثانيا: كان سكان المناطق المجاورة يجدون دائما الوسائل الكفيلة بايصال التمويل إلى المحاصرين.

ثالثا: كان التموين يأتي كذلك عن طريق خمس سفن للمجاهدين بالجزائر[110].

وتمكن في الأخير الأمير الدلائي من الخروج من القصبة في شهر يونيو سنة 1661 إلى تامسنا على ظهر سفينة انجليزية بعد ان أسند القيادة إلى أحمد الجنوي الذي تابع مقاومة الحصار إلى غاية سنة 1664 عندما مل غيلان هذا الحصار الطويل وأرسل أخاه الطاهر في ثلاثمائة فارس ليوقع اتفاقا مع رؤساء مدن أبي رقراق الثلاث كي يقتسموا بالسوية جميع المداخيل، وفي 3 ماي من سنة 1664 قطعت القصبة كل علاقة مع الزاوية الدلائة ودخلت في حماية غيلان، ودخل كسيد[111]، واطلقت المدافع ثلاث مرات كعلامة فرح بدخول غيلان[112]. وفي نهاية مارس من سنة 1665 بعث غيلان بأخ له إلى القصببة، واتخذ عدة اجراءات لتقوية سلطة أخيه،

---

108 - م. حجي، المصدر السابق، ص 225.

109 -J. Caillé, op. cit. pp 222 - 223

110 - S.I.H.M. 2ème série France, 1: 24

111 - S.I.H.M. 1ère série P-B, 5: 28

112 - J. Caillé, op. cit. p. 223

فطرد جنود سوس القدماء الذين استقروا بالقصبة منذ سنة 1638، وكذا أحمد الجنوي(113).

وقد انتخب الهورناتشيون والأندلسيون الآخرون عبد القادر مرينو قائدا عاما للقصبة والرباط، وانتخب الحاج محمد فنيش قائدا لسلا، ولكن الهدوء لم يدم كثيرا، إذ آنه في شهر غشت من سنة 1665 عوض القائدان السابقان بعبد القادر روكسو Roxo واحد أبناء عبد القادر صيرون السابق الذكر، وذلك لاخلاصهما لغيلان. ولكن في يونيو من سنة 1666 هزم هذا الأخير من طرف مولاي الرشيد(114)، الذي أصبح لتوه سيد القصبة «بدون اطلاق النار»، وفي نفس الوقت انضمت إليه الرباط وسلا، فهرب عملاء غيلان (القائدان السابقان) وأعيد إلى منصبيهما عبد القادر مرينو والحاج محمد فنيش(115).

وهكذا ارجعت سلطة مولاي رشيد الهدوء إلى المنطقة، والغيت المنافسة التي كانت بين المدن الثلاث لفترات طويلة(116).

---

113 - S.I.H.M. 1ère série P - B, 5 : 28

114 - لم يكن مولاي الرشيد ينظر بعين الرضى إلى تصرفات غيلان، إذ هاجمه ب 40000 جندي، وتوجه بهم إلى القصر الكبير حيث ضرب «حليف الانجليز» وانتصر عليه بفضل تخلي عدد من أنصاره عنه.
انظر تفاصيل الصراع الذي دار بين مولاي الرشيد وغيلان من جهة، وكذا الصراع الذي دار بين هذا الأخير والسلطان مولاي اسماعيل، عند :

A. Peretié , op.cit. pp. 58 - 63

115 - G. Mouette, Relation... p. 76

116 - S.I.H.M. 1ère série P - B, 5 : 28

2

الجهاد البحري ومراحله

نقصد به العمليات البحرية التي كان يقوم بها المجاهدون السلاويون (أندلسيون ومغاربة) ضد السفن الأوروبية والاسبانية بالخصوص، فالأندلسيون كانوا يطمحون إلى الانتقام من الاسبان الذين أخرجوهم من ديارهم ونكلوا بهم، والمغاربة كان يقصدون بذلك الدفاع عن بلدهم، وبذلك يختلف هذا المفهوم كلية عن المفهوم الأوربي المتداول (قراصنة سلا) الذي يدخل هذه العمليات في اطار أعمال اللصوصية البحرية. ويرجع تاريخ البحرية في مصب أبي رقراق إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) أيام الملك الموحدي عبد المومن صاحب الاسطول الحربي المشهور ومؤسس دار الصناعة البحرية بضاحية مدينة سلا، وقد تقوت أكبر في عهد المرينيين كما كانت المنطقة محل اهتمام من طرف السعديين، وحين استقرار الأندلسيين بها في بداية القرن السابع عشر اكتسب الجهاد البحري صبغة خاصة، إذ أصبح أهم مظهر للوجود الأندلسي بالمغرب، فمن خلاله استطاع الأندلسيون أن يكونوا لهم بنية اقتصادية قوية مكنتهم من فرض أنفسهم ككيان سياسي له وزنه بالمنطقة. وسنحاول من خلال هذه الفقرة أن نستعرض مراحل هذا الجهاد البحري وكذا تنظيمه.

يمكن التمييز بين ثلاث مراحل أساسية :

- المرحلة الأولى : من 1610 إلى 1626 : وهي مرحلة التنظيم، إذ عرف الجهاد البحري فيها ازدياد مطردا، وكان يمارس - نوعا ما - تحت اشراف السلطة السعدية.

- المرحلة الثانية : من 1627 إلى 1641 وهي مرحلة الاستقلال التام عن السلطة المركزية، إذ شكل فيها الأندلسيون ديوانهم، الذي أصبح يمارس اختصاصاته باستقلالية تامة، وقد امتد نفوذهم في هذه المرحلة إلى مسافات بعيدة أدت بهم الى الاصطدام مباشرة مع الأوربيين.

- المرحلة الثالثة : من 1641 إلى 1668:

وهي المرحلة التي أصبح الجهاد البحري فيها يمارس تحت إشراف الدلائيين:

- المرحلة الأولى (1610-1626):

انطلاقا من 18 أبريل سنة 1610 كتب فوكلا Vaucelas إلى هنري الرابع عن : «عمليات الجهاد البحري التي كان يقوم بها المورسكيون» رغم أن الأمر في الحقيقة لم يكن يتعلق إلا بإحداث منعزلة إذ أن عمليات الجهاد البحري الرئيسية والمنظمة لم تبتدئ إلا في سنة 1617 فقد كتب القبطان الهولندي أبي ولمس Abbe Willemez إلى روتر دام يقول «منذ سنة لم يكن المورسكيون يملكون سفنا والآن أصبح عددها أربع، وسيصبحون أقوياء إذا لم تتخذ الاجراءات الضرورية ضدهم، وهم لايخضعون لسلطة ملك المغرب ويستحوذون على ما يغنمونه»[117] وقد أكد الخبر بالمذكرة المؤرخة بـ 26 نونبر 1626 والموجهة من رازيلي إلى رشليو Richelieu حيث يقول : «أن مجاهدي سلا وتطوان بدأوا يستخدمون سفنهم منذ 8 سنوات، وأسروا حوالي 6 آلاف أوروبي، واستحوذوا على حوالي 15 مليون ليبرة... رغم أنهم لم يبتدأوا عملياتهم إلا بسفينة واحدة من نوع Tartanne فإنهم يملكون اليوم أكثر من 60 سفينة»[118] ومنذ السنوات الأولى لطردهم اتجه الأندلسيون إلى العمل المسلح المباشر على الشواطئ الاسبانية[119]، كما أنهم انطلقوا إلى العمل في المحيط ولكن بشكل محدود، إذ لم يكونوا يجرأون عن الابتعاد عن قواعدهم البحرية، غير أنهم في سنة 1622 بدأوا يصاحبون مجاهدي الجزائر في مغامراتهم في بحر المانش، واشتدت في السنوات التالية هجمات الأندلسيين على الشواطئ الانجليزية، بل وهاجموا صيادي (الأرض الجديدة) Terre Neuve[120].

---

117 - S.I.H.M. 1ère série P - B, 3 : 65

118 - S.I.H.M. 1ère série France, 3 : 115

119 - كتب أحد الاسبان يقول هو بصدد أعمال أحد المورسكيين بالمغرب : «بمجرد وصوله إلى المغرب أعلن هذا المورسكي صراحة عن اسلامه والتجأ إلى المجاهدين البحريين، وصار يقوم معه لعدة سنوات بالسلب والنهب على الشواطئ الاسبانية، محصلا بذلك على مغانم إلى أن امتلك سفينة خاصة. وظل كذلك إلى أن أصبحت له 13 سفينة يهاجم بها السواحل الاسبانية سالبا وناهبا الرجال والنساء والأطفال وبهذا كان ينتقم للإهانة التي تعرض لها باسبانيا كما يقول .... وكان يحمل في سفينته ملابس مختلفة وكان هو نفسه يتخذ لباسه على الطريقة الاسبانية. وكان يصحب معه عادة في سفينته 24 رجلا كلهم مورسكيون وكلهم يحيدون اللغة الاسبانية وكلهم مسلمون».
Dela Verdadera Relation... in Ignacio Bauer landauer, Relation y Manscritos p. 239
وقد ارتفعت نسبة الاسرى الاسبان في أيدي المورسكيين من 3% خلال سنة 1609 إلى 40% خلال العشرين سنة التي تلت هذا التاريخ.

120 - R. Coindreau, les corsaires de Salé. p. 178

ويوجد بالأرشيف الانجليزي عدة وثائق تتعلق بهذا الموضوع، فقد رسالة كتبها طوماس سليThomas Cely عمدة بليموث Plymouth إلى مجلس اللوردات بتاريخ أواخر أبريل من سنة 1625 يقول : «إن من واجبي أن أذكركم أنني سمعت في هذا اليوم بأن مجاهدي سلا قد أغاروا على ساحلنا (الساحل الانجليزي)، فنهبوا عدة أشياء، مما استطاعوا التغلب عليه... وأحيطكم علما أن رجلا يدعى بتريك هونيكود، وهو أحد الانجليز بسلاو بعث أخيرا برسالة إلى زوجته، مؤرخة بخامس مارس الفارط، يخطرها فيها، ضمن أشياء أخرى، بأن هناك ثلاثين بحارا في سفنهم بسلا، يستعدون اللاتيان إلى ساحل انجلترا، أوائل الصيف، فإن لم يكن هناك أخذ بالحيطة لمنع ذلك، فإنهم سيحدثون هناك أعظم الأضرار..»[121].

وفي تقرير آخر لرجل يدعى وليم كرت William Court بعثه من بلموث بتاريخ 17 ماي سنة 1625 يقول: «يذكر أنه سافر من مرفأ بليموت على متن سفينته هولندية في رحلة تجارية إلى البرتغال، وخلال 6 أيام من أبحارهم من بليموت دهموا بمجاهدي سلا فأخذوا هو وأربعة انجليز آخرين، ومن كان معهم من الهولنديين، لكنهم اكتفوا في الأخير بأخذه وباقي الانجليز الذين كانوا معه إلى سلا. وبعد 8 أسابيع خرج مع مجاهدي سلا في إحدى سفنهم صحبة خمس سفن أخرى، متجهة إلى سواحل انجلترا، وتمكنت من أسر سفينة من لندن وأخذت معها رجالها الأحد عشر، ومدافعهم، واغرقت سفينة من لندن وأخذت معها ودجالها الأحد عشر، ومدافعهم، واغرقت السفينة المذكورة، وبعد ستة أيام من ذلك اسروا سفينة فرنسية وسفينة صغيرة من سلي Sylly وستين رجلا كانوا في تلك السفن المذكورة فأخذ المجاهدون هؤلاء الرجال جميعا إلى سفنهم وسلسلوهم، وتركوا المراكب تطفوا مع التيار.

وبعد ذلك بـ 12 يوما أسروا سفينة من بليمرت كانت قاصدة إلى نيو فوندلند (الأرض الجديدة) في رحلة صيدية، فأخذوا رئيسها وسبعة عشر آخرين من رجالها المتازين...»[122].

---

121 - S.I.H.M. 1ère série Angleterre, 2-558-559

122 - S.I.H.M. 1ère série Angleterre, 2 : 562-563

المرحلة الثانية(1626 - 1641) :

انطلاقا من سنة 1627 استطاع مراد العلج القائد البحري الشهير[123] ان يقوم بعمليات واسعة النطاق، إذ استطاع أن يصل إلى اسلندا وينهب Reykjawich، وانطلق في سنة 1631 في مغامرات جريئة عى سواحل ارلندا. وهكذا استولى المجاهدون فيما بين سني 1620 - 1630 على أكثر من 100 وسفينة مسيحية، وأمام تزايد عمليات الجهاد البحري حاول الأوربيون أن يقوموا بعمليات انتقامية ضد المجاهدين ، ففي 27 يونيو من سنة 1627 من مدينة La Pallice أرسلوا أول قوة بحرية من أوربا ضد مجاهدي سلا (لأجل ارجاع هؤلاء إلى طريق الصواب). وكانت تحت قيادة اسحاق رازيلي، ووصلت إلى سلا في 20 يوليوز لكن مهمتها لم تكن هجومية، بل كانت مهما تخليص الأسرى الفرنسيين فقط وعقد هدنة مع الطرف الآخر[124]. وقد رفض الديوان أول الأمر طلب الفرنسيين فقام هؤلاء بهجوم على الميناء تمكنوا خلاله من احراق 6 سفن للأندلسيين مما اضطر معه الديوان إلى عقد هدنة مع الفرنسيين مدة 5 أشهر في 2 أكتوبر سنة 1629. لكن قائد الاسطول الفرنسي اضطر للرجوع قبل أن يخلص الفرنسيين، مما جعله يرجع في العام الموالي سلا ويأسر ثلاث سفن للأندلسيين ويمنع 17 سفينة للمجاهدين من الخروج، وبعد ذلك اضطر الديوان إلى فتح مفاوضات جديدة مع الفرنسيين تمكن خلالها هؤلاء الاخيرين من تحرير 200 أسير فرنسي، وفي 3 شتنبر من سنة 1630 عقدت اتفاقية بين الطرفين بمقتضاها يسمح للسفن الفرنسية أن تتاجر مع موانئ المجاهدين بكل امان[125]. وبعد هذه الاتفاقية عقد الوليد بدوره هدنة في 17 شتنبر من سنة 1631 مع لويس الثالث عشر، لكن بخطأ من اليهودي الهولندي دافيد بلاش David Pallache (الوسيط بين الطرفين) الذي لم يخبر السلطان بمصادقة ملك فرنسا على الهدنة، اعطيت الأوامر باستيناف الجهاد البحري[126].

وقد تناقصت عمليات الجهاد البحري في سنة 1632 بفعل هجمات االعياشي ضد القصبة، لكن الأندلسيين استأنفوا نشاطهم في سنة 1633 بعد أن ضمنوا تأييد السلطان لهم، وبدأوا من جديد في اكتساح البحر، ومع ذلك فإن فرنسا استمرت في

---

123 - J. Caillé, op. cit pp. 224 - 225

124 -R. Coindreau, op. cit. p. 179

125 - I bid. p 180

126 - Loc cit

العمل بمعاهدة 1631 ايمانا منها بمواصلة المفاوضات. وفعلا فقد أمر الوليد في أبريل من سنة 1634 بتوقيف الجهاد البحري، إلا أن هذا لم يرض الديوان الذي لم يكن في الواقع «يخضع لأمر السلطان الا إذا كان يجني مصلحة من وراء ذلك»[127] وبعد مفاوضات طويلة بين الوليد ولويس الثالي عشر عقدت اتفاقية سلام في 18 يوليوز من سنة 1635، وقد كتب الوليد بعد هذه الاتفاقية مباشرة إلى قواد الثغور في 19 يوليوز من نفس السنة يقول: «... وان ما عسى أن يقع بمشيئة الله وقدره وسابق علمه ونفوذ أمره من بعض خدام الجانبين مما يفسد الشروط وينافي عقد الصلح المشروط فإن فاعل ذلك يعاقب عقوبة يشيع في أقطار الأرض خبرها، ويذيع في أكنافها أمرها. وأن يسترد خدامنا ووكلاؤنا الذين بسواحل البحر ما بأيديهم من أسارى فرانصة اقتداء بفعل مقامنا العلي، وسلوكا لأثر صنعنا الجميل السني...»[128] ولكن الأندلسيين المعتزين باستقلاليتهم لم يرقهم الاتفاق، ففضلوا التفاوض مباشرة مع الفرنسيين مع مواصلة عمليات الجهاد البحري، ففي الوقت الذي كان فيه المبعوث الفرنسي دي شلار du Chalars يتفاوض مع الأندلسيين حول ثمن الأسرى الفرنسيين، كانت هناك 22 سفينة أندلسية قد خرجت من سلا تجاه السواحل الاسبانية، وأخرى تجاه جزر الكناري كما وصلت إلى سلا في نفس الوقت خمس سفن تجارية مأسورة محملة بالقمح والسكر، ولم يعط الأندلسيين موافقتهم - النظرية - على الاتفاقية السالفة الذكر الا فاتح شتنبر من1635[129].

وازاء شكوك الفرنسيين حول الأندلسيين للمعاهدة المذكورة فقد اعطيت الأوامر لقائد البحرية الفرنسية للتوجه إلى سلا لارغامهم على الخضوع للمعاهدة المعقودة بين الوليد ولويس الثالث عشر والا فإن الحرب ستعلن ضد المدينة المذكورة، لكن العملية ظلت بدون نتائج نذكر[130]. وهكذا فقد عرفت هذه السنة والسنة التي تليها (1336) ازهى أيام الجهاد البحري، إذ تعددت عمليات الجهاد البحري ضد انجلترا بالخصوص فقد ذكر عمدة بليموث انه في يوم واحد من سنة 1636 تمكن المجاهدون من اسر 300 انجليزي اخذوا إلى سلا، كما لوحظ في نفس الوقت أن هناك 3 آلاف بحار انجليزي في «مطامير مغربية»[131].

---

127 - Charles Penz, les captifs français du Maroc au XVIIe siècle, p. 46

128 - S.I.H.M. 1ère série France, 3 : 495

129 - R. Coindreau , op. cit. p. 181

130 - I bid. p 182

131 - Loc cit

ولم تبق انجلترا مكتوفة الأيدي امام هذه الوضعية، فقررت ان تبعث بالأمير وليام رينسبوروغ W. Rainsborough في 27 فبراير من 1647 لتحرير الاسرى الانجليز، واعطيت له الأوامر باغراق جميع سفن الأندلسيين التي يصادفها بالبحر. وقد وصل القائد الانجليزي إلى سلا في 3 أبريل على رأس اسطول مكون من 40 سفينة، لكنه وجد المنطقة في حروب أهلية، فقد طرد الأندلسيون الهورناتشيين من القصبة وهاجموا سلا التي كان يدافع عنها العياشي، وقد حاصر الاسطول الانجليزي مصب النهر، وقدم مساعدته للعياشي. وفي 13 ماي عقد القائد الانجليزي اتفاقية باسم شارل الأول مع العياشي، تنص على تخليص جميع الأسرى الانجليز، ورفع الحصار، واضطر الأندلسيون ازاء الاضطرابات الداخلية، وازاء الحصار، إلى تخليص الاسرى الانجليز، وقد توقفت نتيجة لذلك، عمليات الجهاد البحري لمدة سنتين. لكن مع ذلك فإن نتائج العشر سنوات الأخيرة لم تذهب سدى إذ استطاع الديوان ان يتجمع لديه حوالي 27 مليون دوكا(132).

- المرحلة الثالثة(1641 - 1668) :

استمر المجاهدون في هذه المرحلة في عملياتهم الجهادية ضد السفن الأوروبية، بحيث أصبحوا يشكلون خطرا حقيقيا عيها، ومع ذلك فإن رد الفعل الأوربي ظل ضعيفا إذ فضلت الدول الأوروبية التفاوض على أمل أن تتجنب أكبر قدر ممكن من الخسائر، ففي سنة 1649 حاولت هولندا في شخص قائدا أسطولها جوريس فان كاتس Horis Van Cats تخريب أسطول المجاهدين، لكنها لم تحقق إلا نتائج جزئية(133)، وفي السنة الموالية بعث بأسطول آخر لمحاصرة سلا، وانتهى الحصاز بعقد معاهدة في فبراير من سنة 1651(134).

---

132 - R. Coindreau . op. cit. p. 183

133 - S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 5,171

134 - تشتمل هذه المعاهدة على سبعة فصول ، مجملها : أن يطلق سراح الاسرى الهولنديين مقابل اداء ثمن الشراء لمالكيهم في ظرف ثلاثة أشهر وألا تتسلح أية سفينه سلاوية في البحر ما لم تقدم ضامنا يتكفل بتعويض الخسائر التي تلحقها برعايا البلاد الواطئة وانه سيخلى سبيل الهولنديين الذين قد يوجدون على ظهر سفن محايدة والا يسمح لمجاهدي الجزائر وتونس وطرابلس أن يبيعوا في سلاما يستولون عليه من اسرى الهولنديين وبضائعهم، والا يزاد في واجبات الجمرك الحالية. وان يحمي السلاويون التجار من رعايا البلاد الواطئة ولا يسمحوا للأتراك وغيرهم بحمل رسائل امتياز في سلا، وفي مقابل ذلك لن يعترض الاسطول الهولندي طريق السفن السلاوية، كما أن السلاويين لن يأسروا الأجانب الراكبين على ظهر السفن الهولندية.

ولكن كانت هذه الاتفاقية هشة، إذ سمح الأندلسيون لمجاهدي تونس والجزائر وطرابلس بديع الغنائم الهولندية بسلا خلافا للبند الرابع من المعاهدة، بل اسرت سفن تحمل العلم الهولندي من طرف مجاهدي سلا، وهكذا أعطيت الأوامر من جديد لقطع الأسطول الهولندي بالتوجه إلى سلاو وكان رد فعل المجاهدين احتجاز القنصل الهولندي دفرييس Devries وكذا احتجاز البحارة الهولنديين بسلا[135]، فما كان من الولايات العامة إلا أن أصدرت أوامرها إلى قائد الأسطول الهولندي بالتفاوض مع مجاهد سلا[136] وظلت بريطانيا منذ حملة رينسبوروغ تمتنع عن التدخل ضد سلا، إذ كانت لها معها علاقات تجارية مهمة، لكن المجاهدين السلاويين ظلوا يمارسون أعمالهم الجهادية ضد السفن الانجليزية،إذ تزايد عدد البحارة المأسورين. غير أن القنصل الانجليزي كان يراسل حكومته باستمرار في شأن إرسال أسطول لتخليص أسراه، وفعلا أعطيت الأوامر لروبير بليك Blake في غشت من سنة 1656 للتوجه إلى سلا، وذلك لتلخيص الأسرى، وعقد اتفاقية مع مجاهدي سلا، على غرار الاتفاقية المعقودة مع مجاهدي الجزائر وتونس، بعد انتصار الأسطول الانجليزي على الأسطول التونسي. وهكذا ظهر الأميرال الانجليزي أمام سلا في 14 غشت بمعظم أسطوله، وامتد الحصار 15 يوما، ولم يعقد السلاوين اتفاقية الهدنة إلا في يوليوز من سنة 1657 [137].

وأثناء هذه الأحداث رجع رويتر Ruyter إلى سلا في 16 أبريل من سنة 1657 على رأس أسطول مكون من خمس قطع حربية، وعقدت اتفاقية بين مجاهدي سلا وهولندا في 22 مارس لكن الأمر لم يدم طويلا، ففي 6 أكتوبر من سنة 1658 هاجم أسطول هولندي سفينة للمجاهدين السلاويين (الشمس) بقيادة الرايس أحمد القرطبي، فأسر وأحرقت السفينة. وقد كان لهذه الحادثة دوي كبير سواء في المغرب أو هولندا، إذ طالب المجاهدون السلاوين بالتعويضات عن الأضرار التي لحقتهم من جراء هذا العمل، وأخذت هولندا بدوها هذا الحدث مأخذ الجد، إذ قدمت للمحاكمة في 9 يناير من سنة 1659 قبطان السفينة المهاجمة، وطالبت منه تقديم تعويض المرايس القرطبي مقداره 9.005 فلورين، وفي نفس الوقت قررت الولايات العامة تقديم

---

135 - R. Coindreau , op. cit. p. 185

136 - Loc. cit

137 - R. Coindreau, op. cit. p. 186

سفينة من نفس حمولة وتسلح السفينة المهاجمة إلى حكام سلا كما عرضت سفينة القبطات الهولندي المهاجمة للبيع لصالح الرايس القرطبي[138].

وهكذا خلال عشرات سنوات، وتحت تأثير المعاهدات المعقودة بين الطرفين، امتنعت الدول الأوروبية عن أي عمل ضد سلا.

أوج القوة البحرية بمصب أبي رقراق

استطاع الهورناتشيون بفضل ثرواتهم وخبرتهم في الجهاد وعلاقاتهم مع الأوربيين، ان يسلحوا السفن، ويجلبوا اليها التقنيين الضروريين لذلك، وقد اعتمدوا في ذلك أساس على الأعلاج، كما اعتمدوا في تكوين جيشهم المهاجم على الأندلسيين، لخبرتهم بالسواحل الأوربية والاسبانية بالخصوص، غير انهم اعتمدوا على المغاربة أيضا للقيام بعمليات هجومية على ظهر سفن الخصم، وأخيرا جماعات العبيد الذين كانوا يقومون بمختلف العمليات على ظهر السفن.

الميناء

أورد شينيي L. Chénier عددا من الصعوبات التي تعوق سيز الملاحة بميناء سلا[139]، كما أكد كثير من المؤلفين العرب والأوروبيين على المخاطر التي تصاحب الدخول أو الخروج من الميناء المذكور[140].

غير أن سلبيات هذا الميناء عوضت بعدد من الايجابيات التي عرضها الأب دان في القرن السابع عشر: «ان عدم عمق مياه هذا الميناء جعل مجاهدي سلا يستخدمون سفنا خفيفة، فإن كانوا يخسرون من جهة لأنهم ليست لهم سفن قوية كسفن الجزائر وتونس، فهم يريحون من جهة أخرى، لأنها سفن خفيفة وسريعة وتصلح للمطاردة أكثر من سابقتها...»[141]، ومن جهة أخرى فإن صعوبة دخول الميناء كانت ايجابية بالنسبة لمجاهدي سلاو إذ أن سفنهم بمجرد ما تجتاز الحاجز الرملي تصبح في مأمن من السفن التي تطاردها نظرا لأن حمولتها الكبيرة لا تسمح بدخول الميناء[142]، وهناك ايجابية أخرى سجلها الأب دان، وهي قرب سلا من مضيق جبل طارق المنفذ الطبيعي

---

138 - I bid. p. 187

139 - Recherches historiques sur les maures, 3: 241

140 - R. Coindreau, op. cit. P.34

141 - Histoire de la Barbarie et ses corsaires, p. 209

142 - R. Coindreau , op. cit. p.142, J. Caillé, op.cit p, 225

للطرق البحرية مما جعل مجاهدي سلا «ينصبون دائما الكمائن للسفن من الغرب إلى الشرق، ومن البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسي...»[143].

صنع السفن

قام الهورناتشيون بإعادة ترميم السفن المأسورة، كما صنعوا سفنا بورش أقاموه قرب حسان[144] وسعوا إلى ضمان مساعدة الأجانب لتسليح أسطولهم[145].

ولعب اليهود في هذا دور الوسيط، فقد كان يهود سلا في علاقات وطيدة مع مواطنيهم المطرودين من اسبانيا والبرتغال والهاربين إلى الأراضي المنخفضة، فكانت هولندا، اذن تقدم مساعدة ضخمة للأندلسيين عن طريق هؤلاء[146]. ومن جهتهم فإن الأندلسيين كانوا قد تعلموا في اسبانيا استعمال وصنع الأسلحة كما تعلموا مجموعة من الحرف والصناعات مكنتهم من صيانة ما يفسد من سفنهم، لكن - ومهما كان الأمر - فإنه لم يكن بإمكان الأندلسيين وحدهم القيام بعمليات جريئة بدون مساعدة متخصصين من الاعلاج[147] وكان هؤلاء يؤسرون من بين البحارة الأوروبيين أثناء عمليات الجهاد البحري، وقد كتب اسحاق رازيلي إلى ريشليوا سنة 1626 يقول «بكل حزن واسى اذكركم بأنه منذ 20 سنة مضت احصيت أكثر من 8 آلاف من خيرة بحارتنا اسروا، وهم الآن في شمال افريقيا يعتنقون الدين الاسلامي ويستخدمون كقادة لسفن المجاهدين، بل ويأتون إلى الشواطئ الفرنسية لأسر أقربائهم ومواطنيهم...»[148].

واستخدم المجاهدون السلاويون سفنا مستديرة وخفيفة تتلاءم مع مينائهم[149]. كما استخدموا أنواعا أخرى من السفن نذكر من بينها :

ترتان (Tartane) وشراعية (Brigantin) وشبيك (Chébec) وبينيك (Pinque) وبولاكر (Polacres)، وكرافيلا (Caravelle) والخفاف (Pinasses) وسنيو (Senau)،

---

143 - Histoire de la Barbarie et ses corsaires, p. 203
144 - J. Caillé, op. cit P. 225
145 - R. Coindreau, op. cit. p.55
146 - R. Coindreau, op. cit. p.56
147 - I bid, P 57
148 - S.I.H.M. 1ère série. France, 3: 116
149 - R. Coindreau, op. cit. p.88

وفركاطة (والحراقة) (Frégate)[150]. وهذا اللفظ الأخير استخدم أكثر من غيره، والمؤرخون العرب يسمون (فرطاكة) كل سفينة جهادية بدون تمييز[151]. وتبعهم في ذلك كثير من المؤرخين الأوربيين، مما يجعلنا لا نتعرف على نوع السفينة المستخدمة. وهكذا فكلمة فرطاكة يمكن أن تعني سفينة من حمولة 200 طن مسلحة بـ 24 من قطع المدفعية مع طاقم مكون من 300 رجل، كما يمكن أن يكون القصد بها سفينة ذات حمولة من 30 طن مسلحة بمدفعين وطاقم مكون من 50 رجلا[152]. وهناك أنواع أخرى مثل:

فست (Fuste)، وفلوتة (Flute)، وفليبو (Flibot) والصندل (Gabarre)، والخفارة (Patache)، وسيتي (Setye) وغليونة (Galiote)[153].

وعلى كل فمهما اختلفت أنواع سفن المجاهدين السلاويين، فإنها كانت تشترك في خاصيتين أساسيتين: السرعة والقدرة على الهجوم، فالسرعة ضرورية للمجاهد سواء للوصول إلى هدفه أو للهروب من المتابعات الخطيرة للعدو، والنجاح يكون مرتبط بهذا العامل إلى حد كبير، والقدرة على الهجوم تتطلب الخفة والدقة وسرعة الاستعمال بالاضافة إلى استعمال الاشرعة الضخمة التي تشكل عامل نجاح اضافي[154].

وهكذا فقد كانت السفن السلاوية لا تتزود إلا بما هو ضروري جدا للتموين، وعلى العكس من ذلك فقد كانت تتزود بالقدر الكافي من الرجال والذخيرة والعتاد، لذلك كانت أكثر تجهيزا وتسليحا من السفن الأوربية[155].

---

150 - R. Coindreau , op. cit. p.88 - 94

ملاحظة: اعتمدنا في ترجمة هذه أسماء على الدراسات الآتية:
عبد العزيز بنعبد الله: معجم في السفانة والسفن، مكتب تنسيق التعريب في العام العربي، الرباط (1979)
عبد العزيز بنعبد الله: دور الملاحة المغربية في البحار طوال ألف عام مقال بمجلة المناهل، العدد 32 مارس 1985، ص 64- 121

محمد المنوني: "نظم الدولة المرينية"
ضمن كتاب ورقات عن الحضارة المغربية في عهد بني مرين ص 76- 80.
محمد الكافي، قاموس المصطلحات البحرية.

151- انظر - مثلا - المؤلف المجهول، تاريخ الدولة السعدية.

152 - R. Coindreau . op. cit. p. 94

153 - Ibid. pp. 96 - 97

ملاحظة: اعتمدنا في ترجمة هذه الأسماء على الدراسات السابقة.
انظر هامش 150.

154 - Ibid. p. 99

155 - Ibid. p. 101

ولم يكن الأسطول السلاوي ضخما بالمقارنة مع أسطول الدول الأوربية، ففي خلال المرحلة الثانية من مراحل الجهاد البحري، عندما وصل الجهاد البحري إلى أوجه بلغ عدد سفن الأسطول ما بين 30 إلى 40 وحدة، وأكبر رقم وصل إليه هو 60 وحدة، وهكذا بلغ عدد قطع الأسطول سنة 1637 - حسب الأميرال الانجليزي رينسبوروغ - ما بين 40 إلى 50 قطعة، ومابين 12 إلى 20 منها يحملون قطعا للمدفعية[156].

وقد نقص هذا الرقم في النصف الثاني من القرن السابع عشر إذ وصل إلى 6 سفن فقط[157].

طاقم السفن

كان رجال العمليات الجهادية البحرية، يخضعون لنظام صارم من طرف الهورناتشيين، فهم يختارون بدقة، وطاقم السفينة نجده مرارا مكون من أندلسيين إذ لا نجد لا المغاربة ولا الأتراك، إذ أن هؤلاء الأخيرين «لايعرفون إلا القليل من ميدان الملاحة»[158]، وكان هناك على ظهر السفن متخصصون في الهجوم على سفن الخصم. وهذه الفرقة مكونة أساسا من الأندلسيين والمغاربة، ولم يكن من

156 - Loc Cit

157 - S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas. 6 : 293

158 - P. Dan, op.cit p 210

ملاحظة : كان المورسكيون يولون اهتماما كبيرا للأوربيين الداخلين إلى الاسلام حديثا، ولم يكونوا يتوالو في اعلان رأيهم بصراحة، فبالنسبة لاستخدام مدفع ما فان أوربيا واحدا(علجا) أحسن بكثير من 100 مغربي.

R. Coindreau, op. cit. p. 58

ولم يكن هذا رأي المورسكيين فقط بل كان أيضا بعض سلاطين المغرب، ففي رسالة بعثها السلطان مولاي اسماعيل إلى الملك لويس الرابع عشر يذكر له أن الله أعطى للمسلمين السيادة على الأرض وترك السيادة على البحار للكفار، كما ذكر السفير ابن عائشة لأحد أصدقائه الفرنسيين انه لو كان المغاربة رجال حرب في البحار ورجال يركبون السفن لما ترك انجليزيا واحد يجتاز مضيق جبل طارق، ولكن المغاربة لا يعرفون إلا ظهور خيولهم.

انظر :

H. De Castries, Le Maroc d'autrefois, les corsaires de Salé, in Revue des deux mondes, 15 Février 1903; p. 18

ونتج عن ذلك أن كثيرا من الدارسين الأوربيين أصبحوا يعتبرون ان ظاهرة الجهاد البحري بعصب أبي رقراق ظاهرة أوربية محضة نقلت إلى المغرب، فهي بالنسبة لهم «حدث عابر خلقة الأجانب» ويبررون ذلك بالخوف من البحر الموروث عن الاسلاف» متناسين بذلك الظروف والملابسات التي صاحبت نشوء هذه الظاهرة بالمغرب.

انظر - مثلا - :

Louis Brunto, la mer dans les traditions et les Industries à Rabat et Salé, pp. 11 - 12

السهل على الأندلسيين استخدام المغاربة في البحر، نتيجة النفور الغريزي لهؤلاء منه، لكن بوسائل مختلفة استطاعوا أن يجلبوا إليهم عددا كبيرا من المغاربة للقيام بهذا الدور[159]. وقد تعود البحارة السلاويون على نظام قاس إذ كانوا لايحملون معهم إلا ما هو ضروري جد لتموينهم في حين كانوا يتزودون بصفة جيدة بالذخيرة والسلاح، وكانوا يقتسمون مواد التموين بالتساوي جنودا ورؤساء فهم يشتركون جميعا في حياة التقشف، وقد أعطى الأب دان بعض أنواع هذه المواد التي تتكون من «البسكويت والزيت، والعنب والأرز والخضر»[160].

غير أن هوست G. Host رسم لنا تفاصيل أكثر عن نظام تغذيتهم، ففي الصباح يتناولون الخبز والزيتون، وفي الظهر يتناولون «الخليع» (الأكلة المغربية الشهيرة)، وفي المساء يتناولون الحمص والكسكس والمشروب الوحيد المسمح به هو الماء، ولكنه بعد أيام يصبح غير صالح للشرب، وإذاك يجدها فرصة بعض البحارة لتناول الخمر والماحية ![161].

ولم يكن جنود السفينة وضباطها يتلقون أجرا محددا، ولكت يعطون فقط تعويضات من الغنائم وهذا لتشجيعهم لخوض المعارك البحرية لأنهم لن يخوضوا هذه المعارك بقوة إذا كانوا يعرفون مسبقا أجرتهم»[162].

وقد كان التوزيع على الشكل الآتي :

- 10 % للديوان

- نصف الباقي يعطى للرايس لتعويضه عن المصاريف التي تحملها في العملية.

- النصف الآخر - أي45 % من مجموع مبلغ الغنيمة - يعطى لطاقم السفينه».

وفي حالة فشل العملية لا يأخذ الطاقم شيئا[163].

مجال العمل

كانت عمليات الجهاد البحري متجهة أساسا إلى المحيط الأطلنتي[164]، إذ كان المجاهدون الجزائريون «يحتكرون» الجهاد في البحر الأبيض المتوسط، ولا يريدون

159 - R. Coindreau, op. cit. p. 62

160 - Op.cit. p. 298

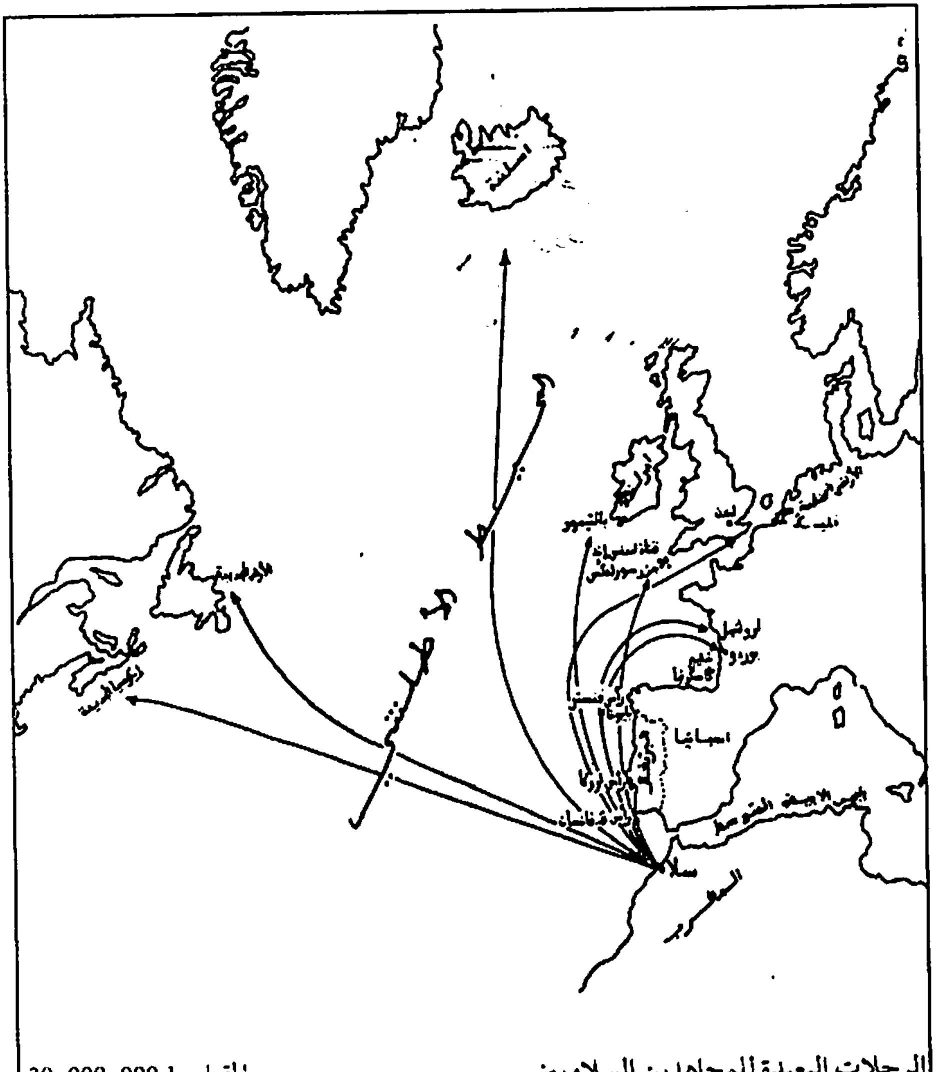
161 - R. Coindreau, op. cit. p. 63

162 - P. Dan, op.cit. p 210

163 - R. Coindreau, op. cit. p. 64

164 - كان المجاهدون السلاوين يقومون ببعض العمليات في البحر الأبيض المتوسط ولكنها كانت نادرة جدا

أن ينافسهم فيه أحد. وهكذا فإن مضيق جبل طارق هو الحد الفاصل بين مجال المجاهدين الجزائريين والمجاهدين السلاويين، غير أن الأول - لأقدميتهم وقوتهم وكثرتهم - كانوا يمارسون عملياتهم - أحيانا - في المحيط الأطلنتي إما لحسابهم الخاص أو باتفاق مع المجاهدين السلاويين[165]، إذ كانوا على اتصال دائم بينهم،



الرحلات البعيدة للمجاهدين السلاويين

المقياس 30. 000. 000.1

165 - R. Coindreau. op. cit. p. 112

بل ان عدة حملات قاموا بها معا، وفي البحر - انطلاقا من ظروفهم الخاصة - كان السلاويون يدعون أنهم جزائرون، وكان الجزائريون يدعون انهم سلاويون ، كما كانوا يتداولون الغنائم فيما بينهم، وهكذا فقد كان السلاويون يبيعون في الجزائر مالم يستطيعون بيعه بالمغرب (بفعل الاتفاقيات المبرمة مع الدول الأوروبية)، وكذلك كان الجزائريون يبيعون غنائمهم بسلا[166].

وكما كان مسطرا فقد انصب مجال عملهم أول الأمر أساسا على الشواطئ الاسبانية، إذ كانوا يهاجمون أسطول الصيد الاسباني باستمرار، كما كان ينزلون إلى البر الاسباني ويقومون بعدة عمليات هناك، مما اضطر السلطات الاسبانية إلى تشديد الحراسة هناك، فاتجه المجاهدون السلاوين بذلك إلى أعماق البحار يطاردون السفن الاسبانية[167]، لكن سرعان ما اتجهت إلى باقي الدول الأوروبية، خاصة فرنسا التي كانت أكثر تضررا بعد الاسبان مباشرة[168] وامتد ميدان العمليات الجهادية إلى الشواطئ الافريقية والايبرية إلى غاية جزر الاصور Açores، جنوبا إلى جزر الكناري، وشمالا إلى رأس فنستير Cap finistère[169].

كما كان المجاهدون يصلون إلى نقط جريئة في خليج كاسكوني Gascogne متبعين تجار جوردو وبايون Bayonne ولاروشيل La Rochelle ونانت Nantes ولوهافر Le Havre، بالاضافة إلى جزر الكناري ومديرا Madère والاصور التي تعرف غزارة في العمليات الجهادية نجد هناك نقطا أخرى حساسية في لشبونة وراس سان فانسان Saint- Vincent إذ تأتي إلى هذه المركزين السفن القادمة من أمريكا وجزر الانتي[170].

ونشير إلى أن المجاهدين كانوا يستعينون في عملياتهم بعدة قواعد مساعدة في كل من تطوان، وفضالة، وأزمور والوليدية، واسفي. وقد كانت للمجاهدين أيضا رحلاتهم البعيدة، نذكر على الخصوص رحلة مرادرايس إلى هولندا في سنة 1622، وترددهم على بحر المانش، وفي 1625 خرجت 30 سفينة للمجاهدين في اتجاه بريطانيا إذ أكد عمدة بليموث أن المجاهدين اسروا ألف سفينة[171]، وفي

---

166 - Ibid. pp. 48 - 49
167 - P. Dan, op. cit. p 203
168 - R. Coindreau, op. cit. p. 115
169 - Ibid, p. 118
170 - Ibid, p. 119
171 - Ibid, p. 122

سنة 1626 وصلت سفن المجاهدين إلى بلاد الغال Galles إذ استولت هناك على 5 سفن، ووصل مراد رايس في سنة 1627 إلى اسلندا، كما استطاع أن يصل في سنة 1631 إلى ارلندا، بل وصل المجاهدون إلى الأرض الجديدة Terre Neuve بأمريكا الشمالية[172].

ويرجع نجاحهم في عملياتهم هذه إلى عدة عوامل، منها :

– وجود عدد من الاعلاج العارفين بشؤون الملاحة.

– حسن تسليحهم

– اختيارهم لضحيتهم بدقة، فهم لا يهاجمون إلا السفن المنفردة، أو السفن التجارية، أو السفن الأقل تسلحا.

– استخدامهم لعدد من الحيل: فهم يتقمصون صفة التجار، ويخفون اعلامهم ويضعون مكانها اعلام دول أوروبية...

172 - Ibid, p. 123

3

علاقة الأندلسيين بأوروبا

تدخل علاقة الأندلسيين بأوروبا في اطار علاقات الأوروبيين مع جميع القوى المتزعمة في عصر الفترة.

وقد كان الجهاد البحري هو السبب الأساسي الذي أدى بالأندلسيين مع (السلاويين) إلى ربط علاقات سياسية وتجارية مع الأوروبيين فقد كان المجاهدون في حاجة ماسة إلى العتاد والذخيرة، وإلى آلات الضرورية لتجهيز السفن، وكذا إلى بعض مواد التموين ومن جهتهم فإن الأوروبيين كانوا يريدون أن يفتدوا اسراهم، ويأمنون سفنهم من أي سلب أو نهب من طرف سفن المجاهدين، كما كانوا أيضا يعملون على تنمية تجارة مربحة بالنسبة لهم رغم كل الظروف. وأخيرا ذهبت كل من اسبانيا وانجلترا إلى أبعد من هذا عندما وضعت ضمن مشاريعها امكانية احتلال القصبة.

كان قواد القصبة، الذين يحملون أحيانا لقب «قيم الميناء» Commissaire du port[173]
يفرضون أنفسهم كرؤساء دولة حرة ومستقلة عن السعديين[174]، ولهذا فهم يراسلون أمراء الدول المسيحية خاصة شارل الأول ملك انجلترا[175] والولايات العامة بلاهاي[176] وأمراء Orange[177].

وقد حاول الأندلسيون أول الأمر اقتناء الأسلحة الضرورية لعملياتهم الجهادية، فمنذ سنة 1624 كلف قواد القصبة الاميرال مرادرايس (اعتبار لاصلة الهولندي) بالاتصال بتجار امستردام، عن طرق يهودي برتغالي من مدينة سلا ارون كيريدو Aron Querido قصد شراء 200 مجذاف، و 200 حربة، و 120 بندقية، و 2000 ليبرة من بارود

---

173 - S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 5 : 34
174 - S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 4 : 235
175 - S.I.H.M. 1ère série Angleterre, 3- 21 -22
176 - S.I.H.M. 1ère série P.-B 3: 382
177 -S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 4 : 231

المدفع، و 90 قنطار من الكرات المختلفة الأحجام، و 10 قناطر من الكبريت[178]. وفي سنة 1616 استطاعوا أن يحصلوا من انجلترا - عن طريق جون هاريسون - على14 مدفعا مع الذخيرة مقابل اطلاق سراح الاسرى الانجليز[179]، وعندما رجع هاريسون في السنة الموالية (1627) حمل معه 6 مدافع مع البارود والقذائف[180].

ولكن الأوروبيين بدأوا يشعرون بأن هذا السلاح يستخدم ضد سفنهم لهذا بدأ الأندلسيون يجدون بعض الصعوبة في الحصول عليه، ففي سنة 1629 إذن لليهودي السالف الذكر أن يستورد من الأراضي المنخفضة 30 ألف ليبرة من الكرات و 6 آلاف ليبرة من البارود، لكن لم تسلم له إلا بعد أن وضح لهم أن هذا اسلاح سوف يستخدم فقط للدفاع عن القصبة (أي عدم استخدامه في البحر)[181].

ولم يكتف الأندلسيون باستيراد اسلاح فقد كانوا يستوردون أيضا مواد التموين من البلاد الأوروبية ففي فترات من سنة 1638 انتشرت المجاعة والفقر بالقصبة إلى حد كبير، إذ اضطر سكانها «إلى أكل جلود البقر المحلى بالسكر»[182]، فاتجهوا الى الانجليز والاسبان لتموينهم، وهكذا مولوا من طرف بليك ومدينا سيدونيا بـ 500 أو 6 (قنطار من البسكويت ومواد أخرى)[183].

العلاقات السياسية

ترجع العلاقات السياسية بين الأندلسيين والأوروبيين أساس إلى محاولة هؤلاء الأخيرين افتداء اسراهم، والحصول على ضمانات تخولهم عدم الوقوع بين أيدي مجاهدي سلا.

وكانت هذه العلاقات طبيعية ومنطقية من وجهة نظر الأندلسيين، فقد كانوا يحصلون من خلال عملية افتداء الأسرى على أرباح طائلة كانوا في جاجة إليها للوقوف لها ضد خصومهم (السعديين أو العياشي). كما أن هذه العلاقات يسهل تفسيرها كذلك بالنسبة للأوروبيين، فسفنهم الضخمة لا تمكنهم من دخول الميناء لقصفه، والحصار الدائم يكاد يكون مستحيلا بسبب الحالة يكون عليها البحر في

178 - S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas
179 - S.I.H.M. 1ère série Angleterre, 3: 33
180 - Loc. cit
181 - S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 4 : 239
182 - J. Caillé, op. cit. p. 228
183 - S.I.H.M. 1ère série. France, 3 : 585

فصل الشتاء، فلم يبق، إذن إلا احتلال القصبة والمدينيت، لكن نتائج هذه العملية خطيرة، خاصة إن المثال البرتغالي والاسباني لم يكن مشجعا، إذ أن مراكزها تتعرض باستمرار إلى الهجوم، وبالإضافة إلى ذلك فإن الدول الأوروبية لم تكن على وفاق بينها، فلم يبق، إذن، لهؤلاء إلا التفاوض مع الأندلسيين ومحاولة التفاهم معهم على مختلف النقط المعلقة.

وقد كان قادة الأندلسيين يرأسون المفاوضات وكانوا يتفاوضون على قدم المساواة مع محاوريهم، قوة بحرية في مواجهة قوة بحرية أخرى. فقد أرسلوا سفراءهم إلى انجلترا سنة 1627 و1628(184)، أمضى محمد بن عبد القادر باركو، وابراهيم بن شعيب بركاش باسم جميع الأندلسيين، مشروع معاهدة مع جون هاريسون في 10 ماي من سنة 1627(185). وفي 2 أكتوبر 1629 أمضى محمد بن عبد القادر صيرون (القائد العام للقصبة) هدنة مع فرنسا التي كان يمثلها رازيلي وقائد الاسطول شلار. ولم يقتصر الأمر على هذه الفترة بل تجاوز الأمر ذلك إلى فترة الاشراف الدلائي نفسه، إذ تدخل الأندلسيون في الاتفاقيات المعقودة مع الدول الأوروبية.

وجميع هذه الاتفاقيات تتشابه، فهي تنص أولا على تخليص الأسرى بقدر معين وبند آخر ينص على حرية التجارة بين البلدين، وبند ثان يحدد شكليات العلاقة بين سفن الطرفين المتعاقدين، إذ ينص على عدم القيام بأي عمل عدواني تجاه الطرف الاخر. وغالبا ما تكون المفاوضات شاقة وعسيرة، خاصة أنها تتعلق بتحرير الاسرى ولا تمضى إلا بعد استعراض الاسطول الأوربي بالمنطقة، كما حدث - مثلا - لاتفاقية الهدنة المعقودة مع فرنسا وانجلترا. أما بالنسبة لهولندا فلم تكن مضطرة لأن تلجأ إلى التهديد، فاسراها قليلون اذا ما قورنوا باسرى فرنسا وانجلترا، ولها علاقات ودية مع المغرب منذ معاهدة سنة 1610 (186).

وأحيانا يحرر عددا من الأسرى بدون التدخل المباشر للحكومات، وذلك بواسطة رجال الدين والتجار، فقد استطاع الأب آثيا P. d'Athia ان يخلص 50 فرنسيا (187) وكذلك فعل الأب اسكوفي Escoffié الذي استطاع تخلص 41 فرنسيا(188)، كما

---

184 - S.I.H.M. 1ère série. Pays-Bas, 4 : 287.
185 - S.I.H.M. 1ère série Angleterre, 3: 16 et 20.
186 - J. Caillé, op. cit. p. 233.
187 - Ibid. p. 235.
188 - S.I.H.M. 1ère série. France, 3 : 593.

استطاع التاجر الانجليزي روبير دون تخليص 23 اسيرا من مواطينه واستطاع تاجر انجليزي آخر هو توماس ورين T. Warren تخليص 10 أسرى(189).

العلاقات التجارية

لم يكن الجهاد البحري عائقا في سبيل قيام علاقات تجارية، بل على العكس من ذلك كان أحد العوامل الأساسية لتنميتها، فقد كان العديد من التجار الأوربيين يتاجرون بمصب أبي رقراق، وهذا فليب الرابع نفسه يبيح بصفة استثنائية من خلال قرار صادر سنة 1626 للاسبان أن يتعاملوا مع الأندلسيين. وهكذا أصبح ميناء أبي رقراق الميناء الأول بالمغرب، في حين كانت التجارة في النصف الثاني من القرن السادس عشر، مركزة بالخصوص بميناني أسفي وأكادير، وقد سجل هارسون سنة 1630 المستقبل الزاهر للمنطقة، ولاحظ مجيء 30 سفينة أجنبية خلال شهر و 16 يوما، وفي نفس السنة لاحظ رازيلي ودي شلار عدة سفن تجارية انجليزية وهولندية بالمنطقة(190)، وفي سنة 1654 أبريل أنزل روتر الهولندي في ميناء أبي رقراق التبغ، والقطن، والبارود، وأخذ بدلها جلود البقر(191).

وهذه التجارة كانت ضرورية بالنسبة للأندلسيين لأنهم لا يستطيعون بيع جميع بضائعن المغتنمة بالمغرب، غير أن بعض الدول - مثل فرنسا - لم تكن تشتري من المغرب الا ما هو من انتاجه وتمتنع عن شراء البضائع المغتنمة من الجهاد البحري، لكن الأندلسيين كانوا يجدون المكان الملائم لبيع غنائمهم، مثل الولايات الايطالية الصغيرة في كل من ليفورن Livourne، وجنوة، وبيزة Pise.

وهناك حدثان يدلان على الأهمية التي توليها الدول الأوروبية للتعامل مع الأندلسيين، ففي سنة 1629 وبعد الهدنة التي عقدها رازيلي مع هؤلاء أصبح الحديث يدور في فرنسا حول الأهمية التي يكتسبها التفاهم مع الأندلسيين وتأسيس شركة للتجارة مع المغرب(192)، وفي انجلترا بدا كذلك واضحا الفوائد التي يمكن أن تجنيها هذه الأخيرة إذا ما سهلت تعامل «الشركة البربرية» مع الأندلسيين ومع باقي الموانئ المغربية(193).

---

189 - S.I.H.M. 1ère série Angleterre, 3: 553
190 - S.I.H.M. 1ère série. France, 3 : 212
191 - S.I.H.M. 1ère série Pays-Bas, 5: 576 - 577
192 - S.I.H.M. 1ère série. France, 3 : 262
193 -S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 408

وكان هناك عدد من التجار الأوربيين بالقصبة، نجد من بينهم (خلال سنتي 1626 - 1630) الفرنسي فرانسو بيير مازيت F.P. Mazet[194] والانجليزي روبير بيكفور (R. Pickford سنة 1636)[195] . . .

ولكن على العموم كانت ظروف الحياة صعبة بالنسبة لهؤلاء التجار (الذين لم يتعودوا العيش بين ظهراني المسلمين) وكانوا عرضة للانتقام كلما حل مكروه ما بالأندلسيين، ففي سنة 1631 عندما اسر الانجليز سفينة للمجاهدين قام هؤلاء بالقبض على التجار الانجليز وحجز أموالهم[196]، وأحيانا يكون بحارة أوروبيون في حالة مرور أو توقف بالميناء ضحية هذا الانتقام، فعندما استولى الاميرال الهولندي ترومب Tromp في غشت على سفينة للأندلسيين هاجم هؤلاء طاقم سفينة هولندية أثناء توقفها بالميناء و «ورموا بهم في مطامير عميقة»[197].

وقد استقر بعض قناصلة الدولة الأوربية بالقصبة، مثل القنصل الفرنسي، والهولندي، وذلك لتسهيل المعاملات التجارية بين الطرفين، وللسهر على تنفيذ الاتفاقيات التجارية المعقودة.[198].

وهكذا فقد أصبح للأندلسيين قوة تجارية لا يستهان بها، فمدخول سنة واحدة من الجهاد البحري كان يعطي بديوان سلا أكثر مما كان يعطيه مدخول الضرائب في عهد أحمد المنصور الذهبي بالنسبة لمجموع المملكة.

محاولات الأوربيين الاستيلاء على القصبة

لانستغرب إذا رأينا الانجليز والاسبان يوجهون أنظارهم للاستيلاء على القصبة (قصبة الاوداية)، فقد كانت بالنسبة لهم مصدر قلق خاصة إن الصراعات الداخلية أضعف دويلة المجاهدين والصغيرة وازدادت بالتالي من جشعهم في الاستيلاء عليها.

فبالنسبة للانجليز يتضح هذا من خلال التقارير التي كان يبعث بها هارسون مستخدما في ذلك كل أساليب الاغراء، لإبعاد خوف الانجليز من التعامل مع

194 - J. Caillé, op.cit. p. 237
195 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 228
196 - J. Caillé, op.cit. p. 237
197 - S.I.H.M. 1ère série Pays-Bas, 5: 416 - 417
198 - J. Caillé, op. cit. p. 239

المجاهدين خاصة ان علاقته مع هؤلاء كانت وطيدة جدا، إذ كان الناطق باسمهم لدى العرش الانجليزي. ففي تقرير له إلى الملك شارل الأول سنة 1627 نجده يركز على عدة محاور :

أولا : تشجيعهم للأندلسيين عى التخلص من زيدان للاستقلال كلية عنه : «... أما الموريسكيون الذين يحكمون الآن في سلا فقد بعثوا إلي بأنه : إذا أتيت إليهم للعمل معهم بأنهم سيزحزحون مولاي زيدان الحاكم الطاغية الذي كان السبب في أسر كثير من رعاياكم وفقد سفنهم وبضائعهم وأرواحهم، وهم يضعون أنفسهم تحت حمايتكم ...»(199).

ثانيا : تكتل هؤلاء الأندلسيين للعمل ضد أعداء الانجليز داخل المغرب، وكذلك ضد الاسبان: «... وكان القواد الموريسكيون بسلا قد عزموا على إرسال نخبة منهم لعرض خدماتهم عليكم وليس ذلك باسمهم فقط، بل اسم جميع المورسكيين بالمغرب وهم في كثرتهم يعدون بمئات آلالاف.. ليس لهم مكان يلجأون إليه ولا مدينة يأوون إليها إلا سلا التي عينت لهم وبنيت لهم بواسطة ذلك الملك الشهير يعقوب المنصور، الذي تنبأ بطردهم هذا، كما يقولون، ولكنهم الآن بفضلكم قد حصنوا بقطع المدافع الجيدة والاعتدة الحربية، بحيث صاروا أعظم قدرة للدفاع عن أنفسهم سواء ضد الاسبان أو ضد أعدائهم الآخرين... وليس الآن لهم ملك آخر إلا أنتم، فإن طاب لكم أن تشملهم بحمايتك الملكية...»(200).

ثالثا : التأكيد على أنهم مسيحيون، بل أكثر مسيحية من اسبانيا نفسها، لذا يجب مد يد العون لهم لإنقادهم من المغاربة والاسبان على السواء: «فهم مسيحيون، قد طردهم الاسبان الكفرة، وسلموهم إلى المسلمين من مغاربة وأتراك... فقد أثاروا سخط مولاي زيدان عندما أطلقنا سراح رعاياكم، وكتب اليهم مولاي زيدان رسالة جد مستعجلة يوغر فيها صدور المغاربة على المورسكيين بأهم كانوا قد قاموا بمؤامرة سرية ليسلموا القصبة ويصبحوا مسيحيين، وان سلا كانت على اتفاق مع المورسكيين المنبثين في كل أرجاء المغرب ليتجمعوا هناك، وفي الحقيقة كان الأمر كذلك، وقد تأكدوا، منه حينما رأوا القصبة محصنة بالمدافع النحاسية الانجليزية ليجلبوا اليها المورسكيين، وكان هؤلاء قد التقوا هناك حول رئيس لهم، فأسر مولاي زيدان حينئذ

199 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 63 : 72
200 - Loc. cit

رؤساء المورسكيين بمراكش وفرق شمل الباقين، كما أوجب على الآخرين أن يعودوا - مكرهين - من تلك النواحي، وأن يتقهروا إلى سلا، وقد أتت من تطوان الآن عشر عائلات دفعة واحدة . . . »[201].

رابعا : محاولة استغلال الأندلسيين لاحتلال المعمورة :

«. . . أما قواد القصبة فإنهم طلبوا مني أن أضع العراقيل الكثيرة، بقدر ما أستطيع ، لهذا الولي العياشي) فاجعله ينصرف عن هذا الغزو المداهم، ويفضلون أن يكون ذلك مدخرا لكم، وهم مدركون تمام الادرا؛ ما تتطلبه تلك الخدمة المذكورة وبذلك تبقى المعمورة في يدكم. . . »[202].

ويقول في مكان آخر من التقرير : «ويودون أنّ أجعلكم تتكلفون باحتلال المعمورة، إذ أن أخذها سهل، كما قالوا، واعدين بكل معونة منهم، في احتلال هذا المكان الذي هو أحسن مرفأ للسفن في جميع ذلك الساحل القريب من سلا بخمسة فراسخ فقط، حيث يمكن لكم أن تجلبوا إليهم العون بالسفن. . »[203].

خامسا : التأكيد على عدم اعتبار الأندلسيين كقراصنة يتجنب التعامل معهم، بل يجب اعتبارهم ككيان مستقل له طموحاته وبالتالي يجب معاملته كحكومة لها تصرفات معينة تجاه حكومة أخرى: «إن هؤلاء هد ولدوا على المسيحية في اسبانيا، ونشأوا معمدين، هم طردوا منها، وأسلموا إلى أيدي المسلمين، وهم الآن يعيشون تحت نير طغيانهم، حيث إن لهم ميولا مسيحية، في أن تشكل حكومة لهم من جديد، فقد اختاروا حمايتكم. وقد أقاموا حكومة مدنية شبيهة بالحكومة المسيحية تدعى كلبدو Calvido على غرار ما كانت عليه بإسبانيا. . . وهم لا يشكون في أهم سيقيمون حكومة أكثر مسيحية مما هي عليه بإسبانيا، بعدما أجلى ملك اسبانيا هؤلاء المسيحيين الحقيقيين، بل أ هؤلاء المورسكيين خارج اسبانيا أحسن مسيحية من الذين هم داخل اسبانيا نفسها. وإن هذا الملك كان قد دعاهم - بترحيب - في بلاغة إلى العودة، ولكنهم لن يعودوا للانضواء، إلى تلك الحكومة الوثنية مرة أخرى، قائلين : إن لهم ملكا يحبهم أكثر يقصدونكم. . . »[204].

سادسا : التأكيد على وجود نفور عام من لأندلسيين داخل المغرب وشعور هؤلاء النفور وتكتلهم لمواجهته، ومن هنا تأتي الفرصة لمد يد المساعدة لهؤلاء،

---

201 - Loc. cit
202 - Loc. cit
203 - Loc. cit
204 - Loc. cit

الأقرب إلى الانجليز من المغاربة: «إن هؤلاء الموريسكيين يعملون سرا لصالح رعاياكم وذلك خوفا من المغاربة الذين شرعوا فعلا ينتقدونهم، ويحملون لهم أعظم حقد من أجل ذلك، قائلين انهم في داخليتهم مسيحيون، وليسوا مسلمين حقا، وقد كتبوا رسائل إلى مواطنيهم في جميع جهات المغرب، بل إلى مواطنيهم بالجزائر وتونس، يعلمونهم بكونهم في حمايتكم ليتواطأوا جميعا معهم وليكونوا قلبا واحدا، الشيء الذي يخشاه مولاي زيدان ويحاول بجميع الوسائل أن يمنعه، ولكن ذلك كان عبثا، فإن سلطانه أصبح لا يمتد بعيدا، وزيادة على ذلك فإن الموريسكيين يتسللون يوما إلى سلا من جميع الجهات، حسب ما وعدوا به...»[205].

وفي تقرير مؤرخ بـ 8 أكتوبر سنة 1630 يذكر هاريسون: «قال لي القبطان مردارايس انه عند رأس نهر سلا على مسافة فرسخين، اكتشفت هناك فضة كثيرة، قد احتفظ هؤلاء الموريسكيون بسرها إلى أن يجتمعوا معا من جميع الجهات، كما يسعون في ذلك يوما، وبذلك يكونون قادرين على حكم البلاد وجعلها تحت سادتهم...»[206].

وأوضح نفس التقرير أن الهدف من كل ذلك هو الاستيلاء على تطوان وسلا والتحكم في مضيق جبل طارق: «وهاتان النقطتان (تطوان وسلا) يمكن منهما أن نتمكن من جبل طارق وسبتة، وبذلك تستولي على المضيق كما فعل ملك الداغمارك بمضيق صوند Sound واعتبره خير عمل[207]، لذا يجب استغلال حقد الأندلسيين على الاسبان لتنفيذ كل هذه المخططات كما يوضح ذلك تقرير آخر لهارسون في 15 يوليوز سنة 1631 «.... والموريسكيون يتظلمون بمرارة من ذلك الطرد القاسي ويعرضون خدماتهم جميعا، إذ ما كانت هناك أية حرب ضد اسبانيا. ويمكن الحصول بسهولة على عشرة آلاف من الموريسكيين مستعدين لخدمتكم، فقد سروا بمجيئتي معتمدين على نبوءة حكوها، وكان أسلافهم وجدوها مكتوبة على صفائح من الرصاص في «مونت سنتو» Monte Santo قرب غرناطة تفيد أن إجلاءهم سيكون من إسبانيا إلى المغرب، ولكنهم سيعودون مرة أخرى في وقت يوتى بهم في سفن مسيحية، فلما كان الوقت الذي سمعوا فيه بالاستعداد العظيم من أسطولنا الانجليزي ظنوا حقيقية أه قد أتى الوقت لتحقيق تلك النبوءة تماما، ولهذا فإنهم استعدوا بالبسكت Biskett

---

205 - Loc. cit

206 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 99 : 123

207 - Loc. cit

والمدافع والبارود متحفزين للذهاب ومنتظرين فقط وصول تلك الأرمادا Armada (كما هو تعبيرهم) لتنقلهم إلى إسبانيا... (208).

وقد استمر اهتمام الانجليز بالقصبة، وظلوا يتحينون الفرصة لتحقيق مرماهم بالاستيلاء عليها، إلى حين نجاح هذه الحملة لاحتلال القصبة، فكتب سكرتير الدولة الانجليزي ويندبنك Windbank في هذا الشأن إلى الاميرال في 11 غشت سنة 1637 يدعون فيها - بتأكيد - إلى احتلال القصبة، إذا سلمها له الأندلسيون وإذا لم يحدث أي انقطاع مع العياشي لكن الوقت كان قد فات عندما توصل رينسبوروغ بالرسالة من وزيره، وبالإضافة إلى ذلك لم تكن تحديده الموارد الضرورية من الرجال والعتاد لأجل إنجاح العملية(209).

وكان اليأس - أحيانا يدب في نفوس الأندلسيين عندما يطول الحصار، فحسب الانجليزي روبير بليك كانوا في سنة 1640 مستعدين لتسليم القصبة إلى أي أمير أوروبي بنقلهم إلى أي مكان آمن يعيشون فيه سالمين. وقد اقترحوا عليه تسليم القصبة لانجلترا، لكنهم يقبل لانعدام التعليمات في هذا الشأن، ووعد بتقديم هذا الاقتراح لحكومته. وهكذا وجه سنة 1641 مذكورة إلى برلمان لندن بشأن احتلال القصبة مؤكدا على الفوائد التي تجنيها انجلترا من هذا الاحتلال :

- فلن تخشى بعدئذ المجاهدين.
- وسوف تجني أرباحا مرتفعة من ملاحات أبي رقراق.
- وتقوم باستغلال معدن القصدير الذي يوجد قرب المنطقة.
- ويمكنها أن تتاجر مع الأهالي على حساب الفرنسيين والهولنديين.
- ويمكنها أن تتاجر مع الأهالي على حساب الفرنسيين والهولنديين.

واقترح بليك في الأخير على مجلس اللوردات أن يجهز على حسابه سفينة أو عدة سفن للاتيان الى المنطقة لتسليم القصبة. لكن طلبه ظل بدون جواب(210).

يظهر إذن، أن هذه المفاوضات وجدت تحت ضغط ظروف معينة، وليست ولذة سياسة ناضجة واعية؛ فغالبا ما كانت المفاوضات مع الانجليز تبدأ في حالة من اليأس نتيجة الظروف الصعبة التي كان يعيشها الأندلسيون، لذا فلا نستغرب من فشلها.

---

208 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 137 : 150

209 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 324 : 325

210 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 548 : 551

ثم أنه لم يكن للانجليز لا سلطة العمل من حكومتهم للتفاوض، ولا القوات الكافية للحفاظ على القصبة عند احتلالها.

ومن الجانب الاسباني بدأ الحديث عن احتلال القصبة بعد وقت قصير من استقرار الأندلسيين بها، فقد كتب حاكم الجديدة الاسباني خورخي ماسكاريناس Jorg Mascarenhas إلى فليب الثالث رسالة مؤرخة بـ 4 فبراير 1613 يخبره فيها أن أحد المورسكيين قد قصد مقر الحامية الاسبانية على ظهر سفينة كان مولاي زيدان قد جهزها وشعر من خلال حديث هذا الموريسكي أن سائر المورسكيين مستعدون لتسليم القصبة إلى اسبانيا. وإنه وصل معه إلى أحين ما يمكن الوصول إليه، وذلك بأن يذهب بثلاثمائة رجل على متن السفن ليلا تحت غطاء من التفاوض...»[211].

لكن مشاريع إسبانيا لاحتلال القصبة بدأت تأخذ ملامحها النهائية ابتداء من سنة 1631.

مشروع معاهدة بين الهورناتشيين والاسبان[212]

يدخل هذا المشروع ضمن الرسائل الموجهة من مدينة سدونيا Medina Sidonia[213] إلى فليب الرابع (1621 -1665) حول أندلسيي القصبة، وهو يجيب فيه على أوامر الملك بأن يبعث بسفينة إلى القصبة، ويرسل إلى قائدها، وكذا إلى الديوان المورسكي، مما يفرض معه أن اتصالات سابقة في هذا الشأن قد جرت بين الطرفين.

يعرض مدينا سدونيا أولا ملخصا عن وضعية الأندلسيين وعلاقتهم بباقي الأطراف، وهو تقرير وإن كان مركزا، فهو في منتهى الدقة.

---

211 - S.I.H.M. 1ère série. France, 3 : 49

212 - عثر جورج كولان G. Colin على هذا المشروع ضمن المخطوطات الاسانية بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم 1516)، ونشره في مجلة هسبريس سنة 1955 ص 18 - 25.

213 - هو القائد العام للأسطول الاسباني بالمحيط الأطلسي والسواحل الأندلسية وتوجد مراسلاته الأندلسيين مع فليب الرابع ومع قواد الثغور الاسبانية بالمغرب وكذا مع الأندلسيين بالقصبة بارشيف سان لوكاردي باراميد (قادس)

Archivos del Polacio ducal en Sanlucar de Barrameda (Cadiz)

كما يوجد بعض وثائق مدينا سيدونيا المتعلقة بالأندلسيين بسيمنكاس وقد نشر كيير موكوساليس بوسطو بعض هذه الوثائق ضمن دراسة السالفة الذكر: Guillermo Gazalbes Busto

La Républica Andaluza de Rabat en el Siglo XVII

في الملحق الرابع لدراسة (ص 355 - ص 463)، إذ نشر 36 وثيقة تتعلق بأندلسي الرباط والقصبة وعلاقتهم باسبانيا.

«فهو يخبر في البداية أن العياشي يحاصر المعمورة باستمرار وان المورسكيين لم يساعدوه في حصاره هذ بأي شيء، ولهذا فإن العياشي يبذل المزيد من المجهود للاستيلاء على هذا الموقع الحصين (المعمورة) للانتقام من المورسكيين[214].

ويضيف الدوق الاسباني قائلا: «... وهؤلاء المورسكيون متعاطفون جدا مع المسيحيين بخلاف المغاربة، وهم يعيشون في حالة من الاضطراب وعدم الاستقرار سواء بسبب العياشي والوليد، أو بسبب الصراعات الداخلية القائمة بينهم أو بسبب الحقد الذي يكنه لهم ملك مراكش - والذي لو استطاع لحربهم - أو بسبب الأعراب الذين يعتبرونهم مسيحيين، وإن فاجأوهم خارج القصبة ألقوا عليهم القبض. وهكذا، ولكي يعيشوا في هناء وليتخلصوا من هذه المخاوف وبسبب الحب الكبير الذي يكنونه لاسبانيا موضوع تلهفهم منذ أن غادروها فإنهم قرروا أن يسلموا لكم القصبة المذكورة بالشروط الآتي ذكرها...»[215].

يتضح من ذلك أن مدينا سدونيا كان يحاول أن يرسم لفليب الرابع صورة تجعله أكثر اقتناعا بإخلاص هؤلاء الأندلسيين في مشروعهم نظرا لوضعيتهم الصعبة داخل المغرب.

وعلى كل فقد انتقل إلى سرد هذه الشروط[216].

أولا : «يرجون منكم تسليمهم هورناتشوس، المكان الذي سيعيشون فيه، وذلك بعد إجلاء سكانها الحاليين عنها إلى مكان آخر وسيقوم المورسكيون بشراء الدور والممتلكات التي يتركها أصحابها بالثمن المناسب».

إننا الآن في سنة 1631 أي إنه مرت أكثر من 20 سنة على نفيهم، الشبان ربما أصبحوا كهولا، وبرز هناك شبان آخرون ربما لا يعرفون قرية هورناتشوس، ولكن يمكن تفسير ذلك «بجاذبية الوطن المفقود» وهي من الأهمية بحيث يضعونها على رأس كل الشروط[217].

ومازلنا من جهة أخرى نجد روح الجماعة المنغلقة على نفسها فهم يرفضون التعايش مع الاسبان، فقد كانت لهم تجربة مرة في ذلك، فهم في الواقع كانوا يريدون تعويض

---

214 - Georges S. Colin. Projet de traité entre les morisques de la Casba de Rabat et le roi d'Espagne, en 1631 in Hespéris tome XLII; 1ère et 2ème trimestres, 1955, p.21

215 - G. Colin, op. cit. p 22

216 - يبلغ عدد هذه الشروط 16 شرطا وسوف نتعرض لأهمها فقط.

217 - Guillermo Gozalbes Busto, op. cit 136

قصبة الرباط «بقصبة» أخرى في اسبانيا، فالأندلسي دائما حذر لأنه يعتبر نفسه منبوذ ولا غرابة أن وجدنا هارسون يشبههم باليهود الذي تعرضوا لنفس التجربة.

ثانيا: «إن الذين ولدوا بالمغرب لا يستطيعون أن يدخلوا إلى الدين المسيحي بسرعة وبصورة كاملة كالذين يعرفون الايمان الكاثوليكي من قبل، لذا يجب أن تحتجز ممتلكات المتهمين من هؤلاء خلال عشرين سنة الأولى». ويرى هنري تيراس H. Terrasse أن النقطة الأخيرة من هذا الشرط هي التي أفضت إلى فشل المباحثات بأجمعها[218] لأن الاسبان كانوا يدركون أنها سنين كثيرة للاحاطة بأمور العقيدة، وبالتالي فهو أجل مماطل، خاصة انه كان قد استعمل في مناسبات سابقة منذ زمن شارل الخامس للهروب من قسوة محاكم التفتيش[219].

لكن بدون الوثائق اللازمة لا يمكننا تأكيدا أو نفي افتراض تيراس بأن تكون هذه النقطة التي أدت إلى فشل المباحثات، فالقصبة الأندلسية في سنة 1631 كانت تعتبر منتهية، والرجوع إلى التسليم بوجود جماعات قوية في شبه الجزيرة يكون عودة إلى خلق المشكلة بكل أبعادها، وسنلاحظ فيما بعد أن الاقتناع الحقيقي كان آنذاك هو ترك الأندلسيين بالمغرب إذا سلموا القصبة ولم يكن التفكير قط برجوع الأندلسيين إلى شبه الجزيرة الايبرية، فالدوق مدينا سيدونيا كان يقترح فقط ما كان يشترطه عليه الأندلسيون، وهو العودة إلى اسبانيا، خاصة أنه هو نفسه لا يرى ذلك سيئا إذ لم تكن أسرة سدونيا مؤيدة لنفي الأندلسيين منذ البداية[220].

سابعا: «وليظهر المورسكيون أنهم مسيحيون، سيقدمون معلومات يؤيدها شهود عديدون من الأسرى المسيحيين، في شأن العديد من المورسكيين الذين عذبوا من طرف الأعراب وماتوا في سبيل العقيدة المسيحية».

وقد وجد كثير من الأوربيين مثل هذه الأقوال مجالا للدعاء بأن الأندلسيين لم يتكيفوا مع البيئة المغربية لأنهم كانوا مسيحيين بالفعل، ولننظر إلى ما يقوله كييرمو بوسطو في هذا الصدد:

«... إذا كان الهورناتشيون، وهم الذين كانوا يعتبرون من أفضل المسلمين، مستعدين للبرهنة على مسيحيتهم لنتصور ما كان يبرهن عنه الأندلسيون الآخرون الذين كان ينعتهم المغاربة «بمسيحيي قشتالة» ! وفي تقريرهم كانوا يتكلمون حتى

218 - Histoire du Maroc, 2: 224

219 - G. G. Busto, op.cit, p. 136

220 - 137 - G. G. Busto, op.cit. pp. 136

عن الشهداء بينهم فمن تطوان لنا أخبار عن مورسكيين رجموا لامتناعهم عن دخول المساجد. أما مورسكيو القصبة والرباط الذين يكونون مجموعات منغلقة على نفسها، وبذلك تكون أقل عوضة لتدخل عناصر خارجية وأقل رقابة على الأعمال الدينية، فلا تظن أن حالات استشهاد قد وقعت ومن المحتمل أن تكون قد وقعت بين أولئك المورسكيين الذين كانوا على اتصال مع الأهالي في ظرف من الظروف»[221].

ثامنا: سيأتون بأنفسهم إلى غاية اشبيلية عى ظهر سفن الجهاد البحري التي يمكلونها بأمتعتهم. وهكذا لا تتكلفون بنقلهم، سوف يرجعون بأنفسهم على نفقتهم لأخذ من بقي من المورسكيين، وعندما يصل الجميع سوف يهدون جميع سفنهم اليكم، وأمتعتهم لا يطلع عليها أحد وكذا ثرواتهم، ويجب حمايتهم وتجنيبهم كافة التعسفات التي يخشون من وقوعها».

هكذا، إذن يحاول الهورناتشوين أن يتخلوا عن سفنهن بسهولة وهي التي كانت رمزا لقوتهم، مقابل السماح لهم بالعودة، لكي يرجعوا كما كانوا من قبل صناعا وفلاحين مسالمين متعلقين بالأرض التي نشأ فيها أجدادهم، أما أن يكونوا بحارة أو مجاهدين فعندما تدعوهم الظروف إلى ذلك فقط، أيمكننا أن نسمي أعمال الجهاد البحري الانتقامية التي كان يقوم بها هؤلاء مجرد أعمال للمحافظة على الذات ؟[222].

السادس عشر: «... قبل مغادرة القصبة سيعلمون على قتل العياشي، وبذلك يتوقف الحصار والمضايقات التي كان يسببها للثغور الاسبانية بإفريقيا»[223].

ويختلف تقويم الباحين الأوربيين للمشروع، فبينما اعتبره كولان بأنه «مشروع يدعو إلى الاستغراب»[224]، اعتبره بوسطو «صيحة يأس، فقد اقتنعوا بأن أية دولة لن تقبلهم أو تتعامل معهم باحترام »[225].

---

221 - La República Andaluza... p. 138

ملاحظة: سنقوم بمناقشة هذا الادعاء عند الانتهاء من استعراضنا لعلاقة المورسكيين باسبانيا

222 - Loc . cit

223 - كتب في آخر المشروع ما يأتي: «وهذا الجواب مع الملاحظات والشروط السالفة الذكر أرسلت إلي ممضاة من طرف محمد بن عبد القادر صيرون حاكم القصبة، والقائد ابراهيم بركاش من قواد الديوان ومحمد لانكو وموسى سانتياكو كتابا. والنص الاصلي بين يدي في انتظار أوامركم».

224 - op.cit. p. 25

225 - op.cit. p. 139

وعلى كل فإن هذا المشروع لم يكن مجهولا تماما لدى الأوربيين، ففي رسالة مؤرخة بـ 10 فبراير 1641 موجهة إلى رشليوا نجدها تذكر بأن الأندلسيين بالقصبة أحاطوها بخندق لعزلها عن الرباط وذلك إما لكي يصبحوا هم أنفسهم سادة للقصبة أو لتسليمها للاسبان[226].

والملاحظة الأساسية حول المشروع انه لا يوجد ضمن أرشيف سان لوكار الذي توجد به وثائق م. سيدونيا، فضمن المجموعة 21 من «رسائل الملوك وكتاباتهم إلى رجال أسرة ك. سدونيا ونسخ بعض الأجوبة لسنوات 1630 - 1631 لا نجد أي ذكر للمشروع. فيظهر، إذن أن المشروع تجوهل تماما في مدريد، خاصة إذ علمنا أن مقترحات ورسائل الدوق لم تكن تحظى بإجابات الملك دائما[227].

ونستطيع أن نتأكد من ذلك بصفة أكثر استعراضنا للرسالتين الموجهتين من فليب الرابع الى م. سدونيا.

الرسالة الأولى مؤرخ بـ 25 أكتوبر 1631 يخبر فيها العاهل الاسباني رئيس أسطوله بما توصل به من حاكم سبتة، إذ يذكر له أن العياشي شهر بالموركسيين ويذيع بأنهم مسيحيون وإنهم يعيشون في قلق شديد[228].

الرسالة الثانية وهي مؤرخة بـ 20 نونبر 1631، ويذكر فيها فليب الرابع قبطانه بالتقارير الواردة اليه من حكام المعمورة وسبتة وطنجة ومليلية وحجرة بادس وفيها يؤكد له أن العياشي «قد أعد قوات كبيرة وأنه يحاول المس بالثغور حال تخلصه من الحرب التي يخوضها ضد الموركسيين...»[229].

ويذكر بعد ذلك بما ورد إليه حاكم المعمورة «... ويقول القبطان باريونويبو Barrionuevo بأن كل المعلومات تتفق على أن الموركسيين مصممون على وضع أنفسهم تحت حمايتي إذ لم يستطيعوا مواجهة العياشي، ويطلب أن يبعث له بالرجال والأسلحة والذخيرة وعليه أن يحرض على تشجيع الموركسيين عندما يحين الوقت للتحول إلى خدمته...»[230].

---

226 - S.I.H.M. 1ère série. France, 3: 370
227 - G. G Busto, op. cit. 140
228 - G. G Busto, op. cit. p.355
229 - Ibid. p.357
230 - Loc.cit

وينتقل الملك بعد ذلك إلى الحديث عن الخطر المحدق بالثغور الاسبانية في حالة استيلاء العياشي على القصبة[231].

هكذا نرى، إذن أن أية إشارة لم تعط عن المشروع الهورناتشي في الرسالتين اللتين رأيناهما. هل تغوضي عنه بسبب الشروط المفروضة من طرف موريسكيي القصبة ؟ أم أن المشروع بعد دراسته من طرف مجلس الدولة الاسباني اقتنع بعدم أهميته من أية وجهة كانت واعتبروه كأنه لم يصل، غير أننا لا نستطيع مع ذلك أن نفهم غاية العاهل الاسباني من طلب تقارير عن القصبة وقد توصل بها مسهبة قبل وقت وجيز.

لا توجد مراسة بين الملك والدوق خلال سنة 1632 إلا وتشير إلى موريسكيي القصبة.

هناك مسودة رسالة لمدينا سدونيا بتاريخ 25 يناير يعبر فيها جد إيجالي موقف الموريسكيين من «حيث انهم يميلون إلى خدمتكم والتمتع بحمايتكم »[232].

تشل لقاءات الدوق مع الهورناتشيين بسبب وباء الطاعون الذي حل بالمعمورة، والذي مات فيه الحاكم وعدد كبير من الحرس، ويتنظر إلى أن يهدء المرض، ليتمكن من مكاتبه فليب الرابع في 29 فبراير مخبرا إياه انه أرسل الفارس ماركوس دي بركانسا Marcos de Berganza محملا برسائل إلى قواد القصبة وتجدون ردهم بالنسخة صحبته، والذين يظهرون فيها اعترافهم بالفضل الذي أوليتموه لهم... وتذمرهم من محاولات العياشي، ويحتفظون بباستعمال عروضكم التي قدمت بهم باسمكم إلى حين تدعو الحاجة الى الاستفادة منها[233].

فالهورناتشيون الذين لمسوا الصمت الذي آلت اليه الاقتراحات العملية بالرجوع إلى بلدهم، لا يظهرون مستعدين للمفاوضة حول تسليم القصبة ولا حتى لقبول نجدة تورطهم تجاه المغاربة. غير أن رسالة من الملك بتاريخ 23 يوليوز الى م. سذونيا[234] تؤكد ما سبق أن أكدته الرسائل السابقة: «... لقد بعثت لكن بأن تعرضوا على أهل القصبة مساعدتي ورعايتي،دون أن تطلبوا منهم القصبة، ولكن إذا كانت هناك إمكانية التفاوض في شأنها فسيكون ذلك عظيما.. » والملاحظة الأساسية أن

---

231 - Loc. cit

332 - G. G Busto, op cit p. 359

233 - Ibid. p 361

234 - Ibid p. 363

فليب الرابع، في نفس الرسالة ينبه إلى العجز الكامل في المال والرجال والسفن، وهذا أمر سيوضح كثيرا من الأشياء سواء ما يتعلق بالأندلسيين أو الاسبان، ولقد وجد حلا للمال والرجال، أما بخصوص السفن فيقول: «انها غير موجودة، ولكن باعتبار أن هذه ليست مفاجأة وبأن العياشي لايملك أسطولا بحريا وأن الموركسيين يملكون سفنا حربية، فيظهر أنها لن تنقص كثيرا فالتسليم يمكن إنجازه بعدد قليل من الرجال خاصة أن الموركسيين سيبقون بجانبنا في الضواحي وفي حالة الضرورة يمكن الاستعانة بقادس...»، إذن فالأندلسيون تقرر عمليا تركهم بالمغرب وإن لم نجد أي وثيقة مكتوبة في هذا الشأن.

فالرسالة السابقة إعراض ضمني عن الشروط الموضوعية من طرف الهورناتشيين في مشروع اتفاقيتهم لبدايات سنة 1631. وبكل تأكيد فإنه لن يروق لأي أندلسي البقاء بالقصبة في ظل ظروف صعبة وقاسية، وفي حالة ما إذا تقرر بقاؤهم بها ماذا سيجنون من حماية فليب الرابع ؟ خاصة انهم سيضعون أنفسهم صراحة في مواجهة المغاربة والحالة هذه أن الثغور الاسبانية نفسها كانت تعاني قلة الامدادات وسوء الحراسة، كما يتجلى ذلك من التحذيرات المتكررة الموجهة من الدوق إلى الملك، والموركسيون كانوا على علم بذلك، فكانوا يفضلون اللجوء إلى مساعدة سلطان مراكش للتغلب على دسائس العياشي، إذ توضح مسودة لمدينا سدونيا الى فليب الرابع في 8 غشت[235] إن المجاهد: «أقر رأيا ببث العداوة بين الموركسيين والمغاربة ينعتهم بأصدقاء المسيحيين وجواسيس اسبانيا، ومساعدي ثغورنا، مما ألب عليهم النفوس، لذا فهم يحتاطون من الالتجاء لمساعدتنا بغية تكذيب ذلك الادعاء أو على الأقل حتى لا يتأكد ذلك عليهم ويرجئونها حتى يصبحوا أكثر حظا مع اتباع سلطان مراكش...»، ويخلص بعد ذلك الى اقتراح عملي: «وعليه فإني أشك بأن يلجأوا الى ما عرض عليهم بدون وجودهم في ضيق جديد، وإن مساعدتنا، عند توفرها، يستحسن أن تكون من المؤن والذخيرة لإمكانية إيصالها في سرية وتحفظ...» وفيما يتعلق بالاستيلاء على القصبة يرى «بأن أول ما يجب محاولته هو الاستيلاء على تلك القصبة، ولتحقيق ذلك يجب إمدادهم بما هم في حاجة اليه بدون مقابل، لأنهم إذا أحسوا بأن الامدادات توجه لهم طمعا في القصبة فإنهم لن يقبلوها ويصبحون حذرين ومرتابين تجاهنا، وفي رأيي يجب أن نكسب جانبهم، وأن ننتبه إلى ما سيقومون به في أحرج الظروف ويأسها للتخلص من ضغوط العياشي، وبتحقيق الامرين معا سيقرون لا محالة تسلين القصبة...».

235 - Ibid p. 367

إن المورسكيين لا يحتاجون إلى أي شيء يكرر الدوق في رسالة له إلى الملك بتاريخ 12 شتنبر(236) وكان قد تأكد من ذلك من خلال أقوال القس ألونسو خيمينيس دي ميسا Alonso Jimenez de Mesa الذي بعثه إلى القصبة «يقول انهم استقبلوه جيدا وأكرموه وعاملوه بأدب وصداقة وسخاء، معبرين بهذه التصرفات عن عرفناه بما تقومون به لصالحهم والحماية والاهتمام المقدم لهم مؤكدين بأنكم تستحقون عطفهم وانهم عند الضيق لن يلجأوا لأية مساعدة غير مساعدتكم بالمؤن والسلاح والذخيرة ولكنهم في الوقت الراهن لا يحتاجون إلى أي شيء من هذا، وهم يتمتعون بحراسة لا بأس بها وذلك لأنهم متمكنين من البحر، ورغم أن العياشي يحاصرهم من البر فإنهم لا يحتاجون إلى معونة، في الأخير يقبلون ما قدمته لهم باسمكم واحتفظوا بالالتجاء اليه في حينه عندما تدعو الضرورة إلى ذلك...»

وينقل بعد ذلك م. سيدونيا إلى ما راج من حديث سري بين الأندلسيين والقس: «... ويقول الأب فراي ألونسو خمينيت دي ميسا بأن القواد عند حديثهم السري معه - الذي أظهروا فيه ميلهم لاسبانيا البلد الذي ولدوا فيه والامتنان الذي يكنونه لرعايتكم - أفضوا له بأنهم لا يستطيعون اتخاذ قرار نهائي، لأنهم فعلوا ففي ذلك خطر على حياتهم وحياة أموال المورسكيين الآخرين من عائلاتهم الذين يوجدون بتونس وجهات أخرى، والذين يتراسلون معهم للمجيء إلى ذلك الموقع بممتلكاتهم، يقولون انهم إذا اطمأنوا على هذا فسيتمكنون من وضع أنفسهم تحت طاعتكم. وأبدوا رغبتهم في أن يمكث الأب الونسو في المعمورة وأن يراسلوهم وأن يراهم وقد أعطوه الاذن بالمرور العام...» وانتقل بعد ذلك إلى جملة من الاقتراحات العملية: «كما تحادثوا معه على ضرورة ارسال ثماني سفن إلى مصب النهر عند الضرورة، وذلك ليس فقط لإفساح المدخل ولكن كذلك لتطهير المرسى مما يضعه فيها العياشي من سفن في عداد ثماني أو عشر سفن يأتي بها من الجزائر للاستيلاء على ذلك المدخل...»

ويقترح م. سيدونيا أن يسمح للسفن الأندلسية أن تتاجر مع موانئ شبه الجزيرة الايبرية مقابل أن تتوقف عمليات الجهاد البحري ضد اسبانيا».

وبعد شهر، في 10 أكتوبر بعث م. سيدونيا إلى فليب الرابع برسائل من حكام القصبة يشكرونه فيها على ما عرض عليهم. وبأنهم سيلجأون «حين تدعو الضرورة».

---

236 - Ibid p. 371

ولكنهم يعودون إلى التأكيد على شرطهم الأساسي، الذي يدونه لن يكونوا مستعدين لآية مفاوضة معمقة فيقولون «بأن تكتبوا حتى تقبل العائلات المورسكية مع أمتعتها على حدود قشتالة والبرتغال لمن يلتجأ اليها وبأن يسهل مرور سفنهم»[237].

وهنا النقطة الأساسية فيما يتعلق بنجاح أو فشل تسليم القصبة الى اسبانيا، فالأندلسيون لا يرغبون في المكوث بالقصبة وهم في هذا الضيق الشديد الذي يحيط بهم من كل جانب، لكنهم مع ذلك لن يسلموها إذا لم يسمح لهم بالعودة.

وبدون شك فإن مدريد قد غضت الطرف عن هذا العرض كما غضت الطرف من قبل عن باقي العروض الأخرى.

وهناك رسالة ملكية إلى الدوق بتاريخ 10 دجنبر تشير فقط إلى رسالة هذا الأخير بتاريخ 12 شتنبر والمتعلقة بارسال السفن إذ تذكر بأن الوقت غير ملائم، وتأمره بأن يشغل الأندلسيين بالمحادثات إلى الصيف، وتأمره كذلك بأخذ رهائن ضمانا لتسليم القصبة، وبتعيين ميناء واحد يمكن من خلاله للأندلسيين أن يتاجروا مع اسبانيا.

أما عن قبول الأندلسيين بشبه الجزيرة الايبرية فلا توجد كلمة واحدة[238].

ويستمر م. سدوينا في مواجهة العياشي وابعاد الأندلسيين عنه ففي رسالة منه إلى ملك مؤرخة بـ 8 يناير سنة 1634 يذكر ما يأتي: «إني أقوم بمساعي مع شيوخ القبائل للابقاء على الفتنة بينهم وبين العياشي ويبدو لي أن أقوم بمثل هذا مع أصحاب القصبة واقناعهم معيدا إلى ذاكرتهم ما قدمتموه بخصوص المساعدة والحماية...»[239].

ونشير إلى تطورين أساسين وقعا في هذه الفترة :

أولا : وفاة دون مانويل دوق مديناسدوينا في 20 مارس 1636، وخلافة ابنه له الدوق كاسبار دي كسمان اي ساندوڤال التاسع D. Gaspar de Guzman y Sandoval 9° وهو أقل حنكة من ابنه في أمور المغرب، ولكنه مع ذلك سيفرض نفسه بسرعة.

ثانيا : تطور يقع داخل القصبة نفسها، لا وهو طرد الهورناتشيين منها والسيطرة عيها من طرف أندلسيي الرباط، برئاسة شخصية ذات مكانة خاصة، هي شخصية علي القصري.

---

237 - Ibid p. 146

238 - Ibid p. 147

ملاحظة: هناك رسالة انجليزية مؤرخة بسنة 1633 تخبر بوجود اتفاقية سرية بين القصبة واسبانيا وضمنها بند يسمح بعودة الأندلسيين إلى اسبانيا، وقد تكون في نفس السنة وضعت بين أيدي البابا للمصادقة عليها.

انظر : 239 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 189

ولكن رغم هذين التطورين فأننا نجد دائما نفس القضية، وبنفس الطرح تقريبا، بشخصيات مختلفة.

*****

تتجلى في وثائق سان لوكاردي بارميدا الصعوبات التي يلقها القصري من جراء الحصار المفروض عليه في البر من طرف العياشي وفي البحر من طرف الاميرال الانجليزي رينسيوروغ[240].

يبدأ الدوق الجديد علاقاته مع حكام القصبة في أواسط فبراير من سنة 1637. وهو يعرض نفس الوسائل التي سبق لوالده أن عرضها : «وبنفس حسن النية»[241].

وفي نفس التاريخ تقريبا يحيط العاهل الاسباني علما بتلك الرسالة[242] : «لقد راسلت حكام القصبة بما امرتهم به مذكرا اياهم بما كان في الماضي، وما زال ساريا في الحاضر وحاثا اياهم على مواجهة العياشي كما أعرض عليهم حسن الاستقبال في المعمورة، لكون التراجع اليها في مصلحتهم، واعرض عليهم المعونة بالمؤن...»

فالرسالة توحي بأن وريث م. سدوينا قد درس الملف الخاص بالقصبة ويتابع أو يحاول متابعة خطوات، سابقة، وطالما لا يشير الملك بشيء آخر فإنه يحاول حماية المورسكيين من العياشي. وبنفس اللهجة نجد مسودة أخرى من الدوق الجديد إلى الملك وهي مؤرخة بـ 20 أبريل سنة 1637[243] يخبره فيها بأنه ارسل المساعد دييكو دي هوكيرا Diego de Hoguera ومعه عدة رسائل إلى القصر الذي أجابه بأنه لا يحتاج إلى اعانة.

والواقع ان القصري لم يكن في حاجة إلى معونة الى حين ظهور الاسطول الانجليزي في 24 مارس سنة 1637، إذ كان هذا الاسطول بمساعدة العياشي على وشك خنق القصبة.

أما فليب الرابع نفسه فيكتب إلى م. سدوينا في 29 مارس 1637 برسالة[244] يخبره فيها بارسال ملك انجلترا لست سفن إلى مصب أبي رقراق (للحيلولة دون

240 - Ibid p. 148
241 - Ibid p. 379
242 - Ibid p. 381
243 - Ibid p. 383
244 - Ibid p. 385

تعرض رعايا الأمراء المسحيين لإساءة القراصنة)، ويأمره بأن يعتني بهم إذا وصلوا إلى أحد الموانى التابعة لامرة الدوق، وهذا الأخير أجاب في 5 أبريل بأنه سينفذ أمره. ولكن بعد شهرين في رسالة مؤرخة بـ 14 يونيو(245) نجده يثير انتباه العاهل أن المستفيد من الوضعية سيكون العياشي مع الاساءة إلى الثغور الاسبانية.

وبعد شهر من هذه الرسالة وبالضبط في 12 يوليوز يضطر إلى كتابة رسالة مطولة(246) إلى العامل يقول فيها: «... أن الانجليز يتفقون مع العياشي، ويعدهم هذا الأخير بتسليمهم السجناء المسيحيين بالقصبة، ويعلن خبرا عن هروب القائد القصري وأن العياشي والانجليز سوف يدخلون القصبة بعد 4 أيام...».

وبعث الملك إليه أثر ذلك في 11 غشت رسالته(247) يخبره فيها بأنه أحيط علما بالوضعية ويأمر الدوق بما يأتي: «عليكم أن تتفاوضوا مع الموركسيين بأن يسمحوا لنا بالدخول إلى القصبة للاستيلاء عليها... وقد بعثت الى الانجليز للتحادث معهم بغية فسح المجال لسفننا كي تدخل إلى القصبة.

ولكن قبل أن يمضي الملك الرسالة، وقبل أن تصل إلى سان لوكاز، كان الدوق قد اتخذ إجراءات توحي بمعرفة وتصميم مناقضين لتردد وجهل مدريد(248).

هذا على الأقل ما نستنتجه عند قراءتنا للتعليمات التي أعطيت للقبطان الونسو دي كاستريخون Alonso de Castreijon الذي يبعثه الدوق إلى القصبة للتباحث مع المورسكيين، وتوجد هذه التعليمات في وثيقة مؤرخة بـ 9 غشت(249). وهي تسطر جملة من البنود يمكننا أن نقابلها بالشروط التي وضعها الهورناتشيون في 1636.

وهكذا يقول الدوق في تعليمات:

«... إذ قال المورسكيون بأنهم يملكون تجهيزات كافية للمواجهة فردوا عليهم بأننا جدا سعداء بأن يحتفظوا بالموقع وأننا على استعداد لتقوية ذلك التجهيز. وإذا وجد تموهم في ضيق خانق فاعرضوا عليهم أن يضعوا أنفسهم تحت رعاية الملك الذي يعرفون قوته وصدق حمايته وأن يعطوا موافقتهم لدخول جنودنا إلى القصبة..»

---

245 -Ibid p. 387
246 - Ibid p. 389
247 -Ibid p. 391
248 -Ibid p. 150
249- عثر بوسطو على هذه الوثيقة في ارشيف سمنكاس، ولا توجد لها مسودة في ارشيف سان لوكار، وقد نشرها ضمن ملاحقة الأربعة السالفة الذكر، ص 393.

أما الشروط التي عرضها فيمكن تلخيصها فيما تأتي :

- «يمكنهم المكوث في الرباط أو القصبة ويعمل على حمايتهم ورعايتهم رجال الملك وأساطيله، ويبقون متمتعين بحريتهم وبالتجارة مع كل الدول».

فيقع الاعتراف إذن بأن ما يقوم به الأندلسيون هو تجارة وليست قرصنة مع السماح لهم بمتابعتها. اسبانيا مع كل الحقوق والحريات التي يتمتع بها باقي الاسبان».

ونلاحظ هنا أن البند لم يشر إلى الهورناتشيين، لأنه فعلا لم يبق هناك هورناتشيون بالقصبة. كما أنه هنا يحتفظ بالحق الملكي لتحديد المكان الذي يمكن للأندلسيين أن يقطنوه باسبانيا. هل كانت مدريد حقا مستعدة بقبول الأندلسيين من جديد باسبانيا أم أن الدوق كان يتكلم من ذاتيته بدون مقترحات ملموسة من فليب الرابع ؟ وهذه نقطة مهمة - في حالة الاجابة عليها - سوف توضح عدة أشياء.

- ويمكن لمن أراد البقاء في الرباط المتاجرة مع اسبانيا في الميناء الذي يعين لهم وليس في غيره، مع حرية المرور بالنسبة للسفن التي تمون الثغور الاسبانية.

- وإذا كانت لهم رغبات أخرى تقولون بأن ملك اسبانيا مستعد لبحثها وتنفيذ ما يناسب منها وبأن الاسطول موجود في قادس ومستعد للقيام بمساعدتهم، ووضع الحرس بالقصبة، وقبل دخول الاسطول يجب التباحث حول الرهائن والبث في أمرهم، ويسلم رهائن آخرون من نساء وأطفال وأمتعة يبقون في المعمورة والعرائش إلى أن يتم دخول الاسطول والحرس...»

وفي نفس الشهر وبعد أيام فقط، في 23 غشت، يخبر الدوق الملك «بأن الترتيبات كانت قد بدأت لتسليم القصبة وبدأ الانجاز بالفعل لولا وصولا رسائل من سلطان المغرب ومن أحد الانجليز تأمر بأن يسلم الموركسيون الأسرى الانجليز مقابل تراجع سفنهم التي كانت تسد مصب النهر وتمنع المساعدة. واعتبر ان من حسن الحظ انه لا العياشي ولا الانجليز تمكنوا من القصبة ويرجا أن نصل إلى مبتغانا مع الموركسيين. وحسبما أتى به كاستريخون فإنه سيستحسن ان توضع سفن تسد عليهم مصب النهر، كما فعل الانجليز من قبل حتى ندفعهم لتسليم القصبة خصوصا انه ظهر فيهم من يميل لاسبانيا»[250].

250 - Ibid p. 399

وفي 30 غشت 1637 بعث م. سيدونيا رسالة[251] يخبر فيها الملك بتفاصيل عن شؤون الرباط : «نظرا لأن السفن الانجليزية تتأهب لمغادرة مصب النهر، فإن سفن الموركسيين تتمكن الآن من التحرك، وبما أن الحصار مازال مستمرا من الداخل فإن القائد القصري يود جلب بعد المؤن، وعندنا كمية من البسكويت يمكن اعطاؤها لهم لتأكيد المصداقية في عهودنا لهم، وكما كان والدي قد عاهدهم من قبل (تقديم المساعدة لهم في حالة اشتداد الأزمة عليهم) فإنني أرى أن تصرف لهم هذه المساعدة...»

ويعقد القصري بعد ذلك اتفاق مع كاستريخون في 37/9/19[252]، وفي هذا الاتفاق لا يقع الحديث عن تسليم القصبة، بل كل ما جاء في ديباجته أن هدفه هو الخير العام لهذا الموقع، وللجمهورية. للمحافظة عيها في خدمة ملك اسبانيا وأهم ما نص عليه الاتفاق:

1 - حرية الملاحة وتحرك السفن التي تخرج من القصبة في أمان سواء كانت قادمة من اسبانيا أو خارجة من الشواطئ الافريقية.

2 - إذا تعرضت إحدى المواقع الاسبانية: المعمورة، العرائش، طنجة، سبتة. الجديدة، لأي عدوان يكون لزاما تقديم المساعدة لها.

وباقي البنود تتعلق بتموين الثغور من الجانبين وافتداء الأسرى، والتجارة مع الثغور الاسبانية.

وفي 6 أكتوبر 1637 يحيط الدوق الملك علما بكل ما تفاوض في شأنه، باعثا إلى مدريد بالقبطان كاسترخون نفسه[253].

ويوافق مجلس الدولة الاسباني في قراره بتاريخ 16 نونبر 1637 على المساعي التي قام بها الدوق[254].

وفي سنة 1638 يقع الحديث من جديد على احتلال القصبة في وثيقتين:

الوثيقة الأولى عبارة عن تقرير صادر عن مجلس العرش الاسباني مذيل برأى العامل، أما الوثيقة الثانية فهي تقرير للملك.

---

251 -Ibid p. 403
252 - Ibid p. 407
253 - Ibid p. 417
254 - Ibid p. 421

في الوثيقة الأولى[255] يكاد يكون الماركيردي بيلافرانكا Marqués de Villa Franca الوحيد الذي يتقدم بعرضه وهو يعارض احتلال القصبة لأنه لا يعتبر ذا أهمية، في حالة الاستيلاء على القصبة فإن المغاربة سوف ينتقلون إلى موانىء أخرى من المغرب فيصير لزاما الاستيلاء على تلك الموانىء مما سيكلف مصاريف باهضة بدون أية فائدة».

وينبغي زرع الشقاق بين المورسكيين والمغاربة حتى ينشغلوا عن تهديد العرائش والمعمورة وطنجة وسبتة»، ويكون من الاضمن - يختم الماركيز - أن تزود المعمورة والعرائش بالذخائر والمؤن اللازمة.

لم يكن ولوصوتا واحدا في المجلس كله ينادي باحتلال القصبة، ولكن على الهامش تجد رأي الملك التالي، الذي سجله بخط يده :

«فيما يخص الاستيلاء على ذلك الموقع (القصبة) رأيي أنه إذا كان ذلك الميناء سيئاً كما يقال فإن ما صدر هو الصحيح. ولكن بالنظر إلى ما قام به هؤلاء المورسكييون بإمكانياتهم الذاتية، وباالنظر إلى الغنائم التي يحصلون عليها كل سنة، وبالنظر إلى قوتهم البحرية التي تصاعدت إلى أن وصلوا سواحل انجلترا، فإني أجد هذا الميناء ذا أهمية عظيمة.

ولقد وجهت إلي إشارات عديدة من مجالس الحكومة والمجالس السرية، بأن تغزو قواتي ذلك الموقع . . . أن كل الموانىء في المغرب، المتاخمة لاسبانيا، إما أن تصبح تابعة لي أم مرتبطة معي بولاء حقيقي وصلب، وأني أفضل هذا الأخير إذا كان ذلك ممكنا». وتخبرنا مصادر وثائقية عير اسبانية عن اتصالات اسبانية مورسكية في نفس السنة (1636) في شأن احتلال القصبة[256].

وفي أواخر يونيو وبدايات يوليوز بعث الدوق م. سيدنيتا إلى مصب النهر سفينة ذات حمولة 700 طن وبرفقتها 3 سفن صغيرة كانت تحمل 600 جندي وقدرا كبيرا من المؤن والذخيرة ويقول كارتريت Carteret في مذكراته بأن الجنود الاسبان كان لهم أمر بالنزول وبأن القصري (الابن) كان قد بعث للدوق تحذيرا يقول فيه بأن الوقت قد حان لوضع القصبة بين أيدي الاسبان لأنهم لم يتوصلوا بأية مساعدة من سلطان مراكش، وبأنهم لاينتظرون حسن المعاملة من الهورناتشيين الذين

---

255 - Ibid p. 423

256 - يتعلق الأمر بمذكرات الانجليزي كارتريت Carteret ومواطنه بليك Blake وتوجد ب :
S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 442 et seq

يحاصرونهم لذلك فإنهم يسلمون أنفسهم مضطرين لملك اسبانيا، لكن الرايس مراد كان قد وقف في وجه نزول الجنود الاسبان ولم يتمكن القصري من اقناعه.

وبقي الجنود الاسبان عدة أيام ينتظرون مانعا اياهم مراد رايس من النزول، في حين كان الأندلسيون يرغبون في نزولهم نظرا لأنهم كانوا في حاجة إلى المؤن والذخيرة التي كان يحملها الاسبان.

ويتراجع الجتود الاسبان في الثالث أو الرابع من يوليوز إلى المعمور تاركين المؤن بالقصبة، وبعد أسبوع يتوصل المحاصرون برسائل من السلطان يشجعهم فيها على المقاومة ويخبرهم بأنه سيصل إلى مشارف سلا في أواسط الشهر، ولكن الذي يصل هو كارتريت في أوائل غشت، ومعه المساعدات وأخبار بقرب مقدم السلطان، لكن هذا القدوم لم يتحقق.

مازال العياشي يحاصر القصبة برا انطلاقا من الرباط نفسه، بمساعدة الهورناتشيين الذين يحاصرون القصبة بحرا، والمحاصرون يقاومون حسب إمكانياتهم ويطلبون مساعدات من السلطان، ومن اسبانيا على الخصوص. أما الدوق فإنه يسرع بإمدادهم بالذخيرة.

تتطرق ثلاث رسائل من الدوق إلى الملك، خلال شهر يناير سنة 1639، لهذه القضايا.

- يوم 4 يناير[257] يذكر في هذا الصدد: «تتوارد الأخبار عن أن العياشي قد تقوى بالرجال وأنه يعتزم الاستيلاء على القصبة من جديد وأني أنتظر ما تشيرون به كي أقوم بانجازه».

- يوم 19 يناير[258] يذكر للملك: «أن العياشي قد استعمل سفن انجليزية، وأخرى فرنسية، ويسد بها مصب النهر لمنع الامدادات عن القصبة، وخصوصا منها ما يأتي من طرف سلطان المغرب، وأني أرى أن نستعمل سفنا من المعمورة لإزاحة الخطر عن مصب النهر».

- يوم 22 يناير[259] يكتب ما يأتي : «... عروض الانجليز والفرنسيين على سلطان المغرب حول القصبة يمكن أن تفضي بها إلى أحد هاتين القوتين... ضرورة تقديم مساعدات الغرب حتى لا يلتجئ إلى غيرنا، وتسقط القصبة، وتتلوها المواقع

---

257 - G.G Busto, op cit p. 431
258 - Ibid p. 433
259 - Ibid p. 435

الأخرى... في حالة الموافقة على دخول القصبة يمكن فقط لمائتي رجل من العرائش ومائتين من المعمورة أن تستولي عليها....».

وبالفعل نجد محمد الشيخ الأصغر يكتب رسالة إلى م. سدونيا في 6 صفر 1049 هـ10 (يونيو من سنة 1639) يطلب فيها ازاحة سفينة فرنسية من مصب النهر لأنها باتفاق مع العياشي كانت تعيق مرور المساعدة إلى القصبة : «... إن سفينة من سفن الفرانصيص جاءت هذه الأيام لعدوة سلا ونزلت هناك وأخذت في البيع والشراء مع العدو، وانشغلت بوجوه الاضرار والنكاية، فمن ضررها أننا وجهنا لخدامنا الذين بقصبة سلا شيءا من إقامتهم على يد الكند El Conde حاكم البريجة في شيطية وقبطانها هو كسير دكوت Gaspar de Coito فذهبت إلى أن وصلت المرسى بقصد ابلاغ ما بعثنا فيها فتعرض لها أصحاب تلك السفينة الفرانصية ومنعوها من الدخول، وإلى هذا فالمراد من جهة المحبة أن تأمر لبعض السفن يتوجهون لتلك السفن حتى يأخذوها ويقطعوا ضررها، ويمنعوها من البيع والشراء مع العدو، فإن تركت على حالها يزيد ضررها وفسادها...

وقد كنا آخذين بالحذر وكتبنا لكم قبل هذا فلا يصلكم اهمال ولا تراخ في التدبير عليها والانتقام منها. ومما يكون لكم من الأغراض ببلادنا فقضاؤه أعز ما عندنا...»[260].

وقبل الانتقال إلى جواب م. سدونيا تشير إلى رسالة من خورخ ماسكريناس Jorge Mascarenhas حاكم طنجة إلى الملك في 12 غشت[261] 1639 فهو يذكر أولا بأن «سلطان المغرب وأهل القصبة يميلون إلى المسيحية فيحمل أن نسلم القصبة اليكم من أن تسلم إلى المغاربة أو الانجليز...»، ويذكر له ثانيا : «أن هناك ثوار عديدين يقومون ضد سلطان المغرب بالاضافة الى العياشي، وهم ينوون الانضمام إلى بعضهم البعض لطرد سلطان المغرب والتخلص من السعديين ويسيطرون بذلك على المغرب فيصبحون اثرها لنا محاورين سيئين...» ويلخص إلى ما يأتي : «وعندما يجد السلطان نفسه في موقف حرج، فسوف يسلمنا القصبة بدون شك وسوف لا يكلفنا الاستيلاء على القصبة الشيء الكثير، إذ سوف نكتفي باستعمال السفن من المعمورة، وأخرى من الجديدة...»

وينتقل الحاكم بعد ذلك إلى ما يسميه بوسطو «بفضيحة تستحق التسجيل»، إذ يقترح «إن يستغنى عن الجديدة وتهدم مقابل الحصول على القصبة، وأن يرحل إلى

---

260 - Ibid p. 440
261 - Ibid p. 441

هذه الأخيرة، أنها بالنسبة لاسبانيا أكثر ملاءمة»، كما يقترح الاحتفاظ بالأندلسيين بالرباط لتدعيم المدينة.

بعدد ذلك يجيب م. سدونيا السلطان في 18 شتنبر[262]، مخبرا ى بإزاحة السفن الفرنسية التي كانت تعيق وصول مساعدات السلطان إلى القصبة واستعداده لتقديم المزيد من المساعدات في هذا الاتجاه»، ويعلن عن وصول محمد مالدونادو Maldonado والكاهية على اوليباريس Olibares (من أصل أندلسي) لامداد القصبة بمساعدة السلطان، لكنهم لم يتمكنوا من تقديم هذه المساعدة لأنهم وجدوا مصب النهر مغلقا فاضطروا لتغيير وجهة المساعدة إلى الجديدة. لم يعقد القصري الابن بعد ذلك اتفاقية مع كاسترخون في 17 نونبر 1639[263] شبيهة بالسابقة مع اضافة بنذ سابع يقول : «... كل الاسرى الهاربين من المجاهدين والذين يدخلون القصبة يصبحون احرارا كما لو كانوا في اسبانيا...»

ولا نجد إلا أخبارا قليلة تهم الموضوع في سنة 1640، ففي 5 فبراير[264] يخبر م. سدونيا الملك بأن «العياشي قد ضيق الحصار برا وبحرا، وأن السلطان قد طلب مني ازاحته عن مصب النهر،، وذلك ما فعلت فدخلت الامدادات إلى القصبة، وكان شكرهم وامتنانهم كبيرا وعبروا عنه باللسان وبالعمل، حيث اطلقوا سراح 39 من الأسرى الاسبان من بينهم رجال الدين، ونساء، وأطفال، وقد لوحظ في القصري الابن ميلا الينا، مما يشير بالخير لما تعتزموه فيما بعد.

وعن طلبهم لمساعدات ذات أهمية قصوى من بعض السفن والسلاح والمدافع فإني قد صرفتهم عنه، لكي يبقوا دائما في تبعية لكم.

وعن المال، فإني لاأرى مانعا في مدهم به مادامو ا سيدفعون مقابله حبوبا وملحا».

وفي 9 فبراير يكتب الدوق إلى حاكم الجديدة[265] مخبرا أياه بالمساعدة التي قدمها للأندلسيين استعداده لمواصلة مساعدتهم، كما يخبره باستجابة الأندلسيين له في اطلاق سراح الاسرى الاسبان.

262 - Ibid p. 445
263 - Ibid p. 449
264 - Ibid p. 453
265 - Ibid p. 457

ويبعث الدوق برسالة في نفس التاريخ[266] إلى السلطان يقول فيها «... لقد بعثت بقوة لتطهير مصب النهر كما طلبتم مني، وان لم أكن قد ارحتكم نهائيا من ذلك الاثر على سلطانكم فإني قد أبعدته عن مصب النهر، بحيث يمكن لمساعدتكم أن تصل إلى القصبة.

ولقد صادف أن وجد القبطان كتستريخون في القصبة حين كان العياشي يحاول نسفها، فكانت مساعدته جد قيمة في الحيلولة دون وقوع ما اعتزم العياشي القيام به.

وكان الارتياح كبيرا عند تحريركم لأولئك الاسرى، وسوف يكون عطفكم أشمل اذا حررتم من بقي من أولئك البؤساء...»

فالمساعدة، اذن، كانت بالعتاد والرجال، حيث ان القبطان كاستريخون كان قد ساهم في حماية القلعة بثلاثين جنديا كما يمكن قراءة ذلك في المذكرة التي بعثها القبطان المذكور بتاريخ 9 فبراير مصحوبة برسالة توصية من الدوق[267].

وفي 11 فبراير 1641 يأمر الملك م. سيدونيا بأن ينقذ الأندلسيين، لاستمرار حصار العياشي[268]. لكن العياشي قتل بعد شهور قليلة (21 أبريل 1641) من ذلك، وأصبحت القلعة الأندلسية تحت حماية الدلائيين، فلم يتمكنوا بعد ذلك من عقد اتصالات مع الاسبان، حيث ضاع من أيديهم التحكم في القصبة، وصار استقلالهم السياسي يتقلص شيئا فشيئا.

كلمة أخيرة عن العلاقات الأندلسية المسيحية

كر الحديث خلال الفقرات السابقة عن كون هؤلاء المهاجرين مازالوا مسيحيين مخلصين وعن استعدادهم لتسليم القصبة سواء للاسبان أو الانجليز.

والواقع أن هناك ترابطا بين هاتين النقطتين إلى حد كبير، فقد كان الاسبان والانجليز يبحثون عن وسيلة لاقناع حكوماتهم باستعداد الأندلسيين لتسليم القصبة فحاولوا من خلال تقاريرهم ومراسلاتهم أن يضخموا الجو العدائي الذي كان يعيش فيه الأندلسيون داخل المغرب سواء من طرف السعديين أو من قبل العياشي والدلائيين، والاضافة إلى سكان سلا وقبائل الاعراب، فهؤلاء كلهم كانوا

---

266 - Ibid p. 457
267 - Ibid p. 463
268 - Ibid p. 161

ينظرون إليهم نظرة خاصة، فالمعتدلون منهم يتهمونهم بأنهم يتشبهون بالمسيحيين، والمتشددون يعتبرون - بكل بساطة - (نصارى قشتالة)، وبالنسبة للمجاهدين هم خونة يتعاملون مع الاسبان، اذن فقد كان الأندلسيون وسط هذا الجو من الحقد والكراهية مستعدين (للتحالف مع الشيطان) مقابل انفاذهم. وازداد الأمر سوءا بالنسبة إليهم أن الأمور لم تكن على ما يرام بين القصبة والرباط، إذ كان الصراع مستديما بينهما وكان يستعين بأحد هذه الأطراف (المعادية) ضد الآخر.

وهكذا كان الاسبان والانجليز بالمغرب يحاولون باستمرار استغلال هذه الأوضاع

فبالنسبة للانجليز: كانوا يشجعون الأندلسيين منذ سنة 1627 على الاستقلال عن زيدان، وحاولوا أن يبسطوا حمايتهم على القصبة[269].

وفي نفس الوقت كان الانجليز يطمحون إلى استغلال هذه القوة الأندلسية لتوجيهها ضد أعدائهم داخل المغرب من مغاربة وإسبان، لهذا وقع التنصيص على أن الأندلسيين مستعدون للم شتاتهم، وجمع ما يقرب من 10 آلاف أندلسي في مكان واحد، سواء من المغرب أو من الجزائر وتونس لخدمة الانجليز ضد أعدائهم المغاربة والاسبان على السواء (فهم مسيحيون أكثر من الاسبان أنفسهم، وهؤلاء الأخيرون هم الذين رموا بهم بين أحضان المسلمين من مغاربة وأتراك، لذلك فقد رفضوا العودة الى اسبانيا عندما دعاهم فليب الرابع لذلك مما يحتم علينا انقاذهم والاعتراف بكيانهم، على أساس أن لهم حكومة تمثل شعبا مورسكيا...) وينتقل الانجليز إلى النتائج المتوخاة من كل ذلك :

- في حالة استيلاء الأندلسيين على الشريط الممتد من سلا إلى تطوان فإنهم سيضايقون الثغور الاسبانية بالمغرب إلى حد كبير ولن تضايق بعد ذلك السفن الانجليزية في أي مرفا من الموانئ المغربية.

- استخدام الأندلسيين في الاستيلاء على المعمورة (لأنها أحسن مرفا من سلا نفسها).

- الانطلاق بعد ذلك إلى باقي الثغور الاسبانية بالمغرب.

- استخدام الأندلسيين في غزو اسبانيا نفسها، اعتمادا على نبوءة قديمة كانت تروج بقوة بينهم مفادها: «إن جلاءهم سيكون من اسبانيا إلى المغرب، ولكنهم

---

269 - لن نكرر الاحالات السابقة ويمكن الرجوع إلى هذه الاحالات في النقطة التي سميناها بمحاولات الأوروبيين الاستيلاء على القصبة.

سيعودون مرة أخرى على متن سفن مسيحية، وهكذا لما علموا بقدوم الاسطول الانجليزي ظنوا أن النبوءة قد تحققت فاستعدوا بالأسلحة والذخيرة والبارود، وكل الضروريات للذهاب الى اسبانيا).

- وبالنسبة للاسبان : تورد وثائقهم أخبارهم بنفس الشكل تقريبا، لكن في الاتجاه المعاكس الذي يخدم مصلحة الاسبان، ففي المشروع الهورناتشي لسنة 1631 نجد التأكيد على أن الأندلسيين رفضوا مساعدة العياشي في احتلال المعمورة، ولكنها تؤكد في نفس الوقت أنه عازم على استرجاع المعمورة (لتحطيم المورسكيين، ولكي يفقدوا جميع الامتيازات التي كانت لهم بمصب أبي رقراق لصالح مصب سبو، لأن جميع السفن ستذهب إلى المعمورة، لأنها أحسن، ويبدو أن المورسكيين تنبهوا لذلك، كما أن الوليد أراد استخدامهم في حربه ضد أخيه عبد الملك، لكنهم رفضوا مساعدته فاتجه إلى العياشي).

وهكذا تؤكد الوثائق الاسبانية - كالوثائق الانجليزية - ان الأندلسيين كانوا يعيشون في حالة من الاضطراب والقلق سواء من العياشي أو الوليد أو من الأعراب (الذين يسمونهم مسيحيين وإذا صادفوهم خارج القصبة فإنهم يلقون عليهم القبض). وتصل الوثائق الاسبانية - كالوثائق الانجليزية - إلى النتيجة المتوخاة : «ولهذا ولكي يتخلصوا من هذه المخاوف وبسبب الحب الكبير الذي يكنونه لاسبانيا فإنهم قرروا تسليم القصبة لكم (لفليب الرابع).

لكن هذه المرة بشروط :

- أن يرجعوا إلى هوناتشوس بعد إجلاء السكان الحاليين عنها
- أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم
- لن يقبلوا من الاسبان بقريتهم إلا الرجال الدين
- لا تحتجز ممتلكات الأندلسيين (المتهمين ببقائهم مسلمين) لا بعد 20 سنة.
- وليظهر أنهم مسيحيون سوف يقدمون شهادات اسرى مسيحيين في شأن العديد من الأندلسيين الذين عذبوا من طرف الاعراب وماتوا في سبيل العقيدة المسيحية.

وكانت هناك دائما ثوابت في السياسة الأندلسية :

- فهم مستعدون للحماية الاسبانية إذا لم يستطيعوا مواجهة العياشي.
- كانوا دائما يرفضون وجود الاسبان بالقصبة ويكتفون بتلقي السلاح والذخيرة فقط (خوفا من غضب المغاربة).

- المراوغة في رفض المساعدة التي يقدمها الاسبان، وكان جوابهم : «عندما نكون في حاجة اليها سنطلبها منكم»

- رفض الحماية التي كان يقترحها الاسبان لعلمهم بالأحوال السيئة التي كانت تعيشها الثغور الاسبانية بالمغرب (العرائش، المعمورة، طنجة) وتعويضها بحماية الشريف السعدي ضد العياشي.

أما بالنسبة لثوابت السياسة الاسبانية تجاه أندلسيي المغرب فيمكن تلخيصها فيما يأتي:

- بث العداوة بين الأندلسيين والعياشي، وبين بعضهم البعض، وبينهم وبين شيوخ القبائل، ليصبح الأندلسيون في حاجة إليهم، لأنهم كانوا يعتقدون دائما أنهم لن يطلبوا المساعدة من الاسبان إلا إذا كانوا في حاجة إليها.

- انتبه الاسبان إلى أن الأندلسيين يرفضون دائما مساعدة الاسبان اذ قرنها هؤلاء باحتلال القصبة.

- غض الطرف عن جميع مقترحات الأندلسيين بالعودة إلى اسبانيا وبالمقابل عرضوا عليهم حسن الاستقبال بالمعمورة التي يرجعون اليها عند الضرورة.

- لم يكن الاسبان ينتظرون شيئا كثيرا من هؤلاء الأندلسيين، فقد كان العمل الجهادي البحري على أشده ضد الاسبان، ففي الوقت الذي كان فيه المبعوث الاسباني بالقصبة للتفاوض، لاحظ أن سفن الأندلسيين أتت محملة بعدد من الأسرى الاسبان بمسمع ومرأى منه، ولكنهم كانوا - مع ذلك - يعتقدون دائما أن الحاجة ستدفعهم لا محالة لطلب المساعدة.

هكذا نرى أن الأندلسيين يتعاملون في آن واحد مع الانجليز والاسبان ويعدون بشيء واحد لطرفين متناقضين، كنا أنهم يقدمون أنفسهم كخدم «مسيحيين» لملك انجلترا الأعداء الألداء للاسبان الذين طردوهم من أرضهم وهم بالتالي مستعدون لتقديم كامل الخدمات للانجليز ضد الاسبان.

وبالنسبة للاسبان، فهم يكنون حبا كبيرا لاسبانيا، وعلى استعداد للتضحية بكل شيء مقابل العودة، فلنتساءل عن العامل الذي يحرك هؤلاء الأندلسيين فيتصرفون هذا التصرف المزدوج ؟

إن الأمور ستبدو واضحة، ولاتناقض فيها، إذا ما أرجعنا كل ذللك إلى العقلية الأندلسية بكل أبعادها الحضارية والسياسية والاجتماعية. إن الأندلسي هو، أينما حل وارتحل، سواء كان باسبانيا أو المغرب، إنه يحمل تراث قرن من الزمان

(1502 – 1609) كان متابعا فيه من طرف محاكم التفتيش، فتكونت لديه عقلية خاصة يواجه بها العقلية الاسبانية[270] ومثيلاتها الأوروبية. فهو ظاهريا مخلص للمسيحية وللملك اسبانيا وباطنيا مسلم مع المسلمين (أتراك ومغاربة). فهذا الموقف، إذن بالنسبة لهم لم يكن غريبا ولا متناقضا فهو تكتيك أندلسي معروف مارسوه وهم باسبانيا. فبالإضافة إلى اتصالاتهم المثيرة مع الأتراك كانوا يتفاوضون مع الفرنسيين لأجل الثورة. وهنا نتساءل كيف كانت هذه الأقلية الأندلسية تؤمن بالثورة وبالانتصار إلى هذا الحد وهي داخل اسبانيا وكيف ظل الايمان القوي يراودها بإمكانية الرجوع الى اسبانيا وهي بالمغرب ؟

إن الأمر كان يجري داخل إطار ما كان آنذاك الموريسكيون بالاجفار Jofers فمنها كانوا يستلهمون موافقهم. فهذه النبوءة لهم، هي قبل كل شيء عمل ديني سواء من حيث أصوله أو أهدافه[271].

ففي سنة 1569 بغرناطة صرح زكرياء الذي اعترف أمام محاكم التفتيش بأن المغاربة لهم رغبة كبرى في الانتقام، وأكدوا بأن الخلاص قريب، وسيأتي من شمال افريقيا، من بجاية ووهران وسبتة، ثم بعد ذلك يتم من جديد غزو اسبانيا... وأنه من مضيق جبل طارق سيظهر جسر من جديد وعن طريقه سيجتاز العرب ويتمكنون من غزو ااسبانيا حتى كاليسيا[272].

وبعد سنة 1574 سوف ينتظرون الأتراك(لفتح اسبانيا)[273]، واستمرت هذه النبوءة بقوة في بداية القرن السابع عشر وكلها تشير إلى قرب تحقيق أمل الأندلسيين.

---

270 – عن العقلية الاسبانية في القرن السادس عشر انظر :

F. Braudel, «Conflits et refus de civilisation, espagnols et morisques au XVIe siècle, in Annales E.S.C. 1947

B. Bennassar :

- l'homme Espagnol
- un siècle d'or espagnol
- l'inquisition Espagnole

271 -L. Cardaillac, «Le Turc, suprême espoir des morisques» *in Etudes sur les morisques andalous*, p. 50

272 - L. Cardaillac, *Morisques et chrétiens*, p. 51

273 - L. Cardaillac, «Le Turc, suprême espoir des morisques» in *Etudes sur les morisques andalous*, p. 52

وقد سجل الشهاب الحجري جانبا كبيرا منها، فقد ذكر أنه قرأ باسبانيا جفرا يقول بأن المسلمين سيرجعون مرة ثانية الى اسبانيا وأنهم سيدخلون مع أربع جهات، وأن المسلمين سوف يحكمون كامل اسبانيا[274]، كما خصص بابا كاملا من كتابه ناصر الدين لصفائح الرصاص المكتوبة التي وجدت قرب غرناطة سنة 1588، فقد ذكر أن الجفر المكتوب يقول : «من أقصى المغرب على ماء البحر يأتي سريع قوام إلى بلاد النصارى وتصل الهملى (الحملة) إلى رومة»[275].

وعرض الشهاب الحجري هذا الجفر على المنصور: «وأما ما ذكر في الرق أن علامة النحس الذي ينزل على النصارى، يكون إذا أخذ المشرقي مدينة البحر، فكنت قد أظهرت نسخة من الرق المذكور لمولاي أحمد سلطان مراكش - رحمه الله - . .»[276].

ولم يكن الشهاب هو الوحيد الذي يتوفر على الاجفار بالمغرب إذ وجد عند غيره «... وأيضا ذكر الكلام بنفسه قايد بمدينة مراكش يسمى بفارس ابن العلج، وكان من أهل الدين، وكان عنده الكلام محفوظا ومكتوبا، وقال : كنت أسيرا بمدينة غرناطة ونادوني إلى حضرة القسيس الكبير، وأعطوني كتابا في ورق من رصاص من الكتب التي وجدت تحت الأرض، قرأته...»[277]

وقد حاول المغاربة أن يستغلوا هذه الاجفار، إذ حاول استغلالها المنصور عند ما قدمها له الشهاب الحجري : «قال واحد من قواده (المنصور) : «لو كنت تبدل (القاف) (بفا) ليقول ان مدينة البحر يملكها الشريف فيفرح بذلك السلطان ...»[278].

كما حاول استغلالها من بعده أبو محلي إذ كان يعلن في ثورته عازم على فتح اسبانيا بالمجاهدين الأندلسيين وأنه سيقوم ببناء جسر على مضيق جبل طارق لتجتاز منه الجيوش إلى الأندلس، على أن الجانب المقابل كان له أيضا نبوءاته،ن فقد كانوا يتنبأون بانتصار المسيحية على الأتراك والمغاربة، وتحويل هؤلاء إلى الدين المسيحي، إذ صرح دون مرتين كارسيا Don Martin Garcia انه مقتنع بقرب اعتناق المسلمين

274 - L. Cardaillac, *Morisques et chrétiens*, p. 50

275 - ناصر الدين على القوم الكافرين، ص 10.

276 - المصدر السابق ص 14 .

277 - المصدر السابق ص 15 .

278 - المصدر السابق ص 14 .

للمسيحية، وللاسراع بانجاز ذلك دفع القسيسين إلى تعلم اللغة العربية ووعظ المورسكيين وقد قال : إن بداية هذا الانتصار ستكون في افريقيا الشمالية[279].

وهكذا فإن النبوءات كانت منتشرة جدا بالمغرب إلى الدرجة التي نجدها في أغلب التقارير الأوروبية حول المغرب وهذا ما يفسر كثيرا من الاشياء، ذلك أن ايمان الأندلسيين بالرجوع إلى بلدهم لم يكن مجردا أمنية بعيدة المدى، فقد كانوا يعتقدن بإمكانية تحقيقة في أي وقت فعندما كانوا باسبانيا، اعتقدوا أول الأمر أن المقصود بالفاتح في اجفارهم هو سلطان المغرب، وعند بروز الأتراك كقوة بحرية بشمال افريقيا اعتقدوا أن المقصود بالفاتح هو سلطان الأتراك إلى أن وقع الطرد وحملوا معهم هذه النبوءات، وهي ملائمة لوضعيتهم الجديدة فالأتراك لم تعد لهم نفس القوة، والاسبان أنفسهم كانوا سائرين نحو التدهور، وبرزت قوات جديدة على الساحة الدولية، إذ برز الانجليز والهولنديون والفرنسيون، فتطلع اليهم الأندلسيون للرجوع إلى بلدهم، ففي حالة مساعدة هؤلاء للرجوع إلى بلدهم لن يخسر الأندلسيون شيئا، إذ سيضربون الاسبان بالانجليز، وكانوا عازمين بالفعل على تجميع أندلسي شمال افريقيا بسلا، وذلك لتوجيه ضربة قاضية للاسبان، فهم في الواقع لم يكونوا صادقين مع أية قوة أوروبية، إذ راوغوا الانجليز مرارا من أجل الحصول على الذخيرة والسلاح مقابل التلويح لهم بحمايتهم على القصبة، وراوغوا الاسبان كذلك مرارا لضمان تزويدهم بالذخيرة والسلاح ضد العياشي والاعراب. وكان الاسبان يشعرون بهذا الفعل بأن الأندلسيين لن يتنازلوا بسهولة عن القصبة، فقد كانوا يطمحون إلى تكوين كيان سياسي واقتصادي لهم، وعندما شعروا بأن العياشي يحاول احتواءه تصدوا له، خاصة أنه استعان بسفن تركية من الجزائر، كما استعان بالانجليز.

وبالمقابل فضل المورسكيون حماية السلطان السعدي، أي ان ماكان يقوم به الأندلسيون مع الانجليز والاسبان لا يعدو أن يكون ما نسميه اليوم «بالمناورات الدبلوماسية».

أما فيما يتعلق بما كان يردده الأوربيون من كون هؤلاء مسيحيين مرفوضين من طرف المغاربة، فهذا ما لا تؤكده الوثائق المغربية والاجنبية نفسها، بل بالعكس من ذلك، كل الوثائق التي لدينا تنفية تماما، فليست لدينا وثائق تثبت بأن هؤلاء قاموا

---

279 - Cardaillac, op. cit. p. 53.

بنشر المسيحية داخل المغرب أنو أنهم عملوا مع قوة مسيحية ضد المغاربة، بل العكس، كانوا يصرون أصرارا قويا على أن يعتنق الأوربيون الذين يشتغلون معهم الاسلام، فقد كتب احد الاسرى الانجليز (روبرت أدمز) في خطاب له من سلا بتاريخ 4 نونبر 1625 يقول : «إني هنا في سلا ولكن في أتعس أسر وبين أيدي أقسى الطغاة... يضربونني كل يوم حتى أتحول إلى الاسلام...»[280].

كما أنهم قبل خروجهم إلى الجهاد البحري كانوا يقومون بجميع شعائرهم الدينية وكانوا يمارسون جهادهم البحري هذا ضد جميع السفن المسيحية حتى أثناء المفاوضات.

ان ما كان يظهره الأندلسيون من ميلهم إلى المسيحية شيء معتاد بالنسبة لهم، إذ تعودوه وهم باسبانيا نفسها. ففي سبيل الحصول على المساعدات في أوقات الضيق كانوا يستخدمون تكتيكهم الأندلسي للوصول إلى الهدف، أما بالنسبة لحبهم للأندلس وتعلقهم بها، فهذا واقع بالفعل منذ وقت بعيد وليس بجديد، فقد عرف عن الأندلس حبه لبلده إلى حد كبير، إذ كانوا ينعتون المغاربة بالبرابرة فهذا يدخل في إطار النفور الذي كان قائما بين العدوتين[281].

وعلى العموم فإن ما قيل عن استعداد الأندلسيين لتسليم القصبة يجب أخذه بحذر كبير، فالاسبان وان أبدوا رغبتهم لاستيلاء عليها فإنهم في الواقع لم يكونوا مستعدين تماما لتنفيذ ذلك، فالمراكز الاسبانية والاقدام على احتلال القصبة معناه اضافة مشكلة جديدة إلى مشاكلها بالمغرب. والانجليز أيضا كانوا يشعرون بخطورة احتلال القصبة وسط قبائل الاعراب والمجاهدين. وكان الأندلسيون يدركون هذا بالفعل، فحتى وان أبدوا استعدادهم للتخلي عن القصبة فإنهم كانوا يدركون ان الاسبان والانجليز لن يقدموا على هذا، وحتى ان وقع ذلك بالفعل فإنهم لن يصمدوا كثيرا أمام هجمات المجاهدين والمغاربة بصفة عامة، وسيربحون هم في كل الأحوال التخلص من وسط يكن لهم العداء ويرجعون إلى بلدهم بالشكل الذي أرادوه.

---

280 – ب. ج، روجز، تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية، ص 58.

281 – سبق ان تعرضنا لذلك في المدخل التاريخي لهذه الدراسة.

ثانيا : الجالية الأندلسية بتطوان

يختلف الأندلسيون المهاجرون إلى تطوان عن إخوانهم في مصب أبي رقراق في عدة نقط :

- حين قدم الأندلسيون إلى تطوان، وجدوا هناك جالية أندلسية مهمة كانت قد سبقتهم إلى المنقطة، فهيأت لهم بذلك ظروف استقبال أحسن، في حين لم تكن مثل هذه الجالية المهمة موجودة بسلا، وبذلك لم يحسن استقبالهم، واستأجر بعضهم دورا في المدينة، فلم يسمح لهم بالاستقرار بها بصورة دائمة، بسبب انعدام الشعور لدى الأندلسيين بالحشمة والوقار[282].
- كان أندلسيو تطوان يعملون تحت قيادة مغربية بعكس أندلسي مصب أبي رقراق الذين كانوا يقومون بتسيير أنفسهم بأنفسهم.
- كان الجهاد البحري بتطوان مركزا أساسا على البحر الأبيض المتوسط في نطاق ضيق، في حين كان المجال واسعا بالنسبة لمصب أبي رقراق على المحيط الأطلسي.

ومع ذلك يلتقي هؤلاء وأولئك في نقط أخرى :

- إن سلطة السعديين كانت في كثير من الأحيان اسمية لا غير.
- الاقتناع بضرورة تكتل مهاجري الأندلس بالمغرب بل بشمال افريقيا لمواجهة الخصوم الداخليين (المغاربة) والخارجيين (الأوروبيين).
- التحفز للرجوع الى اسبانيا بمساعدة قوات أوربية معادية لاسبانيا

وعلى العموم فإن المراحل التاريخية للوجود الأندلسي بتطوان تبرز - كساقتها بمصب أبي رقراق - في ثلاثة مظاهر أساسية :

- الصراعات الداخلية .
- الجهاد البحري
- العلاقة بالأوروبيين

---

282 - م. القادري، نشر المثاني (طبعة حجرية)، ص 47.

1

الصراعات الداخلية

وصل الأندلسيون المتأخرون إلى تطوان في عهد المقدم أحمد بن عيسى النقسيس (1608 - 1622)[283] والتقت رغبة المقدم المذكور مع هؤلاء المهاجرين في عدة نقط منها :

- تحفز النقسيس للانقضاض على سبتة، وهي نفس رغبة المهاجرين الجدد للانتقام من الاسبان.

- القضاء على محمد الشيخ المامون المتعاون مع الاسبان، فقد حاول هذا الأخير جهده القضاء على الحماس الجهادي الذي كان لآل النقسيس ومن معه، وكذا القضاء على رغبة الانتقام التي كانت للأندلسيين، إذ عمل على تصفية المجاهدين (مغاربة وأندلسيين) بتطوان، وأمر الناس بالكف عن الجهاد، ووزع عليهم الأراضي، وبث الشقاق بينهم، لكن جهوده لم تؤت أكلها، فظلت قضية تعاونه مع الاسبان وتسليمه العرائش ماثلة أمام الأعين، إلى أن تمكن المجاهدون من التخلص منه.

وعلى كل، فإن فترة أحمد بن عيسى النقسيس كانت فترة جهاد مشترك ضد الاسبان ولم تبرز فيها الصراعات السياسية بحدة، لكن بمجرد موته ستتضح الأمور وستكرر نفس الأحداث التي رأيناها بمصب أبي رقراق وان كانت بشكل آخر، وهكذا ففي عهد عيسى وإخوته ظهر هذا الصراع بكل وضوح، اذ عبر الأندلسيون بصراحة عن طموحهم السياسي، وعدم رغبتهم في الخضوع لأولاد النقسيس (البرابرة الجبليين). ففي تقرير هارسون إلى الملك شارل الأول في 11 شتنبر سنة 1627 يذكر: «إن حالة تطوان تزداد خطورة من حين لآخر، فقد ذبح الأندلسيون في مرة واحدة

---

283 - أصل أولاد النقسيس من النقاقسة من قبلية بني يدر.
انظر :
م. داود، تاريخ تطوان، 1: 176 هامش 2
وانظر أولاد النقسيس الذين تولوا الحكم بتطوان(1597 / 1672) بالمصدر السابق، ص 174.

ثلاثة من المقدمين، ثم ان أحد الأندلسيين يدعى بو علي انحاز اليه الباقون قائلين ان اسلافهم كانوا حكام المدينة فيما سبق، وظلوا كذلك إلى أن كان والي هؤلاء المتقدمين وهو النقسيس البربري أو الجبلي الذي جمع حوله الناس بالقوة والخداع، فاغتصب السلطة منهم، ثم خلفه أولاده واعتصبوا كأخوة أقوياء، وبالتدبير من ناحية وبالقساوة من ناحية أخرى نجحوا في ذلك وبحثوا عن وسائل تمكنهم من الأمر وقبضوا على أمام الحكم بالمدينة منذ وفاة أبيهم فنالوا أعظم هيبة في النفوس خصوصا واحدا منهم فإنه أكثر هيبة من جميع الباقي وهو سيدي عيسى... وقد سقط عدد من هؤلاء الأندلسيين بين الباقين تحت حد السيف بدون حق، كما قالوا...» (284).

وانتقل التقرير بعد ذلك الى استعراض السبب المباشر الذي أدى إلى اصطدامهم بالنقسيس ألا وهو انتهاك عرض نسائهم وإخوتهم، إذ تقدم الأندلسيون بزعامة بوعلي وقاموا بانقلاب ضد هؤلاء كان من نتيجته «ذبح عيسى مع أخويه، وفرار الابن الرابع عبد الله». وتسلم جماعة من الأندلسيين الحكم بقيادة بو علي. لكن عبد الله النقسيس عاد بقواته إلى تطوان فاجمعوا أمرهم وشركاءهم ووجهوا قواتهم لأجل القبض على الرئيس بوعلي الذي كان قد هرب فقتلوا الآخرين، وعاهدوا بقية الأندلسيين على أن يمكثوا ببيوتهم وأن يحتفظوا بمالهم كما كانوا عليه من ذي قبل في حالة السلام.

فرجع الجميع إلى بيته، ثم تمكن هؤلاء الإخوة من حكم المدينة ولكن ذلك على حذر عظيم وحراسة متوالية قوية حول أشخاصهم. وقد أرسل سيدي عبد الله من قبل كل متاعه إلى سبتة محتميا بالاسبان، ومتوقعا أن المدينة ستكون صعبة جدا عليه، إذا ما ظل طويلا بين الأندلسيين، لأنهم ليسوا مطمئنين لغيرهم بالمحافظة عليهم، ويتوقعون كل يوم أن يرجع إليهم بو علي فيدخل المدينة مرة أخرى وله أقوى طائفة من الأنصار في المدينة تتمثل في كل من الأندلسيين وغيرهم...» (285).

وأثار هاريسون الانتباه إلى النتائج المحتملة لسقوط تطوان بأيدي الأندلسيين خاصة أن أندلسيي أبي رقراق قد أعلنوا استقلالهم: «... من المظنون أن هذه المدينة ستسقط قريبا بيد الأندلسيين وبذلك ستكون كل البلاد بين تطوان وسلا منافسة مرة واحدة إلى تلك الرياسة، فإنه ابتدأ ذلك العمل من كل النواحي، وطالبوا بحق أن يضعوا الأساس لذلك كما هو في سلا، حيث أن بناة تطوان الأول - كما صرحوا

---

284 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3: 27: 58

285 - Loc. cit

- كانوا هم الأندلسيين في الأزمان الماضية، كما أن المعيدين للتشييد والترميم هناك، هم الأندلسيون الذين أتوا أخيرا من اسبانيا والذين جعلوا من مزبلة جنة مثمرة فيحاء خصوصا جنان الكرم التي غرسوها في كل النواحي. وزودوا المدينة بالذخائر التي هي في ازدياد مطرد...»[286].

ولم يكتف عبد الله النقسيس بملاحقة أندلسيي تطوان بل - ربما لأنه كان على علم بمخطط الأندلسيين لتكوين محور تطوان / سلا - قدم مساعدات هامة للعياشي أثناء حصار هذا الأخير للرباط سنة 1630،[287] لكن مخطط عبد الله النقسيس لم يكتب له النجاح، إذ أن رغبة الأندلسيين بالاستيلاء على تطوان كانت توازيها رغبة العياشي في أن تكون تطوان تابعة له لتوحيد الصف ضد الاسبان.

وهكذا بعث العياشي ببعض أنصاره إلى المدينة للقيام بالدعاية السرية لصالحه فانضم إليهم خصوم عبد الله النقسيس من الأندلسيين بسرعة وتمت المؤامرة بفتح أبواب المدينة ودخول أصحاب العياشي، وعلى رأسهم سليمان بن يوسف وزعيم الأندلسيين بو علي[288]، وفر عبد الله إلى بلاد غمارة فأمر حكام تطوان الجدد أن يجمعوا حوالي 8 آلاف شخص للقبض عليه أو قتله، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك[289]، وانتقل بعد ذلك إلى سبتة لاجئا عند الاسبان، وهناك رسالة بعث بها ملك اسبانيا من مدريد إلى حاكم سبتة يأمره فيها بحسن استقباله وبدفع المال له، ولكن مع الاحتراس منه وكذا البحث عن امكانية استغلاله ضد أندلسيي تطوان[290].

وقد ظل نفوذ العياشي قائما بتطوان إلى أن وقع الخلاف بينه وبين الدلائيين وقامت الحرب بينهما وضعفت على إثرها شوكة العياشي، إذ انتقلت المدينة لتحكم نفسها بنفسها وباشر الحكم فيها مجلس من أهاليها الأندلسيين[291]. ولكن بعد مدة عاد الحكم مرة أخرى لأولاد النقسيس. وهناك من يرى بأن الدلائيين هم الذين أعادوا أولاد النقسيس إلى تطوان ونصبوهم عمالا عليها يحكمونها باسمهم[292]. غير أن

286 - Loc. cit

287 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3: 267

288 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3: 54

289 - م. داود، المصدر السابق ص 230.

290 - المصدر السابق، ص 231.

291 - يذكر ذلك بديوان مصب أبي رقراق، لكننا هنا لا نملك أسماء هؤلاء الأندلسيين الذين كونوا هذا الديوان ولا اختصاصاته مثل ما هو الحال بالنسبة للديوان السالف الذكر.

292 - م. حجي، الزاوية الدلائية ص 169. تاريخ تطوان، 1 232.

الشيخ داود يرى أن عودة الحكم إلى أولاد النقسيس كانت بتضامن مقدمي القبائل الجبلية مع المقدمين أبناء النقسيس لتبقى السلطة العليا في هذه الناحية بيد المقدمين، أي بيد رجال الحرب لا بيد غيرهم من أهالي المدن (التجار الأندلسيين)»[293]. لكن أولاد النقسيس سيجابهون أندلسيا آخر، لم يخف هو أيضا امتعاضة من سيطرة (البرابرة الجبليين) على تطوان، انه الخضر غيلان، فقد كان يهاجم تطوان باستمرار خاصة أيام المقدم عبد الكريم النقسيس(1653 - 1659) واستمر الحال كذلك إلى أن توفي المقدم المذكور فدخلت تطوان في حكم غيلان وتولى الأمر بها نائبه الغزواني ثم أبدل هذا الأخير بأحمد بن عبد الكريم النقسيس(1660) فاعتاض لذلك غيلان وعاد إلى مهاجمة تطوان من جديد، ويظهر أنه لما يئس من التغلب عليها واقتحامها عنوة عقد الصلح مع أولاد النقسيس، على أساس أن يبقى النقسيس حاكما لتطوان، لكن بشرط أن يقبل نائبا مراقبا من قبل الخضر غيلان وأن يقدم له رجالا يعينونه على مقاتلة الانجليز بطنجة.

وظل امر كذلك إلى أن قبض مولاي الرشيد العلوي على رئيسها أحمد النقسيس[294]. وقد صدر الأمر باستغراق ذمة أولاد النقسيس وبيع أملاكهم، وأورد الشيخ م. داود بهذا الصدد رسم شهادة بجماعة من أهل تطوان (بتظلم أولاد النقسيس وطغيانهم) : «... ولم يزالوا (أولاد النقسيس) في البلاد التطوانية يضربون نار الحروب ويثيرون لمحن الكروب، الأهواء تلعب بهم، والأغواء تسوسهم حتى طلبوا الامارة، كما سولت نفوسهم الامارة، وصالوا واستطاعوا مع اشياعهم زمن الفترة من الملك في الفتن واستغاثتهم على ما هو معروف لبيت مال الله وقهر الضعفاء والمساكين من عباد الله، وخاضوا فيما يلوح لهم من المال المستحق مال المسلمين برا وبحرا، وعمارة وقفرا، من كل ما يتعين لله، وستعان به على إقامة دين الله ووثبوا على ما يبدولهم من متروك من انقطع، ويتحكمون فيمن أبي وامتنع، إلى أن غرسوا بذلك وبنوا، واشتروا العقار والأصول والأمتعة واستغنوا وصاروا بسبب مستغرقين الذمم مما ذكر...»[295].

وقد أمضى رسم الجماعة عدد من الأندلسيين نخص بالذكر منهم : عبد الله بن أحمد الخطيب، وعبد الكريم بن أحمد طانية، ومسعود بن أحمد اجانة، عبد القادر بن

293 - تاريخ تطوان 1 / 232.

294 - الناصري، الاستقصا، 7 : 36.

295 - تاريخ تطوان، 1 : 238- 239.

أحمد طانية، ومحمد بن علي اللقنتي، وأحمد بن محمد قشتلي، والجاج محمد بن علي قشتلي، وأحمد بن قاسم قرضناش وعلي مرين، والحاج محمد منضوصة...

وقام جماعة من الأندلسيين بعد ذلك بشراء أملاك أولاد النقسيس[296] وقد حاولوا بتحالف مع غيلان - أن ينهضوا من جديد، لكن السلطان مولاي اسماعيل تمكن منذ القضاء عليهم، فقتل الخضر غيلان وفر أولاد النقسيس الأربعة من تطوان إلى سبتة، وعين السلطان القائد أحمد بن حدو لمواصلة الجهاد وذكر الشيخ دادود - نقلا عن أبي محمد السكيرج - أن هذا القائد هو الذي تنسب اليه الزنقة المعروفة في حومة الطرنكات(وهي حومة أندلسية) بزنقة القائد أحمد، لأنه كان يسكن بها[297]. واختياره لهذا الموقع يحمل دليلا قاطعا على أن الجالية الأندلسية بتطوان حمته ورعته وساعدته خاصة أنه سوف يستخدمها لمهاجمة عدد من الثغور المحتلة.

---

296 - انظر أسماء هؤلاء عند الشيخ م. داود المصدر السابق، 241.
297 - المصدر السابق، 253 - 254.

2

الجهاد البحري

سجل الأب دان أهمية تطوان كمركز من مراكز الجهاد البحري في شمال افريقيا ولكنه سجل في نفس الوقت أن تطوان في عهده (1640) لم تكن لها الا فركاطات صغيرة تصل أحيانا إلى السواحل الاسبانية، ولا تبتعد عنها إلا قليلا(298).

كما سجل دوكاستر نفس الملاحظة عند ما ذكر أن تطوان لم تصل إلى مستوى تسليح سلا، إذ كانت هذه الأخيرة تأتي مباشرة بعد طرابلس وتونس والجزائر، وعلل وضعية هذه بكونها كانت محاصرة من سبتة المحتلة من طرف الاسبان، بالاضافة الى أن مجال عملها كان مقتصرا على البحر الأبيض المتوسط فقط(299). وقد استخدم أندلسيو تطوان - كأندلسي مصب أبي رقراق - الاعلاج، إذ سجل تقرير لجون سميت الانجليزي John Smith سنة 1604 وصول عدد من الأوربيين الذين دخلوا الى الاسلام حديثا الى تطوان ومحاولة الأندلسيين الاستفادة من تقنياتهم في قيادة السفن وغيرها(300).

كما سجل هنري ماينوارينك الانجليزي Henry Main Waring أيضا في مذكراته التي كتبها سنة 1618 عن مجاهدي تطوان أنه كانت لهم «مخازن للبارود الذي يجلب معظمه التجار الانجليز والألمان وهم يبعثون هناك بضائعهم جيدا حيث يرسون بسرعة وينزلون بضائعهم بواسطة قوارب المدينة... والأهالي هنا عادلون جدا وامناء...»(301).

وكانت السفن الأجنبية التي ترد إلى ميناء تطوان تطلب الأذن بالرسو من الحاكم، فكان يمنحها جوازا خاصا بذلك. غير أن الأمور لم تكن تمر بدون مشاكل،

---

298 - *Histoire de la Barbarie et des Corsaires*. p. 269

299 - Le Maroc d'autrefois, les corsaires de Salé in *Revue des deux mondes*, Paris 15 fév. 1903. pp 5-6

300 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 : 272

301 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 : 507

إذ كان من جملة السفن التي وصلت إلى ميناء تطوان، ورسا قائدها بجواز من هذا القبيل، سفينة القبطان توشينج Touching الانجليزي، الا أنه لم يلتزم بالإذن بل انتهز إحدى الفرص وسطا على مركب لأولاد النقسيس، فأخذه وهرب به وبجميع ما فيه من أشخاص ومتاع، وقد استاء المقدم أحمد النقسيس من غدر ذلك القبطان بعد أن وثق به وسمح له بالنزول في بلده[302].

ثم حدث أن وصل الى ميناء تطوان مركب انجليزي آخر، ونزل منه جورج فريزويل George Friswell بدون اذن من النقسيس فألقي عليه القبض انتقاما من عمل توشينج القبطان[303].

وكان الأندلسيون يتعرضون باستمرار لعمليات القرصنة من جانب السفن الأوربية، ففي رسالة جون John Duppa الانجليزي إلى والتراسطون Walter Aston[304] المؤرخة في 7 يناير 1622 يشير إلى وصول عدد من الأندلسيين المأسورين: «... وقصة هؤلاء الأندلسيين أنهم كانوا من سكان الجبال القريبة من تطوان إلى أن جاءهم ذات يوم قريب لهم من الجزائر، فبحث عن هؤلاء الذين كان أغلبهم ينتمي إلى عائلة واحدة، من أقربائه، ولما اجتمع بهم زين لهم أن يبيعوا كل ما يمتلكون من عقار وماشية، وأن ينتقلوا بأموالهم إلى الجزائر، فعمل هؤلاء المساكين بنصيحته فنزلوا إلى تطوان وصادف الأمر ان كان هناك مسافرين فحملوهم إلى الجزائر، فلما توسطوا معهم البحر اسروا جميعا بواسطة أسطولنا الانجليزي الذي انتهت في الحال أموالهم وبضائعهم التي كانت معهم ولم يكونوا قد تركوا خلفهم في تطوان أموالهم أو أحد من أقاربهم يمكنه أن يخلصهم أو يساعدهم...[305].

ولم يصل المفاوض الانجليزي في شأن هؤلاء إلى نتيجة تذكر موضحا السبب في ذلك : «وعليه فقد توجهت في اليوم التالي إلى المدينة، حيث كان المقدم قد جاءها في انتظاري، وقد أرسل في طلب رؤساء الأندلسيين بالمدينة فلما جاءوا طلب منهم في حضور أولاده أن يجيبوا بما يرون فيما جئت اليهم من أجله، وهو إطلاق سراح المنتمين إلى جنسيتهم، الأندلسيين الذين أسرهم الاسطوال الانجليزي، فأجابوا بأن

---

302 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 : 522:524

303 - Loc.cit

304 - Loc.cit

305 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 : 272:530

هؤلاء الناس لا شأن لهم بهم، ولا علاقة تربطهم معهم فلا أصدقاء لهم ولا أقرباء لهم بين ظهرانها، ومع هذا فإنهم مقابل اطلاق سراحهم يستطيعون أن يجمعهم من الزكوات أموالا تفي بشراء الانجليز الثمانية الذين هم تحت الرق فيطلق سراحهم، هذا كل مايستطيعون تقديمه من معونة...»[306]. ولكن رسالة أحمد النقسيس توضح سببا آخر لفشل المفاوضات :

«... وفيما يخص الكارثة التي حلت بالأندلسيين المذكورين فإن القائد عرض علي تسليم هؤلاء الأندلسيين والمسافرين مقابل الانجليز رعايا بريطانيا العظيم الذين هم تحت الأسر بتطوان، غير أن الأندلسيين وبقية المسلمين عندنا لم يقبلوا العرض دون رجوع الأمتعة التي ابتزت من أولئك القوم المساكين ظلما وعدوانا...»[307].

وهذه الرواية الأخيرة هي الأرجح لأنه لا يعقل أن يتخلى الأندلسيون عن قومهم وهم ماهم عليه من التضامن.

وعند فشل المفاوضات عاد الاسطول الانجليزي بأسراه فباع بعضهم بمدينة القنت Alicante وظل الباقون بمدينة قادس باشراف جون دوبي الانجليزي في حالة يرثى لها «لأنهم فقراء مذقعون وليس لهم أقارب يستطيعون افتداءهم ولا متاع لهم في تطوان أو غيرها»[308].

وجاء المفاوض الانجليزي إلى تطوان مرة أخرى في شأ تبادل الاسرى : «وقد هزتني (النقسيس) الشفقة عليهم فأمرت بجمع التبرعات من الأندلسيين، فكان ما جمع منها بقي بفدية الانجليز الثمانية الذين عرض افتداؤهم بالأندلسيين الستة عشر...»[309]. وأبرم اتفاق يقضي «بأنه لايباع بتطوان أي انجليزي أو اسكتلندي أو ارلندي من رعايا ملك بريطانيا، باستثناء الموجودين حاليا تحت الأسر، وان أي تاجر من رعايا الملك المذكور انتهى إلى تطوان فإنه ينال الأذن مني (النقسيس) في الاتيان إلى المدينة فيتاجر بها، وأن يكون تعامله حسنا لا غش فيه...»[310].

---

306 - Loc.cit

307 - يوجد النص الانجليزي ب :

S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 : 522:524

308 - Loc.cit

309 - Loc.cit

310 - Loc.cit

وقد سجل الأب دان أن الاسرى الاسبان والبرتغال بتطوان كان أكثر عددا من أسرى سلا والجزائر، كما سجل في نفس الوقت أن مجاهدي تطوان كانوا يتعاملون غالبا بصدق وأمانة[311].

وانتقل إلى استعراض عملية افتداء للاسرى تعتبر من أهم العمليات التي عرفتها تطوان آنذاك[312] وهي عملية افتداء 116 أسير اسباني من طرف رجال الدين، فقد اجتمع هؤلاء من قشتالة ومنطقة الأندلس في مدريد وقرروا الذهاب إلى تطوان لافتداء الأسرى الاسبان، وخرجوا في شهر نونبر 1641 وعندما وصلوا اخبروا الحاكمين بالمدينة بالمامورية التي أتوا من أجلها وطلبوا الاذن بالبقاء بعض الوقت للتفاوض فيما أتوا من أجله، واستقبلوا استقبالا حسنا. وفي هذا الوقت كان عدد من الأسرى المسيحيين يزورونهم ويطلبون منهم افتداءهم، وذكر الأب دان كذلك أنهم وجدوا صعوبة كبيرة في هذه المفاوضات مع مجاهدي تطوان بسبب فقر الاسبان وانهم تعرضوا بسبب ذلك إلى العديد من الاهانات من طرفهم وأخيرا استقر الأمر على ألف فرنك، وافتداء 116 أسيرا إسباني وأما الباقون فهم 15 قبطانا، و 18 طفلا(أقل من 16 سنة) وامرأتان، وعدد من التجار البحريين، ورجال البحر.

هكذا أخرج الآباء من تطوان هذا القسم المفتدى، ووصلوا إلى مالقة، ومن هناك ذهبوا إلى مدريد واستقبلوا استقبالا رائعا من طرف رجال الدين في نهاية شهر يوليوز 1642، ولكن الآباء بمجرد وصولهم إلى مدريد ماتوا من جراء سم اعطي لهم من طرف مجاهدي تطوان بأيام قليلة قبل أبحارهم، وكانوا يعتقدون أنهم يموتون بتطوان، ويصبح اذاك لهم الحق في استرجاع الاسرى المفتدين، وتأسف الأب دان في الأخير كثيرا على ما يعانيه الآباء في هذه المفاوضات.

---

311 -*Histoire de la Barbarie et de ses corsaires*. p. 270

312 - *Histoire de la Barbarie et de ses corsaires*. p. 271

3

العلاقات مع أوروبا

لم تقتصر العلاقات بين أندلسيي تطوان والأوروبيين على التجارة والجهاد البحري، بل تعداه الأمر إلى محاولة التحالف مع الانجليز ضد الاسبان من أجل الأمل الذي ظل يراود الأندلسيين باستمرار ألا وهو العودة، وكان المقابل الذي اقترحه هؤلاء هو مساعدتهم على الهجوم على المراكز الاسبانية بالمغرب قبل الانتقال الى احتلال مراكز معينة باسبانيا نفسها، ومن ثم الاستحواذ على شبه الجزيرة الايبرية كلها.

*****

كان أندلسيو تطوان يشتكون باستمرار من ممارسات القراصنة الانجليز في البحار، رغم الاتفاقيات الثنائية التي كانت بين الطرفين، مما كان يخلق مشاكل في طريق التعاون لمواجهة الاسبان وقد كان لهذه الشكاوى صدى لدى شارل الأول، إذ اصدر بلاغا في 1 نونبر 1628 يقول فيه: «...حيث ان الشكاوي العديدة قد وصلت إلينا أخيرا من سكان الجزائر وتونس وسلا وتطوان بتلك الأخطاء المتنوعة العظيمة التي وقعت عليهم من جانب رعايانا في البحر والتي لو كانت حصلت فإنها تخالف رعاياتنا الملكية...»[313].

ثم انتقل بعد ذللك الأمر الصادر عنه : «يجب أن يمتنعوا من الآن فصاعدا عن كلعمل من أعمال العدوان، أو أن يبدوا أية قسوة أو معاملة سيئة في حق أي شخص من الأشخاص أو أية سفينة من السفن أو البضاعة التي تتعلق أو ستتعلق بالجزائر أو تونس أو تطوان أو سلا... ومن خالف. فإنه يستهدف لسخطنا العالي الشأن والعقوبات العظيمة بواسطة قانونا الذي سيطبق على كل مخالف أو متهاون أو مهمل في هذا...»[314].

---

313 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 3 : 808:81

314 - Loc.cit

ولم تكن لهذا البلاغ نتيجة تذكر بالنسبة لسلا، أما مايتصل بتطوان، فإن القبطان جلس بين Giles Pen استطاع أن يجد له حلا، وأن يضع حدا للاعتداءآت التي كان القراصنة الانجليز يرتكبونها، وبذلك أصبح الاتصال مستمرا بين حاكم تطوان وشارل الأول، إذ يقول هذا الأخير في هذا الصدد : «... اننا قد أصدرنا الأوامر إلى تجارنا واذنا لهم في التردد على مرفئكم المذكور بسلعهم، وان يزاولوا هناك تجارتهم، مادامو ا يجدون عندكم أسواق ملائمة، ومعاملة حسنة لأشخاصهم، مما لاشك فيه أدنى شك...»[315].

*****

ركز هارسون في تقاريره التي بعث بها من تطوان على أربع نقط :

أولا : استعداد الأندلسيين للتعاون مع الانجليز ضد الاسبان. كتب إلى قائد الاسطول الانجليزي سنة 1625 يقول : «... إن المورسكيين الذين طردوا من اسبانيا قد سروا بهذه السفارة وهم في هذا الجزء من المغرب وفي فاس كثيرو العدد ولهم اعتقاد سابق ان لكم أعظم قوة حربية على استعداد دائما، وقد جعلهم اتياني يظنون ان ذلك لأجل العمل في هذه الناحية ضد الاسبان...

وان اقترحتم على ملك انجلترا مهاجمة سبتة أو أي مكان آخر قريب منهم فإنهم سوف يساعدون بعشرة آلاف مقاتل في البر ولن يعمل الانجليز الا في البحر وبقوة صغيرة...»[316].

ثانيا : امكانية احتلال الانجليز لسبتة والمعمورة وجبل طارق للاستحواذ بعد ذلك على اسبانيا كلها.

يذكر هارسون في هذا الصدد: «وفيما يخص احتلال سبتة فإن ذلك يقع موقعا مناسبا جدا لكل سفننا التجارية المتصلة بالمضيق لتتقوى هناك ولتكون مزودة بكل الضروريات من وقت لآخر من انجلترا، ولكوننا لنا هذه المدينة صديقة (تطوان)، واذا امتلك ملك انجلترا، جبل طارق فإنه سيتحكم في المضيق وبقية بلاد البربر التي تقع على تلك الشواطئ والتي احتلها الاسبان ولا تستطيع ان تعيش طويلا لاحتياجها إلى القمح ومواد أخرى من الذخائر... كما أني آمل ان تكون المعمورة أيضا في قبضة

---

315 -Loc.cit

316 - S.I.H.M. 1ère série. Angleterre, 2 : 573:582

الملك... حيث انه تسيطر على اسبانيا بواسطة البحر، وتكون ملجأ لسفننا في كل العمليات الواجب اتخاذها... فإذا وقع الاستيلاء على سبتة وجبل طارق فإني لا أشك في احتلال اسبانيا والبرتغال...»(317).

ثالثا : تكتل هؤلاء الأندلسيين انطلاقا من خلق محور سلا / تطوان لأجل الرجوع إلى الأندلس.

كتب هارسون ملاحظة يقول فيها «الأندلسيون هنا (تطوان) قد بعثوا إلى أصدقائهم في سلا وفي أماكن أخر يحرضونهم، وقد ترك أحدهم هذه الخطوط معي والمرفقة بالكتاب...»

أما الخطوط فهي «بفضل الله، المورسكيون والانجليز يسيطرون على اسبانيا، وبفضل الفرنسيين والصلبان، يقومون بطهي الأطعمة ويحطمون اسبانيا فيصبحون جميعا إخوة متعاونون... والله فوق الجميع ...»(318).

ومن مظاهر هذا التكتل أيضا العمل على مراقبة تحركات الاسبان خوفا من احباط محاولات الأندلسيين لتكتل ضدهم، فلما علم أندلسيو تطوان بأن فليب الرابع يعمل على مهاجمة مجاهدي سلا بحرا وبرا بعثوا رسالة إلى أندلسيي فاس في 20 شتنبر 1629 يقولون فيها : «...تواثرات الاخبار لدينا عنهم (الاسبان) أن طاغيتهم القائل الرأي الخائب السعي قد وسوست اليه أمنيته... فاحتفل في جميع عمارة (أسطول)... اشتملت الآن على ستة وستين غرابا دون السفائن التي بين الكبار والصغار... وهم الآن بمرسى مالقة - أعادها الله - ينتظرون ما يرد عليهم من أمهم من المدد...»(319).

وانتقلوا بعد ذلك إلى ذكر الهدف من الرسالة «... وليس يحتاج مثلكم ان يولج إلى تحريض على الجهاد، وحض على الجد فيه والاجتهاد... وقد عرفنا أهل الثغور، خصوصا أهل سلا ومن اليهم من الخاصة والجمهور، أما إخوانكم من هذا الثغر (تطوان) فعلى حال يسركم - إن شاء الله - قد بذلوا المجهود في الاستعداد، بلغوا المقدور في استجماع آلات الجهاد ...»(320).

---

317 - 315 -Loc.cit
318 - 315 -Loc.cit

319 - م. بن القاضي، ادبيات، 5 و - ظ
320 - نفس المصدر.

وكان جواب عدوة الأندلس[321] كالآتي: «... ها نحن بعد التأهب وأخذ الحذر طيرنا بالخبر في الآفاق، أجنحة الأوراق، وحملناه الركبان والرفاق، فانسوا من هنالكم من طوائف المجاهدين بانجاز الله لهم موعده نصره، وتبلج أفق الاسلام عن سناء بدره...»[322].

وعلى كل، فإن كل الدلائل كانت تدل على أن محور سلا / تطوان كان فعلا في طريق التكوين، وأن الاسبان كانوا متخوفين منه إلى حد كبير.

رابعا: التأكيد على ميل الأندلسيين للبروتستانتية في مواجهة الكاثولكيين الاسبان.

أكد هاريسون أنه في مقابلته للأندلسيين بتطوان تحقق لديه حبهم للبروتستانتية وبغضهم للكاثولكيين الاسبان، وأنه اتفق مع الأندلسيين على تحرير ثلاثة رسائل للتبشير بالبروتستانتية بين المسلمين واليهود والاسبان[323].

وقد تصدى الشيخ محمد داود (الأندلسي) لهارسون في ادعائه الأخير هذا قائلا: «... أن هذا السياسي الراهب الجاسوس، كثيرا ما يتهم أندلسيي المغرب بالحنين الى المسيحية والعطف عليها وتمنى دخولهم فيها الخ... وعمله هذا لايخرج عن كونه صادرا عن بلادة وغباوة في نفسه أو تدجيل وتضليل لحكومته، والذي نرى أنه كان قد وقع شيء ذلك ظاهريا، فانما هو ناشئ عن السياسة التي كان اولئك السياسيون المسلمون الأندلسيون يعاملون بها هذا الراهب الذي يظهر أنه كان يسره أن يسمع الثناء على الدين الذي يعمل لنشره والعقيدة التي يدعو إليها، لقد شعر أولئك السياسيون المرنون بنقطة الضعف في هذا المبعوث السياسي من دولته لخدمة مصالحها السياسية والاقتصادية وغير ذلك، فصاروا يضربون على وتره الحساس لاستجلاب عطفه، عسى أن يتمكنوا من حمل دولته على تأييدهم فيما كانوا يرغبون فيه من محاربة اعدائهم الذين حاربوهم في دينهم وطردهم من وطنهم...»[324].

وانتقل الشيخ بعد ذلك إلى ذكر الهدف من هذه السياسة قائلا: «لقد كان اولئك الأندلسيون يعملون بكل ما في وسعهم لاضعاف قوة الاسبانيين، واخراجهم من المراكز التي كانوا احتلوها بالمغرب، ثم العمل على تأليب الدول إلى الأندلس فيعود

321 - كانت المنافسة آنذاك على أشدها بين عدوتي القرويين والأندلس لذلك تلقى أندلسيوا تطوات جوابين عن رسالتهم السالفة.

322 - المصدر السابق، 8 ظ - 9 و.

323 - تقريرها رسون السالف الذكر.

324 - تاريخ تطوان، 226 1 - 227.

اولئك المهاجرون إلى وطنهم الذي عاشوا فيه كما عاش اجدادهم ما يزيد على ثمانمائة عام. وإذا كان لديهم حنين حقيقة فإنما هو إلى ذلك الوطن المحبوب لا إلى الديانة المسيحية التي منها ومن طغيان رجالها فروا إلى بلاد الاسلام شرقا وغربا...»[325]

وتعرض أخيرا إلى ما أورده الناصري في الاستقصا عن أندلسيي سلا: «وليت شعري كيف يتفق مع هذا ما جاء في كتاب الاستقصا من أن أندلسيي سلا... كانوا ناصحين للكفر وأهله الخ، ثم حاشا، ومعاذ الله ان ينصح للكفر وأهله، من ترك وطنه ووطن ابائه واجداده وأهله وأصحابه، وجميع ما يملك من متاع الحياة الدنيا، لا لشيء سوى أن يتمكن من المحافظة على دينه الاسلامي الحنيف، والعيش في وسط اسلامي يؤدي فيه شعائره الدينية بحرية ويعبد ربه حتى ياتيه اليقين ...»[326].

---

325 – المصدر السالف، ص 227.

326 – نفس المصدر والصفحة.

استخلاص

تلك هي تجربة الأندلسيين المهاجرين إلى المغرب، حاولوا من خلالها أن يتكتلوا، ويخلقوا كيانا خاصا، يستطيعون من خلاله أن يفرضوا وجودهم كقوة سياسية وعسكرية لها وزنها بالمنطقة لكن هذه التجربة آلت إلى فشل يمكن إرجاعه على الأقل إلى خمسة أسباب :

- وقوف السعديين في وجهة استقلال الأندلسيين عن سلطتهم، فحتى في فترة اعلان استقلال الأندلسيين (1627 - 1642) كان هناك ولاء اسمي للسلطان السعدي.

- وجود العياشي كقوة جهادية لها وزنها بالمنطقة، وتحفزه المستمر للانقضاض على الرباط والقصبة جعل هؤلاء المهاجرين يتوجهون إلى قوات مغربية (السلطان السعدي) أو أجنبية (الاسبان والانجليز) لحمايتهم.

- القبائل المغربية المجاورة لم تكن ترتاح كثيرا إلى هؤلاء إذ كانت تنعتهم (بنصارى قشتالة) وتتحين الفرصة للانقضاض عليهم، وبالتالي أصبح الأندلسيون محاطين بأعداء غير منتظرين.

-حذر الدول الأوروبية من التعامل مع الأندلسيين كسلطة شرعية إذ كانوا ينظرون إليهم كقراصنة يجب تصفيتهم ومراوغتهم، وفي أحيان كثيرة يحاولون التفاهم مع السلطان السعدي.

- السبب الأخير، وهو وليد جميع الأسباب السابقة : التفكير المستمر في الرجوع إلى اسبانيا، إذ أن وجودهم بالمغرب اعتبر دائما مرحلة مؤقتة، وظلوا ينتظرون باستمرار الظرف الملائم، وعلى كل فإن أخفق الوجود السياسي للأندلسيين بالمغرب فإن وجودهم الحضاري ظل مستمرا حتى أيام الناس هذه، وكون ما أصبحنا نسميه بالحضارة الأندلسية المغربية.

الباب الثالث

الحضارة الأندلسية المغربية

يقول ابن غالب : «ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد افريقية، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه، وغرسوا الأشجار، واحدثوا الارحي الطاحنة بالماء وغير ذلك، وعلموهم أشياء كثيرة لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها، فشرفت بلادهم وصلحت أمورهم وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات...

وأما أهل الحواضر فمالوا إلى الحواضر واستوطنوها، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة، ولا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد، وقطعوا معاشهم، وأخملوا أعمالهم، وصيروهم أتباعا لهم، ومتصرفين بين أيديهم، ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة، وافرغوا فيه أنواع الحذق والتجويد مايميلون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم...» [1].

يشير النص، من جهة، إلى الميادين التي ساهمت فيها الجالية الأندلسية بالمغرب: الميدان الاقتصادي - الميدان العلمي - الميدان الياسي - الميدان الاجتماعي.

ويشير، من جهة أخرى إلى أن هذا الاستقرار لم يقتصر على مناطق معينة، بل شمال العديد من مناطق المغرب سواء في البوادي أو الحواضر. لكنه يشير أيضا إلى أن مواجهة اجتماعية قد حدثت بالفعل بين المغربة وبعض أفراد هذه الجالية.

وسنحاول من خلال الفصلين الآتيين أن نعرض لذلك.

---

1 - أ. المقري، نفح 3 : 152.

الفصل الأول

ميادين المساهمة

ساهمت الجالية الأندلسية بالمغرب في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والعلمية والاجتماعية وسنحاول أن نعرض في هذا الفصل لنماذج من هذه المساهمة.

1

الميدان الاقتصادي

الفلاحة

ساهم الأندلسيون في تطوير بعض تقنيات الري بالمغرب، إذ ساهموا في هذا المجال في تركيب عدة نواعير، خاصة بفاس[2]، كما ساهم أندلسيو مراكش بمد عدة قنوات انطلاقا من نهر تانسيفت[3]، وقاموا باستغلال العديد من الضيعات الزراعية الممنوحة لهم من طرف الدولة[4].

وفي مجال المنتجات الزراعية نذكر اشتهار الأندلسيين بغرس أشجار الزيتون بأقطار المغرب العربي[5]، وتحسينهم لانتاج الخضر والفواكه، وكذا تربيتهم لدودة القز[6].

ولم يكتف الأندلسيون بالجانب العملي، بل اهتموا أيضا بالجانب النظري، فقد ألف محمد بن علي الشطيبي الأندلسي رسالة رتبها على ثمانية أبواب، اعتمد فيها على ماتقرر في كتب علماء الفلاحة الأندلسيين، أمثال ابن بصال، وابن وافد، ابن ليون التجيبي، كما اعتمد على تجاربه الشخصية لاستخلاص ما يلائم طبيعة البلاد المغربية[7].

الصناعة

يقول ابن سعيد: «... اختصت المرية ومالقة ومرسية بالوشي المذهب الذي يعجب من حسن صنعته أهل المشرق إذ رأوا منه شيئا، وفي تناوله من عمل مرسية

---

2 – الحسن الوزان، وصف افريقيا، 1 : 220.

3 - C.Marmol, l'Afrique, 2: 174

4 – ع . العزيز الفشتالي، مناهل، 42.

5– ناصر الدين السعيدوني، الجالية الأندلسية بالجزائر ، مقال بمجلة أوراق، مدريد، العدد الرابع ، 1981، ص 119.

6 – الحسن الوزان، المصدر السابق، 1: 171.

7 – انظر سعيد اعراب ، رسالة صنعة الفلاحة، مقال بمجلة دعوة الحق، السنة 13، عدد 1 ، نونبر 1969، ص 121 ومابعدها.

تعمل البسط من ثياب اللباس المحررة الصنف الذي يعرف بالملبد المختم ذو الألوان العجيبة، ويصنع في مرسة من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصفر والحديد من السكاكين والامقاص المذهبية وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد افريقية وغيرها.

ويصنع بها وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب، وفخار مزجج مذهب...»[8].

وقد حمل الأندلسيون معهم العديد من هذه الفنون بل وطوروها بالمغرب، إذ كانت لهم مناهج خاصة في دباغة الجلود، وصناعة الحرير والصوف، وقد أشار الحسن الوزان إلى أن تجار الأقمشة الصوفية بفاس كانوا كلهم أندلسيين[9]. كما أكد مارمول أن لباس سيدات فاس هو تقريبا نفس لباس موركسيات غرناطة[10]. ونذكر في هذا المجال أيضا صناعة الشاشية المستعملة إلى يومنا هذا. كما نذكر أيضا من جملة الصناعات التي حملها معهم الأندلسيون إلى المغرب «صندوق العروس» بالرباط وتطوان، وكان يصنع من عود العرعر الصلب في هيكل غاية في الكبر، لتجمع فيه العروس لباسها ورياشها[11].

ونص مارمول على أن عددا من الثريات الموجودة ببعض مساجد مدينة فاس من إبداع أندلسيي المدينة، إذ أنها مأخوذة من نواقيس الكنائس الاسبانية التي انتزعها هؤلاء منها، وحملوها معهم إليها[12].

وعرف ميدان البناء كذلك تطورا مهما أيضا، فطراز البناء الأندلسي لم يعد يقتصر على مدن الشمال، بل تخطى جبال الأطلس، ودخلت الفسيفساء ونقش الحجر والجبس والخشب والفستقيات المائية حتى الدور المتوسطة بعد أن استقر الصناع الأندلسيون بين تلك المدن. وقد لاحظ مارمول أن أحسن مدن المغرب هي المدن التي زينت وجملت بثروات المورسكيين[13].

---

8 – أ. المقري، المصدر السابق، 1 : 201 – 202.
9 – وصف افريقيا، 1 : 191.
10 - L'Afrique, 2: 193
11 – م. السائح، سوق المهر، المقدمة، ص
12 - L'Afrique, 2: 160
13 - L'Afrique, 2: 170

وبرع الأندلسيون أيضا في ميدان الصناعات المعدنية، فقد أكد كل من الحسن الوزان[14]، ومارمول[15] على أنهم كانوا يشرفون على صناعة الأسلحة والذخيرة بمدينة فاس.

ولم يكتف الأندلسيون بذلك، بل حملوا معهم تنظيماتهم إلى المغرب، فقد كانوا منتظمين في طوائف حرفية يسميها الحسن الوزان نقابات[16].

وعلى العموم فإن الأندلسيين قد ادخلوا العديد من الحرف إلى المغرب ووجدوا البيئة الملائمة لتطويرها وتصريفها: «... وقد ظهر في دولته (المنصور السعدي) الشريفة من العلم والحرف المهمة التي لم تكن قبل في المغرب أصلا...»[17].

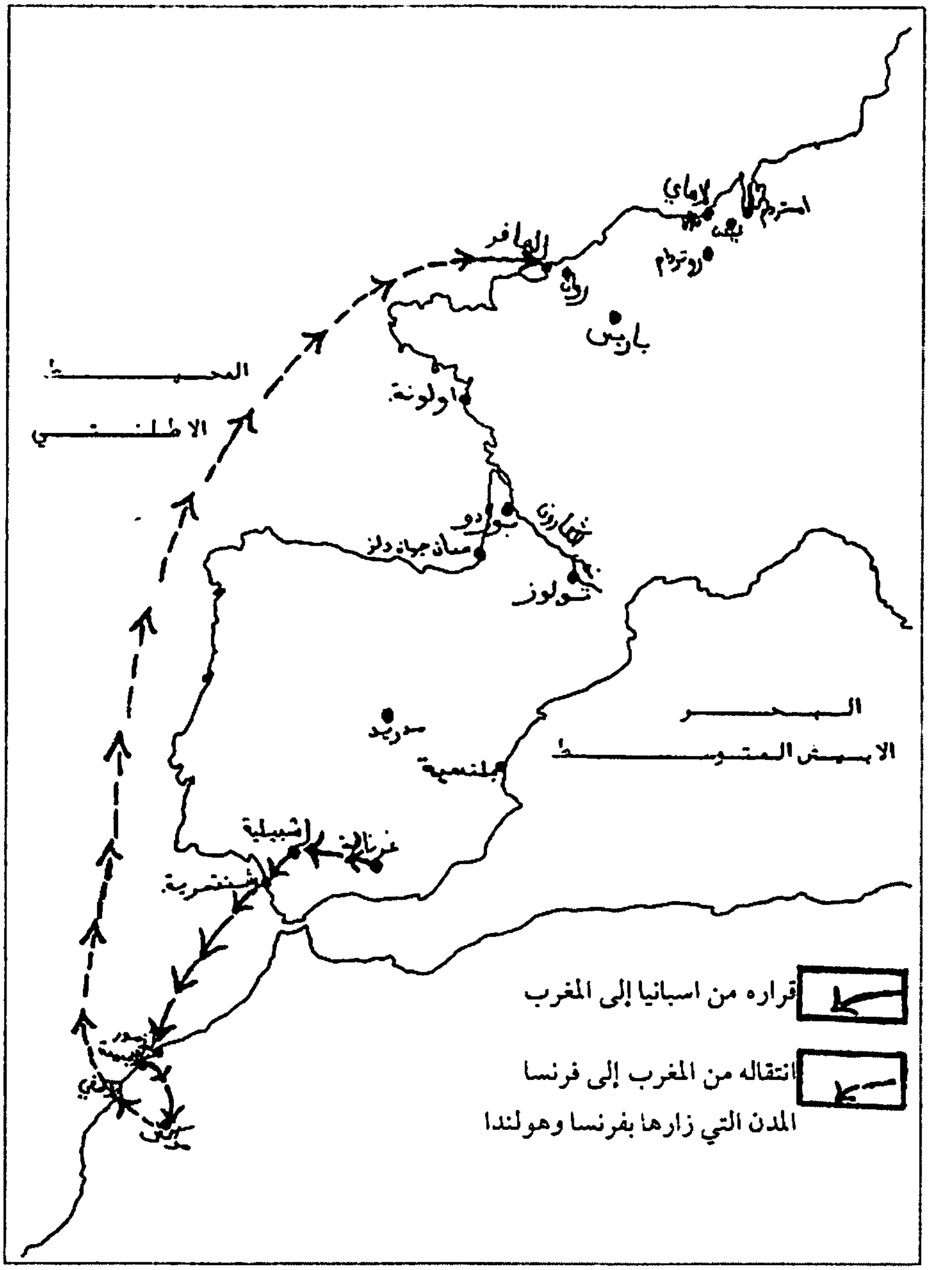
14 – وصف افريقيا، 1/ 191.

15 - L'Afrique, 2: 170

16 – وصف افريقيا، 1/ 184.

17 – أ. بن القاضي المنتقى، 1 : 250

تنقلات الشعاب الحجري



الميدان الإداري والدبلوماسي

لعب الأندلسيون دورا بارزا في الميدان الدبلوماسي، وذلك لتمرسهم بالمعاملات الدولية، ومعرفتهم باللغات الأوروبية، ولثراء بعضهم، فنافسوا بذلك اليهود الذين كانوا يحتكرون هذا الميدان، ومن أشهر السفارات التي اصطلعوا بها في العهد السعدي.

*- سفارة أحمد بن قاسم الحجري (1019هـ / 1610 - 1611) :

أثناء عملية طرد المورسكيين ونقل هؤلاء إلى المغرب وقع أن نهب هؤلاء من طرف بحارة فرنسيين، فقدموا شكوى إلى السلطان زيدان بهذا الشأن، وقد قرر تعيين وفد يرأسه الشهاب الحجري مصحوبا برسالة احتجاج إلى السلطات الفرنسية.

وفعلا خرج السفير من أسفي في سنة 1019 هـ ونزل بميناء هافر متجها نحو باريس، واتجه بعد ذلك إلى هولندا حيث زار امستردام، وليدن ولا هي، ومن هناك قفل راجعا إلى المغرب. غير أن نتائج سفارته هاته بقيت غير واضحة. إذ أننا لا ندري هل توفق في شأن استرجاع الأموال المنهوبة من المورسكيين أم لا ؟[18].

* - سفارة يوسف بسكيانو إلى هولندا (1624 - 1625) : غادر يوسف بسكيانو المغرب في 20 يوليوز 1624 مبعوثا من طرف السلطان زيدان متجها الى روتردام، وكان مصحوبا بحاشية مكونة من 6 أشخاص، من بينهم اليهودي يامين بن ريموك، المكلف بالاهتمام بالمسائل الشخصية للسلطان زيدان.

وقد كانت معمة السفير تتلخص في :

- تسديد دين كان على السلطان السعدي تأديته.
- الاحتجاج ضد تهريب الأسلحة الهولندية إلى المغرب.
- الاحتجاج ضد مناورات بعض التجار الهولنديين وعدم صدق معاملاتهم.

---

18 - انظر تفاصيل زيارته لفرنسا وهولندا في كتابه ناصر الدين، مواضع متفرقة.

- وأخيرا الاحتجاج ضد تصرفات السفير الهولندي نفسه بالمغرب.

وقد سويت بعض القضايا[19].

* - سفارة محمد بنيكاس Vanegas سنة 1629 إلى هولندا:

بعث به قائد قصبة الرباط محمد بن عبد القادر صيرون للتعبير عن النوايا الحسنة للمورسكيين تجاه الهولنديين. وقد تجاوب معهم، وطالبوا بحسن استقبال الهولنديين بالعدوتين، واطلاق سراح أسراهم[20].

*- سفارة ابراهيم الدك سنة 1659 إلى هولندا:

بعث الدلائيون بهذه السفارة إلى هولندا لأسباب يمكن تلخيصها في:

- تعديل معاهدة السلم والصداقة المبرمة بين الطرفين سنة 1657.

- دراسة حوادث قصبة الرباط وقضايا أخرى تهم الطرفين.

- استقدام طبيب للعيون للسلطان محمد الحاج الدلائي.

وقد سويت بعض هذه القضايا[21].

- في العهد العلوي:

اهتم السلطان مولاي اسماعيل بالجالية الأندلسية وبجهادها البحري الذي أصبح يشرف عليه، فلا غرابة أن نجد أن الكثير من علاقاته مع الدول الأوروبية تدور حول افتداء اسرى هذه الجالية، وهو لهذا الغرض لا يفتأ يذكر مخاطبيه بقضية الأندلس وما وقع فيها، ففي رسالة إلى دون كارلوس الثاني ملك اسبانيا حول قضية افتكاك مائة أسير مسيحي، يقول: «... وذكرونا (العلماء) في مسألة غدر أسلافكم بأهل غرناطة وغيرهم، وهي لما يزيد على الأربعين ألفا بعد تعدد الشروط على ستين شرطا، ولم يوفوا لهم بواحد منها، إلى غير ذلك من الغدر والمكر بأهل غرنانطة وغيرهم من أهل الأندلس، فكل بلد وقرية بعد بلد وقرية، فألفينا هم ما تكلموا لا بالحق...[22].

لذلك فقد كان شرطه: «ان تعطونا في الخمسين نصرانيا من هذه المائة خمسة آلاف كتاب... وتعطونا خمسة أسير من المسلمين في الخمسين الأخرى...»[23].

وقد كانت هذه الرسالة هي موضوع سفارة الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي إلى اسبانيا.

---

19 - J.Caillé, Ambassades et Missions Marocaines... bin, H.T Vol Fasc 1-2 1963. p 48

20 - J. Caillé, op.cit p. 58

21 - م. حجي الزاوية الدلائية، ص 197 ومابعدها.

22 - عبد الرحمان بن زيدان، اتحاف، 2: 63 - 64، المنزع اللطيف، 140.

23 - نفس المصدر والصفحة

* – سفارة الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني الأندلسي إلى اسبانيا عام 1102 هـ / 1690:

دون الغساني سفارته هاته في كتابه رحلة الوزير، في افتكاك الأسير، وقد اهتم في هذه الرحلة بما عاين بنفسه من بقايا المورسكيين في هذه الفترة المتأخرة رغم مرور أزيد من 80 سنة على قرار الطرد فهو يقول – مثلا – بالنسبة لمدينة سماها البريجة: «... وفيها انتسب لنا البعض إلى الأندلس بإشارة خفية لم يقدر على التصريح بغير كلام خفي، والغالب على جل سكانها أنهم من بقايا الأندلس إلا أن العهد طال عيهم وربوا في بحبوحة الكفر، فغلبت عليهم الشقاوة والعياذ بالله...»[24].

ويقول وهو بصدد الحديث عن بنتين : «... ولقد أخبرني بمدينة مدريد رجل يسمى ضون الونص حفيد موسى أخي السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة أن البنتين باطريرة من دمه، وضون هذا رجل حسن الأخلاق، حسن الثياب له قوة وشجاعة معروفة عند النصارى، وهو معدود من فرسانهم وشجعانهم... ومع هذا فهو مائل إلى من تلقاه من أهل الاسلام، ويذكر نسبه، ويعجبه ما سمعه من الحديث عن الاسلام وأهله...»[25].

ويقول عن مدينة أخرى انروخير: «والغالب أنهم من بقايا الأندلس وجلهم من أولاد السراج الذين كانوا انتصروا على السلطان أبي الحسن آخر ملوك غرناطة...»[26]. ويتحدث بعد ذلك عن وضعية هؤلاء المورسكيين قائلا : «... ان من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرث عمل الصليب على كتفه برقمه في ثوبه المتدثر به... والخطط يتولونها بقايا هذا الجنس المذكور هي الكتابة وحكمة البلدان والشرطة وغيرها مما ليست له وجاهة كبيرة وولاية شنيعة مثل التصرف في المجال أو الولاية للأقاليم الكبيرة والمدن والقواعد مثل اشبيلية وماشاكلها. وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثيرون لا يحصون، فمنهم من ينتسب، ومنهم من ينفر من سماعه الانتساب ذلك...»[27].

أما عن نتيجة هذه السفارة، فقد ذكر الاسبان للغساني أن الحريق الذي وقع بقصر الاسكوريال (مكان وجود الكتب العربية) قد أتى على سائر الكتب العربية، وأخذوه إلى هناك للتأكد من ذلك، واكتفى بالاتفاق على تحرير الاسرى.

---

24 – رحلة الوزير، 10.
25 – نفس المصدر والصفحة.
26 – المصدر السابق، 17.
27 – نفس المصدر والصفحة.

- سفارة عبد الله بن عائشة الأندلسي إلى فرنسا سنة 1698 :

مارس عبد الله بن عائشة الجهاد البحري بالعدوتين خاصة ضد السفن الفرنسية انطلاقا من سنة1672[28]، إلى أن اشتهر كقائد ماهر المجاهدي الرباط وسلا، مما سبب قيام مشاكل بين البلدين حول مشكل الاسرى، فاتجه المجاهد المذكور موفدا من قبل السلطان مولاي اسماعيل إلى باريس لمقابلة الملك لويس الرابع عشر وللتباحث في الموضوع، وقد توبعت المفاوضات حول الاسرى، لكن بدون نتيجة تذكر، مما اضطر معه إلى العودة إلى المغرب[29].

- سفارة أحمد بن أحمد قردناش الأندلسي إلى لندن سنة 1706 :

من أهم أهداف هذه السفارة طلب السلطان مولاي اسماعيل من الملكة الانجليزية أن تساعده على استعادة سبتة من الاسبان، ووردت تعليمات أخرى على قردناش من السلطان تقضي بأنه على استعداد لأمداد حامية جبل طارق باحتياجاتها التموينية في كل الأوقات، بيد أن جهود السفير انتكست بشدة نتيجة الأنباء التي وصلت إلى لندن عن قيام المجاهدين المغاربة بأسر مركبين انجليزيين وإرسال بحارتهم البالغ عددهم 55 بحارا إلى مكناس.

وقد رفضت الملكة آن عرض السلطان بالعمل ضد الاسبان، ووعدت بالعمل على تحسين العلاقات المغربية الاسبانية، كما سويت مسألة الاسرى[30].

وقد اهتم السلطان سيدي محمد بن عبد الله أيضا بالجهاد البحري خاصة ضد الاسبان[31]، إذ يقول أحمد الغزال في هذا الصدد: «... جد - أيده الله - في تهييء المراكب للجهاد، واجتهد وشحنها بالعدد والعدد، وحض عساكره المؤيدة بالله على

---

28 - انظر عن أعماله الجهادية البحرية :
R. Coindreau, op. cit pp. 70- 76

29 - انظر تفاصيل أخرى عن هذه السفارة عند :
جاك كيلي، السفارات والبعثات المغربية لفرنسا، مقال بمجلة تطوان، العدد السادس، 1961، ص 164 - 167، وابراهيم حركات ابن عائشة أمير البحر، مقال بمجلة دعوة الحق، العدد4، مارس 1961، ص126 - 129.

30 - انظر مزيدا من الايضاح عند ب . ج. روجز تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية، ص 114، 117.

31 - عن الجهاد في عهد السلطان محمد بن عبد الله، انظر :
أحمد بن المهدي الغزال، نتيجة الاجتهاد، ص 33ومابعدها.
م. بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف، 166- 169- 175- 176- 178.
عبد الرحمان بن زيدان، اتحاف : .265 - 256
Ramon Lourido, Transormacion de la Pirateria Marroqui en Guerra del Corso por El SaltanSidi Muhamad Ben. Abdallah.
in H.T Vol X. Fasc 1-2 1969, pp. 39 - 69

حضور النية على القتال لتكون كلمة الله هي العليا... وقد ضيقوا بالعدو الكافر، البر والبحر، حتى صاروا قذى في عيون المشركين...» [32].

وقد كان كل طرف يحتفظ بعدد كبير من أسرى الطرف الآخر، مما جعل كلا الطرفين يعمل على تحرير أسراه.

وكان الاسرى المغاربة باسبانيا قد كتبوا إلى السلطان رسالة يشتكون فيها مما أصابهم من التعسف والاهانة، فبادر السلطان إلى الكتابة إلى كارلوص الثالث ليثير انتباهه إلى اهتمامه بالموضوع [33]، وقرر أن يرسل إليه بعثة للتباحث في الموضوع، ومما يجب تسجيله أن السلطان اختار أول الأمر لبعثته خاله عمارة بن موسى، ومحمد بن ناصر ومعهما الغزال بصفته كاتبا للبعثة، لكن ما أن خرج الوفد مسافة معينة حتى بادر الغزال إلى الكتابة إلى السلطان مخبرا إياه بأن الشخصين المذكورين لا يعرفان شيئا عن قوانين النصارى وعاداتهم، وانه يخشى أن يكون ذلك عائقا في طريق السفارة [34]. وفعلا فقد استجاب له السلطان ووضعه على رأس البعثة وخلع عليه رتبة سفير، فهذا يدل بالفعل أن الجالية الأندلسية بالمغرب كانت هذا الميدان ميدانها.

- سفارة أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي المالقي الى اسبانيا (1766 - 1767) : نجحت سفارة الغزال نجاحا كبيرا، إذ اسفرت عن اطلاق سراح الاسرى المغاربة والعمل على تحسين حالة بقية الاسرى المسلمين، كما أدت إلى تقارب بين البلدين، توج بمعاهدة بين الطرفين في مايو سنة 1767، وكان تحرير نصوص هذه المعاهدة على يد الغزال. وقد دون المبعوث الأندلسي رحلته في كتابه نتيجة الاجتهاد، في المهادنة والجهاد. واعتنى في رحلته بتسجيل ما سبق للغساني أن سجله عن بقايا المورسكيين باسبانيا، فقد ذكر وهو بصدد الحديث عن لافرنكا Villafranca، وبلا صيوص Valacios من أعمال اشبيلية قائلا: «... ولامرية في انهما من بقايا الأندلس، وقد التقينا برجل من طلبة المدينتين اسمه بلاشكو، وهو من أعيان العدول عندهم، وقد أظهر من الميل إلينا ما غلب على الظن أنه مسلم، وصار يشير بإشارة خفية، ويكثر من الالتفات حال مخاطبته إيانا، ولم يستطع التصريح بما في باطن الأمر...» [35]. وذكر أيضا وهو بصدد الحديث عن أهل أوطريرة Utrera (من أعمال اشبيلية أيضا) : «ودمهم دم العرب، واخلاقهم مباينة لاخلاق العجم، وميلهم للمسلمين، وتجنبهم

---

32 - نتيجة الاجتهاد، ص 34 - 35.
33 - المصدر السابق، ص 39 - 40.
34 - أ. الناصري، الاستقصا، 8 : 24.
35 - نتيجة الاجتهاد، 72.

للجنس، واسفهم عند التشييع يقطع أنهم من بقايا الأندلس، وقد طال عليهم العهد، وربوا في بحبوحة الكفر والعياذ بالله... والكثير من القابهم موجودة عندنا في الاسلام، كغبريرة وقرطناش وبريشة، وارميرو، وافريكو، واللمب وأولاد خويا، وخيرون، وراغون، وبائص ومنضوصه، وغير ذلك...» [36].

وقد سجل محمد بن عثمان المكناسي نفس الملاحظات عندما بعثه السلطان الى اسبانيا سنة 1193هـ 1779 في شأن افتكاك الاسرى، إذ كتب يقول وهو بصدد الحديث عن غرناطة: «وبهذه المدينة من بقايا الأندلس شيء كثير، فمنهم من ينتسب ومنهم من لا ينتسب، وقد تعرف الينا أحد أصحاب الشرطة ممن له غلطة وتجبر، وقد رأيت فيه ظلما كثيرا يضرب النصارى ويشتمهم، وقد أتانا ذات يوم، فقال أني من المسلمين وانما جعلت هذه الخطة بيدي سببا للوصول إلى اذاية هؤلاء الكفرة، وأنا من أولاد صيرون ...» [37].

وقال أيضا أثناء الحديث عن أحد أعيان مدينة لوخة «... ففرح بدخولنا إلى داره فرحا كثيرا وقال أنا من أولاد راغون وأنا محب في المسلمين، فقلت له إن إخوانكم عندنا في بلدنا من خيار الناس، فهلا قدمت عليهم، فقال أقدم - إن شاء الله - لرؤية البلد بقصد التجارة...» [38]

وتتعدد بعثات الأندلسيين كذلك إلى فرنسا للأغراض نفسها، نذكر على سبيل المثال:

- بعثة على بيريس (1772 - 1773).
- بعثة عبد الله سكالانطي (1774 - 1775).
- بعثة عبد الطاهر فنيش (1777 - 1778).
- بعثة الحاج العربي مورينو (1786) [39].

---

36 - المصدر السابق، 73.

37 - الاكسير في فكاك الاسير، 183.

38 - المصدر السابق ، 184.

39 - انظر تفاصيل عن هذه البعثات عند جاك كايي، المصدر السابق، 169 - 175.

3

في الميدان العلمي

كانت مساهمة الجالية الأندلسية بالمغرب بارزة أيضا في الميدان العلمي، فقد برزوا في ميدان العلوم التجريبية والبحتة كما ساهموا في ميدان الترجمة، وبفضلهم دخلت عدة مصطلحات تقنية إلى اللغة العربية، وسوف نعطي نماذج لذلك.

العلوم التجريبية : الطب الصيدلة

ظلت الأندلس المسلمة حتى آخر عهودها محتفظة بتعاليم الأطباء : الزهراوي، القرطبي، وابن البيطار المالقي، وآل ابن زهر الاشبليين[40].

وحمل الأندلسيون من ذلك ما أحيي دماء الدراسات الطبية والصيدلية بالمغرب، وبخاصة في فاس ومراكش، وقد قرب الملوك السعديون الاطباء الأندلسيين، واتخذوا من بينهم طبيب القصر الخاص، واغدقوا عليهم من الصلات، والمكافآت ما شجعهم على النشاط في علاج المرضى، وصنع الأدوية وتأليف الكتب[41].

ومن هؤلاء :

- أبو القاسم الوزير بن محمد الغساني (ت 109/1610) :

عميد الاطباء والصيادلة في عصره، وقد أخذ عنه جماعة من الطلبة ودرسوا مؤلفاته، قال في حقه المقري:«... تفرد - حفظه الله - بعلم الطب بالحضرتين، وشارك في سائر العلوم...»[42].

من مؤلفاته :

حديقة الازهار في شرح ماهية العشب والعقار[43] : معجم نباتي، قال في حقه المقري: «كتاب في بابه لم يؤلق مثله، يذكر سائر الاعشاب والعقاقير بما سميت به في

40 - انظر وصفا لمؤلفاتهم عند م. العربي الخطابي، فهارس الخزانة الحسنية، المجلد الثاني، (الطب والصيدلة والبيطرة)، مواضع متفرقة.

41 - م. حجي، الحركة 1 : 67.

42 - روضة الآس، 217.

43 - حققه اخيرا (1985) محمد العربي الخطابي.

الكتب، ثم يذكر اسمها بلسان عامة الوقت، ثم يذكر خواصها على وجه عجيب، واسلوب غريب...»[44].

- مختصر حديقة الازهار[45]، اقتصر فيه على مايحتاج الطلبة.

- تفسير بعض الاعشاب والعقاقير مقتطف من كتاب ريحانة الجيوب، في العقاقير والعشوب[46]، وهو معجم طبي ثالث مرتب على حروف المعجم أيضا.

- الروض المكنون، في شرح رجز ابن عزرون[47]، الفه برسم خزانة ولي العهد محمد المامون عام 999 هـ / 1586 شارحا به رجز هارون بن اسحاق ابن عزرون في الحميات والاورام وهو ذيل لأرجوزة ابن سينا الطبية.

على بن ابراهيم الأندلسي (ت. حوالي 1065 هـ 1655) : مهر في الطب كسابقه، فباشر العلاج والتعليم، ونظم الأراجيز في طرق التغذية النافعة ومداوة بعض الأمراض وقد اهدى منظوماته إلى السلطان الوليد ابن زيدان (ت. 1045 / 1636).

من مؤلفاته :

- ارجوزة في الفواكه الصيفية[48]، وهي في نحو 300 بيتا، ذكر فيها 23 نوعا من الفواكه المعروفة بالمغرب آنذاك منبها على طبائعها وفوائدها ومحاذيرها.

- أرجوزة علاج العيون[49]، وصف فيها 23 نوعا من العقاقير الناجحة في مختلف أورام العيون.

- أرجوزة ثالثة في الأعشاب وخواصها في شفاء الأمراض[50]، رتبها على حروف المعجم.

ومن الأطباء الأندلسيين في عهد السلطان مولاي اسماعيل نذكر طبيبه الخاص الحاج عبد الواحد ابن محمد غريط الأندلسي[51].

---

44 - روضة الآس، 217.

45 - مخطوطاته متعددة من بينها مخطوطات خ. ع. بالرباط أرقام 760 د، 359 ج، وخ. ح بالرباط رقم 1063.

46 - مخطوط خ. ع. بالرباط رقم 1121 د، ضمن مجموع، ورقة 140 - 154.

47 - انظر وصف للمخطوط عند م. العربي الخطابي المصدر السابق، 118.

48 - مخطوط خ. ح بالرباط عدد 6499، وانظر وصفا لها عند م. العربي الخطابي، المصدر السابق، 206.

49 - مخطوط خ. ح. بالرباط عدد 515، وانظر وصفها لها عند م. العربي الخطابي، المصدر السابق، 206.

50 - العباس بن ابراهيم الاعلام، 9 : 222.

51 - ع. الرحمان بن زيدان، المنزع اللطيف، 203.

وهناك نوع آخر من (العلاج) حمله معهم المورسكيون إلى المغرب، فقد ذكر الشهاب الحجري في هذا الصدد: «... ومما منى (كذا) علي به (الله) أن شفي لي مرض بالنشر فقط والرق بآيات من القرآن العزيز... من ذلك أن مملوكة سودانية اسمها مباركة كانت بدارنا بمراكش... في جسدها البرص الكثير، وهو في زيادة... فكتبت السورة كلها في إناء لم يدخلها طعام، ومحوت الحروف بماء نقي واعطيت الماء للمبروصة وشربته، ولكن أخذت من الماء شيئا، ونشرت أو وضعت على مواضع البرص، ومن ذلك اليوم بدأت كل لمعة تصغر على قدرها... وبداها الشفا من ذلك اليوم إلى ثمانية أشهر ولم يعد إليها إلى أن جازت نحو العشر سنين وماتت، وهذا من العجب، إذ ليس فيي هذا العلاج شيء من العقاقير، ولا من الادوية التي تعالج بها الأمراض، إنما ذلك شيء من زعفران محلولا في قليل ماء ورد، لتظهر الحروف فقط... »[52].

ويقول في مكان آخر: «... ومن نعم الله تعالى علي بأسمائه الحسنى ان امرأة كانت بها ثلاث علل، كان ظهر يدها واصابعها بها ثالول كثيرة، فكتبت جدولا مثمنا حرفيا، اذكر فيه اسمين من أسماء الله الحسنى، بارد مصور، ومزجته بكلام بيت من الضمياطي (كذا)... وجعلته عليها. وفي نحو الستت (كذا) أيام لم يبق في يدها اثر للثالول، وشفاها الله من العلة الأخرى، ومن الثالثة نقص من دائما... »[53].

اننا نستطيع تفسير ذلك، إذ مارجعنا إلى بلدهم الأصلي نفسه، وكيف كانوا يمارسون (مهنتهم تلك).

نشير أولا إلى أن هناك نوعين من الطب، طب علمي وعلاج تمتزج فيه الشعودة والسحر.

ففيما يتعلق بالنوع الأول نجد هناك عددا من الأطباء المورسكيين المشهورين لدى مواطينهم، وكانوا يمارسون مهمتهم بناء على قواعد علمية، فقد صرح الأطباء المورسكيون الذين وقع استجوابهم من طرف محاكم التفتيش بأنهم يملكون ثقافة علمية تنتسب إلى قواعد الطب العربي، كما شهد بذلك في سنة 1583 فليب كيناس Filipe Guinacet[54]، وكانوا يقومون بعمليات جراحية، إذ عثر في هذا الشأن على عدد من أدوات الجراحة،

52 - ناصر الدين، 124.

53 - المصدر السابق، 129.

54 - جاكلين فورنيل، «الصيدلة المورسكية وممارسة الطب لدى المجموعة المورسكية» مقال بالمجلة التاريخية المغربية تونس، العددان 15 - 16، السنة السادسة، يوليوز 1979، ص 56.

وعلى عدد من التآليف المتعلقة بفن الجراحة[55]، لكن حورب هؤلاء أيضا من طرف محاكم التفتيش وسنتعرض لذلك فيما بعد.

وكان هناك أيضا نوع آخر من العلاج - وهو الغالب، خاصة في الأوساط الريفية - ممزوج بالسحر والشعوذة. ففي خلال قضية بدور الكاسو Pedro El Gaco ذكر الشهود المورسكيون أمام محكمة التفتيش «بأن المتهم كان يقرأ كتبا عربية، ويقوم بتعاويذ وأشياء أخرى، وذلك لاكتشاف السرقات والكنوز وعلاج المرضى، وكان أيضا فقيها ...» [56].

كما اعترفت مورسكية أمام محكمة التفتيش بأن مورسكيا قدم لها ورقة مكتوبة بأحرف عربية قائلا لها بأن ذلك نافع جدا لأوجاع الرأس، وقد صدقته ووضعت ذلك في قميصها[57].

هناك عدة أسئلة يمكن طرحها بالنسبة للطب المورسكي: لماذا حارب الاسبان الأطباء المورسكيين، خاصة إذا علمنا على أنهم لم يكونوا يقلون قدرة وكفاءة عن الأطباء الاسبان؟ لماذا رفض المورسكيون الاتجاه إلى الأطباء الاسبان؟ كيف وجد بعض (المعالجين) طريقهم إلى الاستحواذ على عقول المورسكيين بالسحر والشعوذة؟

هذه الأسئلة في الحقيقة مترابطة.

فقد حارب الاسبان الأطباء المورسكيين، لأنهم كانوا دائما محل شك من طرف محاكم التفتيش، نتيجة قتلهم لمرضاهم المسيحيين، فقد قتل الطبيب المورسكي لويس كومور Luis Comor أكثر من عشرين مريضا من رجال الدين[58]. ولم يكتفوا بذلك، بل كانوا يقومون بتصفية المتعاونين من المورسكيين مع محاكم التفتيش، أو المرضى المشكوك فيهم[59]، مما أدى بالعديد من هؤلاء إلى ممارسة مهنتهم سرا.

وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الطب المورسكي يأخذ طريقة نحو التدهور، ويفسح المجال للنوع الذي لا يحتاج إلى إمكانيات مادية كبيرة، ولا إلى معارف طبية محددة، ورغم إدراك كثير من المورسكيين ما في هذا (العلاج) من سحر وشعوذة، فإنهم مع ذلك كانوا يتجهون إليه، ويرفضون بتاتا الذهاب إلى الطبيب الاسباني، لسبب

55 - جاكلين فورنيل، المصدر السابق، 52.
56 - جاكلين فورنيل، المصدر السابق، 52.
57 - المصدر السابق، 57.
58 - المصدر السابق، 50.
59 - المصدر السابق، 53.

واضح، وهو أنه يدخل في إطار المواجهة الدينية والحضارية التي كانت قائمة آنذاك بين الموركسيين والاسبان، خاصة إذ أن علمنا أن الطب الاسباني آنذاك كانت تشرف عليه الكنيسة، وكثيرا ما يصاحب العلاج طقوس مسيحية يرفضها الموركسيون تماما.

وأصبحت تشكل هذه المواجهة جزءا من تراثهم، وعندما طردوا من بلدهم، حملوا معهم هذا التراث، حتى وإن اختفت الأسباب.

علوم بحتة :

برع الأندلسيون أيضا في ميدان الرياضيات والهندسية، والفلك وظلوا لمدة طويلة أساتذة تلك العلوم، ونذكر في هذا المجال من بين مؤلفاتهم :

- شرح أحمد بن معيوب الأندلسي لكتاب اليسارة في تعديل السيارة (لابن البناء المراكشي)[60].

- شهور العرب[61]، لنفس المؤلف، وهي رسالة مختصرة في بيان دخول الشهور العربية بالحساب.

- لطيفة الرسائل في العمل بالربع[62]، للشيخ محمد بن أحمد الأندلسي الصحري.

وضع المؤلف هذه الرسالة للسلطان أحمد المنصور الذهبي، وهي تشتمل على مقدمة وثلاثين بابا.

- ارشاد السائل إلى معرفة جهة القبلة بالدلائل[63]، لمحمد بن عبد العزيز الأندلسي (كرضيل، وقد كان حيا عام 1113هـ / 1701).

- رسالة في العمل بالربع[64] لنفس المؤلف.

- شرح رجز في منازل القمر[65]، له أيضا.

الترجمة :

برز الأندلسيون في هذا الميدان أيضا، إذ كان يرجع إليهم في ترجمة المعاهدات والمراسلات الرسمية، ووجد من بينهم علماء نقلوا إلى اللغة العربية كتبا اسبانية في

---

60 - م. الافراني، صفوة، 104.

61 - م. العربي الخطابي، فهارس الخزانة الحسنية، المجلد الثالث، 322.

62 - المصدر السابق، 332.

63 - المصدر السابق، 130.

64 - المصدر السابق، 244.

65 - المصدر السابق، 300.

الطب والصيدلة والفلك، والفنون الحربية ونشير إلى أن الترجمة بالنسبة لهم لم تكن مجرد عمل لتحقيق هدف معرفي، بل تتجاوز ذلك بكثير فهي مرتبطة أساسا بشيئين:

- إنها جزء من جهادهم ضد الاسبان، فالطب والصيدلة لعلاج المسلمين وتقويتهم ضد الأعداء، والفلك لمعرفة أوقات الصلاة والشهور، والمدفعية لتقوية أسلحة المجاهدين.

- وهي مرتبطة من جهة ثانية بقدسية اللغة العربية بالنسبة لهم، لأن هذه الأخيرة تؤدي مباشرة «إلى ذكر الله» في حين أن العجمية تؤدي مباشرة «إلى ذكر الشيطان»، ولذلك فإنهم كانوا كثيرا ما يحجمون عن ترجمة الكتب العربية للموركسيين الذين لايعرفون اللغة العربية، فقد ذكر الشهاب الحجري، وهو بصدد الحديث عن الكتب العربية التي تحذر من اليهود:

وأيضا في كتاب نسيت اسم مؤلفة من كتب المسلمين طلب مني واحد من فقهاء الأندلس أن أترجمه له بالعجمية من العربي بسلا بالمغرب، ذكر فيه من غش اليهود شيئا كثيرا...»[66].

ويقول في مكان آخر: «... وكل لسان مختلف عن غيره، وهذه العربة واحدة في الدنيا. وقالوا الحق في ذلك فهو كلام مبارك ومن يتكلم بها لا بد يذكر الله، ولذلك كان يقول بعض من الأندلس: لا عربية بلا اله، ولا عجمية بلا شيطان، لأن النصارى يذكرونه في كلامهم، ولا يكره العربية والكلام بها إلا من لا يعرف فضلها وبركتها...»[67].

وسوف نعطي نماذج لهؤلاء:

(*) أحمد بن قاسم الحجري:

عميد المترجمين بالمغرب في عصره، اشتغل بالترجمة وهو باسبانيا، إلى أن اشتهر أمره بها، وذلك بمناسبة تمكنه من ترجمة رق مكتوب بالعربية وجد بصومعة قديمة قرب غرناطة[68]، إذ يذكر في هذا الصدد: «...ففرح القسيس (قس غرناطة) فرحا عظيما بما ترجمت، وعلم أنه الحق، وأعطاني ثلاثمائة ريالا وأيضا كتابا بالاذن للترجمة من العربي إلى العجمي وبالعكس، وامتد الخبر عند النصارى، حين كانوا

---

66 - ناصر الدين، 94

67 - المصدر السابق، 102.

68 - انظر تفاصيل في المصدر السابق، ص 7 وما بعدها.

يشيرون إلي ويقولون : هذا هو الذي فهم الرق الذي وجد في الصومعة...»[69].
وانتقل بعد ذلك إلى المغرب ليقوم بنفس الدور :

«... كنت ترجمان السلطان زيدان... سنين عديدة، وكاتب سره باللسان العجمي، وكذا ترجمت للسلطانين أولاده (عبد الملك والوليد)...»[70].

أعماله :

- ترجمة كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع[71] :

وهنا تبرز الملاحظة التي سبق أن أبديناها في صدر هذه النقطة، والمتعلقة بالترجمة، إذ يقول حول سبب ترجمة الكتاب: «... ولما طالعت الكتاب العجمي الذي كتبه الريس مؤلفه (إبراهيم المرباش) بخط يده ورأيت نيته الصالحة أن الكتاب يكون فيه نفعا للمسلمين وعونا لهم على الكفار المشركين... فعزمت على تعريبه...»[72].

وينطلق بعد ذلك إلى المشاكل التي اعترضته بالنسبة للترجمة: «... وبعد أن اشتغلت بعض الأيام بترجمة الكتاب وتوقفت من أجل أسماء المدافع، وما يتعلق بها لأنها لم تعرف لها أسماء عربية...»[73].

وينتقل أخيرا إلى الحل الذي ارتآه لذلك، ومنهجه في الترجمة: «... وكنت إذا تشكل علي شيء من الكتاب نسأل الريس مؤلفه ويبين لي في الحين بيانا شافيا كل ما نسأله عليه، وعلمت أن كل ماذكر وكتب هو عنده بالقول وبالفعل، ومن الكمال للمترجم الذي يترجم من لغة إلى أخرى أن يعرف ما يترجم ومعناه إن أمكنه...»[74].

ونشير إلى أن هذه الترجمة كانت معروفة بالمغرب، فقد وقف عليها أبو زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي (ت. 1096هـ/ 1685). ونقل عليها أواخر شرحه على النظم الذي وضعه في العمليات الفاسية، وذلك لما تعرض لمسألة عمل الرصاص في الذكاة[75].

---

69 - المصدر السابق، 11.
70 - العز والمنافع، 245.
71 - مخطوطاته متعددة، أحسنها مخطوطة خ. ع. بالرباط عدد 87ج، وعليها تعليقات في الهوامش بخط المؤلف انظر وصفا للكتاب عند م. المنوني ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، مقال بجملة دعوة الحق، العدد 3، السنة 10، يناير 1967، ص 81 - 85.
72 - العز والمنافع، 245.
73 - المصدر السابق، 249.
74 - نفس المصدر والصفحة
75 - م. المنوني، المصدر السابق، ص 85.

- ترجمة رسالة زيج زكوط [76].

ألف هذه الرسالة الاسرائيلي ابراهيم السلمنقي بالعبرية (عام 877هـ / 1472م)، ثم نقلت إلى اللاتينية، ومنها إلى الاسبانية، وعن هذه اللغة نقلها الشهاب الحجري، إذ يذكر عن هذه الترجمة: «... وكنت يوما بمدينة مراكش جالسا أترجم رسالة باللطين تتكلم عن الكورة (كذا) الارضية والفلكية، والكرتان الكبيرتان، كل واحدة في كرسي مرسوم في السماوية، النجوم الثوابت والبروج والفلك، والصور المعروفة عند المنجمين بأسمائها، وكذلك في الأرضية كل مدينة معروفة في الدنيا، والأقطار والبلدان والأقاليم، وكل بلد باسمه، مكتوب عليه، والأبحر والأنهار. كان قد أمرني السلطان مولاي زيدان - رحمه الله - بترجمة ذلك (كذا) الرسالة، قلت هي بلغت (كذا) اللطين، ولا نعرفها. قال: من يعرف اللطين؟ قلت أسير راهب من أسارى المقام العلي، قال: يقعد معك، وكنا في دار السلطان نترجم ذلك والراهب معي...» [77].

ورغم أن هذا الزيج وضع بحسب طول مدينة سلمنقة فإن المغاربة أقبلوا عليه حين عرب بعد أن كانوا يعتمدون زيج ابن البناء المراكشي، لأن زيج زكوط لايحتاج لكثرة العمليات التي يتطلبها زيج ابن البناء [78].

- ترجمة فصول من الانجيل والتوراة:

اضطر الشهاب الحجري إلى ترجمة فصول من الانجيل والتوراة، وذلك لاطلاع المسلمين على زيف ادعاءات المسيحيين [79].

(*) الانجيل: ترجم عدة فصول مطولة منه، وهذا نموذج منها:

«الباب الثامن من إنجيل متى: قال سيدنا - عليه السلام - للحواريين: فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالك الصالحة، ويمجدوا أباكم الذي في السموات وقال في الفصل التاسع: أحسنوا إلى من أبغضكم، صلوا من يطردكم ويغتصبكم لكيما تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماء، فهو كامل...» [80].

---

76 - مخطوط خ. ح بالرباط عدد 1433، ضمن مجموع، وانظر وصف لها عند، م. المنوني، المصدر السابق، 85 - 88.

77 - ناصر الدين، 126.

78 - م. المنوني، المصدر السابق، 87، وم. حجي، الحركة، 1 : 163

79 - سنتعرض إلى هذه النقطة عند تعرضنا للجدال الديني

80 - المصدر السابق، 67 - 68.

قال متى في الفصل الرابع والعشرين، قال عيسى: انظروا لا يضلكم أحد، لأن كثيرين يأتون باسمي ويقولون: أنا هو عيسى، ويصلون ويخدعون كثيرا...»[81].

قال متى في الباب السابع والثمانين: وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزا، شكر وكبر، وأعطى تلامذه قال: خذوا، كلو، هو جسدي، وأخذ كأسا، وشكر، وأعطاهم، وقال: اشربوا من هذا كلكم، لأن هذا هو دمي، العهد الجديد الذي يصرف عنه كثيرا لمغفرة الخطايا، وأقول لكم: لا أشرب عصير هذه الكرمة حتى إلى ذلك اليوم الذي أشربه معكم جددا في ملكوت أبي. وأيضا قال مرقش في باب ستت (كذ) وأربعين: الحق أقول لكم اني لا أشرب عصير هذه الكرمة إلى ذلك اليوم حين نشربه جديدا في ملكوت الله...»[82].

(*) التوراة:

يقال في الكتاب الثاني المسمى الاشظ في الاب العشرين منه: «قال سيدنا موسى - عليه السلام - إن الله أمره أن ينزلكم جبل الطور، وأن يقول عن الله تعالى لبني إسرائيل: إن إلهكم أخرجكم مصر من ديار الأسر، لاتتخذوا إلها غيري، ولا تعملوا صورا من صور السماء العلية، ولا من صور الأرض، ولا من تحت الأرض، ولاتسجدوا لها، ولاتعبدوها، إني إلهكم غيور، ولا تحلف حانثا»[83].

الباب العشرون من الكتاب الثاني للسلاطين: قال: إن السلطان حزكيه مرض بمرض الموت، وجاء إليه النبي يشيعه ابن النبي مزو، قال: إن الله أرسلني إلى دارك، إنك تموت ولا تعيش، فدعا وبكى بكاء شديدا، ثم ثاب إلى الله ثوبة صادقة، ثم بعث الله النبي يشيعه: ارجع إلى سلطان بلادي، وقل له: رأيت بكاءك، وقبلت دعاءك، وفي ثالث يوم يأتي إلى بيتي ونزيد في عمره خمس عشرة سنة، وننجيه من سلطان شوم، ونحفظ هذه المدينة...»[84].

- ترجمة قرار طرد المورسكيين من اسبانيا[85]:

ترجم الشهاب الحجري هذا القرار للسلطان زيدان بعد صدوره.

وفيما يلي نماذج من هذه الترجمة بعد مقارنتها بالنص الاسباني الأصلي.

---

81 - المصدر السابق، 47.
82 - المصدر السابق، 67 - 68
83 - المصدر السابق، 61.
84 - المصدر السابق، 78.
85 - أصدر فليب الثالث هذا القرار إلى نائبه ببلنسية في 22 شتنبر 1609.
وقد وردت ترجمة عند الشهاب الحجري في كتابه ناصر الدين، 106 - 109.
وانظر النص الاسباني عند: M.G Arena, los moriscos, pp. 251 -255

الفقرة الأولى

النص العربي

لقد علمت ما صنع، وعمل النصارى الجدود (كذا) الأندلس أهل تلك السلطنة، وقشتالة، على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض والارشاد لإثباتهم في ديننا المجيد وإيماننا. ولا نفع معهم قليلا ولا كثيرا، لا، لم يجد (كذا) فيهم واحد من هو نصراني حقيقة. والغرر والشر الذي يمكن أن يحدث بسبب ما تعامينا عليهم، قد ذكره إلينا رجال علماء وصلحاء...

النص الاسباني

Entendido tenemos lo que portan largo discurso de anos he procurado le conuersion de los moriscos de ese Reynos, y del de Castilla, y los Editos de gracia que se les concedieron, y las diligencias que se han hecho para instruyellos en nuestra santa Fee, lo poco qui toda ella ha aproue chado, pues se ha visto qui ninguno se aya convertido, antes he crecido su obstenacion. y aunque el peligro, y irreparables danos que de dissimular con ellas podria suceder, se me represento dias ha por muchos y muy doctos y suntos hombres...

الفقرة الثانية

النص العربي

ونحن في هذا تحققنا، وصح من وجوه، أنهم بعثوا للتركي الكبير باصطنبول ومولاي زيدان بمراكش، رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم، وأنهم عندهم مائة وخمسون ألفا رجلا مسلمون (كذا)، مثل الذين ببلاد المغرب الافريقية، وأيضا بعثوا لأعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب، وأنعموا (كذا) انهم يعينهم بسفونهم (كذا).

وأما سلطان اصطمبول فقد اصطلح مع سلطان الفرس، لأنه كان يشغله. وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها، وإذا اتفقوا جميعا مع هؤلاء نروا (كذا) نفوسنا في الأمر الذي لا يخفي. وللقيام بما لزمنا من حفظ مملكتنا، ودفع ما يعرض لها اتفق نظرنا - بعد أن دعوت الله، وأمرت بالدعاء له طعاما، ومتوكلا في تأييده ونصره لما يجب لمجده وفضله - على اخراج جميع الأندلس الذين في تلك السلطنة لأنهم أقرب للغرر.

Pero aviendo sabido, que los desse, y los deste de castilla passauan adelante con su donado intento : y he entidido por auisos ciertos y verdaderos, que continuando su apostasia y prodicion, han procurado y procuraran por medio de sus Embaxadores y por otros caminos del dano y perturbocion de nuestros reynos, y desseando cumplir con la obligation que tengo de su consercuacion y seguridad, y en particular la de esse de Valencia, y de los buenos y Fieles subditos del, por ser mas euidente su peligro, y que cesse la Heregia y opostasia y auiendolo hecho encomendar a nuestro Senor, y confiado en su diuino fauor : por lo que toca a su honrra y gloria, he resuelto que se saquen todos los moriscos desse Reyno, y que se echen en Berberia.

إذا كانت الفقرة الأولى - نسبيا - لا تثير أية ملاحظة، فإن الفقرة الثانية تبين بوضوح أسلوب الشهاب الحجري في الترجمة، لتوضيح المقصود من النص الاسباني والمركز فمثلا بينما نجد الترجمة الحرفية الاسبانية على الشكل الآتي «... وبما أني علمت بنفسي من تقارير صادقة وصحيحة انهم في إصرارهم على الضلال أرادوا ويريدون دائما الشر والفساد لملكتنا عن طريق سفرائهم، وكذلك سبل أخرى...»، نجد الشهاب الحجري لكي يترجم هذه الفقرة يورد الأحداث التي وقعت بالفعل، فيذكر أن المورسكيين بعثوا للأتراك، ولزيدان، وانه لديهم 150 ألفا من المسلمين، وانهم على اتصال (بفرنسا)، إلى غير ذلك من الأحداث. وهذا هو أسلوبه، يريد أن يوصل الأمر إلى مخاطبيه بوضوح وبدون غموض، حتى وإن أدى الأمر إلى إضافات لا توجد في النص الأصلي.

- مشروع ترجمة كتاب فرنسي في الجغرافيا

نختم أعمال الشهاب الحجري بمشروع ترجمة، إذ أخبرنا أن السلطان زيدان أمره بترجمة كتاب فرنسي في الجغرافيا، ويبدو أن هذا المشروع لم يتم، ربما لأنه لم يجد من يترجم له الكتاب من الفرنسية إلى الاسبانية لكي يتسنى له ترجمته. وعلى كل فهو يذكر شيئا عن هذا المشروع: «... وقد أمرني السلطان مولاي زيدان - رحمه الله - أن أترجم له كتابا عجميا كبيرا سماه مؤلفه بدران، لعظم أعظم (كذا) جبال الدنيا المعروفة، ولم نر في كتب الجغرافية مثله، وكان بلسان الفرنج، وصاحب الكتاب كان فرنجيا اسمه القبطان» [86].

---

86 - ناصر الدين، 65.

(*) المعلم يوسف الأندلسي

من الأندلسيين المستقرين بمراكش أيام السعديين[87]. ويرجح أن يكون هو يوسف الحكيم المذكور عند عبد الرحمان الفاسي بقوله: «... وكان رجل أندلسي يقال له يوسف الحكيم ممن له خبرة بالعلوم الحكيمة كالطب والتنجيم، خرج من عدوة الأندلس فارا من النصارى.. واتصل بأرباب الدول، وكان يتردد إلى الشيخ (يقصد أبا زيد الفاسي العارف)، وكان حكيما يشهد له الشيخ بالتقدم في علم الكلام والفلسفة»[88]. ومما ينسب له أنه من قام بترجمة الرسالة الزكوطية[89].

(*) أبو القاسم الوزير بن محمد الغساني الأندلسي

من آثاره كتاب مغني الطبيب عن كتب أعداء الحبيب، هو عبارة عن ترجمة عربية موسعة لكتاب طبي محرر بالاسبانية أو البرتغالية أهداه بعض الأوروبيين إلى أحمد المنصور الذهبي، وقد أضاف المترجم إلى الأصل مقدمة وفصولا من إنشائه[90].

والجدير بالذكر أن هناك مورسكيين في اسبانيا كانوا يقدمون بأعمال الترجمة بإذن من السلطات نفسها[91]، لكن ما يهمنا نحن هم المترجمون الذين كانوا يترجمون المراسلات الصادرة عن سلاطين المغرب، فنذكر بهذا الخصوص الونسو القشتالي Alonso de Castillo[92] ترجمان فليب الثاني، وهو الذي كان يترجم رسائل أحمد المنصور الذهبي[93]، كما اهتم نفس المترجم بترجمة المراسلات والوثائق حول ثورة غرناطة (1568 - 1572)[94].

---

87 - م. المنوني المصدر السابق، 89.

88 - ازهار البستات مخطوط ح بالرباط رقم 583، آخر الباب الثالث.

89 - م. المنوني، المصدر السابق، 88 - 91

90 - أ. المقري روضة الآس، 217- 218، وم المنوني المصدر السابقو 76 - 77.

91 - ذكر الشهاب الحجري عددا من هؤلاء انظر ناصر الدين، مواضع متفرقة

92 - انظر ترجمته عند :

Dario Cabanelas Rodriguez «El Moriscos granadino Alonso del Castilo interprete II» in M.E.A.H; VI 1956, pp 19-42 *EL morisco grandino Alonso del Castillo*, Granada, 1965

93 - يبلغ عددها 17رسالة، وقد ترجمها النسو سنة 1579، ويوجد النص العربي مخطوطا بالمكتبة الوطنية بمدريد رقم 257، وعليه تعاليق المترجم مع شرحه لبعض الكلمات.

وقد كانت هذه الرسائل موضوع دراسة كالباليناس رودريكز D.Cabenales Rodriguez بعنوان Cartas del Sultan de Marruecos Ahmed Al-Manûre a FelipeII, *AL Andalous*, XXIII, 1958, p. 20-47 كما نشر عبد الكريم صورا لبعض هذه الرسائل في ملحق كتابه المغرب في عهد الدولة السعدية.

94 - نشرت هذه الوثائق جزئيا سنة 1852 من طرف الاكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد.

R. Arié, Les Etudes sur les morisques en Espagne in *Revues des Etudes islamiques*, Paris, 1967, p. 227

الجدل الديني

يدخل الجدل الديني أيضا في إطار الجهاد الذي كانت تقوم به الجالية الأندلسية بالمغرب ضد المسيحيين، وهذا ما أشار إليه الشهاب الحجري بقوله: «وقد ذكر لي بمراكش العلامة الفقيه النبيه، الخير، قاضي المسلمين، سيدي عيسى بن الرحمان السكتي (السكتاني)[95] انه من الجهاد الرد على الكفار ما يقولونه من الباطل في الاديان»[96].

وإذا أخذنا الشهاب كمثال نلاحظ أن هذا الجدال كان غالبا ما يدور حول المقارنة بين عقيدتي التثليث والتوحيد وكان يورد بالاضافة إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، نصوصا من التوراة والانجيل ليبطل بها مزاعم مخاطبيه.

وقد كان الرهبان بالمغرب يرمون من وراء جدلهم هذا إقناع من دخل في الاسلام حديثا من المسيحيين أن يرتد عنه ويرجع إلى دينه الأصلي. وقد اضطر الشهاب الحجري إلى أن يتدخل لدى السلطان زيدان لافتداء راهب أسير بمراكش ولإخراجه إلى بلده، لأنه يقوم بهذا الدور السري، وفي هذا يقول: «... ولو تحقق سلاطين المسلمين من سوء فعل القسيسين والرهبان، وأنهم يحتالون على أكثر من يرجع مسلما من النصارى ليرتد في خفاء عن دين الاسلام، وأن يكون عدوا للمسلمين، لا يتركون أبدا واحدا منهم في بلادهم. هذه نصيحة مني إليهم، وما قلت فيهم فهم صحيح لا شك فيه...»[97].

وقد انبرى الشهاب نفسه الراهب اسباني أسير بمراكش، وهو من كبار علماء الاسبان، إذ بعث له يوما سؤالا يقول فيه: «ما قولكم في دينكم رجل زنى بامرأة محصنة، وحملت منه وولدت، وزوج المرأة يعتقد أن المولود كان ابنه حتى كبر زوجه، وأعطاه حظا من ماله، واشتكى يوم الحساب لله سبحانه من زوجته، وممن زنى بها، والمال الذي أنفق، وأعطى لابن الذي زنى بها، فأحضر الزاني والزانية، وقيل لهما في ذلك، فقالت المرأة: إني ذكرت ذنبي للقسيس الفلاني وغفر لي، وقال الزاني انه ذكر ذنبه لقسيس في الدنيا، وغفر له ذنبه. والسؤال منكم أيها الراهب العالم في دينه، هل بقي للرجل المظلوم ما يطلب أم لا؟ ...»[98].

---

95 – انظر ترجمته عند محمد حجي، الحركة، 2 : 391، والمصادر بالهامش 45 من نفس الصفحة.
96 – ناصر الدين، 134.
97 – المصدر السابق، 110.
98 – المصدر السابق، 113.

فأجاب الراهب : ليس للرجل ما يطلب من زوجته، ولا من زنى بها بعد إقرارهما في الدنيا للقسيس من الذنوب، لأنه غفر لهما، ولم يبق للزوج حق عليهما...»[99] فانبرى الشهاب لهذا الرد قائلا : «فانظر هذا الاعتقاد الفاسد الذي عندهم في دينهم، الأصل فيه يقولون بألوهية سيدنا عيسى - عليه السلام - وأن البابا خليفته، وجميع أئمة دينهم كل واحد خليفة البابا. ويأمرون الناس في كل عام في أيام صيامهم أن يمشي كل من هو بالغ من ذكر أو أنثى إلى الكنيسة، ويذكر للقسيس جميع ذنوبه، ويعطيه براءة بالمغفرة، ويأخذ الدراهم عليها، حين يذهب مغفورا له. وفي سائر الأيام إذا كان مريضا يمشي اليه القسيس إلى بيته، ويغفر له، ويأخذ اجرته دراهم»[100] وجادل رهبانا وقساوسة آخرين عندما سافر إلى فرنسا وهولندا وبمصر، وأعجب به مخاطبوه[101].

ونشير في الأخير إلى أن الأندلسيين فقدوا مع مرور الزمن احتكارهم لميداني الترجمة والجدل الديني لكنهم ظلوا سادة الميدان الإداري والدبلوماسي لأجيال كثيرة.

اللغة

يمكننا أن نميز من حيث تأثير الأندلسيين في لغة المغاربة بين مرحلتين :

المرحلة الأولى : وهي التأثيرات التي احدثتها جالية ما قبل القرن السابع عشر في لغة المغاربة.

المرحلة الثانية : وتتعلق بالخصوص بالتأثيرات التي أحدثها المورسكيون في لغة المغاربة في بداية القرن السابع عشر.

المرحلة الأولى : جاء في ترجمة أحمد المنجور ما نصه : « وكان مولعا بأمثال العامة، خصوصا عامة الأندلس يستحسن لغتهم ولكنتهم ويثني عليهم وعلى بلادهم الجزيرة، ويستحسنها ويتشوق إليها...»[102].

ونخرج من هذا النص بملاحظتين أساسيتين :

- إنتشار الأمثال العامية الأندلسية بالمغرب، وتمثل العامة والخاصة بها، لا سيما في الجهات التي استقرت جاليات أندلسية مهمة، وقد لاحظ م.بنشريفة «أن قسما

---

99 - نفس المصدر والصفحة.
100 - نفس المصدر والصفحة.
101 - انظر تفاصيل ذلك في كتابه ناصر الدين، مواضع متفرقة.
102 - م. الكتاني، سلوة، 3 : 61.

كبيرا جدا من الأمثال (الأندلسية) الواردة في مجموعة الزجالي القرطبي - وعددها 2153 مثلا - ما يزال مستعملا في حواضر المغرب وبوادية...» (103).

- محافظة الأندلسيين بالمغرب على لغتهم، متميزين بلكنتهم، وأن لهجتهم كانت تختلف عن لهجة المغاربة. وقد أقر ابن خلدون بهذا إذ ذكر أن لغة أهل الأندلس لغة قائمة بنفسها ومباينة - بعض الشيء - للغة أهل المشرق وللغة أهل المغرب أيضا، وانها متأثرة بعجمة الجلالقة (104).

كما أشار إلى ذلك ابن غازي بقوله «وهناك قرية كان يقال لها قرية الأندلس، من عمل بني زياد، سكنها على قديم الزمان قوم أندلسيون وتناسلوا بها وأقاموا دهرا لم تتغير ألسنتهم ولا أشكالهم الا من كان منهم كثير الامتزاج بأهل البلد فإنه تغير لسانه.. وهذه القرية - والله أعلم - هي المسماة في هذه الاعصر تلاجدوت، وبها جرى المثل السائر: دار الكرامة تلاجدوت» (105).

وسوف نعطي نماذج من هذه التأثيرات:

(*) الإمـالـة (106):

حمل الأندلسيون معهم هذه الظاهرة اللغوية إلى المغرب، فقد جاء في ترجمة فرج الأندلسي: «... تغلب عليه الامالة شأن كلام الأندلس في ألسنتهم...» (107).

ومما يدل على انتشار هذه الظاهرة بالمغرب أن الحسن اليوسي عاينها بنفسه عند قبائل بني زروال شمال مدينة فاس، وعند قبائل أخرى بشمال المغرب (108).

---

103 - امثال العوام، 1 : 189.

104 - المقدمة 555.

105 - الروض الهتون، 10.

106 - الامالة ابدال الألف ياء، وفي ذلك يقول عبد العزيز الملزوزي، «ومن غريب ما اتفق لي فيها (الأندلس)، حين كنت اوافيها، إني مررت بإمام يصلي بالناس، وهو يقرأ» بقل أعود برب الناس» :

قد يدل «الوسواس» بالوسويس

وكـذلك «الخنـاس» بالخنيس

وكـذلك بدل آيـة في آيـة

حتى يوسوس في صدور النيس»

انظر م. بنشريفة، الأمثال، 1 : 283.

107 - م. بن عسكر، دوحة، 79.

108 - المحاضرات، 166.

لا وجود الهمزة المضارع في العامية الأندلسية، فهم يستعملون النون للمتكلم المفرد، كما يستعمل للمتكلم ومعه غيره مع التفريق بينهما بزيادة الواو في الحالة الأخيرة. وقد ورد هذا الاستعمال كثيرا عند الشهاب الحجري :

نمشي = امشي، نخرج = اخرج، نجلس = اجلس(109).

ومايزال هذا الاستعمال موجودا بالمغرب.

*حرف الجر : يرد في الغالب متصلا بالمجرور بعد حذف الجر : (في)، يرد في الغالب متصلا بالمجرور بعد حذف حرف الباء منه وفتحه نحو، فالجبل = في الجبل(110).

*تمتاز العامية الأندلسية بزيادة كاف في أول الفعل المضارع، فيقال في (يكتب) : كيكتب(111).

*حافظت العامية الأندلسية في فصاحة بعض الابنية والصيغ، ومن أمثلة ذلك المحافظة على كسر عين اسم الفاعل نحو :

جالس، واقف.

في حين أن الفتح هو الشائع منذ أيام الموحدين في العامية المغربية(112). وماتزال بعض مناطق شمال المغرب تعرف هذا الاستعمال إلى يومنا هذا.

*والتصغير من سمات عامية الأندلس، وقد ولع به المغاربة أيضا، فما زال إلى يومنا الميل إلى التصغير بارزا، فنقول مثلا في (السوق) : السويقة...

وقد حفلت المخطوطات العجمية الموريسكية بالعديد من المفردات التي ماتزال مستعملة إلى يومنا هذا في بعض المناطق خاصة في شمال المغرب(113).

المرحلة الثانية :

تتميز هذه المرحلة خوصا بانتشار اللغة الاسبانية بالمغرب، وبالتالي بدخول كلمات ومصطلحات تقنية في لغة المغاربة، نتيجة وصول أفواج مهمة من المورسكيين بعد صدور قرار الطرد، فقد سجل ج. مويت G. Moüette ملاحظة أساسية، إذ ذكر «أن اللغة الاسبانية انتشرت بالمغرب انطلاقا من طرد المورسكيين، منذ أن حملها

---

109 - ناصر الدين، 3 ، 20، 23.

110- م. بنشريفة المصدر السابق، 1 : 285.

111 - المصدر السابق، 1 : 286.

112 - المصدر السابق، 1 : 278.

113 - الحسين بوزينب اللغة المورسكية المسماة بالعجمية، ضمن كتاب أعمال ندوة البحث اللساني والسميائي.

معهم هؤلاء إليه، وهي منتشرة اليوم (1683) تماما كاللغة العربية...[114].
كما لاحظ لويس برينو L. Brunot انه من بين الألفاظ البحرية الثلاثة والخمسين والسبعمائة المستعملة في الرباط وسلا، توجد 217 كلمة اسبانية[115].

وهذا نموذج من الكلمات الاسبانية التي دخلت لغة المغاربة :

اللفظ باللهجة المغربية	مدلوله	اللفظ الاسباني
بابور	باخرة	Babor
باشدور	سفير	Emabajador
براكة	كوخ	Barraca
بلاصة	ساحة	Plaza
بلوزة	لباس	Blusa
بندير	دف	Pandera
دورو	نقد اسباني	duro
الرويدة	العجلة	Rueda
الروينة	تخريب	Ruina
طابة	تبغ	Tabaco
كانتينا	حانة	Cantina
كبوط	معطف	Capote
كارو	عربة	Carro
كارطة	ورقة اللعب	Carta
كَارو	سيجارة	Cigarro
كوتشي	كدش، عربة	Coche
كومير	خبز	Comer El pan
كمبيانة	شركة	Compania
كورنيطة	بوق	Corneta
كلاطة	بندقية	Culata

114 - Relation... p.3
115 - Note lexicologiques.... p.8

الكشينة	مطبخ	Cocina
كاميلا	قدر	Gamela
كانا	رغبة	Gana
كيرة	حرب	Guerra
الكالة	حجارة أو غيرها توضع أمام العجلة وخلفها كي تثبت في مكانها.	Cala
الكنابي	شبه سرير من الخشب	Canapé
لامبة	مصباح	Lampara
لاطة	قطعة من الحديد الأبيض	Lata
لويزة	نبات طيب يستعمل في الشاي	Luisa
الماريو	خزانة ملابس	Armario
مانيرة	طريقة	Manera
مانطة	لحاف	Manta
ماكينة	آلة	Muquina
مونيكة	دمية	Müneca
الماصة	المطرقة الغليظة	Maza
الماركة	النوع	Marca
صالة	قاعة فسيحة	Sala
صندالة	نعل	Sandalia
ضبلون	نقد ذهبي اسباني (وهو حاليا نوع من الحلي تستعمله المرأة).	Dablon
الغانجو	حديد معتوقف يستعمل في غلق الباب وفي شد العربة للدابة.	Gancho
فالطا	خطأ	Falta
فبريكا	مصنع	Fabrica
فاكتورة	فاتورة	Factura
فرساطة	واجهة البناية	Fachada

Forma	شكل	فورمة
Falso	زور، باطل	فالصو
Familia	عائلة	فاميلا
Fraile	راهب	فرايلي
Fresco	طري	فريشك
Garganta	حنجرة	قرجوطة
Semana	أسبوع	سمانة
Sopa	حساء	سوبة
Suerte	حظ	سورت
Zapato	حذاء	سباط

في الميدان الاجتماعي

حدثت عدة تأثيرات أندلسية في ميدان الخدمات الاجتماعية ، وعلى مستوى بعض المظاهر الاجتماعية، وكذا ميدان العمران والفنون، وسنحاول أن نعطي نماذج لذلك.

- في ميدان الخدمات الاجتماعية :

نذكر بهذا الصدد انتقال خطة الحسبة من الأندلس إلى المغرب[116].

فقد سجل الحسن الوزان عن الجزارين بمدينة فاس - مثلا - ما يأتي : «... قبل أن تحمل الذبائح لا بد من عرضها على المحتسب الذي يأمر بفحصها ويسلم بطاقة مكتوبا عليها السعر الذي يجب أن يباع به اللحم، ويلزم الجزارون بلصق هذه البطاقة على اللحم بحيث يتمكن الجميع من رؤيتها وقراءتها... »[117].

والجدير بالذكر أن الخطة اتجهت لفترة ما إلى تصرفات بعض أفراد الجالية الأندلسية بالمغرب، إذ اشتهر هؤلاء بالإقبال على اللهو والطرب وبالتدخين وشرب الخمر وعدم الالتزام بالواجبات الدينية، وكذا بالاستمرار في التشبث بالعادات الأوروبية التي كانوا عليها وهم باسبانيا، مثل اختلاط الرجال والنساء في المحافل العامة، ولم يقتصر الأمر على الأندلسيين، بل انتشر بين صفوف المغاربة أنفسهم.

وقد جاء الرد من الأندلسيين أنفسهم، ففي فاس قلد هؤلاء الحاج صالح ولاية الحسبة (سنة 1048هـ / 16368 - 1639) لمعالجة الموقف، وفي هذا الصدد يقول القادري: «وقلد الأندلس الحاج صالح ولاية الحسبة، فقطع شراب الدخان، وبيعه،

---

116 - عن انتقال خطة الحسبة من الأندلس إلى المغرب، والتطورات التي عرفها هذا النظام به، انظر م المنوني، خطة الحسبة في المغرب، مقال بمجلة المناهل، العدد 14مارس 1979، ص 215 - 234 . وانظر عن اهتمام الأندلسيين بهذا النظام والمصادر المؤلفة في ذلك، موس لقبال ، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي، 28 - 59.

117 - وصف افريقيا، 1 : 187.

وقطع اللهو وآلات الطرب من النساء، وألزم الناس الصلوات في الوقت، والستر في الحمام، وغير مناكر شتى..»[118].

- مظاهر اجتماعية أندلسية :

تميز أفراد الجالية الأندلسية بالمغرب بأسلوب معيشتهم وطريقة تعاملهم.

ونسجل بهذا الشأن عدة ملاحظات :

إن أفراد هذه الجالية لا يميلون إلى الاختلاط بغيرهم من السكان، وهذا ما جعلهم يحجمون عن الزواج خارج جماعتهم ، فالمرأة الأندلسية نادرا ما تتزوج من غير أندلسي إلا إذا اضطرتها الحاجة إلى ذلك[119].

- انتشرت بفضل أفراد هذه الجالية عادة اللباس الأبيض في الصيف والمآتم، واستمر ذلك إلى يومنا هذا.

- كانوا ميالين إلى التأنق في اللباس، حريصين على النظافة، وهذا ما أشار إليه ابن سعيد بقوله: «وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك ما يتعلق بهم، وفيهم من لا يكون عنده الا ما يقوته يومه فيطويه صائما ويبتاع صابونا يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها»[120].

- الاحتياط والتدبير مع الحذر :

يقول ابن سعيد عن الأندلسيين: أهل احتياط وتدبير في المعاش، وحفظ لما في أيديهم خوف ذل السؤال فلذلك قد ينتسبون للبخل»[121].

---

118 - نشر المثاني، 1 : 376.

119 - ناصر الدين السعيدوني ، الجالية الأندلسية بالجزائر، مقال بمجلة أوراق، مدريد العدد 4، 1981. ص 121.
I.D. Abbou, cp cit p. 76

120 - أ. المقري، نفح، 1 ص 223.

ملاحظة :

يظهر هذا التأنق حتى في اختيارهم لأنواع أطعمتهم، إذ من بين الأطعمة التي حملوها معهم إلى المغرب نذكر: البسطيلة، والمعسل انظر :

I.D. Abbou, cp cit p. 77

وحول الطبخ في الأندلس ، انظر :

- كتاب الطبخ في المغرب والأندلس، المؤلف مجهول.

فضالة الخوان لابن رزين التجيبي،

م. بنشريفة، أمثال العوام، 1 : 234 - 237.

121 - أ. المقر، المصدر السابق، 1: 223.

وقد استنتج بنشريفة أيضا من أمثال الزجالي القرطبي أنهم كانوا يرون أن الصلات بين الناس تقوم على سوء الظن والحيطة والحذر، وأن المنفعة هي الباعث المحرك في كثير من مظاهر السلوك، وصلات الأفراد[122].

وهي مظاهر سلوكية رفضها المغاربة، واعتبرت عاملا إضافيا من عوامل المواجهة بين الطرفين، فقد عرف عن المغربي كرمه، وتضامنه مع الغير ولو على حسابه، كما عرف عنه أنه يأنف من سؤال غيره إذا ما احتاج إلى ذلك، وتفتحه وحسن ظنه بالآخرين، ورغبته في التعامل معهم ، وهي صفات لم يجدها في هؤلاء الوافدين الجدد.

– حمل الأندلسيون معهم بعض العادات إلى المغرب، غير أن المغاربة تصدوا لذلك، فقد تصدى، – مثلا – قاضي سبتة أبو العباس العزفي السبتي (تـ 637 هـ / 1234) إلى بعض المواسم التي دأب المسلمون بالأندلس وسبتة على الاحتفال بها متبعين في ذلك المسيحيين في إقامة النيروز (فاتح يناير)[123]، والمهرجان أو العنصرة(24 يونيو، ميلاد النبي يحي)[124]، وعيد ميلاد المسيح (25 دجنبر) وقد استنكر هذه البدع ونبه مواطنيه على ضرورة الاعتناء بالمولد والاحتفال به[125].

ومن بين العادات التي حملها معهم المورسكيون إلى المغرب صورة الكف، وهي من بعض المعتقدات المسيحية التي رسخت في أذهان المورسكيين لأن الكف هي كف مريم البتول، وتعتبر في معتقداتهم مانعة من الأرواح الشريرة، وتطرد كل شيطان رجيم، وقد جمع المورسكيون التمسك بالكف إلى التمسك بالصليب ، فكثير من الأبواب يعلوها صليب[126].

– الآثار الأندلسية في اللباس المغربي :

أثر الأندلسيون أيضا في ميدان اللباس، مع ملاحظة أن بعض الألبسة ظلت محتفظة بشكلها العام وتسميتها ، في حين نجد أن أخرى اختفى اسمها الأندلسي

---

122 – أمثال العوام، 1: 268.
123 – المصدر السابق، 1 : 238
124 – المصدر السابق، 1 : 240
125 – المصدر السابق، 1 : 241
126 – محمد المزي، نور القبس بين طبرية الأندلس، ضمن كتاب بحوث عن الأندلسيين في تونس، 27.
I.D. Abbou, cp cit p. 379

وعوض باسم مغربي، لكن مع احتفاظها بطابعها الأندلسي. كما لا يخفي أيضا أن هناك عددا من الألبسة الأندلسية التي طورها المغاربة بإدخال تعديلات عليها على مر الزمن، إلى أن وصلت إلينا كما نعرفها اليوم.

وسنعطي نماذج لهذه التأثيرات الأندلسية:

السلهام:

عوضت هذه التسمية كلمة (برنس)، التي لم تعد مستعملة في المغرب، واستعملت بدلها كلمة (سلهام) المأخوذة من كلمة Zulame القشتالية. والتسميات معا (سلهام Zolame) كانتا مستعملين في الأندلس (سواء لدى المسلمين أو المسيحيين) منذ العصور الوسطى [127]. ولم تعد هذه الكلمة مستعملة باسبانيا، في حين احتفظ بها المغرب، على عكس باقي أقطار العام العربي التي ما تزال تحتفظ بلفظة (برنس) [128]. ولا نعرف متى دخلت هذه الكلمة إلى المغرب، ولا متى توقف استعمال كلمة (برنس)، لكن لدوزي رأي في الموضوع، فهو يرى أنه في أواسط القرن الثامن عشر كان اليهود هم الذين يلبسون البرنس الأسود، وبطريقة مختلفة عن الطريقة التي كان يلبسها بها المغاربة، ومن الممكن منذ ذلك الحين أن يكون المغاربة قد تراجعوا عن استعمال كلمة (برنس) على اعتبار انها لباس لأقلية مهمشة وبقيت لفظة (سلهام) وحدها [129].

البلغة:

هناك عدة خلاصات يمكن الخروج بها في موضوع هذا النعل:

أولا: الكلمة من أصل لاتيني، وذلك في تطورات عديدة، فالأصل اللاتيني الأول Quercus وصيغت منها في الاسبانية لفظة Corcus، وفي لغة المستعربين Qurq Mozarabes ومن هذه الأخيرة أخذت القشتالية Al corque ، ومنها أتت الألفاظ الآتية Al pargata – Al Borga – AmBalga [130].

---

127 - G. G. Busto «Huellas Andalusis en El Vestir marroqui, in *Cuadernos de la Biblioteca espanola de Tetuan* Decembre 1977, n° 16, p 69

128 - R. Dozy dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les arabes, p. 77

129 - R. Dozy, op.cit p .77

130 - J. Olivier Asin, «Quercus en la Espana musulmana in *Revista Al Andalus*, Vol XXIV, 1959, p 176

وبما أن كلمة (بلغة) من أصل غير عربي فإن كلا من دوزي[131] وبرينو Brunot[132]، لم يعثرا على أصلها في معجمها.

وكما يقول آسين Asin : «يجب أن نأخذ بعين الاعتبار بأن كل كلمة لاتينية أو سابقة للاتينية لها تاريخ في اللهجات الاسبانية المسيحية، وتاريخ لغة الاسبان المستعربين Mozarabes، وحتى داخل عامية الأندلس»[133]. فمن يخطر على باله أن لفظة «بلغة» آتية من لفظة quercus اللاتينية[134].

ثانيا: كانت كلمة مستعملة في الأندلس خلال قرون عديدة[135].

ثالثا: انتقلت هذه اللفظة مع المهاجرين الأندلسيين إلى شمال افريقيا وبها تركزت، وهي لا توجد إلا في هذه المنطقة[136].

البدعية[137]

وهي مما نقله المهاجرون الأندلسيون إلى شمال افريقيا[138]، لكن المشكلة هي أن اللفظة نفسها لم تكن مستعملة في الأندلس، واستعملت بدلها لفظة (الصدرية)[139]، فأثناء محاكمة موريسكي أمام محاكم التفتيش سنة 1566، قضت المحكمة بمصادرة امتعته، فتقدمت زوجته بشكاية لأجل استرجاع أمتعتها من محاكم التفتيش، ومن جملة الأمتعة توجد «صدرية من حرير»[140]. ولم يقتصر الأمر على التسمية، بل إن الأمر تعداه إلى ادخال بعض التعديلات على هذه (الصدرية) بشمال افريقيا[141].

يبقى لنا إذن، احتمال حول أصل كلمة بدعية من أن تكون أتت من فعل - (أبدع)، فتكون تعني آنذاك لباسا جديدا لم يكن معروف من قبل.

---

131 - glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe.

132 - Noms des vêtements masculins à Rabat, in *Mélanges* René Basset.

133 - Oliver Asin, op. cit p. 128.

134 - G.G Busto, op. cit p. 72.

135 - G.G Busto, op. cit. p. 71.

136 - Ibid, p. 72.

137 - L. Brunot op. cit.

138 - G.G Busto, op.cit. p. 73

139 - ذكرت الكاتبة الانجليزية فرنسيس مكنب، عندما زارت تطوان سنة 1901، ان من بين ملابس التطوانيات (الصدرية). انظر، ع، المجيد بن جلون ، جولات في مغرب الأمس، ص 15.

140 - G.G Busto, op.cit. p. 73

141 - انظر وصفا للصدرية عند :

G. Marçais. *Le costume musulman d'Alger.* p. 63.

البنيقة[142] :

ما زال هذا اللفظ مستعملا بشمال المغرب والجزائر، ويتعلق الأمر بمنديل تضعه النساء على رؤوسهن لجميع شعرهن، واستعمل كذلك باسبانيا بمعنى قريب جدا[143]. ولا نعرف متى دخل هذا اللباس إلى شمال افريقيا؟ ومن المحتمل دخوله مباشرة بعد سقوط غرناطة، من طرف الفئات الغنية، التي كانت تستعمل هذا اللباس[144].

المضمة :

حزام لشد اللباس إلى الجسم، وهي مما نقله المهاجرون الأندلسيون كذلك إلى المغرب[145]، وتعترضنا أيضا هنا مشكلة الاسم، فهذا اللفظ لم يكن مستعملا بالأندلس، إذ انها لفظة مغربية محضة[146]. ويرى دوزي أنها من أصل عربي من فعل «ضم»[147]. ولانعرف كذلك متى بدأ استعمال هذا اللفظ بالمغرب، لكن من المحتمل أن يكون قد استعمل من طرف حرفيي غرناطة أنفسهم، بعد تطوير هذا الحزام بالمغرب، خاصة إذا ما قارنا بين هذا الحزام المغربي ومثيله المستعمل في اسبانيا خلال القرون الوسطى[148].

الكرزية:

نوع من الاحزمة تضعه المرأة بقبائل جبالة. وقد استعمل هذا الحزام بالأندلس على الأقل أواخر العصر الوسيط، إذ يوجد في القواميس الاسبانية بهذا الشكل Karziyyat - Karazi ولا حظ أكثر من مؤرخ استعماله من طرف المورسكيين[149].

وهناك مشكلتان تتعلقان بالموضوع :

المشكلة الأولى : سبق أن رأينا أن الكرزية لا تستعمل حاليا إلا كحزام في منطقة معينة بالمغرب، لكن بعض الدارسين يرى أنها كانت تستعمل أيضا بمعنى العمامة، وأورد قول مارمول في هذا حين حديثه عن قبائل حاحة بقوله أنهم يضعون على

---

142 - G. Colin, Banika, in *Encyclopédie de l'Islam* 1 - 1047 - 1048
143 - G. Colin, op. cit
144 - G.G Busto. op.ccit p. 79
145 - Ibid. p. 79
146 - L. Brunot, op cit p. 115
147 - Dictionnaire... p. 49 . 50
148 - G. G Busto. op.cit p. 82
149 - Ibid, p .84

رؤوسهم (كرزيات)، واعتماد على رواية Dopper سنة 1659 وهو يصف لباس الموركسيين أنهم كانوا يضعون على رؤسهم «كرزيات» [150].

وذهب دوزي نفس المذهب، خاصة أن صاحب الحلل الموشية ذكر، عن ابن صاحب الصلاة، عن عبد الله العراقي من سكان فاس، انه قال : كنت ببغداد بمدرسة الشيخ أبي حامد الغزالي، فجاءه رجل كث اللحية على رأسه كرزية صوف، فدخل المدرسة، وأقبل على الشيخ أبي حامل، فسلم عليه، فقال : ممن الرجل ؟ فقال من أهل المغرب الأقصى، قال: أدخلت قرطبة ؟ قال : نعم ...» [151].

ولكن في نفس الوقت لا نعرف متى توقف هذا الاستعمال بالمغرب.

المشكلة الثانية : وتتعلق بأصل الكلمة، فهناك عدة احتمالات :

- هناك من يقول بأن أصلها لاتيني من لفظة Corrigia

- وهناك من يقول يكون أصلها من اسم نسيج من مكان ما بانجلترا، وانتقل إلى اسبانيا قديما جدا، ومن هناك أخذها الأندلسيون.

- وفريق آخر بأن كلمة مأخوذة من لفضة فرنسية قديمة Cors[152]

- واحتمال أخير، هو أن الكلمة من أصل مغربي انتقلت إلى الأندلس في وقت مبكر، مع موجة هجرة القبائل البربرية إلى الأندلس، وتطور استعمال اللفظ هناك وكذا شكل الحزام، وبعد قرون رجع هذا اللباس مع موجات المهاجرين الأندلسيين في شكل آخر يبرز ملامح صناعة تقليدية رفيعة. وهذا الاحتمال الأخير هو المرجح.

الشاشية[153]:

من الألبسة التي أخذها معهم المهاجرون الأندلسيون إلى شمال افريقيا[154]. وهي عبارة عن قلنسوة حمراء كان يضعها رجال المخزن والعلماء والتجار والطلبة، واستمر وجودها إلى يومنا هذا. وهناك شاشية أخرى خاصة باليهود وهي سوداء.

---

150 - Ibid, p .85

151 - الحلل الموشية، 104 - 105.

152 - G.G Busto. op.cit p. 87

153 - انظر عن الشاشية :

R. Dozy, Dictionnaire, pp- 240 - 244.

154 - G.G Busto. op.cit p. 98

ونتقل في الأخير إلى بعض الألبسة التي لم يستخدمها المغاربة، ولكنهم احتفظوا بأسمائها.

السمرير أو الشمرير[155] :

قبعة يضعها الاسبان على رؤوسهم عند خروجهم إلى الشارع[156]. وقد أكد دوزي الأصل الاسباني للكلمة Sombrero دون أن يوضح لنا كيف ومتى دخلت هذه الكلمة إلى المغرب، ففي قاموسه يذكر: «من المعروف أن Sobrero كان مجهولا بين المسلمين في أول الأمر، وللتعبير عن هذا اللباس الأوروبي، وجدوا أنفسهم مضطرين لاستعمال الكلمة الاسبانية السالفة الذكر... والعامة غيرت هذه الكلمة وحولتها إلى سمرير أو شمرير»[157]، ويمكننا أن تقدر أن دخول هذه الكلمة إلى المغرب كان في بداية القرن السابع عشر عند دخول الموريسكيين إلى المغرب[158].

برنيطا أو بريطا :

قبعة برتغالية أو كطلانية من الاسبانية : Barretina - Barrete - Bierrete.[159]

وهذه اللفظة على غرار السابقة، وكانت منشرة بالعالم الاسلامي[160]. وعلى العموم فإن المغاربة لم يستعملوا لا الشمرير ولا البرنيطا، إذ المغربي يغطي رأسه بما يناسب لباسه.

— انتشار الموسيقى الأندلسية بالمغرب :

يمكن تقسيم انتشار الموسيقى الأندلسية بالمغرب إلى مرحلتين أساسيتين :

- المرحلة الاشبيلية، وهي تبتدىء انطلاقا من العصر المرابطي إلى غاية العصر المريني [161].

- المرحلة الغرناطية : وتمتد الفترة الوطاسية إلى غاية بسط الحماية على المغرب.

---

155 - مازالت أمثال العامة بالمغرب بهذه اللفظة فنقول مثلا : «دارليه شمرير» إذا أهانه أمام الناس، ولعل أصل المثل هو وضع هذه القبعة الاسبانية على رأسه - التي لا يرتديها المغاربة - لإهانته أمام الناس.

156 - G. G Busto. op. cit p. 90

157 - Dictionnaire.... p. 230.

158 - G. G Busto. op. cit p. 92

159 - G. G Busto. op. cit p. 92

160 - Ibid, 94.

161 - انظر عن هذه المرحلة م. المنوني، تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب، مقال بمجلة البحث العلمي، عدد مثنى 14، 15، السنة السادسة، يناير / دجنبر 1969، ص 150 - 152.

وقد دخلت هذه الموسيقى مع الهجرات الأندلسية الأخيرة في العهدين الوطاسي والسعدي، واستطاعت مدرسة غرناطة أن تطغى على مدرسة اشبيلية[162].

ومن الجدير بالذكر أن دور المغاربة كان بارزا في هذه الموسيقى، إذ دخل عليها هؤلاء تعديلات مختلفة في ألحانها واشعارها وترتيبها.

ففي ميدان الالحان: أدخل المغاربة ميزانا جديدا أضافوه للميازين الأربعة القديمة سموه (الدرج)، كذلك أضافوا إلى (النوبات)[163] الموسيقية القديمة نوبة جديدة هي الاستهلال، على يد موسيقي من فاس يدعا الحاج علال الطبلة[164] في خلافة عبد الله الغالب السعدي أما في ميدان الاشعار فقد ادرج المغاربة في هذه الموسيقى اشعار مغربية عامية تسمى براول (جمع بريولة)[165]، كما انتخب المغاربة اشعارا في المديح النبوي على ألحان هذه الموسيقى، دون استعمال اية الة في الغالب، وبعضهم لحن اشعارا صوفية على نغمات أندلسية لتنشد في محافل الذكر، ربما استعملت فيها الآلة.

وقد بلغت هذه الألحان شأوا بعيدا بمناسبة الاحتفال بعيد المولد النبوي أيام المنصور الذهبي، وإلى هذا أشار الفشتالي أثناء وصفة لاحتفال الخليفة السعدي بعيد المولد النبوي، إذ يقول: «...واندفع القوم لترجيح الأصوات بمنظومات على أساليب مخصوصة في أماديح النبي الكريم (ﷺ)- يخصصها العرف باسم المولديات ... قد لحنوها بألحان تخلب النفوس والأرواح، وترق لها الطباع وتبعث الانشراح ... يتفنون في ألحانها على مذهب تفننها في النظم...»[166].

— في ميدان الفن والعمران:

لاحظ مارمول أن أجمل الدور بالمغرب هي التي بنيت من طرف الأندلسيين، وذلك بفضل ثرواتهم التي حملوها معهم من اسبانيا[167]. وقد أشار إلى هذا أيضا المقري حين حديثه عن آخر ملوك بني الأحمر: «وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، رأيتها ودخلتها...»[168].

---

162 - م. المنوني، المصدر السابق 152.

163 - عن النوبات انظر. م. الفاسي، الموسيقى المغربية المسماة أندلسية مقال بمجلة تطوان، العدد 7، 1962، ص 9 - 11.

164 - لم يستبعد م. حجي أن يكون هذا الموسيقى من أفراد الجالية الأندلسية المهاجرة، انظر كتابه الحركة، 1: 67.

165 - م. الفاسي، المصدر السابق، 12.

166 - مناهل، 224.

167 - L'Afrique, 2, : 171

168 - نفح الطيب، 4: 529.

ولم يفت أحمد بن المهدي الغزال الأندلسي أن يسجل أثناء زيارته لغرناطة سنة 1766 ما يأتي «هي أقرب شبها بفاس في بنيانها، وجريان الأودية بجدارتها، ثم القناطر المضروبة عليها، وما اشتملت عليه من الديار والخصص والزليج والدرابيز من اللوح المستدير بمساحات الطبقة الثانية المشرفة عى صحن الدار والبيوت والغرف والسقوف والأبواب، والكل مشاكل لمدينة فاس...»[169].

لقد تأنق الأندلسي في كل شيء في ملبسه ومأكله، فلا غرابة أن نجده يتألق في اختيار مسكنه، وقد أشار إلى هذا محمد بن عبد السلام السائح الأندلسي بقوله: «براعة الأندلسيين في العمارة ومهارتهم في النحت والنقش والتنميق والزخرفة بالذهب والاصباغ، مما لا يمترى فيه ولا يمارى، وما يشاهد من فنون النقش على الرخام والجبس وأنواع التحسين بمدارس بني مرين المبثوتة بأنحاء المغرب من فاس ومراكش وسلا وشالة، وكذا ما بقبور الاشراف السعديين بمراكش، كل ذلك نماذج من الفن الأندلسي مطبوعة على غراره، فصناعة الزليج الذي تزين به الحيطان والسياجات، ومعمل الجبس الذي يحمل به الحنايا والابهاء، كل ذلك من الصنائع الأندلسية التي لا يزال يتنافس فيها...»[170]. كما لم يفت جودية بنسليمان أن تسجل هذا التأثير المورسكي أثناء دراستها لدور تقليدية بمدينة سلا[171]. وبرع الأندلسيون أيضا في ميدان الصناعة التقليدية، إذ أقبل عليها المغاربة إقبالا شديدا، خاصة في ميدان الرقم[172].

وقد وجدت Martha Gérard، أن كثيرا من المصطلحات المستعملة في هذا الفن توجد إلى يومنا هذا بمنطقة الأندلس باسبانيا[173]، وكذلك بالنسبة لصناعة الحصر، فكثير من مصطلحاتها هي من أصل اسباني[174]. وكذلك الشأن بالنسبة لصناعة الزرابي (الزربية الرباطية) فهي ذات خصائص معينة، وقد لاحظ م، السائح انه «كان بالرباط كثير من النسوة لاسيما بيوتات الأندلس كآل بلانبو، وبركاش، ينسجن أنواعا من تعاليق الستور، غريبة التشبيك تجمل بها الأسرة... وقد رأيت نحوا من هذه الصناعة لنسوة الاسبان...»[175].

---

169 - نتيجة الاجتهاد، 195.

170 - I.D. Abbou, op.cit. p. 77

171 - Salé, Etude Architecturale.... p. 16

172 - ما زلنا إلى يومنا هذا نميز هذا الرقم عن غيره فنسميه (الطرز الرباطي)

173 - نذكر على سبيل المثال : سيتنا Cinta وكوردون Cordon

174 - للمزيد من الايضاح حول الرقم بالنسبة للمدن التي استقرت بها جاليات أندلسية، انظر مقالاتها :

- Les broderies de Fès, in H.T. vo VII, Fasc, unique, 1967, pp 123 - 155.
- Les broderies de Tétouan, in H.T Vol X Fasc, 1- 2 1969, pp. 191 - 216.
- Les broderies de Chéchaouen in H.T Vol XV, 1974, pp. 225 - 250.
- Les broderies de Salé, in H.T. Vol. XVIII, Fasc uniques, 1978 - 1979, pp. 11 - 232.

175 - سوق المهر، المقدمة، صفحة كز.

الفصل الثاني

مراكز الاستقرار

تنوع استقرار الجالية الأندلسية بالمغرب تنوعا كبيرا، إذ لم يقتصر على مناطق معينة، بل شمل مناطق عدة من أقصى شمال المغرب إلى أقصى بلاد سوس[1]. وقد اتخذ أفراد هذه الجالية - غالبا أحياء خاصة بهم، مما يوحي بأن مواجهة ما قد وقعت بين هؤلاء وباقي السكان وسف نعطي نماذج لذلك.

---

1 - نذكر على سبيل المثال المحمدية (تارودانت) إذ استقرت بها جالية أندلسية مهمة، وما تزال بعض أحيائها تحمل أسماء أندلسية مثل درب الأندلسيين « إيندلاس » ودرب «أولاد بونونة» كما عرفت بها بعض الأسر الأندلسية مثل أسرة «آيت الناظر» التي ترتفع بنسبها إلى السراج، وزراء غرناطة. وتوجد كذلك بعض الأسر بأسمائها الأندلسية في بوادي سوس كأسرة بركاش في دائرة آيت باها، انظر ع. الحميد مرادي، لمحات من تاريخ سوس، ص 39، عن عمر آفا، مسألة النقود في تاريخ المغرب، ص 81.
كما حفلت كتب التراجم بعدد من الأندلسيين المستقرين بمنطقة درعة، نذكر على سبيل المثال محمد بن محمد العشاب الأنصاري الأندلسي.
انظر أ. بن القاضي، درة 2 : 57 رقم500 .

1

الرياط وسلا

رأينا في فصل سابق[2]، بعض جوانب الصراع الذي كان قائما بين الأندلسيين والمغاربة بالعدوتين وهو صواع يمكن تلخيصه في عوامل ثلاثة :

- عوامل اقتصادية : انتقال مركز الثقل الاقتصادي إلى الرباط عوض سلا، وما نتج عن ذلك من آثار سلبية بالنسبة لاقتصاد هذه الأخيرة.

- عوامل اجتماعية : الاختلاف في السلوك الاجتماعي بين الفئتين، فأهل سلا كانوا : «على غاية تامة من المحافظة على مكارم الأخلاق، وحسن الشيم، واتباع السنة، وغاية التحفظ والورع التام في المأكل والمشارب، والقناعة بالاقلال، وعدم الافتخار بالجاه والمال...»[3]. وهي صفات تناقضها صفات الطرف الآخر، فقد حمل الأندلسيون معهم العادات والتقاليد المكتسبة باسبانيا، حملوا معهم من هناك سلوكا دينيا معينا نتج عن ممارسة القمع عليهم طيلة سنوات متعددة، وهو سلوك يعتمد أساسا على الجوهر عوض المظهر، لأن هذا الأخير موضوع أساسا لايهام الاسبان بأنهم مسيحيون.

وعلى كل فقد انتهت فصول هذا الصراع[4] بعدم تحقيق الأندلسيين لطموحهم السياسي، لكن وجودهم الحضاري استمر مع ذلك شاهدا على حضورهم بالمنطقة، وهذا بوجندار يشير إلى هذا الحضور قائلا :

---

2 - انظر الفصل الثالث من الباب الثاني.

3 - م. بن علي، الاتحاف الوجيز، 33.

4 - مازالت الرواية الشفوية تحتفظ ببعض آثار هذا الصراع، فمن خلال استجوابنا لعدد من شيوخ مدينة سلا لاحظنا انتقادهم الشديد لأندلسي الرباط لتفريطهم في وطنهم، ولاقبالهم على اللهو والطرب والخمر»، فبالنسبة لهم هم انشايطية)، وبالتالي فهم (حملة عدد من العادات والتقاليد الفاسدة). كما حفلت أمثال العامة بالعدوتين كذلك بالعديد من آثار هذا الصراع، وهذا نموذج منها :

«عمر السلاوي ما يكون للرباطي حبيب وأخ يولي رمل الواد زبيب وماه حليب».

«عند العصر كيحماق السلاوي» : وأصله أن السلاويين بعد صلاة العصر كانوا يخرجون إلى جانب النهر ويرمون السفن والتجار بالحجارة، وذلك نتيجة انتقال الأنشطة الاقتصادية إلى الضفة الأخرى، وما نتج عن ذلك من آثار سلبية بالنسبة لمدينتهم.

«مسلمين الرباط»: وأصله ما عرف عن أندلسيي الرباط من الحذر والحيطة من المغاربة، وجريهم وراء مصلحتهم الشخصية، وعدم الاهتمام بمصلحة الآخرين.

«أهل الرباط على العموم هم أهل مدينة لا يعادلهم فيها إلا أهل فاس وتطوان، نظرا لأصلهم الأندلسي الأصيل في العراقة والحضرية التي نشاهد من آثارها في الرباط والرباطيين ما هو ظاهر، ظهور الشمس، في معارفهم وآدابهم وصنائعهم، ولذا كان الرباط ولم يزل آهلا بالأدباء والكتاب والشعراء، إلى مافيه من الصناع المجيدين، والتجار الأذكياء المجيدين، فضلا عن اليد العاملة بكل كد وجد، وبيوتات الرياسة والعائلات الكبرى العريقة في المجد...»[5].

وهذا ما أبرزه أيضا محمد بن علي السلاوي: «... فخطوط أهل العدوتين وفاس أندلسية الشكل، والعيان قاض بذلك بلاشك، ومازال الملوك الكرام يستعملون منهم كتابا لحسن خطهم وجودة تصرفهم، وحسابا أمناء يحسبون لمهارتهم ورسوخ الملكة فيهم بالتمدن القديم، حتى إن مولانا عبد الرحمان العلوي - قدس الله روحه - قال في كتاب له: ولأن أهل سلا هم أولى بهذه الخطة من غيرهم، وبمراسي الأيالة المولوية منهم حصة وافرة من العدول والأمناء يقومون بضبط الداخل والخارج...»[6]. كما ذكر الضعيف أن السلطان محمد بن عبد الله كان يريد إخراج أهل الرباط للصويرة لحصارهم أخيه بالقصبة، لكنه عدل عن ذلك لأنه رأى في خروجهم فراغا، ولن يجد من يقوم مقامهم بشؤون البحر[7].

وهكذا نلاحظ أن الأندلسيين، وإن لم يستطيعوا أن يبرزوا في العهد السعدي، لضعف تكوينهم العربي الاسلامي، بل وجهلهم باللغة العربية نفسها، ولاشتغالهم بأمور الجهاد من جهة أخرى، فإنهم سرعان ما برزوا في العصر العلوي كتابا وأدباء وشعراء وعلماء فلك، ورياضيات، كما يتجلى ذلك من خلال التعرض لبعض البيوتات الأندلسية بالعدوتين.

أولا: البيوتات الأندلسية بالرباط [8].

---

5 - مقدمة الفتح، 310.
6 - الاتحاف الوجيز 13.
7 - تاريخ الضعيف، 177.
8 - اعتمدنا في هذا الجدول على ما يأتي:
محمد بن عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف.
م. بوجندار: الاغتباط....، مقدمة الفتح.
م. بن علي دنية: مجالس الانبساط....
م. بن علي السلاوي، الاتحاف الوجيز....
ع. الله الجراري، من اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين
الحوالة الحبيسة لمدينة الرباط، مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 41.

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
بركاش	تقلد عدد من أفرادها	بنعمرو	مازالت موجودة
	منصب الأمين في عهود	بلكاهية	مازالت موجودة
	مختلفة. ما زالت موجودة	تكيطو	
بلانبو	مازالت موجودة	تمورو	مازالت موجودة
بيرو	مازالت موجودة	التونسي	مازالت موجودة
برادو	مازالت موجودة	جوريو	مازالت موجودة
بسير		حيرو	
بربيش	مازالت موجودة	الحمري	انقرضت
بلامينو	مازالت موجودة	الحداد	مازالت موجودة
بريس	مازالت موجودة	الحافي	مازالت موجودة
باينة	مازالت موجودة	دنية	من بيوت العلم بالمدينة
بونو			مازالت موجودة
بنطاهر	مازالت موجودة	الدقاق	
بندهاق		دياس	
بنطوجا		دعنون	انقرضت، وهناك العرصة الدعنونية
بندورو	مازالت موجودة		
بالسيو	انقرضت	الدك	انقرضت، وهناك زنقة
بزازة	انقرضت		الدك وجامع الدك
بلانكو	تعرب اسمها فأصبحت	الرندة	مازالت موجودة
	تسمى الأبيض - مازالت	الرندي	
بلافريج	مازالت موجودة	ركيك	
بلرور	انقرضت	رودياش	
بنضيف	انقرضت	زبرو	
بنمنديل	انقرضت	الزبدي	تولى عدد من أفرادها
بلفقيه	مازالت موجودة		مناصب عدة، مازالت.
بنقدور	مازالت موجودة	الزهراء	تولى عدد من أفرادها خطة النظارة، مازالت.

زطوط	مازالت موجودة	صيرون	انقرضت
طيفور	مازالت موجودة	ضاكة	مازالت موجودة
كريسبو	مازالت موجودة	عاشور	مازالت موجودة
كيليطو	مازالت موجودة	العماني	مازالت موجودة
كراكشو	هناك من يكنيها كراشكو بتقديم الشين على الكاف	عبدون	انقرضت
كنظرون	مازالت موجودة	غنام	اشتهروا بالسفارة والنظارة،
كديرة	انقرضت		مازالت موجودة
اللوشي	مازالت موجودة		
لباريس	مازالت موجودة	فشردو	
ليرو	مازالت موجودة	فلوريش	انقرضت
مارسيل		فنجيرو	مازالت موجودة
		فنجيرو	انقرضت
	اشتهر عدد من أفرادها بالتنجيم والتعديل.	القرطبي	مازالت موجودة
	مازالت موجودة	القسطالي	مازالت موجودة
مولاطو		القصري	مازالت موجودة
ملين	من بيوت العلم بالمدينة	قريون	
	مازالت موجودة	قوريا	
مرينو	اشتهر عدد من أفرادها	سباطة	مازالت موجودة
	بخطط القضاء والحسبة والعمالة والأمانة.	السنسياض	انقرضت
	مازالت موجودة	شكلانط	مازالت موجودة
متجنوش	مازالت موجودة	شنتياك	انقرضت
مدون			
المراس			
المدور	مازالت موجودة		

ثانيا : البيوتات الأندلسية بسلا[9] :

الاسم العائلي	ملاحظات
زنبير	من بيوت العلم بالمدينة، استوطنوا المدينة بعد سقوط غرناطة. مازالت موجودة.
الحصار	من بيوت العلم بالمدينة، استوطنوا بها بعد سقوط غرناطة - مازالت موجودة
فنيش	لعب عدد من أفرادها أدوارا هامة بالمدينة، مازالت موجودة.
ابن عطية	من الأسر العلمية بسلا. قدموا من اشبيلية أواخر القرن التاسع، واستوطنوا مدينة الرباط أولا، ثم استقروا بعد ذلك بسلا، ومازال حيهم الكبير في شمال المدينة يعرف باسمهم حتى اليوم. اضطروا إلى الهجرة بعد ذلك إلى فاس نتيجة مواجهة بينهم وبين السلاويين.
خالص	من مدينة رندة، مازالت موجودة.
حمدون	من قرطبة بينهم عدد من رياس البحر. انقرضت
العطار	استقروا بالمدينة لعد سقوط غرناطة. تولى عدد من أفراد هذه العائلة مناصب مهمة في عهد الدولة العلوية. مازالت موجودة.
الابيض	كانوا يعرفون بأولاد بلانكو. مازالت موجودة.

9 - اعتمدنا في هذا الجدول على المصادر الآتية :
م. عبد السلام الضعيف، تاريخ الضعيف.
محمد بن علي السلاوي، الاتحاف الوجيز
بلقاسم لعشاش، بيوتات مدينة سلا
عبد الله الجراري، من اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين
الخوالية الحبيسة لمدينة سلا، مخطوط خ.ح. بالرباط عدد 593.
Jean Cousté, *Les grandes familles indigènes de Salé*.

2

فاس

شهدت فاس أيضا مواجهة اجتماعية بين الجالية الأندلسية بالمدينة وباقي العناصر المتساكنة بها . فقد استأثرت فئة من هذه الجالية بالجاه والثروة والعلم، مفتخرة معتزة بأصلها الأندلسي الذي يؤدي بها إلى شرف نسبها[10]، فهذا أحمد بن محمد الكراري الأندلسي (ت. 1138 هـ) يذكر في تقييد له :« فاعلم أن عبيد ربه أحمد بن محمد الكراري... الأندلسي الغرناطي الذي خرج من العدوة الأندلسية إلى تازة ثم فاس... وهو ابن عبد الله بن أحمد... بن مولاي علي كرم الله وجهه، والله حسيب من يؤذينا في نسبنا، والله حسبي إذا بدلت أو غيرت أو رشوت، والله حسب من يطعن في سنتي، وأسأل الله أن يعاقبه في الدنيا ودعائي عليه جائز...»[11].

وهذا ما أشار إليه عبد السلام القادري : «ولأهل الأندلس عموما من المحافظة بالبحث في هذا الشأن - يعني علم النسب - ما ليس لغيرهم في سائر الأقاليم والأزمان بحيث إذا قدم عليهم من ينتسب إلى بيت من البيوت ويدلي إليهم استفصلوه عن جده وأبيه وفصلته التي تأويه، استفهموه عن مولده ومنشئه وبلده حتى إذا أحاطوا عنه علما بذلك كتب به طالبا لصحة خبر من له ولاية عندهم هنالك وتوجه الكاتب إلى الناحية التي قدم منها قريبة كانت أو نائية فإن ورد الجواب بصدق الخبر دون كذلك أحلوا مكانته وعظموا حرمته كما يجب وإلا عززوه تعزيزا

---

10 - م. ميارة، نصيحة المغترين، 92.

11 - م. بوجندار، الاغتباط، 18.

انظر أيضا ما يقوله م. عبد الرفيع المرسي الأندلسي (ت 1052هـ) في كتابه الأنوار النبوية 27، 28، 38، 57، 61.

ملاحظة :

سجل هذا الاعتزاز أيضا الرحالة الأجانب، إذ لاحظ موريس كتنج M. Keating - مثلا - أثناء زيارته للمغرب سنة 1785 أن الأندلسيين به يعتقدون بشرف أصلهم أكثر من باقي السكان.

انظر :

Travels in Europe and Africa, 1 : 313 in H.T. Vol XVIII, Fasc, unique 1978 - 1979 p. 111 note 36

شديدا وأخرجوه من أرضهم شريدا فكانت أنسابهم لذلك مضبوطة، واحسابهم عن الأدعياء محوطة...»[12].

وقد أنكر جماعة من العلماء الفاسيين من أصل غير أندلسي، هذا الافتخار الأعمى بالفردوس المفقود، ونسبوا أصحابه إلى التعصب والجهل بالتاريخ والانساب، لأنهن ظنوا أن الأندلس لم يسكنها غير الأوس والخروج من الأنصار، وما دروا أن الحملات والهجرات الإسلامية إلى الأندلس تعددت وسلمت اخلاطا من الأعراب والبربر، بالإضافة إلى القوط والصقالبة واليهود وغيرهم، ممن اعتنقوا الاسلام وامتزجوا امتزاجا كاملا بالمسلمين[13]، فبالإضافة إلى ما ذكره م. ميارة - السالف الذكر - نورد ما ذكره الشيخ م. بن الطيب الشركي (ت. 1170 هـ)، بعد تعرضه لاستيلاء الاسبان على الأندلس، وانتقال الأندلسيين إلى فاس: «وكثيرمنهم (الأندلسيون) عندنا في فاس، إلا أنهم غير صرحاء الأنساب...»[14].

ولم ينته هذا الجدال بانتهاء المرحلة التاريخية التي نشأ بها، استمرت بعض آثاره إلى عصرنا هذا - فهذا الشيخ ع. السلام بن سودة يذكر بهذا الصدد: «... كثير من كان أصله من بلاد الأندلس، عربي الأصل من غير شك ولا تردد، وليس الأمر كذلك، لأن الانتماء إلى الأندلس ليس المراد منه عربي قطعا، وإنما المراد أنه عريق في الإسلام له فبه عدة أجيال خصوصا في زماننا هذا حيث مر على استيلاء الاسبان على غرناطة عدة مآت من السنين..»[15].

ومثل ما حاولت الجالية الأندلسية أن تفرض نفسها كقوة اجتماعية بالمدينة حاولت أن تفرض نفسها أيضا كقوة سياسية لها وزنها بالمدينة، إذ شاركت في العديد من الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة[16].

---

12 - العرف العاطر، نقلا عن رياض الورد، 41.

13 - م. حجي، الحركة، 1 : 273.

14 - اضاءة الراموس، حرف الألف.

ملاحظة: عن استيطان العرب بالأندلس وأماكن توزيعهم انظر أ. المقري، نفح، 1 : 290- 298.

15 - ازالة الالتباس، 3.

16 - انظر مثلا: م. القادري، نشر، 1 : 259، 264، 336، 363، 371، 376، 380 ... ومن الدراسات انظر:
Norman Cigar, «Société et vie politique à Fès»
in H?T Vol XVII, Fascicule unique 1978 - 1979, pp. 111 - 114

م. مزين، فاس وباديتها، مواضع متفرقة.

إلى أن أصبحت تقتسم النفوذ مع اللمطيين، ففي رسالة السلطان مولاي اسماعيل بعث لها لسكان مدينة فاس[17] يذكر: «... إلى كافة الأندلسيين واللمطيين من أل فاس.. اليوم أفردناكم بالخطاب على الخصوص... كنت نعرفكم (كذا) على عهد أخينا مولاي رشيد - رحمه الله - منكم الجيش ومنكم العيش... وفي الحقيقة الأندلس واللمطيون هم أهل فاس وهم عمدة أهل فاس، وأما غيركم فما ثم إلا الدجاج الأبيض ومن لا يعد في العير ولا في النفير من البلدية وغيرهم...»[18].

وفرضت هذه الجالية كذلك نفسها في الميدان العلمي، إذ ظهر من بينهم علماء ساهموا بنصيب وافر في الحياة العلمية بالمدينة، نذكر من بينهم على الخصوص:

* - أحمد بن محمد الدقون[19](ت. 921هـ / 1515م):

درس أول الأمر بغرناطة قبل سقوطها، وقد أخذ عنه طلبة فاس الفقه وقواعد اللغة العربية، ورووا عنه كتابه بداية التعريف في شرح شواهدي الشريف.

* - محمد بن علي العدي[20] (ت. 975هـ / 1567).

ولد بغرناطة قبل أن يستولي عليها الاسبان بنحو 12 سنة، وفيها بدأ بعمله قبل أن ينقل مع أهله إلى فاس. كان العدي مضرب المثل في حفظ القراءات السبع، والمنظومات المتعلقة بعلوم القرآن، مع الضبط والاتقان وجودة الخط.

* - محمد بن قاسم القصار[21]. (ت. 1012هـ / 1604).

هاجر أبوه من غرناطة بعد سقوطها[22]، واستقر بفاس. وقد خلف م. القصار السراة في الافتاء والخطابة والكراسي العلمية، واشتهر بدقة التفكير والتعميق في البحث، إذ كان: «محدث المغرب في وقته... أحد العلماء الاعلام، وحامل

---

17 - قرر السلطان مولاي اسماعيل أن يحاصر مدينة سبتة لاسترجاعها من يد الاسبان، فبعث بهذه الرسالة إلى سكان مدينة فاس سنة 1130 هـ / 1718، لارسال الجنود إلى السلطان أو تقديم الأموال الضرورية للحملة.

18 - انظر الرسالة بمجلة:

H.T.Vol. XV Fascicule unique, 1974, pp. 114 - 115

19 - انظر ترجمته عند:

أ. بن القاضي، درة 1: 92- 93 رقم 131.

أ. المقري، أزهار، 1: 103 - 131.

ع. الرحمان الفاسي، ابتهاج، 231.

20 - انظر ترجمته عند:

ع. الرحمان الفاسي، ابتهاج، 194.

21 - ترجمته عن: أ. بن القاضي، درة 2: 153 رقم 632، أ المقري، روضة، 316.

22 - ع. الله الفاسي، الاعلام بمن غبر، 297.

م. القراني، صفوة، 125.

لواء شريعة سيد الأنام، إماما متبحرا في فنون شتى، سيما العلوم الشرعية... منفردا بالتحقيق عن أهل عصره... وتميز بالحديث والفقه والتفسير والأصلين والبيان...»[23].

– محمد بن أحمد الجنان المدجن الغرناطي الأندلسي[24] (ت. 1050هـ) : أمام مسجد الشرفاء بفاس، «صاحب الحواشي المشهورة بأيدي الطلبة»[25]، اشتغل بعدة علوم منها الفقه، خاصة مختصر خليل، والنحو والفرائض والحساب.

– محمد بن أحمد بن عزيز التجيبي الأندلسي[26] (ت !1022هـ) : من أحفاد منذر بن يحي ابن منصور أحد ثوار سرقسطة[27] أحد أكابر الاعلام في العلم والتصوف بفاس، له مؤلفات في التصوف.

وعرفت فاس كذلك عددا من المتصوفة من أفراد الجالية الأندلسية بها، نذكر من بينهم أحمد ابن مرسي المرابي الأندلسي[28]، ومحمد بن علي الرمال الأندلسي من أصحاب الشيخ أبي المحاسن[29]، وعلي بن يوسف الأندلسي البيطار المدجن، صحب أيضا الشيخ أبا المحاسن[30]، وأحمد حبيب الأندلسي الرندة[31]، ومحمد بن محمد بن معن الأندلسي[32].

البيوتات الأندلسية بفاس[33] :

---

23 – عبد الله الفاسي، نفس المصدر والصفحة.
24 –
25 – عبد الله الفاسي، المصدر السابق، 70.
26 – ابن القاضي، درة، 2 : 235 – 236 رقم 691.
ع. الفاسي، الاعلام 351. م. القادري ، نشر 1 : 177.
التقاط، 60 م. الافراني، صفوة، 60، م. الكتاني سلوة، 1 : 152.
27 – أ. بن القاضي، المصدر السابق، 2 : 235.
28 – م. الافراني، صفوة، 182، م. القادري، نشر 1 : 263.
29 – ع. الرحمان الفاسي، ابتهاج، 192.
30 – ع. الفاسي، المصدر السابق، 327.
31 – م. القادري نشر، 1 : 117، التقاط، 43، م. الافراني، صفوة، 169، م. الكتاني، سلوة 2 :365 .
32 – م. الافراني، صفوة، 177، م. القادري، نشر، 2 : 55، الالتقاط، 130، م. المهدي الفاسي، ممتع ، 145.
م. الكتاني، سلوة، 2 : 284، ع. السلام القادري، الدرر البهية، 2 : 334.
33 – اعتمدنا في هذا الجدول على المصادر الآتية : (يوسف ابن الأحمر)، بيوتات فاس قديما وحديثا.
أ. بن القاضي، جدوة الاقتباس.
عبد القادر الفاسي، بيوتات فاس الصغرى.
عبد الكبير بن هاشم الكتاني، زهر الآس في بيوت أخل فاس.
م. الكتاني، سلوة الأنفاس.
ع. السلام بن سودة ازالة الالتباس.
الحوالات الحبسية لمدينة فاس، الميكرو فيلم أرقام : 113، 114، 135.

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
آدراق	أهل معاش وحرفة،	البحر	برز منهم عدد من المتصوفة
آمعار	انقضوا	البرجي	بيت علم.
الابار	تكتب في بعض الرسوم (اللبار) أهل تجارة وعلم	بردلة	وصفوا (بالمدجنين) مارسوا الفلاحة، وبرز منهم عدد من القضاة مازالت موجودة.
الابريني	انقرضوا		
الأبيض	كان فيهم عدول وفقهاء	البزار	انقرضت
ابن الأحمر	انقرضوا	البلاج	أهل معاش وحرفة وتجارة
الارجبي	يقال لهم الآن اللرجبي، وتكتب في بعض الوثائق	البلجي	من باجة، أصحاب ثروة. انقرضوا
	اللورجب، مازالت موجودة	البلنسي	انقرضوا
ابن الأزرق	نبغ فيهم عدد من الأطباء والعدول، مازالت موجودة.	ابن بقي	انقرضوا
		البسة	أهل حرفة
الأموي	من بني أمية ملوك الأندلس، كان فيهم بعض العدول والفقهاء.	البواب	أهل حرفة، برز منهم العلماء. مازالت موجودة.
ابن الأمين	أهل تجارة وعلم وينطق بها كالآتي : بلمين	البياز	أهل ثروة ومعاش وحرفة
		البياض	انقرضوا
الاندرشي	في بعض الوثائق لندريشي، أهل تجارة	البيجري	يوجدون بمكناس بكثرة
الأندلسي	مازالت موجودة	البيري	من البيرة، أهل معاش، وحرفة، انقرضوا
الاشبيلي	انقرضت	البيطار	أهل ثروة، وجاه. مازالت موجودة
امخلاص		البين	أهل معاش وحرفة
الباجي	اشتهروا بالمال والثروة	التماو	من غرناطة، ويذكرون أنهم من أولاد السراج.

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
باسو	اشتهروا بحرفة البناء مازالت موجودة		
التويجري	أهل معاش وحرفة	الدقون	انقرضوا
تيميروا	أهل ثروة وجاه انقرضوا	الدنوتي	انقرضوا
الجداص	من مالقة، أهل معاش وحرفة.	الرندي	أهل ثروة وجاه
الجرندي	أهل تجارة ومال وصناعة الفرو.	الرعيني	انقرضوا
ابن جنري	انقرضوا	الرفاء	انقرضوا
الجنان	مدجنون	الروسي	انقرضوا
حاضر	انقرضوا	الريحاني	
الحجاري	أهل عز وجاه	النريدي	أهل ثروة وجاه وحرفة
	انقرضوا		مازالت موجودة.
حجيج	أهل معاش وحرفة	الزجالي	انقرضوا
الحداد		الزرقاء	من غرناطة
ابن حرزهم	انقرضوا	ابن عزمون	مازالت موجودة
ابن حزب الله	انقرضوا	الزعيم	
		ابن الزياد	
ابن حكون		زيكون	انقرضوا
حكيم		ابن طارة	انقرضوا
ابن حسن	أهل معاش وحرفة	الطرنباطي	
ابن حسون	أهل ثروة وجاه وتجارة	الطرون	
الخراط	انقرضوا	الطرباني	من طريانة، انقرضوا
الخميري	أهل معاش وحرفة وجاه ومال	الطليطلي	انقرضوا
		طورة	
الدبيب	انقرضوا	طويطة	انقرضوا
الدراج	انقرضوا	الكاتب	من مالقة،أهل معاش وحرفة
الدريج		ابن كحيل	من برجة، انقرضوا

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
الكسيكس	من شريش، أهل معاش وحرفة.	المنظري	أهل تجارة
		المكاد	
الكومي	أهل معاش وحرفة، مازالت موجودة	المقّنا	أهل معاش وحرفة
		المقسر	
اللبلوطي	أهل معاش وحرفة	النكاصي	أهل معاش وحرفة.
اللب	من غرناطة. انقرضوا		مازالت موجودة.
اللريول	انقرضوا		
اللمارسي		نورا	
اللوشي	من لوشة	النيار	
الليريني	أهل جاه ومال	صالاج	في بعض الوثائق صالاس
الماروري	انقرضوا	ابن صالح	انقرضوا
برايس		الصخراوي	مازالت موجودة
المالقي	أهل معاش، مازالوا	الصدفي	أهل معاش وحرفة
مجبر	أهل معاش وحرفة		مازالت موجودة
محرز	أهل معاش وحرفة	الصغار	أهل معاش وحرفة.
ابن مخلوف	أهل معاش وحرفة	صفيرة	أهل معاش وحرفة
المدجن	مازال لهم ذكر	عاصم	أهل معاش وحرفة مازالت موجودة
المدرع			
المرابي	أهل معاش وحرفة	ابن عباد	
المرادي	أهل معاش وحرفة	العبدوني	انقرضوا
المرجي	أهل عز ومال	العجل	انقرضوا
المرطال		ابن عدة	انقرضوا
المرسي	انقرضوا	ابن عذرة	انقرضوا
المطرفي	أهل معاش وحرفة وعلم	عديل	أهل تجارة وحرفة مازالت موجودة.
المنطرش	أهل معاش وحرفة	العرابي	مارسوا مهنة الخرازة.

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
عدروج	انقرضوا	الفندوش	انقرضوا
ابن عروج	انقرضوا	القدومي	انقرضوا
ابن العربي	انقرضوا	القرطبي	من قرطبة ، مازالوا
عزمان	انقرضوا من فاس، ويجدرون	القرميدي	أهل معاش وحرفة
	بتطوان بكثرة	قزمان	أهل تجارة وحرفة
عفير	انقرضوا	قلمون	انقرضوا
العقرب	انقرضوا	القلصاوي	انقرضوا
غازي		القنطري	
الغرسيس	أهل معاش وحرفة،	القصار	من غرناطة انقرضوا
الغزال	من مالقة، مازالت	ابن ساسان	انقرضوا
ابن غزلان	أهل معاش وحرفة.	السبطري	
	انقرضوا	ابن سبعين	انقرضوا
بوغلوظ	أهل معاش وحرفة. انقرضوا	السراج	أهل معاش وحرفة وتجارة مازالوا
الغماد	أهل تجارة وحرفة، مازالوا.	ابن سليمان	من غرناطة أهل معاش وحرفة مازالوا
الغساني	من غرناطة	ابن سماجة	انقرضوا
فارح	أهل معاش وحرفة	سنكليو	انقرضوا
الفخار	انقرضوا	الشاطبي	من شاطبة،انقرضوا
فرج	انقرضوا من فاس ومازالوا بتطوان	الشبري	أهل معاش وحرفة مازالوا
ابن فرحون	من قرطبة، انقرضوا	الشبيلي	من اشبيلية أهل معاش وحرفة
الفرطاخ	مازالوا بتطوان أهل جاه	الشرقي	انقرضوا
فنجيرو	أهل معاش وحرفة	الشريني	انقرضوا
الطيبي		الشبلي	من شلب، انقرضوا
الشقوري	من شقورة، من عمل جيان	الشواش	أهل معاش
	انقرضوا	الهياض	أهل معاش وحرفة
الوجاري	من غرناطة	الوراق	انقرضوا
ابن وغدون	انقرضوا	الوقاد	مازالت بمكناس
الياصلوتي		البياني	انقرضوا
ابن يخلف	أهل معاش وحرفة مازالوا	ابن يعلا	انقرضوا

3

مكناس

عرفت مكناس أيضا استقرار من أفراد الجالية الأندلسية بها[34]، فقد لاحظ لويس شيني L. Chenier – مثلا – في القرن الثامن عشر أن القصور التي شاهدها بمكناس ما هي إلا تقليد للمعمار الأندلسي[35]. وقد برز في الميدان العلمي عدة عائلات أندلسيية بالمدينة، نذكر من بينها على الخصوص:

– عائلة الوقاد: هاجرت من اشبيلية بعد سقوطها في أيدي الاسبان في منتصف القرن السابع الهجري (13 الميلادي)، واستقرت بفاس أولا، ثم انتقل بعض أفرادها إلى مكناس، من بينهم علي بن عمر الوقاد[36]، من أقران الامام بن غازي، فكان موقت الجامع الكبير، وتولى ابنه عبد الرحمان (تبعد 834هـ / 1528) التدريس به، وقد اشتهر بالتضلع في النوازل وأحكام القضاء[37]، وشارك في المناظرة الكبرى حول مشكل البلديين، وناصر أحقية الاسلاميين في العمل بالأسواق وغيرها كسائر المسلمين[38].

وسيستمر العلم في هذه الأسرة الأندلسية طوال عهد السعديين، نذكر من بينهم على الخصوص علي بن قاسم الوقاد قاضيا بمكناس عام 1022 هـ / 1613[39].

34 – وردت عدة اشارات لذلك، نذكر على سبيل المثال أن ناسخ مخطوط خ، ح. بالرباط رقم 1578 (يضم فهرس المنثوري وبرنامج المجاري، ورحلة القلصادي) هو علي بن قاسم ابن علي البياضي، الأندلسي، من سكلان حصن بلش شرقي مالقة هاجر إلى المغرب فاستوطن مكناس وبها توفي سنة 912 هـ.

35 - Recherches.... 2 : 345

36 – م. الكتاني، سلوة 3 : 158 - 159.

37 – ع. الرحمان بن زيدان، اتحاف، 5 : 278 – 279.

38 – م. ميارة، نصيحة المغترين، 79ظ، 80 و.

39 – ع. الرحمان بن زيدان، اتحاف، 5 : 457 – 458.

40 – ع. الرحمان ن زيدان، اتحاف، 5 : 357.

– عائلة البجيري: اشتهرت هذه الأسرة بالعلم كذلك خاصة في العهد العلوي، ونذكر من بين علمائها: عبد السلام البيجري: «أديب، خطيب بليغ، مدرس، تولى القضاء على عهد السلطان مولاي عبد الله»[41].

– عائلة غريط: نذكر من بين أفرادها : محمد بن الهادي غريط طبيب السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام[42]، ومحمد بن محمد غريط : استوزر في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله [43].

البيوتات الأندلسية بمكناس :

أصدر السلطان مولاي اسماعيل أوامره في أوائل محرم عام 1121 هـ إلى قائده أحمد بن يعزى العرائشي « بتحقيق أحساب وأنساب ساكني حضرته المكناسية... وبتدوين ذلك في ديوان خاص [44]. وقد خصص جامع هذا الديوان [45] قسما خاصا للعائلات الأندلسية بمكناس.

---

41 – ع. الرحمان ن زيدان، اتحاف، 4: 132

42 – ع. الرحمان ن زيدان، اتحاف، 4: 242

43 – ع. الرحمان ن زيدان، اتحاف، 4: 248

44 – ع. الرحمان بن زيدان، المنزع اللطيف، 158.

45 – مخطوط خ. ح. بالرباط عدد 3207 كما أثبت نصه ع. الرحمان بن زيدان في المصدر السالف الذكر، 158 - 164.

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
ابن ابراهيم	انقرضوا	برقوق	يوجد بعض أفرادها بفاس
ابن حليمة	بيت علم وثروة	البياضي	من حصن بلش، شرقي مالقة
	مازالت موجودة	جابر	بيت علم. انقرضوا
ابن الحاج		الحزماري	من اشبيلية، هل معاش
ابن عبد الكريم	من مالقة،		وحرفة، مازالت موجودة
	مازالت موجودة	الدَّقيوق	من اشبيلية، مازالت موجودة
أبو الرخا	من غرناطة مازالت موجودة	الزناتي	من غرناطة، انقرضوا
ازيويزر	من غرناطة، كان فيهم علماء	طوجَّة	انقرضوا
	وفقهاء وصلحاء،	كُديش	من غرناطة، انقرضوا
	انقرضوا	اللُّب	من غرناطة، بيت علم ورياسة
أنفاع	من غرناطة،		انقرضوا
الأزرق	من اشبيلية	اللمتوني	انقرضوا
	مازالت موجودة	المسطاسي	مازالت موجودة
امسامح	انقرضوا	المعلّى (أحمد بن عبد الرحمان)	مازالت موجودة
إصقال الأشقر	انقرضوا	الصفار (حمّ)	من غرناطة، مازالت موجودة
(عبد القادر)		الصفار الحاج	مازالت موجودة
البيجري	من غرناطة ، بيت علم	ابراهيم	
	مازالوا	الصفار	
		(رمضان)	من هورناتشوس
بوراس	من غرناطة	الصفار	مازالت موجودة
	انقرضوا	صفندلة	مازالت موجودة
الباروا	من اشبيلية، بيت علم انقرضوا	عبد القادر بن العرب	
البتولي	من مالقة، انقرضوا	(الحاج) عبد القادر	من غرناطة
البياني	بيت علم انقرضوا	(الحاج)	من غرناطة

ملاحظات	اسم العائلة
من اشبيلية، بيت علم وياسة مازالت موجودة	غريط
انقرضوا	الغرناطي
بيت علم مشهور مازالوا موجودين	الغماري
من غرناطة انقرضوا	الفخار
انقرضوا	فنيدقة
من غرناطة، انقرضوا	القراص
من غرناطة مازالت موجود	القلفط
من غرناطة - مازالت موجود	القبري
من المرية، بيت علم مازالت موجود	القباب
انقرضوا	القصري
بيت علم مشهور مازالوا	القصري (أهل الكدية - عبدريون)
من اشبيلية . انقرضوا	شبليون
انقرضوا	هارون
بيت علم ورياسة انقرضوا	هلال
انقرضوا	وحودعزوز
يوجدون بفاس ومراكش وبني ملال.	الوقاد

4

مراكش

أول جالية أندلسية مهمة استقرت بمراكش في العهد السعدي هي الجالية التي أمر السلطان عبد الله الغالب باستقرارها في حي رياض الزيتون[46]، وقد استمر بعد ذلك توافد الموركسيين على المدينة، خاصة بعد صدور قرار طرد الموركسيين من اسبانيا، إلى أن أصبحت معها اللغة الاسبانية بمراكش تداني اللغة العربية في انتشارها[47].

ونشير إلى وجود عدد كبير من الاسبان الذين دخلوا إلى الاسلام حديثا، والدور الذي أصبحوا يلعبونه في الحياة السياسية بالمدينة، إذ لا ننسى مثلا الدور الذي قام به هؤلاء في فتح السودان أيام السلطان أحمد المنصور الذهبي، كما لا ننسى أيضا وجود عدد كبير من الأسرى الاسبان بالمدينة، والدور الذي كانوا يلعبونه في الحياة العامة بها[48].

وعلى العموم فإن الوجود الأندلسي بالمدينة ظل بارزا ويمكن تسجيله بسهولة، فأثناء وصف م،. الناصري لحفلة صلاة عيد ترأسها السلطان مولاي سليمان بمراكش يقول: «... ثم جاء أهل الأندلس القاطنين - (كذا) الحمراء وبين أيديهم لواء أخضر، وامتازوا به عن غيرهم، وجعلوا يخرجون البارود...»[49].

وفي الميدان العلمي نسجل بروز عدد من أفراد هذه الجالية بالمدينة، نذكر من بينهم على الخصوص :

*- أحمد بن قاسم ابن معيوب الأندلسي[50] (ت. 1022هـ / 1613):

برع في الحساب والهندسة والتنجيم واشتغل بتدريسها للطلبة.

*- علي بن ابراهيم الأندلسي[51] (ت. حوالي 1065هـ / 1655) :

---

46 - أبو القاسم الزياني الترجمان المعرب، 350.

47 - G. Deverdun, Marrakech..... I : 442

48 - Marmol Carvajal, l'Afrique, 2: 55

49 - الرياحين الوردية 68.

50 - انظر ترجمته عند م. الافراني، صفوة، والعباس بن ابراهيم الاعلام، 2 : 285 .286.

51 - انظر ترجمته عند م. الافراني، نزهة، 219 والعباس بن ابراهيم الاعلام، 9 : 222 .

مهر في ميدان الطب وعلمه لطلبته، ونظم الأزاجير في طرق التغذية النافعة وعلاج بعض الأمراض.

- أحمد بن قاسم الحجري[52] (ت، بعد 1051 هـ / 1641):

استقر بمراكش منذ أواخر عهد المنصور 1599، إذ يقول في هذا الصدد: «... ورأينا العافية والرخاء في تلك البلاد، إلى أن مات مولاي أحمد رحمه الله -»[53]، واشتغل بالترجمة لدى السلطان زيدان وبنيه عبد الملك والوليد، كما ربط علاقات حميمة مع علماء العاصمة، منهم على الخصوص أحمد بابا السوداني، إذ كان من المودعين له حين خروجه من مراكش[54]، ومع عيسى بن عبد الرحمان السكتاني[55].

---

52 - احسن ترجمة حاليا هي تلك التي كتبها الرجل نفسه من خلال كتابيه ناصر الدين (مواضع متفرقة)، وكذلك خاتمة ترجمته لكتاب العزو المنافع، أما باقي المصادر التي ترجمت له فلم تأت بشيء جديد في الموضوع.

53 - ناصر الدين، 29.

54 - المصدر السابق، 133.

55 - المصدر السابق، 134 .

5
تطوان

لاحظ الشيخ م. داود (الأندلسي) بشأن الجالية الأندلسية المستقرة بتطوان ما يأتي: «مما لا شك فيه أن المهاجرين الأندلسيين كان منهم رجال من أهل العلم والأدب، إلا أن هجرتهم لم تكن إلى تطوان التي كانت معرضة للحرب والطعان، بل إلى فاس وتلمسان وغيرها من الحواضر العامرة المشهورة بالعلوم والآداب، أما هذه المدينة فيظهر أنه نظرا لوقوعها في حدود الرباط والدفاع وقربها من ميدان الجهاد والقتال، كان المهاجرون اليها من رجال الحرب مع من انضم اليهم من الصناع والمزارعين»[56]. لكنه رغم ابدائه لهذه الملاحظة، فإنه أكد على تأثير هذه الجالية في الحياة الاجتماعية بالمدينة إذ يقول في هذا الصدد : «... كانت (تطوان) نسخة من أخريات المدن الاسلامية العربية في بلاد الأندلس، وإذا ذكرنا أن جل الوافدين عليها من الأندلس كانوا من غرناطة... عرفنا مبلغ سكان تطوان من الرقي وأساليب الحياة ومظاهرها من سكن وملبس، ومطعم ومشرب، ومتجر مصنع، فلقد كان للحياة الاجتماعية بتطوان طابع خاص امتاز بالرقة واللطف وحسن الذوق في الترتيب والتنميق، والمرونة في حل المشاكل والأزمات والتوفيق بين الواجب والواقع...»[57].

شخصيات علمية أندلسية بالمنطقة :

– أبو عبد الله محمد الرزيني الأندلسي[58] (ت. 934هـ / 1528: فقيه نوازلي ربما كان أول قاض بالمدينة بعد تجديدها.

– محمد بن عبد الرحمان الكراسي الأندلسي (ت، 964 هـ / 1557)، قال في حقه ابن عسكر : «كان أديبا شاعرا، تولى خطة القضاء بمدينة تطوان، وبقي على خطه إلى أن مات... ولقي مشايخ غرناطة في صغره، منهم المواقف وابن الجقوالة

---

56 – تاريخ تطوان، 1 : 168.

57 – المصدر السابق ، 1 : 431.

58 – أ. بن القاضي، درة 2 : 152 رقم 629، و م. داود تاريخ تطوان،ن 1 : 140.

وغيرهما...[59]، وهو صاحب الأرجوزة التاريخية الهامة: عروسة المسائل، فيما لبني وطاس من الفضائل[60].

- أحمد بن محمد طانية[61] (ت 1063 هـ / 1653):

من مدينة بسطة الأندلسية، فقيه نوازلي، تولى خطة القضاء بتطوان سنة 1040 هـ وقد توارث أفراد هذه الأسرة خطتي العدالة والقضاء في مدينتهم أجيالا متعددة، نذكر من بينهم على الخصوص ابنه عبد القادر الذي تولى خطة القضاء عام 1071هـ[62]، وأحمد طانية الذي تولى خطة العدالة سنة 1037 هـ[63].

- أبو الحسن على مندوصة الأندلسي[64]:

من أدباء تطوان أواخر القرن الحادي عشر، قال في حقه م. بن زاكور: « صاحبنا الأديب الأريب، الذي حاك من يرود الأدب كل قشيب، وهصر من أفنانه كل غصن طيب... »[65].

البيوتات الأندلسية بتطوان[66]:

اسم العائلة	ملاحظات	اسم العائلة	ملاحظات
ابن طلحة		الركيك	مازالت موجودة
ابن الأحمر	مازالت موجودة	الرزيني	
اجزول	مازالت موجودة	الرندي	
اشعاش	مازالت موجودة	زكري	مازالت موجودة
الأندلسي	مازالت موجودة	الطريس	مازالت موجودة
البركة	مازالت موجودة	طنانة	مازالت موجودة

59 - دوحة، 21.
60 - طبعت بالرباط سنة 1965.
61 - ع. الله الفاسي، الاعلام، وفيات عام 1063هـ، وع. الرحمان الفاسي، ابتهاج، 225.
62 - م. داود، تاريخ تطوان، 1 : 279.
63 - المصدر السابق، 1 : 282.
64 - م. بن زاكور نشر ازاهر البستان، 55و وم، بن الطيب العلمي، الأنيس المطرب 343، و. داود، تاريخ تطوان، 1 : 384 - 389.
65 - نشر ازاهر البستان، 49.
66 - اعتمدنا في هذا الجدول على المصادر الآتية :
أ. الرهوني عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، 10 أجزاء.
م. داود، تاريخ تطوان، 8 أجزاء.

بوخرص		الكندير	أهل معاش وحرفة مازالت
بايص	مازالت موجودة	الكراس	
البانزي	مازالت موجودة	كرازو	
بركاش		لوقاش	مازالت موجودة
البروبي	مازالت موجودة	اللب	
بورطو		اللبادي	مازالت موجودة
البوطي	مازالت موجودة	مراريش	
التبين		مولينا	مازالت موجودة
الحضري	مازالت موجودة	مدينة	مازالت موجودة
الخطيب	مازالت موجودة	الموفق	
داود	مازالت موجودة	مندوصة	
الدليرو	مازالت موجودة	مارتيل	
راغون	مازالت موجودة	مرينو	
الركانية	مازالت موجودة	المنظري	مازالت موجودة
الرثوث		مولاطو	مازالت موجودة
الرويز		نصر	
الرفاعي	مازالت موجودة	صالاس	مازالت موجودة
الراندو		العطار	مازالت موجودة
الرينة		غارسية	مازالت موجودة
الغرناطي		القطان	انقرضت
غيلان	مازالت موجودة	القيسي	
الفخار	مازالت موجودة	قريش	
الفقاي	مازالت موجودة	السراج	مازالت موجودة
القرطبي	انقرضت	اسوردو	مازالت موجودة
قشتيلو	مازالت موجودة	السكريج	مازالت موجودة
قبريرة			

5

شفشاون

استقرت بمدينة شفشاون جالية أندلسية مهمة، اتخذت حي ريف الأندلس شمال المدينة كمقر لها[67]. ويبدو التأثير الأندلسي واضحا جدا بالمدينة، سواء فيما يتعلق بشكل البناء المسقوف بالقرميد الأخضر، أو في طريقه من المنازل بالقنوات، أو العناية بالزهور داخل المنازل، وكذا في صحون المساجد بالمدينة.

وقد توارثت بعض الأسر الأندلسية بالمدينة أنواعا من المعارف، نذكر من بينها على الخصوص:

*- أسرة المفرج : توارثت الطب والصيدلة.

*- أسرة البيطار : توارثت في البيطرة

*- أسرة العاقل : توارثت في البناء

وهناك عددا من الأسر الأخرى التي توارثت في الموسيقى الأندلسية بالمدينة[68].

---

67 - G. Gozalbes Busto. Presencia de los moriscos en Tetuan y Xauen, in *Religion, Identité et sources documentaires sur les morisques Andalous*, I: 374

68 - انظر م. عبد القادر العافية، الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون، 280.

6

آسفي

حظيت أسفي كغيرها من مدن المغرب باستقرار جالية أندلسية بها، ومن بين البيوتات الأندلسية بها[69]

اسم العائلة	ملاحظات
باجدوب	تولى بعضهم خطة العدالة، ما زالوا
الركوش	من حصن اركش بأحواز اشبيلية، تولى عدد من أفراد هذه العائلة خطط القضاء والحسبة. مازالوا.
مَرْحبوا	مارس بعضهم العدالة والطب مازالوا
مُيْته	مازالوا
الغماز	تولى بعضهم خطة العدالة مازالوا
القلعيين	مازالوا
الشقوريين	من شقورة، تولى عدد من أفراد هذه العائلة خطط النظارة والحسبة والعدالة. مازالوا

69 - اعتمدنا في هذا الجدول على المصادر الآتية :
م. الكانوني، أسفي وما إليه قديما وحديثا.
م. الكانوني، جواهر الكمال، في تراجم الرجال
الحوالة الحبيسة لأسفي، ميكرو فيلم خ. ع. بالرباط رقم 154 ومخطوط نظارة أسفي رقم 60.

الخاتمة

تتبعنا خلال هذه الدراسة وضعية هذه الجالية الأندلسية بالمغرب خلال قرنين كاملين، فقد رأينا أولا علاقة المغرب بهؤلاء وهم في بلدهم، والدور الذي قام به لتقديم المساعدة لهم، والملابسات التي صاحبت كل ذلك، ورأينا في مرحلة تالية ظروف استقبال هؤلاء، وأماكن توزيعهم داخل المغرب، ورأينا أيضا كيف اتخذوا من المغرب مركز انطلاق للقيام بعمليات الجهاد البحري للانتقام ممن طردوهم من بلدهم.

ورأينا أخيرا كيف فتح لهم المغرب مجالات العمل في الميدان الفلاحي والحرفي والتجاري، ومدى مساهمتهم في الميدان الفكري والدبلوماسي.

فما هي الخلاصات التي يمكن الخروج بها من خلال ذلك؟

أولا : ظل أفراد هذه الجالية في هذه الفترة - ورغم كل ما حصل - يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة، ويتحينون الفرصة للرجوع إلى وطنهم المفقود[1].

---

1 - من هذا القبيل أن العديد من المصادر تذكر أن بعض العائلا الأندلسة بالمغرب، خاصة بفاس وتطوان كانت ماتزال إلى وقت قريب تحتفظ بمفاتيح بيوتها بالأندلس انظر - مثلا - I.D Abbou, op. cit p. 81

كما ذكر م. بن عبد السلام السائح الأندلسي ما يأتي (سوق المهر، المقدمة صفحة لي): «ومن غريب الأحاديث ما سمعته من بعض الغربيين أن أهل الأندلس بالمغرب لايزالون محتفظين بمفاتي قصورهم يتوارثونها أملا بالعودة إلى ديارهم، وقد نقل بعض الكتاب عن جريدة دوتشيه الحمنية تسابتونغ الألمانية في عددها المصادر في شهر شتنبر سنة 1924 انها ايدت ذلك حين قالت وانه لذو شأن رمزي ما نراه من احتفاظ كثير من البيوتات المغربية بمفاتيح القصور القديمة التي كانت لا جدادهم في طليطلة وقرطبة وغرناطة كان من كانوا يوما أربابا لها وأصحابها سيعودون لسكانها وتعود اليهم املاكهم...»

كما ذكرت الكاتبة الانجليزية فرنسيس مكتب التي زارت تطوان سنة 1901 ان كثيرا من الارستقراطيين الأندلسيين من سكان المدينة ظلوا يحتفظون بهذه المفاتيح إلى غاية الحرب المغربية الاسبانية سنة 1860، إذ صادرها آنذاك الاسبان انظر : ع. المجيد بن جلون جولات في مغرب الامس، 17.

وقد أكد لنا المهدي الدليرو (الأندلسي) المحافظ السابق للخزانة العامة بتطوان، نفس الشيء.

ونشير أيضا أن عائلة بردلة (الأندلسية) بفاس تدعي أيضا أن لها مفاتيح بيوتها بالأندلس.

وعلى كل فإنه مما يجب التأكيد عليه أن احتفاظ هؤلاء بالمفاتيح إلى وقت، لم يكن أبدا يعني العودة إلى موطنهم الأصلي، بل فقط من قبيل الحفاظ على تراث الأجداد ومن هذا القبيل أيضا ما ذكره الشيخ ع. السلام ابن سودة من أحد أفراد عائلة الغماد الأندلسية بفاس أتاه سنة 1938» وأخرج من تحته بعض أوراق من المصحف الكريم... وذكر أنه كان عندهم صندوق مذخر من اسلافه، ويذكرون انهم اتوا به من بلاد الأندلس حين فروا منها، وكانوا يتشاءمون من فتحه على أن من فتحه يصاب بسوء، إن هذا البعض اقتحم ذلك الصندوق وفتحه فوجد فيه نحوا من أربعين حزبا من القرآن الكريم...» انظر ازالة الالتباس، 1: 102.

ثانيا : ظل هؤلاء يشكلون فئة اجتماعية تميزة، فهم يسكنون أحياء خاصة بهم، ولا يميلون إلى الاختلاط بغيرهم، فالمرأة الأند سية لا تتزوج من غير الأندلسي إلا إذا اضطرتها الحاجة والفقر إلى ذلك وهم يعتزون بأصلهم الأندلسي الذي يثبت شرف نسبهم.

ثالثا: كان أفراد هذه الجالية أكثر إقبالا على الميدان العلمي من الفئات الاجتماعية الأخرى، فقد برعوا في ميادين الحساب و الهندسة والفلك والطب، وهي ميادين كانت تمكنهم من رتب رفيعة في سلم التر كيبة الاجتماعية المغربية.

رابعا: عرف الكثير من أفراد هذه الجا ية حماسا دينيا جارفا على مستويين :

- على مستوى خدمة المتصوفة: نذكر على سبيل المثال أن عددا من الأندلسيين تفانوا في خدمة الشيخ أبي المحاسن: «... كان الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن يوسف البيطار لقبا المدجن أصلا هو المعتاد لمرافقته ...»[2]، كما أن الشيخ أبا سالم ابراهيم بن محمد النيار الأندلسي كان يخدم الشيخ ويجري في مصالح داره....[3].

، إقبال الأندلسيين على التصوف وخدمة أقطابه واضح جدا فقد استخدموه كورقة لواجهة المغاربة، الذين كانوا يتهمونهم بأنهم فرطوا في وطنهم بسبب اختلاطهم بالنصارى، فالأندلسي كان في عرف المغربي «انشايطي» رجل يميل إلى اللهو ومخالطة النساء، وبالتالي عدم الاعتناء بواجباته الدينية، فالطريق إذن لدفع هذه الشبهات هي الزهد في الدنيا، ولا غرابة أيضا أن نرى محتسبين من بين أفراد هذه الجالية أنفسهم لدرع مواطنيهم ومن تبعهم من المغاربة، أي في النهاية أراد هؤلاء أن يثبتوا أنهم يستطيعون أن يكونوا مثل لمغاربة على مستوى من الاستقامة والجدية.

- على مستوى الجهاد : كان أفراد هذه الجالية أشد أعداء المسيحيين، إذ يفرضون مقادير باهضة لفداء أسراهم، ويرغمونهم على الدخول في الإسلام والعمل ضد مواطينهم، مما كان يثير باستمرار غضب الرهبان.

وإقبالهم على الجهاد - أيضا - يمكن تفسيره هنا بالملاحظة السابقة، فبالإضافة إلى عامل الانتقام من المسيحيين يمكن أن نضيف أيضا عامل رد الاعتبار لهم أمام المغاربة، فهولاء في نظر المغاربة هم السبب في فقدان بلدهم بسبب عدم اهتمامهم

---

2 - م. العربي الفاسي، مرآة المحاسن، 22.
3 - المصدر السابق، 31.

بالجهاد واشتغالهم بالتطاحن فيما بينهم، فهو هنا أيضا لمواجهة المغاربة ولكي يثبتو بأنهم لايقلون جهادا عن باقي المسلمين، وإنما وقع ما وقع لظروف خاصة تتعلق بالمنطقة نفسها.

خامسا : أصبح أفراد هذه الجالية يشكلون فئة اجتماعية بإمكانيات اقتصادية مهمة تستطيع من خلالها أن تفرض نوعا من النفوذ على باقي الفئات ذات الامكانات المحدودة، مما أثار مواجهة بينها وبين هذه الفئات.

سادسا : لعب أفراد هذه الجالية أدوارا سياسية مختلفة في مختلف فترات القرنين السادس عشر والسابع عشر، حيث أصبح دورها بارزا سواء كمستشارين، أو سفراء، أو جنود، لكن الأخطر من كل هذا هو أنه في مرحلة ما من القرن السابع عندما كانوا يفكرون في خلق كيان مستقل لهم داخل المغرب، وهذا لم يشاهد لا في الجزائر ولا في تونس.

سابعا وأخيرا: لم تلبث هذه الجالية أن فقدت هذا «التفوق» الحضاري والسياسي، وبدأت تندمج مع باقي أفراد المجتمع المغربي، وذلك انطلاقا من أواخر القرن السابع عشر.

تلك كانت أهم الخلاصات التي يمكن الخروج بها من خلال التأريخ لمراحل هذا الوجود الأندلسي بالمغرب، وهي خلاصات يمكنها أن تتضح أكثر إذا ما اتجه البحث مستقبلا إلى دراسات مونغرافية، إذ ان انجاز أبحاث تتعلق بالوجود الأندلسي بمنطقة معينة (سياسيا وحضوريا) سيساعدنا - بدون شك - على أخذ صورة متكاملة ودقيقة عن هذا الوجود بتلك المنطقة.

الفهارس العامة

أولا : فهرس المصادر والمراجع

أ - باللغة العربية :

- ابن ابراهيم العباس (ت 1378 / 1959)
- الاعلام، بمن بمراكش من الاعلام . تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط. 1974 - 1983 أجزاء).
- ابن أبي دينار محمد (ت 1092 - 1681)
- المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تحقيق محمد همام، المكتبة العتيقة، تونس 1967.
- ابن الازرق محمد (ت 897هـ / 1491)
- بدائع السلك في طبائع الملك. دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم تونس، 1977، جزآن.
- ابن الحاج محمد الطالب (ت، 1273 - 1857).
- رياض الورد، إلى ما انتمى إليه هذا الجوهر الفرد، مخطوط خ.ع بالرباط عدد 2313ك.
- ابن الخطيب لسان الدين (ت 776 / 1374).

1 - الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة. 1973 - 1978، 4 أجزاء.

2 - معيار الاختيار، في ذكر المعاهد والديار، تحقيق محمد كمال شبانة، الرباط 1977.

- ابن خلدون عبد الرحمان (ت 808 / 1406)
- المقدمة
- كتاب العبر، ديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر
- ابن زيدان عبد الرحمان (1365 / 1946)
- اتحاف اعلام الناس، بجمال أخبار حاضرة مكناس، المطبعة الوطنية بالرباط، 1930 - 1933 في 5 أجزاء.

- المنزع اللطيف، في التلميح مولاي اسماعيل بن الشريف. مخطوط خ. ح بالرباط عدد 2019.
- ابن عاصم محمد (ت. بعد 857هـ/ 1453).
- جنة الرضى، في التسليم لما قدر الله وقضى، مخطوط خ، ح بالرباط عدد 2648.
- ابن عبد الرفيع محمد (ت 1052 / 42 - 1643).
- الأنوار النبوية، في آباء خير البرية، مخطوط خ. ع بالرباط عدد 1238ك
- ابن عبود محمد
- تأملات في التصورات التاريخية للأندلس قديما وحديثا مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس السنة 10، العددان 19 / 30، يوليوز 1983، ص487 - 503.
- المورسكيون في نهاية عهد دول الطوائف من خلال النصوص التاريخية الاندلسية.
مقال بمجلة البحث العلمي، العدد 35، 1985 ص 31 - 48.
- التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف، تطوان، 1983.
- ابن عثمان محمد المكناسي (ت 1214 / 1799).
- الاكسير في فكاك الاسير، تحقيق محمد الفاسي، الرباط 1965.
- ابن عزوز محمد حكيم
- الست الحرة حاكمة تطوان. الرباط 1983.
- ابن علي محمد الدكالي (ت 1364 / 1954)
- اتحاف اشراف الملا، ببعض أخبار الرباط وسلا، مخطوط خ. ع بالرباط، عدد 11د.
- الاتحاف الوجيز، بأخبار العدوتين الهدي لمولانا عبد العزيز، مخطوط خ. ع. بالرباط، عدد 42د.
- ابن عسكر محمد (ت 986هـ / 1578)
- دوحة الناشر، لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر. تحقيق محمد حجي، الرباط 1976.
- ابن القاضي أحمد (ت 1025 / 1616).
- جذوة الاقتباس، فمن حل من الاعلام مدينة فاس.
دار المنصور للطباعة والوراقة. الرباط جزآن. 1973، 1974.
- درة الحجال، في أسماء الرجال، مطبعة الحضارة العربية بالقاهرة - 1974 1970 في 3 أجزاء.

- المنتقى المقصور، على مآثر الخليفة المنصور.
دراسة وتحقيق محمد رزوق، الرباط 1986.
- ابن سودة عبد السلام (ت 1980).
- إزالة الالتباس، عن قبائل مدينة فاس. مخطوط خ. ح. بالرباط عدد 652 10.
- ابن شاهين عبد الباسط بن خليل (ت 920/ 1514)
- الزهر الباسم، في حوادث العمر والتراجم
نشر روبير برنشفيك القسم المتعلق بشمال افريقيا بباريس سمة 1936.
ونشر القسم الأندلسي بمجلة الأندلس، سنة 1933.
- ابن يجبش محمد بن عبد الرحيم (ت920هـ / 1514)
- تنبيه الهمم العالية: نشره أبو بكر البوخصيبي ضمن كتابه «أضواء على ابن يجبش التازي» مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1336 / 1976.
- أبو الاجفان محمد
- عدالة المورسكيين في نظر الفقهاء.
بحث مقدم إلى المؤتمر العالي الثاني للدراسات المورسكية، تونس 1983، 9 صفحات.
- أعمال المائدة المستديرة العالية الأولى للجنة العالمية للدراسات المورسكية حول: الأدب الالخميادو — المورسكي تونس 1986.
- الافراني محمد (ت 1140/ 27 - 1728).
- نزهة الحادي، في أخبار ملوك القرن الحادي
الطبعة الثانية، 1977، منشورات بردي، الرباط.
- صفوة من انتشر، من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، المطبعة الحجرية بفاس، دون تاريخ.
- بارالت لوس لوباز.
- «النبوءة في أدب الخميادو الموريسكي للأندلس من خلال مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس» مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة 8، العددان 21 / 22، أبريل 1981، ص 50 – 61.
- بالنشينا آنخل
- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس القاهرة، 1955.
- البلوى أحمد (ت. عام 938 / 1532).

- ثبت الشيوخ. دراسة وتحقيق عبد الله العمراني. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983.
- بنعبد الله عبد العزيز.
- «البحرية المغربية والقرصنة». مقال بمجلة تطوان، العددان الثالث والرابع، 1958 - 1959، ص 59 - 71.
- «التطور الحضاري في مصب أبي رقراق» مقال بمجلة المناهل، العدد 10، نونبر1977، السنة الرابعة، 85 - 133.
- بنشريفة محمد
أبو المطرف ابن عميرة الرباط 1385 / 1966.
- أمثال العوام في الأندلس. مطبعة محمد الخامس بفاس، 1971 - 1975 في جزءين.
- من منافرات العدوتين، مقال بمجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، العدد الاول، يناير 1977، ص 7 - 49.
- بشتاوي عادل سعيد
- الأندلسيون المواركة : دراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة. الطبعة الثانية، دمشق، 1985.
- بوجندار محمد (ت 1345 / 1926).
- الاغتباط بتراجم اعلام الرباط، مخطوط خ.ع. بالرباط عدد 1287 د.
- مقدمة الفتح، من تاريخ رباط الفتح، الرباط 1345هـ.
- بوزينب الحسين
- تقييم للكتابات الأعجمية المورسكية. مقال بمجلة دار النيابة، السنة الثانية، العدد السادس، سنة 1985، طنجة ص 64 - ص 71.
- الدين واللغة من خلال المكتوبات العجمية المورسكية، بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدرسات المورسكية بتونس، 1983، 13 صفحة.
- اللغة المورسكية المسماة بالعجمية، ضمن أعمال البحث اللساني والسميائي، في الدار البيضاء، 1981، ص 107 - 119.
- القيمة الحقيقية للرموز الخطية في الأدب الأعجمي، ضمن أعمال الأدب الالخميادو المورسكي تونس، 1986، ص 29 - ص 37.
- بوشارب أحمد
- الجالية المورسكية المقيمة بالبرتغال. مقال بمجلة المناهل، العدد 24، السنة التاسعة، يوليوز 1982، ص 354 - 392.

- محضر محاكمة امرأة مغربية من لدن محاكم التفتيش الدينية البرتغالية. مقال بمجلة المناهل، العدد 21، السنة الثامنة، يوليوز 1981، ص 224 - 287.
- التركي عبد المجيد.
- وثائق عن الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى تونس، مقال بمجلة «حوليات الجامعة التونسية» العدد الرابع ، 1967، ص 23 - 82.
- التميمي عبد الجليل
- تمسك المورسكيين بدينهم وهويتهم من خلال قراءتهم لأحاديث الرسول في مخطوطتين، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، السنة 11، العدد 35 / 36، دجنبر 1984، ص 5 - 13.
- الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني عن الايالات المغربية في القرن السادس عشر. مقابل بالمجلة التاريخية المغربية، تونس العددان 10 / 10، يناير 1978، ص 5 / 44.
- الدولة العثمانية وقضية المورسكيين، مقال بالمجال التاريخية المغربية، تونس، السنة 8، العددان 23 - 24، نونبر 1981، ص 293 - 187.
- رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541.
مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 3، سنة 1975، ص 47 -37.
- التواتي عبد الكريم
- مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، الدار البيضاء، 1967.
- الجراري عبد الله (ت . 1985)
- من اعلام الفكر المعاصر بالعدوتين : الرباط وسلا.
مطبعة الأمنية بالرباط، 1971، في جزءين
- الجنابي مصطفى بن حسين (ت 999هـ / 1590)
- البحر الزخار، والعليم التيار . مخطوط خ، ح بالرباط عدد 1507.
- حتامله محمد عبده
- التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثولكيين، (1474هـ 1516 (عمان، الأردن 1980).
- التهجيز القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملك فليب الثاني، عمان الأردن، المجلد الثامن، العدد الثاني، 1981، ص 71 - 84.
- «الملك شارل الأول وموقفه من مظالم المورسكيين إبان زياراته لغرناطة عام 1526»، مقال بمجلة دراسات، عمان، الاردن المجلد السابع ، العدد 2، 1983- ص 87 - 102.

- «التهجير القسري للموركسيين خارج شبه جزيرة ايبريا في عهد الملك فليب الثالث (1598 - 1621)، مقال بمجلة دراسات، عمان، الاردن، المجلد 10، العدد 1، 1983، ص 111 - 124.
- موريسكيو بلنسية تحت وطأة السلطة الدينية والسياسية في عهد فليب الثالث (1598 - 1621).
بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدراسات الموريسكية تونس، 1983، 35 صفحة.
- الحجري أحمد بن قاسم (ت، بعد 1641 / 1051).
- ناصر الدين، على القوم الكافرين تحقيق محمد رزوق، الدار البيضاء 1987.
- العز والمنافع، للمجاهدين بالمدافع (ترجمة) مخطوط خ. ع بالرباط عدد 87 ج.
- حجي محمد
- الحركة الفكرية في عهد السعديين. دار المغرب بالرباط 1977 - 1978، جزآن.
- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي.
المطبعة الوطنية بالرباط 1384 / 1964.
- حركات ابراهيم
أخبار عن جمهورية أبي رقراق، مقال بمجلة دعوة الحق، العدد الثالث، يناير 1965.
- ابن عائشة أمير البحر في عهد مولاي اسماعي، مقال بمجلة دعوة الحق، العدد 4، مارس 1969. ص 126 - 129.
- المقاومة البحرية في القرن الحادي عشر الهجري، مقال بمجلة دعوة الحق، العدد الثامن، السنة 15، مارس 1973. ص 113 - 118.
- حومد أسعد
- محنة العرب في الأندلس، بيروت 1980.
- داود محمد (ت. 1985)
- تاريخ تطوان، 8 أجزاء تطوان والرباط 1979 - 1959.
- دينية محمد بن علي (ت 1939 /1358).
- مجالس الانبساط، بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط، مخطوط خ، ح بالرباط عدد 979.
- دنون عبد الواحد طه
- «استقرار القبائل البربرية في الأندلس» مقال بمجلة أوراق، مدريد، العدد الرابع، 1981، ص 48 - 35.

- رزوق محمد
- «الجالية الأندلسية بالمغرب العربي»، مقال بمجلة المناهل، العدد 34، السنة يوليوز 1986، ص 186 - 121.
- الرهوني أحمد (ت 1953 /1373)
عمدة الراوين في أخبار تطاوين، مخطوط م. ع بتطوان، عدد 318، 10 أجزاء.
- روجرز ب. ج.
- تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى 1900، ترجمة عن الانجليزية يونان ليب رزق الدار البيضاء 1981.
- رئيس سليمان مصطفى (وآخرون)
- بحوث عن الأندلسيين في تونس (جمع) تونس، 1983.
- زمامة عبد القادر
- أبو الوليد ابن الأحمر، الدار البيضاء 1978.
- الزياتي عبد العزيز (ت 1645 / 1055).
- الجوهر المختارة فيها وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة . مخطوط خ. ع بالرباط عدد 66 ج.
- الزياني أبو القاسم (ت 1249 / 1833).
- الترجمان المعرب، عن دول المشرق والمغرب، مخطوط خ. ع، بالرباط رقم 658 د.
- كاردياك لوي
- قضية المورسكيين بأمريكا، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، العدد 6، يونيو / يوليوز 1976، ص 90 - 110.
- الكانوني محمد (ت 1375 / 1938).
- أسفي وما إليه قد يما وحديثا، الطبعة الثانية، دار الطباعة الحديثة، الدار البيضاء 1985.
جواهر الكمال، في تراجم الرجال المطبعة العربية بالدار البيضاء 1937.
- الكتاني محمد (ت 1345 / 1926).
- سلوة الانفاس، ومحادثة الاكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، المطبعة الحجرية بفاس عام 1318 / 1900، في 3 أجزاء.
- الكتاني عبد الكبير بن هاشم (ت 1350).
- زهر الآس في بيوت أهل فاس، مخطوط خ، ع، بالرباط عدد 1271 ك

- الكراسي محمد (ت 964هـ / 1557).
- عروسة المسائل، فيما لبني وطاس من الفضائل الرباط 1963 / 1383.
- كربخال مارمول (ت بعد 1571).
- افريقيا، الجزء الأول
ترجمة عن الفرنسية محمد حجي، محمد زنبير، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، الرباط، 1404 / 1984.
- كيلي جاك.
- السفارات والبعثات المغربية إلى فرنسا، مقال بمجلة تطوان، العدد السادس، السنة 1961. ص 155، 194.
- لعشاش بلقاسم
- بيوتات مدينة سلا، مخطوط الخزانة الصبيحة بسلا، رقم 1344.
- مجهول
- تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، نشره جورة كولان بالرباط 1934.
- مجهول
- رسائل سعدية، مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 270 ك
- مجهول
- نبذة العصر، في أخبار ملوك بني نصر، مخطوط خ، ع بالرباط عدد 1177ك، ضمن مجموع، وقد طبعه بالعرائش سنة 1940 بتحقيق الفريد البستاني.
- مجهول
كناش في شؤون بحارة العدوتين، مصورة خ. ع. بالرباط عدد 1409 د.
- المدني احمد توفيق (ت 1985).
- انهيار بلاد الاندلس وموقف دول الاسلام واسطنبوا من ذلك، مقال بمجلة الاصالة الجزائرية. السنة الرابعة، العدد 27، شتنبر أكتوبر 1975، ص 176 - 188.
- حرب الثلاثمائة بين الجزائر واسبانيا، مطبعة البعث بالجزائر، دون تاريخ.
- مزين محمد
- فاس وباديتها من 1549 إلى 1637، الرباط 1986 جزآن
- المزي محمد
- نور القبس بين طبرية الأندلس، ضمن كتاب بحوث عن الأندلسيين في تونس، تونس 1983، ص 7 - 36.

- مظهر علي
- محاكم التفتيش باسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها، مطبعة انصار السنة المحمدية، القاهرة، 1947.
- المكناسي أحمد
- معجم الكلمات الاسبانية المقتبسة من العربية، تطوان 1963.
- المنتوري محمد ت 834 / 1431).
- برنامج المنتوري، مخطوط خ . ح بالرباط عدد 12 667
- المنوني محمد
- تاريخ الموسيقى الأندلسية بالمغرب، مقال بمجلة البحث العلمي، عدد مثنى 14 و 15، السنة 6، يناير / دجنبر 1969، ص 147 - 177.
- ظاهرة تعريبية في المغرب السعدي، مقال بمجلة دعوة الحق، العدد 3. السنة 10، يناير 1967، ص 74 - 91.
- ملامح من تطور المغرب العربي في بداية العصور الحديثة، ضمن أعمال المؤتمر الأول التاريخ المغرب العربي وحضارته، تونس، 1976، 2، 75 - 113.
- مناقشة أصول الديانات في المغرب الوسيط والحديث، مقال بمجلة البحث العلمي، السنة 5، العدد 13، ص 23 - 32.
- المقري أحمد (ت، 1041 / 31 - 1632).
- ازهار الرياض في أخبار عياض، الرباط 1978 / 1979، 5 أجزاء.
- نفح الطيب، من الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، نشره احسان عباس، بيروت 1968، 8 أجزاء.
- مؤنس حسين
- اسنى المتاجر في بيان احكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر (تحقيق) مقال بمجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، المجلد 5، 1957، العددان 1 - 1، ص 129 - 191.
- ميارة محمد (ت 1072 / 662)
- نصيحة المغترين، وكفاية المضطرين، في التفريق بين المسلمين مخطوط خ . ح بالرباط عدد 4248، ضمن مجموع، ورقة 71 و - 123 ظ.
- الناصري أحمد (1315 / 1897)
- الاستقصا، الأخبار دول المغرب الأقصى، الطبعة الثانية، الدار البيضاء 1954 - 1956، 9 أجزاء.

- الصباغ ليلى
- ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ والدولة العثمانية، مقال بمجلة الاصالة الجزائرية، السنة 4 العدد 27، شتنبر / أكتوبر 1975، ص 116 - 175.
- الضعيف محمد بن عبد السلام (ت. بعد 1239 / 1817).
- تاريخ الضعيف، تحقيق أحمد العماري، الرباط 1986.
- العافية عبد القادر.
- الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون واحوازها خلال القرن العاشر الهجري، المحمدية، 1982.
- عباس احسان
- هل كان الشعر في الأندلس سببا في انحلال اخلاقها ثم سقوطها أم كان لهما مجرد مرآة وانعكاس ؟ مقال بمجلة الاصالة الجزائرية، السنة 4 العدد 27، شتنبر / أكتوبر 1975، ص 189 - 208.
- عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحمان
- المهاجرون الأندلسيون (الموريسكيون) في مصر من خلال وثائق محكمة الاسكندري الشرعية في العصر العثماني، مقال بمجلة الحياة الثقافية، تونس، العدد 31، السنة 1984، ص 143 - 149.
- العرائش أحمد بن يعزى (ت، بعد 1121 / 1709)
بيوتات مكناس (جمع)، مخطوط خ، ح بالرباط عدد 3207.
- العلوي سليمان السلطان (ت. 1238 / 1822).
- عناية أولي المجلد، بذكر آل الفاسي ابن الجد، المطبعة الجديدة بفاس، 1347 / 1928.
- عليوات عبد الكبير (ت. بعد 1099 / 1987).
- سراج الغيوب، في أعمال القلوب، مخطوط خ، ع. بالرباط عدد 455 ك.
- عنان محمد عبد الله
- لماذا تهمل الجامعات تاريخ الأندلس؟ مقال بمجلة دعوة الحق، العدد 2، السنة 23 أبريل 1982. ص 39 - 41.
- «موقف القسطنطينية وباقي العالم الاسلامي من سقوط الأندلس وآخر مسلميها وأمام الغزو الاوربي للعالم الاسلامي عموما» مقال بمجلة الأصالة الجزائرية، السنة 4 العدد 27، شتنبر / أكتوبر 1975، ص 101 - 115.

- نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المنتصرين، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1966.
- عيسى محمد عبد الحميد
-تاريخ التعليم في الأندلس، القاهرة 1982.
- الغزال أحمد بن المهدي (ت، 1191 / 77 - 1778).
- نتيجة الاجتهاد، في المهادنة والجهاد، تحقيق اسماعيل العربي، بيروت 1980.
- الغساني محمد بن عبد الوهاب (ت 119 / 1707 - 1708).
- رحلة الوزير، في افتكاك الاسير، مخطوط خ، ح بالرباط عدد 329. 11 وقد طبعت بالعرائش سنة 1940 بتحقيق الفريد البستاني.
- الفاسي محمد المهدي (ت 1109 هـ 1698)
- ممتع الاسماع، في ذكر الجزولي والتباع، المطبعة الحجرية بفاس، 1313 / 1896.
- الفاسي محمد العربي (ت. 1052 / 1642).
- مرآة المحاسن، من أخبار الشيخ أبي المحاسنالمطبعة الحجرية بفاس 1334 / 1906.
- الفاسي عبد الرحمان (ت 1096 / 1985).
- بيوتات فاس الصغرى، مخطوط خ. ع. بالرباط عدد 1394، ضمن مجموع، وهناك طبعة حجرية للمخطوط في 13 صفحة دون تاريخ.
- ابتهاج القلوب، بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب، مخطوط خ. ع. بالرباط رقم 326 ك
- الاعلام بمن غبر، من أهل القرن الحادي عشر، مخطوطتان مبتورتان
(1) - عام 1012 - 1027 في خ. ع بالرباط رقم 1080 ك
(2) - عام 1050 - 1100 في خ. ح . بالرباط رقم 3637.
- فرحات يوسف شكري
- غرناطة في ظل بني الأحمر، بيروت 1982.
- الفكيكي حسن
- قلعية ومشكل الوجود الاسباني بمليلية (1947 - 1859)
جزآن، رسالة جامعية غير منشورة، محفوظة بمكتبة كلية الآداب بالرباط 1984.
- الفشتالي عبد العزيز (ت 1031 / 1622)
- مناهل الصفا، في أخبار الملوك الشرفا، تحقيق عبد كنون، تطوات 1964.
- فورنال جاكلين

- الصيدلية الموريسكية وممارسة الطب لدى المجموعة الموريسكية بمنطقة أرجون (1540 - 1620)، مقال بالمجلة التاريخية المغربية، تونس، العددان 15 / 16، السنة 6، يوليوز 1979، ص 50 - 60.
- القادري محمد (ت 1187 / 1773).
- التقاط الدرر، ومستفاد المواعظ والعبر، من أخبار أعيان المائة الحدية والثانية عشر. تحقيق هاشم العلوي القاسمي، بيروت 1983.
- نشر المثاني، لأهل القرن الحادي عشر والثاني، تحقيق محمد حجي، وأحمد التوفيق، الرباط 1977 - 1982. جزآن
- القلصادي على (ت 981هـ / 1486)
- رحلة القلصادي
دراسة وتحقيق محمد أبو الأجفان،تونس، 1978.
القصار محمد (ت 1012 / 1603)
- فهرس القصار
مخطوط، خ. ح، بالرباط رقم 3730
- قشتيلو محمد
- محنة المورسكوس باسبانيا، تطوان 1980.
- السائح الحسن
- « قصة الجالية الاندلسية بالمغري» مقال بمجلة دعوة الحق، صدر في القسمين :
القسم الأول : صدر في العدد 3 السنة 21، 1980، ص 74 - 81.
القسم الثاني : صدر في العدد 4، ص 51 - 55.
- السائح محمد بن عبد السلام (ت 1367 / 1948).
- سوق المهر، إلى قافية ابن عمرو المطبعة الاقتصادية بالرباط، 1357 - 1938.
- سالم السيد عبد العزيز
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس بيروت، 1981.
- السعدي عبد الرحمان (ت بعد 1066 / 1655).
- تاريخ السوادن المطبعة الأمريكية والشرقية بباريس، 1964.
- السكتاني عيسى (ت 1062 / 1652)
أجوبة السكتاني مخطوط خ. ع. بالرباط رقم 1016 ج.
- السعيدوني ناصر الدين
- أوقاف الأندلس بالجزائر

بحث مقدم إلى المؤتمر العالمي الثاني للدرسات المورسكية بتونس، 1983، 20 صفحة
- الجالية الأندلسية بالجزائر، مقال بمجلة أوراق، مدريد، العدد الرابع، 1981، ص 111 - 124.
السويسي عبد الله
- تاريخ رباط الفتح، الرباط 1399 - 1979
- سيكودي لوثينا (لويس)
- وثائق عربية غرناطية (تحقيق)
منشورات معهد الدراسات الاسلامية بمدريد 1380 - 1961.
- الشادلي عبد اللطيف
- الحركة العياشية، الدار البيضاء 1982.
- الهبطي عبد الله (ت 963 / 1556)
- الألفية السنية، في تنبيه والخاصة على ما أوقعوه من التغير في الملة الإسلامية، مخطوط خ. ح بالرباط عدد 3607.
- واينرجيروم
- «المغرب وقراصنته في القرن السابع عشر» ترجمه عن الانجليزية طارق العسكري عبد الهادي التازي، مقال بمجلة البحث العلمي، العددان، 29 / 30، السنة 16، 1979، ص 13 - 36.
- الوزان الحسن بن محمد (ت بعد 957 / 1550).
- وصف افريقيا
ترجمه عن الفرنسية محمد حجي، ومحمد الأخضر، الرباط 1980 - 1982، جزآن
- الونشريسي أحمد (914 / 1508)
- المعيار المعرب، والجامع المغرب. عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، بيروت 1981. 12 جزءاً.

ب - باللغة الأجنبية :

- Abbou (I.D)
  - *Musulmans- andalous et judéo-espagnols*, Casablanca, 1953.
- Actes du II symposium international du C.I.E.M. sur : Religion, Identité et sources documentaires sur les morisques Andalous, 2 tomes, Tunis, 1984.
- *Actes de la Première table ronde du C.I.E.M sur : la litérature algamiado-morisque*; Tunis, 1986.
- Arié (R.)
  - «Les Etudes sur les morisques en Espagne à la lumière ds travaux récents» in *Revue des Etudes Islamiques*, 1967, pp. 225 - 229.
  - *L'Espagne musulmane au temps des nasrides*, Paris, 1973.
- Aznar Cardona (P.)
  - *Expulsion Justificada de los moriscos espanolas y suma de excelencias christianas de nuestro rey don felipe al Catolico tercero desde nombre*, Huesca, 1612, 2 parties.
- Bauer landauer, lgnacio
  - *Biblioteca Hispano- Marroqui.*
  Pepeles de mi archivo, Relacion de Africa, Madrid D. d. 6 vols.
- Bennasser (B.)
  - *L'inquisition Espagnole XVe- XIX siècle*, Paris 1979.
  - *un siècle d'or Espagnol, Paris*, 1982.
  - *L'homme espagnol, Attitudes et mentalités du XVIe au XIX siècle*, Paris 1975.
- Bennassar (B.)
  - Amalric (J.P.), Perez (J.) et Temime (E.)
  - *Lexique Historique de l'Espagne*, Paris, 1976.
- Benslimane Hassar (J.)
  - *Salé, Etude Architecturale de trois maisons traditionnelles*; Rabat, 1979.
- Brahim (D.)
  - Quelques jugements sur les maures andalous dans les rigences turques au XVIIe siècle, in *Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid, 1973, pp 135- 149.

- Braudel (F.)
  - Conflits et refus de civilisation, Espagnols et morisques au XVI siècle in *Annales E.S.C. 1947, pp. 397-410.*
  - *Les Espagnols et l'Afrique du Nord de 1492 à 1577, in Revue Africaine*; 1928, pp 184-233 et 351- 428.
  - *La Méditerranée et le monde méditerranéen*, 2 tomes, 4 édtion, Paris, 1979.
- Brown (K.)
  - An Urban View of moroccan History, Salé 1000 - 1800; in H.T. Vol XII. Fasc. unique, 1971, pp. 5- 106.
- Brunot, (L.)
  - *La mer dans les tradtions et industries indigènes de Rabat-Salé*, Paris 1921.
  - Aperçu historique sur la piraterie saletine, in *Bulletin de l'Enseignement public du Maroc*, n° 46-47, Février - Mars 1923.
  - *Notes lexicologiques sur le vocabulaire Maritime de Rabat- Salé*, Paris, 1920.
- Cabanelas Rodriguer (D).
  - Proyecto de Alianza entre los sultanes de Muruecos y Turquia contra Felipe II, in *M.E.A.H*, tome VI; 1957, pp. 57-75.
  - Cartas del Sultan de Murruecos Ahmed El- Mansur a Felipe II, in *Al Andalus*, XXIII, 1958, pp 19-47.
- Caillé (J.)
  - Ambassades et missions marocaines aux Pays-Bas à l'Epoque des sultans saadiens in H.T. Vol. IV, Fasc. 1-2, 1963, pp. 5-67.
  - *La ville de Rabat jusqu'au Protectorat*, Paris, 1949.
- Cantineau (J.)
  - Lettre du Moufti d'Oran aux musulmans d'Andalousie in *Journal asiatique* CCX. Janvier, Mars, 1927, pp. 1-17.
- Castries (H. de)
  - Le Maroc d'autrefois, les corsaires de Salé, in *Revue des deux mondes*, 15 Février, 1903, 41 p.
  - Sources inédites de l'Histoire du Maroc, 1ère série, Paris, 1905- 1953.
- Cardaillac (IL.)
  - Morisques et Chrétiens, *un Affrontement polémique (1492- 1640)*, Paris 1977.
  - Morisques en Provence, in *Etudes sur les morisques andalous en Tunisie*, Madrid, 1973, pp. 89- 103.
  - *Le Passage des morisques en languedoc*, thèse inédite, Montpellier, 1970.

- Cardaillac (L.) et Ravillard (M.)
  - Bibliographie de la Marginalité, *in Imprévue*, Montpellier, 1981, 30 p.
- Caro Boroja (J.)
  - *Les moriscos del reino de Granada*, Madrid 1976.
- Carrasco (R.) et Gonzales (A.)
  - Le Problème morisque dans les îles de la Méditerranée in *R.H.M*, Tunis, n° 35-36. Décembre 1984, pp. 39-70.
- Chack (P.)
  - Du Ghaffault et les Corsaires du Maroc, in *Revue des deux mondes*, 1er Mars 1931.
- Chaunu (P.)
  - Minorités et conjonctures l'expulsion des morisques en 1609, IN *Revue Historique*, 1961, CCXXV, N°1, pp; 81-98.
- Chenier (L. de)
  - *Recherches hisoriques sur les maures et histoires de l'Empire de Maroc*, tome II; Paris, 1787.
- Coindreau (R.)
  - *Les Corsaires de Salé*, Paris 1948 ;
  - *Coleccion de documents inéditos para la Historia*. Madrid, 1842, 19 895, vols , XXXI, XXXV , XLIII, LI, LXXIX, XCII, XCV, CVI, CXII.
- Colin (G.)
  - Projet de Traité entre les morisques de la Casba de Rabat et le roi d'Espagne en 1631, In H.T. XLII, 1955, pp. 17-25.
  - *Coloquio internacional sobre la inquisicion espanola*, Cuenca, 1978.
- Cour (A.)
  - *L'Etablissement des dynasties des chérifs au Maroc (1509- 1830)*, Paris 1904.
- Cousté (J.)
  - *Les grandes familles indigènes de Salé*, Rabat 1931.
- Dan (P.)
  Histoire de la Berbérie et ses corsaires, Paris 1649.
- Dedieu (J.P)
  - Les inquisiteurs de Tolède et la visite du district. La sédentarisation d'un Tribunal 1550- 1630, In *M.C.V.* 1977, N° 13, pp. 235 - 256.
  - Les causes de foi de l'Inquisition de Tolède, in *M.C.V.* N° 14; 1978, pp. 143- 171.
- Descola (J.)
  - *Histoire de l'Espagne*, Paris 1979.

- Dominguez Ortiz (A.)
  - Una Republica Andaluza En El Norte de Africa, in *Histoire 16*, Madrid 1ère année, N° 4 Août 1976, pp. 57 - 62.
  - Felipe IV y los moriscos, in *M.E.A.H.* Granada, 1959, VIII; Fasc. 1, pp. 55- 65.
- Dominguez Ortiz (A.) et Vincent (B.)
  - *Historia de los moriscos, vida y tragedia de una minoria*, Madrid, 1978.
- Dufourcq (CH. E)
  - *l'Espagne catalane et le Maghreb au XIIIe et XIV siècle*, Paris, 1966.
- Epalza (M. de)
  - Moriscos et Andalous en tunisie au XVIIe siècle, in *Etudes sur les moriscos andalous, en Tunisie, Madrid*, 1973, pp. 150-186.
  - Recherches récentes sur les émigrations des moriscos en Tunisie in *Cahiers de Tunisie*, tunis, XVIII, N° 69 -70, pp. 139- 147.
  - Nouveaux documents sur les andalous en Tunisie au début du XVIIe siècle in *R.H.M.* tunis, 17-18, 1980, pp. 97- 108.
  - *Bibliographie Algérienne concernant l'Histoire De l'Espagne*, Tunis, 1976.
- Epalza (M. de), Ben Ali (M,) et Gafsi (A.)
  - *Bibliographie tunisienne concernant l'histoire de l'Espagne*, tunis, 1975.
- Fernandez Nieva, (J.)
  - El enfrentamiento entre Moriscos y cristianos viejos. El caso de Hornachos en Extremadura, in *les morisques et leur temps*, Paris, 1983, pp. 269- 295.
  - *La Inquisicion y los moriscos Extremenos* (1585 - 1610), Badajoz, 1979.
  - Un pleito ente El lic cuenca y los moriscos de Hornachos en Extremadura, 1607- 1609, in *Actes du II symposieum International du C.I.E.M*, Juin 1984, 2 : 213- 236.
- Fournel - Guérin (J.)
  - Les morisques aragonais et l'inquisition de Saragosse (1540- 1620). Université Paul Valéry, Montpellier III, 1980.
- Gacia Arenal (M)
  - Los Andalusies en El Ejércitos Saâdi : un intento de Golpe de Estado contre Ahmed Al- Mansur, in la revistu Al- Quantara, Vol V, Fasc 1 y 2, Madrid 1984, pp. 169- 202
  - *Los moriscos*, Madrid, 1975.
  - Los moriscos del campo de caltrava después de 1610, Segun Algunos Procesos inquissitoriales, in *Cahiers de Tunisie*, Tunis, 1978, pp. 173 - 196.

- Garcia Carcel (R.)
  - *Origenes de la inquisicion Espanola, El Tribunal De Valencia* (1478-1538) Barcelona, 1976.
  - Herejia sociedad En El siglo XVI. La Inquisicion en Valencia (1530 - 1609), Baccelona, 1980.
- Garcia Figueras (T.) et Rodriguez Joulia Saint-Cyr (C.)
  - *Larache, Datos Para su historia el Siglo XVII*, Madrid. 1973.
- Gil Grimau (R.)
  - Documentacion sobre moriscos en relacion con Marruecos, in *Actes du II symposium international du C. I. E. M.* tunis, 1984, pp. 1 : 349 - 359.
  - Neccisidad de Unos Estudios sobre los moriscos en Marruecos, in *Etudes sur les morisques Andalous*, Fasc. 3 Tunis, 1983, pp. 251- 256.
- Gozalbas Busto (G.)
  - Huellas Andalousies en El Vestir marroqui, in *Guadernos de la Biblioteca* espanola Tetuan, Diciembre, 1977, num, 16, pp. 67- 109.
  - *La Republica Andaluza de Rabat en el siglo XVII*. S.D.
  - Presencia de los moriscos en Tetuan y Xauen, in *Actes du II symposium Interrnational du C.I.E.M.* tunis 1984, 1: 361 - 374.
- Guadalajaru y javier, Marcos
  - *Prodicion y diestierro de los moriscos de Gastilla hosta el valle de Ricote. Con las disensiones de los hermanos xarifes y Presa en Berberia de fuerça y puerto de alarache*, Pamplona, 1614.
- Haeda (Fray. D.)
  - *Topografia en Historia general de Argel*, valladolid, 1612, publié par la sociedad de Bibliofilos Espana, Madrid 1928.
- Harvey (L.P.)
  - The moriscos Who was Muley Zaidun's spanish interpreter : Ahmad Ben Qasim Ibn Al Faqih Qasim al- shaihah al hajari Al Andalusi, in *M.E.A.H.* VIII, 1959, pp 67- 97.
- Halperin Donghi (T.)
  - Les morisques de Royaume de Valence, Recouvrement et civilisation, in *Annales E.S.C.* 1956, N° 2, pp. 154- 182.
- Hermosilla (y.) - Cardaillac
  - Esclavage et Magie chez les nouveaux chrétiens en Espagne au XVI e siècle, in *R.H.M.* N° 35- 36, Décembre, Tunis, 1984, pp. 115 - 136.
- Hurtado de Mendoza (D).
  - *Guerra de Granada hecha por el rey de Espana don Felipe II contra los moriscos de aquel reino sus rebeldes*, Madrid, 1946.

- Kamen (H.)
  - *Histoire de l'Inquisition espagnole*, Paris 1966.
- Lapeyre (H.)
  - *Géographie de L'Espagne Morisque*, Paris 1959.
- Lathan (J.D.)
  - *Les Andalous en Afrique du Nord* in E.I leyden, 1960, 1 : J 11-512.
- Label (R.)
  - Le Maroc dans les relations des voyageurs anglais au XVIIe, XVIIe et XVII siècle, in H. 1929, T. IX, 4 tr. pp. 269-294.
- Lopez Baralt (L.)
  - Chronique de la destruction d'un monde.
  La litérature Aljamiado-morisque. in *R. H. M.* Tunis N° 17- 18 janvier 1980, pp. 43-77.
- Louipias (B.)
  - La Pratique secrète de l'islam dans les évêchés de Cuenca et Sigüenza aux XVIe et XVIIe siècles, in *H.T.* vol VI, 1965, pp. 115- 131.
- Lourido (R.)
  - Transformacion de la pirateria marroqui en guerra del Corso por el Sultan Sidi Muhamed b. Abbdallah entre 1747 y 1768, in H.T. 1969, Vol Fasc, 1-2 pp. 39- 69.
  - Marmol Carvajal (Luis de)
  - *L'Afrique*, traduction P. d'ablancourt, tome II, Paris 1667.
  - *Historia de rebelion y Gastigo de los moriscos del reino de Granada*, Madrid, 1946.
- Mauran (D.)
  - Une République de Pirates, in *Arch. ber.* vol II. 1977, pp. 36 - 43.
  - Mission scientifique du Maroc :
  - *Ville et tribus du Maroc*, tome I; *Rabat et sa région*, Paris 1918.
- Mondaü (J.)
  - *Les Etats Barbaresques*, Collection (Que sais-je ?) N° 1097, Paris, 1973.
  - *Morisques et leurs temps, Paris, 1983*.
- *Morgan* (J.)
  - *Histoire des Etats Barbaresques qui exercent la piraterie*, 2 vol, Paris 1757.
- Mouette (G.)
  Relation de Captivité dans les royaumes de Fez et du Maroc, Paris 1683.
  - *Histoire des conquêtes de Moulay Archy*, Paris 1683.

- Penella Roma (J.)
  - *Los moriscos espanoles Emigrados Al norte de Africa*, thèse inédite, Barcelone, 1971.
- Penz (CH)
  - *Les captifs Français du Maroc au XVIIe siècle* (1577-1699), Rabat, 1944.
- Pelorsan (J. M.)
  - Recherches sur la comédia los moriscos de Hornachos, in *Bulletin* hispanique (B.H).
  LXXIV, N° 1-2, Janvier - Juin 1972, pp. 5- 42.
- Péretié (A.)
  - Le Raïs El- Khadir Ghaïlan, in *Arch. Mar*, Vol XVII, Paris 1912.
- Pianel (G.)
  - Le Maroc à la recherche d'une conquête : l'Espagne ou les indes ? in *H.* 1953, t, xL, 3-4 tr; pp. 511 - 521.
- Pieri (H.)
  - L'accueil par les tunisiens aux morisques expulsés d'Espagne : un témoignage morisque, in *Etudes sur les moriscos andalous en Tunisie*, Madrid, 1973, pp, 128- 134.
-Ponsot (P.)
  - Les morisques, la culture irriguée du blé, et le problème de la décadence de l'agriculture au XVIIe siècle, in *M.C.V.* tome VII, 1971 : pp. 237-262.
- Posoc Mon (C.)
  Episodios del Exodo morisco allende el Estrecho de Gibratar, in *Cuadernos de la Biblioteca espanola de Tetuan*, Tetuan Junio Diciembre, 1978, N° 17 - 18, pp. 191- 214.
- Playfair and Brown (R.)
  - *Bibliography of empire of Morocco From the earlist times to the end of 1891*, London.
- Premare (A.L. de)
  - *Maghreb et Andalousie au XIVe siècle*, Lyon (France), 1981.
- Ravillard (M.)
  - *Bibliographie commentée des morisques*, Alger Université, 1979.
- Razouk (M.)
  - Evolution de l'Etablissement des minorités Andalouses au Maroc, in *Actes du II symposium International du C.I.E.M*, Tunis 1984, 2 : 139 - 154.

- Regla (J.)
  - *Estudios sobre los moriscos*, Barcelona 1974.
- Ricard (R.) et Caille (J.)
  - Salé- le vieux et salé- le- neuf, in H. 1947. T. XXXIV, 3° 4 - tr.pp. 441 - 442.
- Rodriquez Joulia Saint-Cyr (C.)
  - *Ensayo de Bibliografie menor hispano-musulmanu*, Madrid, 1970.
- Sabbagh; Leila
  - La religion des Morisques entre deux Fatwas, in *les morisques et leurs temps*, Paris 1983. pp. 45 - 56.
- Sanchez Pérez (A.)
  - *Los moriscos de Hornachos corsarios de salé*, Badajoz 1964.
- Sarneli cerqua (C.)
  - La fuga in Marocco di As-Sihab HMAD AL Hagari Al-Andalusi, in *Studi Maghrebini* I, Nopoli 1999, pp. 215- 229.
  - Lo scrittore ispano marocchino Al- Hagari E il suo Kitab Nasir AD-din, Estratto dagli atti de III congresso distudi Arabie Islamici (Ravello 1966), Napoli, 1967, pp. 595- 614.
  - Al Hagari in Andalusiu, in *Studi Magrebini* III, Nopoli 1968, pp. 1-43.
- Sierra (A.)
  - La Mezquita de Rif Andalus, in *C.B.T.*, Junio désembre 1978 N° 17-18, pp. 155- 163.
- Véronne (CH. de la)
  - Relations entre le Maroc et la Turquie dans la seconde moitié du XIVe siècle et le début du XVIIe siècle (1554- 1616) in *Revue de l'occident musulman et la méditerranée*, N° 15-16 pp. 391- 399 Aix, 1973.
- Vincent (B)
  - L'espulsion des morisques du royaume de grenade et leur répartition en Castille (1570 - 1571) in *M.C.V.* tome VI, 1970, pp. 210- 246.
  - L'albaïcin de Grenade au XVe siècle in *M.C. V.* tome VII, 1971, pp. 187 - 222.
  - Combien de morisques ont été expulsés du royaume de grenade in *M.C.V.* tome VII; 1971, pp. 397 - 399.
  - Les morisques d'Extrémadure au XVIe siècle, in *Annales de démographie historiques*, Paris, 1974, pp. 431- 448.
  - Les bandits morisques en Andalousie au XVIe siècle, in *Revue d'histoire moderne et contemporaine*, T. XXI, Juillet - Septembre, 1974, pp. 389-400.

ثانيا فهرس الاعلام

- حرف الألف -

- حرف الباء -

- حرف التاء -

- حرف الجيم -

- حرف الحاء -

حرف الخاء

- حرف الدال -

- حرف الراء -

- حرف الزاي -

- حرف الكاف -

- حرف اللام -

- حرف الطاء -

- حرف الميم -

- حرف النون -

- حرف الصاد-

- حرف العين -

- حرف الغين -

- حرف الفاء -

- حرف القاف -

- حرف السين -

- حرف الشين -

- حرف الهاء -

- حرف الواو -

-حرف الياء -

ثالثا: فهرس الطوائف والجماعات*

*سوف نعرض عن ذكر الكلمات التي تتكرر باستمرار في هذه الدراسة مثل: المورسكيون الأندلسيون الاسبان، الأتراك...

رابعا : فهرس الكتب

خامسا : فهرس الأماكن

*سوف نعرض هنا أيضا عن ذكر الكلمات التي تتكرر باستمرار في هذه الدراسة مثل : الأندلس، غرناطة، المغرب، فاس، مراكش...

الفهرس

الباب الثاني

الهجرة الأندلسية إلى المغرب

الفصل الأول: الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد الوطاسي

الفصل الثاني: الهجرة الأندلسية إلى المغرب في العهد السعدي الأول

الباب الثالث

الحضارة الأندلسية - المغربية

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2014
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور، الدار البيضاء
الهاتف: 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفاكس: 20 29 25 0522 / 80 00 44 0522
مكتب التصفيف الفني: 39. زنقة علي بن أبي طالب - الدار البيضاء.
الهاتف: 54 / 53 67 29 0522
الفاكس: 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني: E-Mail : africorient@yahoo.fr